الآخر في الثقافة العربية

صورة شعوب الشرق الأقصى
في الثقافة العربية الوسيطة

(الصين والهند وجيرانهما)

شمس الدين الكيلاني

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٨

مدخل

حظي الشرق الأقصى بنظرة إيجابية من العرب، وبموقف يخلو من التعالي والعداء، فإذا استثنينا ما حملوه من صور غائمة عن أطراف هذا الشرق المحاذية للعالم غير المعمور من الأرض، في الشمال بشعوبه الغارقة في المجهول، وفي الجنوب في أعماق المحيط وجزره الغائمة، فقد تراءت الهند والصين للعرب، على أنهما في صدارة هذا الشرق وواجهته، والمملكتان الراسختان الموحدتان والمستقرتان منذ زمن بعيد، وهو ما أهلهما لتصبحا، من وجهة نظرهم، من أهم مراكز العمران والحضارة في العالم، فلم يبخلوا عليهما بشتى صنوف الإطراء، إذ ميّزوا ما بين هذين المركزين الحضاريين وجيرانهما في الشمال، أو في عرض المحيط الهندي في الجنوب.

نظروا إلى «الشرق الأقصى» من الزاوية الجغرافية والحضارية، كمنطقة تحتل الزاوية الشرقية من العالم المعمور تحيطها البحار من الشرق والجنوب، والبراري القفراء، التي تسكنها شعوب مجهولة في الشمال، ويحدّها من الغرب دار الإسلام، وعلى هذا تبدو مقسمة إلى ثلاث مناطق كبرى، تحتل الصين والهند منطقة القلب الجغرافي والحضاري، وشعوب يأجوج ومأجوج، والترك في المنطقة الشمالية، أما الثالثة فتحتلها عوالم المحيط الهندي وجزره المتناثرة حتى نهايات الربع المعمور من الأرض، فكلٌ من الصين والهند وما يحيطهما من عوالم، باستثناء الحدود مع دار الإسلام، يلفّه بعض الغموض، الناجم أكثر الأحيان، عن حدود «المعرفة العربية» بتلك العوالم، وهو ما أفسح المجال لتحليق المخيلة – لملء هذا الفراغ المعرفي، أو لاقتباس الأحكام الجاهزة ممن سبقهم، ولا سيما التصورات البطليموسية، وفكرة الأقاليم الفلكية ومُتخيّلها عن حدود العالم المعمور، وتأثيرات تدرج الحرارة والبرودة تبعاً لبعد البلدان وقربها من خط الاستواء.

وعلى هذا الأساس، فإننا سنتعرف على المُتخيل العربي لأناس الشرق الأقصى استناداً على الحدود الذهنية والتخيلية والتقسيمات الجغرو – حضارية الثلاثة التي أخضعوا (الشرق الأقصى) لها، فهناك المسرح الحضاري الصيني والهندي المترامي الأطراف في قلب هذا الشرق، وفي نقطة ارتكازه الكبرى، ويتبع ذلك عالم المحيط الهندي وجزره المترامية الأطراف، الممتد جنوب الهند والصين كبرزخ يفصل بين الهند والصين والعالم المغمور، وهناك شعوب الشمال جيران البلدين الكبيرين، والحد الفاصل ما بينهما وبين الأرض اليباب للعالم المغمور.

نتجه في بحثنا هذا إلى جلاء الصورة التي كوّنها العرب عن حضارات الشرق الأقصى في الهند والصين وجيرانهما في البحر والبر، وتمثلوها في ثقافتهم في العصر الوسيط، بما تتضمنه من معارف عن حال تلك الحضارات، ومن أنماط السلوك الثقافي لسكانها، وما اختزنته من أحكام ومعايير ومتخيلات عنها، ومن تحيّزات تعود إلى طبيعة العلاقات التي ربطت العرب بأصحاب تلك الحضارات، فامتزجت في تلك (الصورة) الحدود التي وصلت إليها المعرفة العربية، بالمواقف الوجدانية، بمعايير أحكامهم على الآخر ،و بمروحة واسعة من الرموز والدلالات المستندة إلى مرجعيات دينية وسياسية ومعرفية، والتي تشكل بمجموعها القبة الرمزية للثقافة العربية في العصر الوسيط، و الإطار المرجعي، للمدونات العربية التي تناولت حضارات الشرق الأقصى.

وسيكون سبيلنا إلى هذا البحث، هو الحفر في أروقة الثقافة العربية التي تناولتها بطرق مختلفة، على اختلاف تصانيفها، ومدوناتها، التي بدأت انطلاقتها الكبرى، منذ بدايات عصر التدوين، في القرن الثاني

الهجري، الثامن ميلادي، مستفيدة من احتكاك العرب المبكر بها، في البحر والبر، عن طريق التجارة، والترحال، ومناوشات الحدود، والاقتباسات الثقافية المتبادلة، فدونوا معارفهم وتخيلاتهم عن الصين والهند، وجيرانهما في الشمال وجزر المحيط الهندي في الجنوب، في مصنفاتهم الأدبية، والفلسفية، والتاريخية، والجغرافية، وفي أدب الرحلات الذي شكل النافذة الأكثر أهمية في التعرف على تلك البلاد.فعلى الرغم من مساهمات التأليف العربي المتنوعة في تلك المعرفة ولا سيما المعرفة التاريخية، فقد احتل أدب الرحلة، والتأليف الجغرافي دوراً مركزياً في إنتاج الصورة العربية عن الهند والصين وجيرانهما، وشكّلا مرآة عكست موقف الثقافة العربية تجاه العالم برمته، وأظهرت حدود معارف العرب وتخيلاتهم عنه.

ولقد أعطتنا الجغرافية الفلكية الرياضية المتأثرة ببطليموس، في هذا السياق، الصورة الأكثر نمطية وتصلباً ومحافظة عن الآخر المحيط بـ «دار الإسلام» والبعيد عنها، وشكلت عائقآ معرفيآ، لم تتحرر الجغرافية العربية من أحكامه النمطية، إلاّ في فترات متقطعة من تاريخ تأليفها، وهو ما تجلى بوضوح مع أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية، في القرن العاشر الميلادي مع الأصطخري (٣٤٠-٩٥١م) وابن حوقل (٣٦٧-٩٧٧م)، والمقدسي.(٣٨٧-٩٩٧م)، والمسعودي (٣٤٦-٩٥٥م) الذين جمعوا بين الترحال والعلم الجغرافي، أما الرحلة، فقد شكلت، على الدوام، اللحظة الأكثر انفتاحاً وانطلاقاً، وصدقية في المعرفة العربية عن الآخر، بما فيه شعوب الشرق الأقصى، والأكثر خبرة وتحرراً من الأحكام النمطية، أو المتحيزة، لأنها اتخذت من التجربة والمشاهدة المباشرة، أساساً لتدوينها ووصفها، فكان الرحالة العربي، الذي اجتاز الآفاق، بمثابة اثنوغرافي أصيل، اختزن في جوانب وصفه إرهاصات الأنثربولوجي الحديث، وهو ما ساعده على اختراق الصورة الثابتة النمطية التي ورثها الجغرافي العربي الفلكي عن بطليموس، وجعله أكثر اقتراباً من واقع الحياة الحضارية للشعوب.

ويمكن القول إن الكثير من الباحثين الغربيين، اعترفوا بتفوق المعارف العربية، بحضارات العالم الوسيط، على مثيلاتها في البلاد الأخرى في الفترة نفسها، إذ استطاع العرب المسلمون التعرّف على ثقافة الفرس والهند والصين، فضلاً عن علوم اليونان، بينما لم تتعرف أوروبا على تلك الثقافات حتى عصر النهضة، كذلك، فإنهم تعرفوا على خبرة الحكم والإدارة والتراث لدى بيزنطة، في وقت كانت فيه أوروبا، كما يعترف برنارد لويس، «معزولة بين المياه المتجمدة شمالاً، ومياه المحيط غرباً، والإسلام جنوباً والبراري شرقاً، أما الإسلام فكان على اتصال دائم مع الحضارات المزدهرة في الصين والهند، في ساعات السلم والحرب».[١] ولاحظ كراتشكوفسكي الاتساع الهائل لمعلومات العرب المسلمين عن العالم، مقارنة بما عرفه أبناء الأمم الأخرى المعاصرين لهم، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى الشمال، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا، كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات، وساحل أفريقيا الشرقي إلى قرب مدار الجدي، وتركوا وصفاً دقيقاً لجميع النقاط المأهولة، والمناطق الزراعية، والصحارى وتبينوا انتشار النباتات المزروعة، وأماكن وجود المعادن»[٢]

راكم العرب معارفهم عن شعوب الشرق الأقصى،و أغنوا تصوراتهم عنها، وذلك بالتعرف المباشر عليها، عن طريق الاتجار معها، والترحال إليها، والسكن بين ظهرانيها بواسطة الهجرات السكانية والاستيطان، ثم دوّنوا معارفهم تلك في شتى مجالات التأليف، وفي مقدمتها: الرحلات، وكتب الجغرافية، والتأليف التأريخي، فضلاً عن المؤلفات الأدبية، وما تخللها من انطباعات وآراء، أيضاً كتب «العجائب والغرائب»، والمعاجم، والمدونات

الموسوعية التي اشتهرت في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين، فقدّم هذا التأليف بمجمله صورة عامة ثرية عن تلك الشعوب، سنحاول مقاربتها، والتعرف عليها، في إطار دراستنا الشاملة عن «الآخر في الثقافة العربية الإسلامية في العصر الوسيط» أو صورة العالم لدى العرب – المسلمين في العصر الوسيط، والتي بدأناها في كتابنا الأول الصادر عن وزارة الثقافة بدمشق عام ٢٠٠٤، بعنوان «صورة أوربا عند العرب في العصر الوسيط»، وكتابنا الثاني الذي سيصدر عن الوزارة نفسها، بعنوان «صورة الشعوب السوداء في الثقافة العربية – في العصر الوسيط» فيأتي بحثنا هذا ليشكل الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، والذي ينصب على معرفة «صورة الصين والهند وما جاورهما في الثقافة العربية في العصر الوسيط».

ولقد استفاد العرب،إلى حدٍّ كبير، من المجال السياسي الثقافي الذي ارتقوا إليه في العصر الوسيط، حيث تمركزوا في منطقة تجارية عالمية كبرى، أهلهم لأن يتغذوا بالثقافات الأخرى، ويتجاذبوا معها الخبرات من موقع الاقتدار والثقة بالذات، حينما كانوا آنئذ في موقع البرزخ على مسرح التاريخ العالمي، والعامل الوسيط الفاعل في ترتيب العلاقة بين أطراف العالم في العصر الوسيط.

أما فيما يخصّ علاقة العرب – المسلمين في بلدان الشرق الأقصى، فكان هناك ما يشجع على استمرار وتوطيد تلك العلاقة، التي اختلفت في طبيعتها وملابساتها التاريخية، والسياسية والمذهبية، عن علاقتهم بأوروبا،فهذه الأخيرة اتسمت بالتشكك والريبة، ممتزجتين بالإعجاب،بينما لم ينظر العرب إلى شعوب الشرق الأقصى بهذه الدرجة من التشكك، فأينما ذهب رحالتهم وتجارهم، وجدوا الحدود مفتوحة أمامهم، ولعلهم التقوا هناك في ربوع الصين والهند، بجاليات عربية أو إسلامية منتشرة، على خلاف ما واجهوه من صدّ من بيزنطة ومن بلاد الإفرنج، اللتين لم تقبلا وجود جاليات عربية بين ظهرانيها، وهو ما يعطي انطباعاً قوياً على الفروق التي ميزت علاقاتهم بالشرق الأقصى عنها في أوروبا، وقد عبّر عنه ذلك أندريه ميكيل بقوله: «إذا كانت التجارة في ما وصلنا من قصص، قضية مرتبطة بالريح الشرقية خاصة، والرياح الجنوبية ثانوياً، فإن السياسة توجه أنظارنا بالأولوية بأشكال السفارة والتجسس أو الحرب، إلى المرافق الشمالية من تركستان إلى أوروبا المتوسطية». [٣]

وهكذا، فرضت الفروقات بين المجالين نفسها،فأضحت التجارة السلمية عنوان العلاقة مع الشرق الأقصى، بينما كانت الرحلة التجسسية هي عنوان علاقتهم بأوروبا، بقدر ما هيمن الطابع السلمي عليها قياساً على التوتر الذي طبع علاقتهم بأوروبا، ولعل من العوامل التي ساهمت في ذلك أيضاً،هي أن العرب – المسلمين عندما اتجهوا شرقاً انهارت أمامهم الإمبراطورية الفارسية، وعرفوا أن الهنود والصينيين يعبدون آلهة متعددة، فاستنتجوا أنهم مهيئون لدخول الإسلام، قياساً على ما وجدوه في أوروبا من تصلب وترسخ للمسيحية على حافة المتوسط، وراء قلاع بيزنطة وحاميتها[٤]

فتكوّن لدى الثقافة العربية الوسيطية مُتخيلاً عاماً عن حضارات الشرق الأقصى، وشعوبها، في سياق معرفتهم للعالم، زاخرة بالمعلومات والمعاني والأحكام، وقائمة على رؤية عامة للإنسان والعالم، تتضمن الاعتراف بالآخر الديني والحضاري والإنساني، وتستلهم إلى حد كبير روح التسامح والمساواة بين البشر، وحضاراتهم، وتعترف بالتعددية الدينية، والثقافية والحضارية، والتنوع القائم بينها، وهو ما تجلى بشكل واضح في مدوناتهم وتأليفهم عندما كانت الحضارة العربية الإسلامية في عزِّ تألقها، وعندما كان المفكر العربي واثقاً بالمستقبل وبقدرة حضارته على لعب دور لا غنى عنه في الحضارة الكونية في ذلك الزمان.

وعلى هذا فإننا قسمنا بحثنا إلى العديد من الفصول، استهليناه أولآ بفصل تمهيدي، يلقي الضوء على الصلات المباشرة التي عقدها العرب مع شعوب الشرق الأقصى، وأعقبناه بفصل ثان حاولنا فيه التعريف بالإطار المرجعي الذي حكم التأليف العربي عن هذه الشعوب وحكم تصوراتهم، وبالمصادر الكبرى لهذا التأليف.

أما الفصل الثالث، فحاول أن يقارب الصورة التي كونها العرب عن موقع تلك الشعوب في الجغرافية الكونية المتخيلة في ذلك الزمان، ومركزها ما بين البر والبحر ،والتعرّف على حدودها الشمالية البرية، والجنوبية البحرية، وأيضاً موقعها على الخريطة الكونية، و مقدار قربها وبعدها من خط الاستواء، ومن خطوط العرض والطول، وما يترتب على ذلك من أحكام، فضلاً عن ترتيبها من التقسيم السلالي، الذي رسمه بعض الجغرافيين العرب ومؤرخيهم للشعوب، ثم تحديد مكانتهم من تأثير مواقع النجوم، والأفلاك.

وكرّسنا الفصل الرابع للشعب الصيني في بيئته الثقافية والحضارية كما تراءى للفكر والمخيلة العربيين، وتجلت في مؤلفاتهم، وتصنيفاتهم في العصر الوسيط وبكل ما اختزنته من أحكام و معايير ثم يليه الفصل الخامس، وموضوعه الهند، وشعبها، وحضارته وثقافته، كما تجلت في التصنيف والرؤية العربية في العصر الوسيط. ونختم بحثنا بفصل سادس بعنوان «جيران الصين والهند في البر والبحر»، ويتفرع الى قسمين،الأول بـ «جيران البحر»، والثاني بـ «جيران البر».

الهوامش

١- برنارد لويس. الإسلام والغرب. دار الرشيد. مؤسسة الإيمان. بيروت ١٩٩٤. ص.١١

٢- اغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. القسم الأول. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. القاهرة. ١٩٥٧. ص٢٢

٣- اندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية الجزء الأول. القسم الأول. ترجمة ابراهيم خوري. وزارة الثقافة. دمشق ١٩٨٥. ص ٢١٠.

٤- برنارد لويس. السياسة والحرب. تراث الإسلام، قسم أول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السموري. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٧٨. ص ٢٥٨.

الفصل الأول

مسالك التعارف والاتصال بين العرب وحضارات الشرق الأقصى

(الصين والهند وجيرانهما)

كان العرب، منذ القدم، على معرفة، غير قليلة، بالهند وأحوالها، وبعض جزر المحيط الهندي، عن طريق تجارهم الذين نزلوا بغرب هذه البلاد، فاختلطوا بأهلها، ولقوا، في الغالب، حفاوة وعناية عند حكامها، ليعودوا إلى بلادهم في كل مرة، ليُدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود وجيرانهم، وبما لهم من غرائب وعادات ثقافية وحضارية.(١) والحال نفسه ينطبق على علاقاتهم مع الصين وجزر المحيط الهندي،حيث تعدّدت سبل الاتصال بين العرب وشعوب الشرق الأقصى واتخذت لها أشكالاً متنوعة، واتسعت وتعاظمت بطريقة نوعية في الحقبة الإسلامية، وانعكست تلك الاتصالات في النهاية على معرفتهم بأوضاع الشعوب هناك، وهو ما بدأ يظهر بصورة جلية، منذ القرن الثاني الهجري الثامن ميلادي.

اتصلوا بهم عن طريق التبادل التجاري حينما كانوا يلعبون دور السيد في التجارة مع الشرق الأقصى، واتصلوا عن طريق الجاليات العربية التي انتشرت على أطراف التجارة هذه، وعن طريق السفراء ورسائل الملوك، وعبر الاقتباسات الثقافية والترجمة، وأيضاً عن طريق الرحلات المتعاظمة في البر والبحر.

تجارة ومعارف

يعود احتكاك العرب، ومعرفتهم للهنود وللصينيين وجيرانهما إلى ما قبل الإسلام، فقد مارس العرب القاطنون الحافة الجنوبية من الجزيرة العربية (حضر موت، عدن، وجزيرة سوقطرة) دور الوسيط التجاري ما بين عالم المتوسط وبلاد الشرق، منذ القديم، حتى أثناء سيطرة اليونان وما بعدهم الرومان على مصر وبعض بلدان المشرق العربي، فكانوا يأتون من الشرق الأقصى بالأحجار الثمينة والتوابل مقابل بضائع مصرية، وحملوا البهارات والموسلين، أما من الهند مباشرة أو من التجار الهنود في موانئهم في خليج عدن، وبفضل هذه التجارة الرابحة، وتلك الاتصالات المستمرة شيّد العرب حضارة زاهية مركزها سبأ.(٢)

وقد قال الكاتب الروماني بلينوس الأكبر، الذي عاش في القرن الأول ميلادي: «إن العرب يعيشون مما تعطيهم البحار».(٣) وهو ما يؤكد على الأهمية الفائقة للنشاط البحري التجاري بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية أنئذ، ويتضح من دراسة (الدليل البحري الأرثيري Erghreem) الذي ألفه اليونان في أواسط القرن الأول الميلادي، أن اليونانيين قد عرفوا أن هناك أربع مناطق كبرى ذات موارد طبيعية، أو مصنعة، يمكن أن تتبادل فيما بينها السلع، اثنتان في الطرفين الأقصيين، الهند، والإمبراطورية الرومانية، ومنطقتان في الوسط، جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقية، وبقيت التجارة البحرية الهندية وقفاً على التجار والملاحين العرب.(٤)

وأكد اكتشاف عالم الآثار الأمريكي ريموند داويرتي R- Dougherty على رجحان القول بأن سكان شبه الجزيرة العربية قاموا بالإبحار إلى سواحل الهند الغربية، وإلى الجزر المحاذية لها، وكانوا يُبحرون على حافة الشواطئ، ذلك لأن اكتشاف الرياح الموسمية إنما تمَّ في وقت متأخر عن ذلك الزمن، وتتوافق هذه الوقائع مع ملاحظات الفريد فون كريمر I.H.Kramers.

ويخبرنا الكاتب اليوناني سترابون ٦٤، ٦٣ ق.م – ٢٣ – ٢٤ميلادي) أن قبائل شبه الجزيرة العربية قد دعمت وجودها بالتجارة البحرية مع الهند وأفريقيا، ولم تقتصر حياتها الاقتصادية على تربية الحيوانات والحرف وحسب، وتتحدث النقوش في اليمن الجنوبية عن بعثات، لعلها دبلوماسية، عبرت هذه الطرق في نهاية الألف الأول قبل الميلاد، وهناك أدلّة أخرى تنّوه بالدور الهام الذي لعبته عدن، بعد أيام البطالة، كمركز ترانزيت في تجارة مصر الدولية البحرية لعصر المملكة الجديدة، كما أن تجار شبه الجزيرة العربية قد أقاموا حوالي عام ٣٦٠ ميلادي، عبر سيلان، علاقات تجارية بين سومطره ومدغشقر. وأسسّوا على تخوم العصر الجديد مستعمراتهم على الساحل الغربي من سومطره وكانت هناك مادتان رئيسيتان لعمليات التجار القدماء في منطقة المحيط الهندي، وهما من خشب البناء في ماليبار وطيب جنوب شبه الجزيرة العربية، ثم أضيفت لهما فيما بعد المادة الثالثة وهي الذهب من سفالة في شرق أفريقية وقد احتاجت المواد التجارية المتعاظمة إلى أسطول تجاري، مما أدى بالتدريج إلى ظهور أسطول تجاري لدى تجار شبه الجزيرة العربية.(٥)

وازدادت معرفة العرب تلك، مع توسع اتصالاتهم، بعد الإسلام، وتحولهم إلى إمبراطورية شاسعة الأبعاد، تمتد حدودها من الشواطئ الإسبانية إلى قلب الهند، وتضرب الرياح بأشرعة سفنهم في أهم مضايق العالم القديم، ومحيطاته، وتوسطت هذه الإمبراطورية في منطقة المضايق بين الخليج العربي، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود، وبحر قزوين، وشكلت صلة الوصل بين منطقتين اقتصاديتين عظيمتين، منطقة المحيط الهندي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، هاتان المنطقتان اللتان توحدتا في العصر الهلنستي، ثم انفصلتا إلى عالمين متنافسين: الروماني – البيزنطي، والبارثي – الساساني، امتزجتا من جديد بفضل الفتح الإسلامي في منطقة جديدة واسعة موحدة اقتصاديا.(٦)

فصارت أراضي الخلافة برزخاً تتلاقى عليه خطوط التجارة العالمية، ولعب العرب المسلمون فيها دور الوسيط التجاري، حتى غدا النشاط التجاري كما يقول ميتز «مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم، تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين وقوافلهم، تجوب كل البحار البلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرّران الأسعار للعالم في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل».(٧)

وكان تعمير بغداد حدثاً بارزاً في تاريخ العلاقات الاجتماعية بين العرب وحضارات الشرق الأقصى، فلأول مرة في التاريخ ارتبطت عاصمة الإمبراطورية العربية مباشرة بطرق مائية مع بحر العرب بواسطة نهري دجلة والفرات، اللذين يصبان معاً في الخليج، وبينما استمرت الموانئ القديمة مثل «أبله» و«دارين» و«صحار» في لعب دورها المعتاد، تطورت البصرة، وأصبحت في القرون التالية بمثابة لفربول بالنسبة للعرب، إذ غدت محطة التصدير والاستيراد بين الشرق والغرب، دخلت إليها البضائع الواردة من الهند والصين ومصر وأفريقيا الشرقية، وغيرها من البلدان، ومنها كانت توزَّع في شتى المراكز التجارية المتجهة إلى موانئ الهند والصين وسائر البلاد الشرقية.(٨) وسافر التجار العرب – المسلمون من موانئ الخليج لعربي، سيراف والبصرة، والأبلة، ومن عدن، وموانئ البحر الأحمر إلى الهند وسيلان وجزر الهند الشرقية، والصين، وجلبوا من الصين الحرير والأسرجة، واللباد، والقرفة، والراوند، والأدوات الذهبية والفضية، والنقود الذهبية والعقاقير والأنسجة، والحلي والأقفال، ومن الهند النمور والقهوة والفيلة، وجلود النمور، والياقوت، وخشب الصندل الأبيض، وخشب الأبنوس، وجوز الهند، فعرفوا البحار الشرقية حق المعرفة، واستقر بعضهم لأغراض التجارة في الصين منذ القرن الثامن الميلادي.(٩) كما استقروا على سواحل الهند، وجزر المحيط.

وكانت هناك أربعة خطوط للتجارة الدولية تصل بلاد شرق آسيا بأوروبا، وتمر بدار الإسلام: الطريق البري الشمالي من الصين إلى البحر الأسود، أو إلى جنوب روسيا رأساً، والطريق البري الأوسط من الصين إلى إيران

والعراق وبلاد الشام، والطريق البحري يمر عبر البحار الشرقية إلى البحر الأحمر إلى مصر، والطريق البحري الآخر يبدأ من البحار الشرقية إلى إيران والعراق، ومنها تنتقل البضائع براً إلى بلاد الشام، وكانت هذه الطرق لها تفرعاتها، وتلتقي كلها في نهاية المطاف، بمتاجرها على موانئ البحر المتوسط، ومن هناك تنتقل إلى أوروبا.(١٠)

ويُعرف الطريقان البريان الكبيران بطريق الحرير، وهما يمرّان في قلب (دار الإسلام)، بالإضافة إلى طريق بري ثالث كان يربط الصين بالهند وجنوب شرق آسيا، وهو الذي اشتهر،أيضاً، باسم طريق الحرير، وأهم هذه الفروع هو الفرع الذي يتجه نحو الجنوب الغربي قادماً من بلاد ما وراء النهر، وجنوب بحر الخزر إلى بلاد فارس والرافدين والشام.(١١)

وكانت القوافل التجارية المحملة بالحرير تنطلق من مدينة تشانغان Si – Ncan الصينية (تدعى الآن شيان في مقاطعة تنشي)، إلى طريق الحرير البري عابرة ممر فهشي، أي ممر غربي النهر، ويشتهر باسم ممر فهشي، وتصل أغلب القوافل إلى المدينتين الحدوديتين: كاشغر، وخوتان ومن هناك تنطلق نحو بلاد الشام والساحل السوري إلى ممر البحر المتوسط من جهة، أو إلى بحر قزوين، أو عبر الفرات، من جهة أخرى.(١٢)

لكن، وعلى الرغم مما يحيط الملاحة البحرية من غموض ومخاطر، بقي التجار يفضلونها على الطرق البرية الأكثر وعورة ومخاطر، لهذا احتلت الملاحة البحرية الدور الأكبر في الاتصال التجاري بين العالم العربي الإسلامي، وبلاد شرق آسيا، فزخرت سواحل شبه الجزيرة العربية بحركة الإبحار إن كان باتجاه شرق أفريقيا، أو باتجاه البحر الأحمر، أو بالإبحار شرقاً إلى سواحل الهند والصين، وجزر المالديف، وسيلان، والجزر الاندونيسية، واستقر الكثير من البيوتات التجارية العربية على سواحل الهند والصين، وجزر المحيط الهندي، وأقاموا وكالات تجارية لإدارة أعمالهم هناك، وبمرور الوقت غطّت التجارة العربية معظم أجزاء شبه القارة الهندية، إلى حدّ لم يعد يخلو ميناء من موانئ كجرات من بضائعهم، وكانوا يلقون من الحكام معاملة حسنة نظراً للمكاسب التي كان يجنيها هؤلاء الحكام من الرسوم والضرائب المفروضة على هذه التجارة.(١٣) فإذا كان العرب سلّموا للأوروبيين، ولاسيما الإيطاليين، الدور الرئيسي في تجارتهم مع أوروبا في المتوسط، فقد كان لهم الموقع الأول في المحيط الهندي حيث تعزَّز دورهم الملاحي لدرجة أصبحوا فيه سادة الملاحة فيه، وتزايدت معرفتهم بأسرار تلك الملاحة، مع توطد وجود جاليات إسلامية في أغلب مدن وموانئ المحيط، تمارس التجارة بشكل رئيسي، «جعلت الهنود وغيرهم ينسحبون من الميدان تاركينه لفارسه الأوحد الذي تحمّل عناء ومخاطر التجارة العالمية عن الهنود».(١٤)

ورغم توطّد هيمنة العرب على التجارة البحرية الشرقية، فقد حافظت العلاقة الهندية – العربية على طابعها التنافسي السلمي، ولم يحدث أن تجابهت قوتاهما في البحر من أجل التجارة، فقبل مجيء الأوروبيين، و(تلويثهم) تجار البحر السلمية، وزرعهم بذور الصراع فيها، كانت «فكرة السيادة على البحر» شيئاً غير معروف في المفاهيم الآسيوية، ولم يحدث قط في أي عصر من العصور، أن مارست دولة آسيوية السيطرة على حركة مرور السفن، ولم يحدث أن شابت نشاطات العرب التجارية أي شائبة سيـ

بمنتهى الحرية بجميع الموانئ الهندية، فعندما وصل البرتغاليون بقيادة (فونسو البوكرك) إلى ساحل الملايو لاحظوا أن التجار العرب والهنود، والصينيين، يتنافسون بحرية، في أسواق تلك المنطقة، تنافساً صريحاً لا لبس فيه، وكانت سفنهم التجارية الصغيرة والكبيرة لا تعرف الحروب ولا تستعد لها(١٥) لذلك، كان وصول المراكب التجارية الكبيرة حادثاً جديداً، أدخل الحروب والصراع على تجارة تلك البحار.(١٦)

واتّسمت العلاقات التجارية مع الهند بالاتساع والكثافة، مستفيدة من قرب موانئها، وانتشار الجاليات العربية الإسلامية في مدنها الساحلية، وكانت موانئ الهند موزعة على واجهتين من سواحلها، فهناك موانئ على غرب المحيط مثل: كمباي وكجرات، بالإضافة إلى موانئ ساحل المليبار، وأخرى تواجه شرق المحيط الهندي كموانئ

ساحل (كردو ماندول)، ويعتبر ميناء كجرات من أشهر موانئ الهند، وكان قبالة خليج عُمان والساحل العربي، وهو ما سهّل تنمية العلاقات التجارية بين الجانبين :العربي والهندي؛ وكان ساحل المليبار مركز الإنتاج الرئيسي للتوابل في الهند، لذا سمّاه ابن بطوطة «بلاد الفلفل»، و تلتقي عليه تجارة المحيط الهندي، كما تتعاظم التجارة العربية مع ميناء كاليكوت، وميناء (ديو)، وميناء الديبل، وساهمت وفرة السلع المطلوبة من الجانب العربي على ازدهار التجارة، ولم يكتف العرب في استيراد السلع من الهند لبلادهم فحسب، بل صدروا قسماً منها إلى أفريقيا وأوربا، اللتين استورد العرب منهما، بضائع بالمقابل، وكانت الهند تفيض أراضيها بسلع مطلوبة من أسواق العالم القديم، مثل التوابل، والفولاذ الذي كانت تصنع منه السيوف المطلوبة في الأسواق العربية، وبعض المنسوجات القطنية، وهناك المنتجات الزراعية كالزنجبيل والفلفل والنيلج، كما شاعت دباغة جلود الماعز والجاموس، والثيران البرية، واشتهرت الهند أيضاً بصناعة أغطية الفراش المخاطة بخيوط الذهب والفضة، وصناعة النمارق (الشلت) المحلّى بأسلاك الذهب، وتحمل السفن العربية إلى الهند، الخيول والتيل وبعض أنواع القطن،[١٧] وأيضاً الزبرجد في علب جميلة، والمرجان، والبخور، ويأتون من بيزنطة بالأقمشة الحريرية، والسمور والفراء، ويجلبون من فارس الورد والتمور من البصرة[١٨] ويصدّرون أيضاً للهند لبان ذكر، والعاج، والذهب والماس وغيرها من السلع الكمالية، ويذهب بعض الباحثين، إلى أن الميزان التجاري كان يميل نسبياً لصالح الهند[١٩].

ولم يتوقف إبحار العرب عند سواحل الهند، بل طرقوا أطراف المحيط الهندي كافة، ومخروا عباب الهادي، وفضّل الكثير من التجار والبحارة العرب – المسلمين، أن يبحروا من موانئهم إلى الشرق، في شهري أيلول (سبتمبر)، وتشرين أول (أكتوبر)، بمحاذاة الشاطئ من هرمز إلى مكران إلى الديبل، والمنصورة في الهند، ثم يتجهون إلى جنوب شرق الهند، فيأخذون قسطاً من الراحة في مرفأ كولام مالي (كوبولم اليوم في المليبار) وبعدها يمخرون بحر هركند (خليج البنغال) إلى (كله بار) في شبه جزيرة الملايو، ثم يجتازون مضيق (ملاكا) الفاصل بين الملايو وسومطرة، شرقاً إلى تيمومة، إلى مرافئ بلاد الصنف (= فيتنام اليوم)، ويتردّد بعضهم إلى مدينة لوقين (= هانوي اليوم)، إلى أن يصلوا إلى خانفوه (= كانتون Canton)، فيمكثون هناك طوال الصيف إلى أن يتغير اتجاه الريح ليقلعوا بعدها راجعين في بداية الشتاء إلى سواحل الخليج العربي، فيصلون بعد سنة ونصف من انطلاق رحلتهم.[٢٠]

وكان السوق الهندي، الغربي خصوصاً، والشرقي أحياناً، قد أعطى العرب أنواعاً نفيسة من الأخشاب والتوابل والأقمشة والأحجار الكريمة. فإن سيلان (سرنديب) الغنية إلى حد أسطوري، قد أضافت إلى هذه الموارد الذهب والعاج والحرير والشاي، وقد جلب العرب إلى هناك، شأنهم مع الهند وأفريقيا، الجلود والبخور، والخيول الأصيلة، ولقد لعبت الموانئ السيلانية الرئيسية في المرحلة الإسلامية: كولومبو، غالى، توتاجا، على الساحل الغربي، وتيركونا – مالوى على الساحل الشرقي، دور محطة مريحة للبحارة والتجار العرب في متوسط الطريق الخطرة الطويلة نحو الصين وأثناء العودة منها[٢١] وتنامى دور هذه المحطة في الفترة التي انقطعت فيه الصلة المباشرة بين التاجر العربي ومرافئ الصين.

وكانت مراكب المسلمين، في ذلك العصر، تذهب، أيضاً، إلى بحار الصين، كما كانت مراكب الصين تختلف إلى عمان وسيراف والأبله والبصره[٢٢] كانت سيراف هي الفرضة لبضائع الصين، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تُحمل على مراكب إلى سيراف، وبلغت المكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بها حوالي آخر القرن الثالث الهجري نحواً من مائتين وثلاثة وخمسين ألف دينار كل عام، كما يشير البلخي [٢٣] ويحكى من أخبار القرن الثامن الميلادي أن أسماء ربانية السفن الأجانب، كانت تقبل في ديوان التجارة البحرية في مدينة خانفو، وأن الديوان كان يطالب بحق التفتيش للمراكب قبل السماح لها بإنزال ما تحمله إلى البر، وكان تصدير الأشياء النادرة أو ذات القيمة محظوراً... وربما تكون قد أنشئت في ذلك العصر مراكز تجارية إسلامية في أنواع أخرى من الصين.. وفي أوائل القرن التاسع الميلادي كان على رأس الجالية الإسلامية في كانتون رئيس مسلم يعيّنه امبراطور الصين، وكان

هذا الرئيس يقضي بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة[٢٤].

كان الصينيون يستوردون من السفن العربية الكافور، والعاج، وقضبان النحاس، والذبل (= قشر السلاحف)، وقرن الكركدن، الذي كان الصينيون يصنعون منه المناطق،[٢٥] واحتلت خانفوه (أي كانتون) مركزاً ممتازاً في تجارة المسلمين مع الصين واستقرت لهم جالية كبيرة فيها، ومن هذا المركز اتصل التجار المسلمون بسائر بلاد الصين، فوصلوا إلى هانغ شو في الشمال،التي دعوها (قانصوه)، واتصلوا بعاصمة مملكة التانغ الحاكمة في الصين (هسي – آن – فو) التي سمّاها العرب (خمدان)، كما استقروا في شبه الجزيرة الصينية، التي سمّوها ببلاد (السيلة)، أي كوريا أو اليابان، واستمروا على ازدهار أحوالهم، ودخولهم إلى المجتمعات الصينية إلى أن احتل احد العصاة (هوانغ تشو) مدينة خانفوه، انطلاقاً من خمدان.[٢٦] ويشير ميتز إلى أن هذا الرجل، قد قضى على أسرة تنج الملكية، وأفسد أمور الصين، وفتح خانفوه، التي كانت ملتقى السفن التجارية الإسلامية، وقتل من أهلها مائتي ألف من المسلمين ومن غيرهم، وباضمحلال هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصين، واختفت معالم التجارة البحرية هناك،[٢٧] وذهب باحثون آخرون إلى أن انتكاسة التجارة العربية المباشرة، مع السواحل الصينية، قد أتت على أثر الثورة التي قامت بها الجالية الإسلامية في كانتون عام ٧٥٨م، على السلطات الصينية.[٢٨]

ولم يتجدد الاتصال المباشر حسب كراتشكوفسكي إلا في القرن الثالث عشر.[٢٩] غير أن ميتز يذهب باتجاه مغاير، حيث يذكر أن حكومة الصين بذلت جهدا كبيراً لاجتذاب التجار، فأرسلت بعثة تدعوهم للحضور إلى الصين، كما أُعيد تنظيم ديوان البحر عام (٣٦١هـ – ٩٧١م) في مدينة كانتون،[٣٠] فصار التجار على الجانبين الصيني والعربي – في فترة الابتعاد عن السواحل الصينية – يتبادلون السلع في (كله Kalah) أو (ملقه Malacaa) في شبه جزيرة الملايو التي كانت جزءاً من الإمبراطورية الاندونيسية المعروفة باسم مملكة سريفجانا، وأطلق عليها العرب اسم مملكة المهراج وكانت في موقع سنغافورة اليوم، فصارت ملقاه، والتي هي من الإنشاءات التي أوجدها المسلمون على جزيرة ملقا، نقطة التقاء بين الحركة التجارية في المحيط الهندي وبحار الصين، ويتبادلون فيها محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل، مع بضائع الهند، والجزيرة العربية وأفريقيا وأوروبا[٣١].

ويذهب الحوراني إلى أنه عندما انقطعت الرحلات المباشرة إلى كانتون، أخذ العرب والصينيون يتلاقون في كله على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملكا، وكانت، عندئذٍ، جزءاً من إمبراطورية إندونيسية، وصار العرب يبحرون أيضاً إلى سومطرة في القرن العاشر، بل إن رحلة الصين لم تتقطع تماماً، فإن بزرك يتحدث عن تاجر يهودي من عمان ذهب إليها في العقد الثاني من القرن العاشر.[٣٢] ثم احتكرت الحكومة الصينية التجارة الخارجية عام ٩٨٠م. وفي ذلك العصر، وماجاء بعده، تذكر الروايات كثيراً من التجار المسلمين زاروا بلاط إمبراطور الصين واستقبلوا هناك استقبالاً مملوءاً بالمودة، واستقر كثير من التجار في (تسوان شو) إلى جانب استقرارهم في كانتون، وفي عام ٩٩٩م أنشئت دواوين للتجارة البحرية في تغري هانجشون، ومانجشون، زيادة إلى ما كان في غيرها من الموانئ[٣٣]

كانت أهم الموانئ الصينية التي قصدها التجار المسلمون،الى جانب كانتون، لوقين، والزيتون، وخمدان، وصينية الصين، وسيلان، أما أهم البضائع التي استوردها العرب منهم، فهي الحرير، والفرند، والكمخار، والمسك، والعود، والسروج، والسمور، والغضار، والدار الصيني، والخولنجان، ومصنوعات الخزف، والنقود النحاسية والذهبية والفضية، والأدوات الحديدية، وحمل إليهم التجار العرب بالمقابل: العاج والكندر، وقرن الكركدن، والخنوقي حسب لغتهم الصينية، ويعتبر اعز سلعهم[٣٤] كما نسج العرب حلقات اتصال مع جزر المحيط الهندي، بشكل مبكر، ولا سيما مع الأرخبيل الأندونيسي، الذي يتكوّن من مئات الجزر، فقد انسابت سفنهم من مضيق ملقة المحصور بين جزيرة سومطرة، وشبه جزيرة الملايو، حيث تتوقف في طرف جزيرة ملايو في ملاكة /أو ملقة، الذي كان يتحكم في كل التجارات الواردة من الصين وما يجاورها، وكان المسلمون بالإضافة إلى تجارتهم تلك، ينقلون معهم دينهم

الإسلامي إلى سكان تلك الجهات، وبلغ أهل ملاكه حداً كبيراً من الثراء، ومن الجزر التي زارها العرب وتعرفوا عليها في هذا الأرخبيل جزيرة جاوة.(٣٥) واستقر التجار المسلمون القادمون من الهند وملقا في جاوة، وصاحب ذلك الاستقرار تزاوجاً بين هؤلاء القادمين الجدد وبين الفتيات الجاويات، مما أدى إلى اندماج أبعد مما حصل نتيجة الامتزاج بين الهنود، وأهل البلاد الأصليين.(٣٦)

وظهر الكثير من الأدلة على قدم العلاقات التجارية بين العرب واندونيسية والفلبين، حيث اعتاد العرب الجنوبيون على الإتجار مع تلك البقاع النائية، وهو ما تدل عليه الآثار الحميرية، وحين نهضت الدولة العربية – الإسلامية – بعثت التجارة العربية العالمية، وقبض المسلمون على ناصيتها، وربطوا اندونيسية (أرض الملايو) والصين والهند بعالم المتوسط، وأوربا. وقد ترعرعت جاليات عربية على الساحل السومطري منذ عام ٦٧٤م، وقدّ دلّت شواهد القبور الكثيرة التي كُشفت هناك على وجود مستوطنات للتجار العرب والمسلمين وأسرهم.(٣٧)

لقد أعطى روسينيه صورة عامة، عن دور العرب في تجارة الشرق الأقصى، بالإشارة إلى أن محاصيل الشرق الأقصى ترد إلى كاليكوت والمرافئ المجاورة لها، ويأتيها فلفل مقاطعة الملابار، والمحاصيل الهندية الأخرى كالقرفة، والحجارة الكريمة من سيلان، والتيلة من كوجرات، والمنسوجات القطنية والجوت من البنغال وكوجرات، بالإضافة إلى الأفيون والعقاقير، ثم يتم العبور بهذه البضائع في البحر الأحمر، والخليج العربي، وعبر الأراضي العربية: الشام، ومصر إلى أوروبا بعد إبحارها في المتوسط، مقابل الذهب والفضة وخيل العجم، وجياد الجزيرة العربية، والحرير الخام واللآلئ من فارس، والبن والعطور من البلاد العربية، والنحاس والقصدير والزنك والرصاص والزئبق والمخمل والديباج من أوروبا، حيث تصل الشرق الأقصى عن طريق البلاد العربية، والعاج والعنبر والمرجان والعبيد من أفريقيا لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكية.(٣٨)

ولم يكن يُسمح ببقاء السفن طويلاً في موانئ آسيا خشية أن يفتك بها السوس، فكلّف التجار وكلاء لهم من الأهالي لشراء التوابل مباشرة من منتجيها يحفظونها في مستودعات لحين وصول السفن في مواسمها لشحنها «وكان نيسان أفضل الشهور لاجتياز باب المندب» أما الوقت المناسب لمغادرة «ملقا» فكان بين أيلول ونيسان «وكثيراً ما عوّل التجار على التحاويل (التحويلات) والسفاتج المالية في معاملاتهم».(٣٩)

ولم تقتصر منافع التجارة على الربح، وتبادل السلع، بل ترافق معها تعارف بين العرب المسلمين والأمم الأخرى، وازدياد احتكاكهم وتلمسهم لمناحي حياتهم المختلفة، فكانت بالنهاية وسيلة لتبادل الأفكار، والتجارب، والخبرات الثقافية، ولنقل الثقافات، واستعارة بعض جوانبها، وحفّزت على تشكيل مُتخيل عن الأمم الشرقية هذه، التي كانت دائماً محل إعجاب العرب، وتنافسهم، الذي لم يرتق يوماً إلى درجة العداء، والحذر، الذي يجلب معه مُتخيل نمطي صلب عن الآخر، شبيهاً بذلك المُتخيل الذي حمله العرب عن جيرانهم الأوروبيين في الشمال، وعلى أطراف المتوسط.

ولمّا كان كل تاجر رحالة بالقوة، فإن الكثير من التجار العرب في المحيط الهندي جمع بين معرفته لأثمان السلع، وأنواع النقود، والبيوتات التجارية، وطرائق الدفع، والمعاملات، وبين اكتساب الخبرة بمعرفة البشر الذين تعامل معهم، وخبر طباعهم، وعاداتهم، وأديانهم، وسلوكياتهم الإجتماعية، وقدّم العرب المسلمون أبهى النماذج عن هؤلاء الرجال: التجار، الرحالة أمثال سليمان التاجر، والسيرافي الذي دوّن سيرته فضلاً عن سيرة سليمان وهناك أيضاً صاحب (عجائب الهند والصين)، الذي دوّن ملاحظات البحارة ومعارفهم، ودمجها بمعارفه هو نفسه.

انتشار الجاليات العربية الإسلامية

جذبت التجارة معها إلى حافة المحيط الهندي، في الصين والهند، والأرخبيل الأندونيسي، استيطان الكثير من المهاجرين العرب، استقروا هناك على حافة الاشتغال بالتجارة وبيوتاتها، وقد ذكر ميتز، وغيره من المؤرخين أن في كانتون (خانفوا)، التي كانت ملتقى السفن التجارية الإسلامية، استقر فيها ما يقارب المئتي ألف مسلم[٤٠]، ولم يقتصر الوجود العربي الإسلامي في الصين، على كانتون (خانفوا) وحدها، فقد تناثر وجودهم في المدن الساحلية الأخرى. كخمدان Khumdan وهذا الحال ينطبق على السواحل الهندية، ولا سيما أن ملوك الساحل الشرقي للهند، كانوا يُحسنون معاملة التجار القادمين إلى بلادهم، فكثرت الجاليات التجارية تحت حماية هؤلاء الملوك، حين كانت التجارة الإسلامية تمتد من كولم إلى نيلوار (نيلور)، نحو ثلاثمائة فرسخ (الفرسخ يساوي ثلاثة أميال) على ساحل البحر، فاستقر المسلمون بهذه الجهات، كما استقرت في بلاد (تامل) جاليات مسلمة أخرى، ذكرهم (خسرو) في مذكراته عن حملة ملك كافور على البلاد، وقد زارها ابن بطوطة بعد الحملة تلك، فذكر أن غياث الدين الدامغاني حاكم مادورا في تلك الأيام، كما أن ملك (ويربلالا) يملك جيشاً يحتوي على عشرين ألف مسلم.[٤١]

صحيح أن سيطرة المسلمين السياسية المباشرة على المحيط الهندي حتى القرن العاشر الميلادي، لم تتجاوز الجهات الساحلية عند مجرى نهر الأندس Indw ومع هذا تطالعنا، كما يشير نفيس أحمد، كثرة المراكز العربية التي تمتع فيها العرب بتقاليدهم الدينية والاجتماعية في أنحاء كنكان، وسواحل مليبار، وكرومندل، وجزائر نيكوبار، وساحل أركان، والملايو وسومطرة وجاوة، وقد وصل الإسلام إلى هذه الأقاليم دون أي عون سياسي من أي نوع، وبقي راسخ الجذور طوال قرون بعيداً عن أية اضطرابات تلحقه من غزوات تقوم على الحدود الهندية الإسلامية[٤٢]. ويذكر أرنولد (T.W. arno1) «أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته وأطولها بقاءً في نشر الدعوة في الأزمان، والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشد ما تكون ضعفاً، كما كانت الحال في جنوب وفي شرق البنغال»[٤٣].

ولقد نشأت المستعمرات القوية على الواجهة الشرقية لسومطرة وسواحل ماليزيا، وفي القرن الرابع عشر، والتي تعتبر النوى الأولى للدول الإسلامية، وكانت سلطنة (آتجي) في شمال الجزيرة الكبرى، وميناؤها سامودورا، الذي سمّي (باساي) فيما بعد، كان مقراً إسلامياً حيوياً، وموقعاً مهماً لمراقبة المدخل الشمالي للمضايق[٤٤].

رسائل وسفراء وهدايا

بموازة تبادل المنافع التجارية، وتدفق الهجرات، تبادل خلفاء وسلاطين المسلمين الرسائل والهدايا والسفراء مع ملوك الهند والصين، وامتزجت السفارة بوظيفة التواصل الثقافي، إلى جانب حمولاتها السياسية والإقتصادية، ويشير بعض المؤلفين الروس إلى أن العام ٦٥١ ميلادي شهد إرسال أول سفارة عربية بحراً محملاً بالهدايا النفيسة إلى قصر الإمبراطور الصيني، ويبدو أن الهدف الرئيسي لذلك كان الارتباط بعلاقات تجارية متينة مع امبراطوريات الشرق الأقصى، وجرى تجهيز سفارات للبلدان البعيدة من قبل الخلفاء الأمويين، ومن أعقبهم من الخلفاء العباسيين في القرن الثامن أيضاً، وبلغ تعداد السفارات التي قصدت الصين، بين عامي ٩٦٠م – ١٢٨٠م عشرين سفارة [٤٥]، ويذهب بعض الباحثين أن البعثة الأولى إلى الصين، قد أرسلها الخليفة عثمان في ٣١هـ – ٦٥١م، أيام امبراطور الصين، كيوتسنغ ، Kgu-Tswng، كما أن السجلات الصينية تشير إلى أن ثمة بعثات أخرى أرسلها العرب إلى الصين منها اثنتان أوفدهما الخليفة أبو جعفر المنصور (١٥٨هـ – ٨٠٩م)، وتشير هذه المدونات إلى ٣٧ بعثة عربية أرسلت إلى الصين في عهد تانك Tang،[٤٦] كماتشير إلى أن تبادل الوفود والسفراء بين العرب والصين قد رأى النور زمن الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، إذ يشهد (تاريخ الصين) إلى وصول وفد عربي إلى عاصمة الصين، في السنة الثانية من عهد (بو نخوى)، التي توافق سنة ٦٥١م، وكان غرض البعثة إخبار الإمبراطور برسالة محمد (ص)، ودعوته للدين الجديد، واقتفى إثر هذه البعثة الكثير من الوفود تحدث عنها (تاريخ الصين) لعهد نانغ وأغفل ذكرها العرب، بل سجلت كتب الصين القديمة وصول

أربعة وثلاثين سفارة من بلاد تاشي (ويعنون بهذه العبارة العرب) في قرن ونصف، أي من سنة ٦٥١م إلى ٨٠٠م وكانت السفارات في زمن أمية أقل شأناً بالمقارنة مع الحقبة العباسية، والكتب العربية لم تذكر إلاّ عدة بعثات، منها البعثة التي أرسلها قتيبة بن المسلم (ت٧٥٠)، وتلك التي أرسلها أبو جعفر المنصور، أما على الجانب الصيني، فان مدوناتهم القديمة امتلأت بها، إذ تحدثت عن أخبار وفود عرب من ذوي «الملابس السود»،أي العباسيين، وعن رسل عرب من ذوي «اللباس الأبيض»، أي الأمويين، ونعرف من تاريخ «تانغ» أن سبع عشرة سفارة قد وردت من العرب إلى عاصمة الصين في زمن الأمويين، وخمس عشرة في زمن العباسين[٤٧].

وكانت أغلب السفارات القادمة إلى الصين،في زمن بني أمية، من الأمراء العرب فيما وراء النهر وخرسان، أكثر من تلك التي بُعثت من دمشق العاصمة، وقد ذكر «تاريخ الصين» خبر بعثة من دمشق في سنة ٧١٦م، من قبل سليمان بن عبد الملك، لتقديم الهدايا للإمبراطور مشتملة على عباءات منسوجة من خيوط الذهب، والعقيق، ورشاشات العطور وأشياء خاصة ببلاد العرب، فانعم الإمبراطور على السفير رتبة فارس. كما يخبرنا(تاريخ الصين) عن ورود وفود أخرى، فالسفارة التي قامت عام ٧٣٣م كانت بقيادة أحد قواد العرب الأمويين اسمه جنيد، وهو تحت إمرة نصر بن سيار في عهد الخليفة هشام الأموي، وهو من بين القادة الذين كرسوا فتح بخارى وسمرقند. ويشير المستشرق جب إلى أن نصر بن سيار، بعد أن استقر في سمرقند بعث بالعديد من السفارت إلى الصين،إحداها سنة ٧٤٤م، وسفارتين أخريين في سنتي٧٤٥م و٧٤٧م. واستأنف العباسيون إرسال الوفود إلى الصين، وأولها إرسالها مؤسس الدولة العباسية، ثم أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد بطل العهد الذهبي، وكان العباسيون معروفين لدى الصينيين باسم (خئي تاشي)، أي العرب ذوي الملابس السود، تمييزاً لهم عن الأمويين الذين عرفوهم باسم (يئي تاشي)، أي العرب ذوو الملابس البيض، وسجل تاريخ الصين خمسة عشر سفارة عباسية، في نصف قرن بين عامي ٧٥٠م و ٨٠٠م. ذكرت تلك البعثات الوثائق الصينية، ولم تتكلم عن أغلبها الوثائق العربية [٤٨].

وتكشف التحقيقات التاريخية أن العلاقات الدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الأمويين، فلم ينقطع اختلاف الوفود بين بغداد و«جانغ آن»، حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فبعد أن حصلت اضطرابات عند منتصف القرن التاسع الميلادي وأدت إلى القضاء على أسرة تانغ في سنة ٩٠٦م، مرَّ على مسرح الصين خمس أسر حاكمة قصيرة الحكم، مما أدى إلى قطع الصلات بين عاصمة الصين وبغداد ما بين عامي ٨٥٠م و٩٥٠م، لكن مع ظهور أسرة (سونغ) الحاكمة، انفتحت الروابط التجارية والدبلوماسية بين العرب والصين من جديد. فذكر(تاريخ الصين) خمس وعشرين سفارة عربية إلى الصين ما بين ٩٦٠م إلى ١١١٤م، وأغلبها وصلت عبر البحر. وفي المقابل فقد تم تبادل السفارات عن طريق البر بين الدولة السامانية في الغرب، و المملكة الصينية المسماة «مملكة كين» التي كانت قبل أيام المغول، واشتهرت في المدونات العربية باسم (ماصين)، وكانت العلاقة بين السامانيين ومملكة كين منحصرة في البداية في مجال التجارة، ثم اتسعت لتشمل الدبلوماسية والسياسة، ولعل أبو دلف الينبوعي، هو، أول رحالة عربي كتب عن تلك الصلات بين الجانبين، ونقل عنه ياقوت والقزويني وابن النديم، إذ كان أبو دلف رئيساً لبعثة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني إلى امبراطور (كين) بسندابل، ومن كلام ابن دلف نعرف أن ملك الصين اسمه، آنئذ، قالين بن الشخير. ومع بروز سيطرة المغول في القرن الثالث عشر الميلادي، تحول مجرى العلاقة بين الصين والعرب إلى مابين الصين والدول العربية والاسلامية التي خضعت لسيادة المغول... فالسفارات التي جاءت إلى بلاد الصين في عهد (يوان) مابين عامي ١٢٧٧م و٣٦٧م، حينما سيطرة جنكيزخان عليها، كان أكثرها من خرسان وإيران، وعندما قام ابن بطوطة برحلته الشهيرة، كان أمير خوارزم يسمى قطلورمور (أي الحديد المبارك)، ومن إشارات ابن بطوطة نعرف أن له علاقات مع الامبراطور الصين. وقد سافر ابن بطوطة إلى الصين انطلاقاً من الهند بصفته سفيراً من قبل تغلق شاه صاحب الهند إلى

إمبراطور الصين هيوني- تي Ti –Hyun (١٣٣٣م- ١٣١٧م) أخر ملوك المغول من سلالة آل قبلان خان(٤٩).

وحفظ لنا رشيد الدين بن زبير، من القرن الخامس الهجري، العديد من السفارات والرسائل والتهادي المتبادلة بين ملوك الصين والهند، والخلفاء المسلمين، ومن جملتها رسالة ملك الصين إلى معاوية بن أبي سفيان، أرفقها بهدية في صورة كتاب يحوي حكم أهل الصين، وأسرارهم العلمية، وقيل أن هذا الكتاب قد انتهى إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فيما بعد، فأخذ منه الكيمياء، وكان يعمل في ذلك الحين جلائل أعمال الكيمياء(٥٠) وأرسل والي البنغال (دهمي) من الهند وهو الذي يدعوه سليمان التاجر، وابن خردازية والمسعودي (رهمي)، رسالة إلى الخليفة المأمون، معها أيضاً، كتاب يسميه في رسالته بـ «صفوة الأذهان»، وأيضاً هدايا فاخرة، منها: قدح من الياقوت الأحمر مليئ بالدر، وبساط من جلد ثعبان، ولهذا البساط قوة سحرية، فمن جلس عليه أمن من السل ! وثوب منقوش ومطرّز بالذهب المغمور بالدر. وثلاث سجادات مع وسائدها، من ريش سمندل العصفور الذي لا يحترق، ومن العود الطبري ألف ألف مثقال، وقطع من الكافور، وجارية سندية رائعة الجمال، وقد ردَّ عليها المأمون برسالة مرفقة بهدايا من دار الإسلام - يذكر في رسالته أنه «وأهدينا إليك كتاباً ترجمته» ديوان الألباب، وبستان نوادر العقول «ومطالعتك ترجمته تحقق عندك فضيلة النعمة». ومن الهدايا: فرس مع الراكب وكان السرج ووسائل الركوب من العقيق. وطاولة خوان من المرجان الأسود والأبيض، وحزمة أثواب من خمسة أنواع، وقدح من الزجاج الفرعوني.(٥١)

كما أرسل حاكم من الهند إلى الخليفة هارون الرشيد هدايا كثيرة وتحفاً منها عصا قصيرة من زمرد بطول ذراع، وعلى رأسها صورة عصفور من الياقوت الأحمر،(٥٢). وأهدى ملك الهند إلى حسن بن سهل عند زفاف ابنته إلى الخليفة المأمون، هدايا كثيرة، ثمينة فيها قفّة كان فيها عود هندي ليس له نظير في رائحته.(٥٣) وذكر المقريزي في حوادث ٨٣٥هـ - ١٤٣٢م، وصول زنكين بن زنوك الصين (= جنك) إلى مكة للتجارة(٥٤) وكذلك أرسل ملوك الصين رسلهم يحملون الهدايا إلى البلدان العربية المطلة على المحيط الهندي،اذ أورد يحيى بن الحسين، في حوادث ٨٢٣هـ، أنه قدم إلى اليمن رسول من عند ملك الصين بثلاثة مراكب مشحونة فيها الهدايا الثمينة للغاية.(٥٥) كماروي الجاحظ عن الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك ابن عمر قال: «رأيت في ديوان معاوية بعد وفاته كتاباً من ملك الصين فيه: من ملك الصين الذي على مربطه ألف خيل، وبُنيت داره بلبن الذهب والفضة، والذي تخدمه بنات ألف ملك»(٥٦).

الاقتباس الترجمة

يمكن أن نضيف الترجمة والاقتباسات العلمية والفنية والتقنية إلى مسار (الاتصال) والحوار بين الحضارة العربية الإسلامية، وحضارات الشرق الأقصى. فلقد وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها، ومظاهرها الثقافية، عن طريق المدارس العلمية في أرض الرافدين مهد الحضارات القديمة، التي كانت على اتصال وثيق بالهند، فتبادل معها السلع، ويأتي إليها علماؤها، وقد تخرّج، على أيدي الهنود بمدرسة (جنديسابور) الساسانية، فريق من العرب، منهم الحارث بن كلده الثقفي طبيب العرب قبل الإسلام(٥٧) ويذهب هارل Harell إلى أن المسلمين مدينون للهنادكة قبل اليونان بالتأثر بشتى ألوان المعرفة والثقافة الجديدة سواء في الفلسفة أو الرياضيات، واشتد شغفهم بها، ويؤكد رأيه هذا في أن أول كتب الفلك والرياضيات التي حُملت إلى بلاط الخلافة أيام المنصور العباسي هو كتاب (ابراهما سدهانتا) لمؤلفه العالم برهمكيت وتذكره الكتب العربية باسم (السند هند) الذي يرجع تأليفه إلى ٤٢٥ ق.م وكتاب (كهاديكا) المعروف باسم (أركند)، ثم كتاب (أريه بُهت) المعروف باسم (أرجهند) أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود. وهو من أول الكتب التي يظن أن العرب تعلموا منها أن

الأرقام الحسابية والنظام العشري(٥٨).

فقد شغف المنصور بالفلك، ناهيك عن تشجيعه للترجمة، إلى درجة أنه اصطحب نوبخت الفارسي، وابنه أبا سهل بن نوبخت، وكان في حاشيته أيضاً ابراهيم الفزاري وابنه محمد، وعلي بن عيسى الأسطرلابي وغيرهم، وقد كلف المنصور العالم الجغرافي محمد إبراهيم الفزاري، بترجمة الكتاب الذي قدمته البعثة الهندية، المنوه عنها سابقاً، وصلت بغداد (١٥٦هـ – ٧٧٣م) من الهند، وأطلق العرب على هذا الكتاب، اسم (كتاب السند هند الكبير)،(٥٩). ولقد أجمع البيروني والقفطي على إن كتاب الفزاري هذا، لم يكنّ إلا ترجمة كتاب (سند هانت) لـ «إبراهيم كيث»، وأصبح، فيما بعد، نواة لأول مدرسة لعلم الهيئة العربي، حتى جاء عصر المأمون، وترجم كتاب المجسطي لبطليموس، فصار العلماء العرب يروجون لعلم الهيئة اليوناني على حساب التأثيرات الهندية.(٦٠)

لقيت حركة الترجمة تشجيعاً حاراً من الخليفة المأمون، الذي رعى الكثير من المترجمين من (الشرق)، فنهلوا على نطاق واسع، من الأدب اليوناني، كما نهلوا على نطاق أضيق من اللغة الفهلوية التي كانت أداة اتصال بين الهند والبحر الأبيض المتوسط، واختصرت حركة النقل هذه، على المؤلفات العلمية التي يسهل تطبيقها عملياً، وعلى الفلسفة، ونقل العرب عن الفهلوية أو الهندية، في عداد ما نقلوا من الآثار العملية، القصص والحكايات والأمثال(٦١).

ويلخص كراتشكوفسكي الرواية العربية حول الصلة بالعلم الهندي، فيذكر أنه كان من بين أعضاء السفارة الهندية، المومأ إليها، إلى بلاط المنصور، في عام (١٥٤هـ – ٧٧١ م) أو (١٥٦هـ – ٧٧٣م)، عالم هندي هو مانكا Manka أو كانكا Kanka أحضر من الهند رسالة في الفلك أُطلق عليها في الترجمة العربية التي عملها الفزاري، ويعقوب طارق اسم «كتاب السندهند» وكثير من جوانب هذه القصة غير واضح، غير أنه يمكن القول إن الرسالة التي حملتها البعثة هي لـ «براهما سقوطا سدانتا» Brahamasqutasdiehamta، التي وضعها براهما غيتا Brahma gupta، وحوّل العرب لفظ سيدانتا إلى «السند هند»، التي تنعكس فيها التسمية العربية لشطري الهند أي السند والهند(٦٢)، وبقي نظام السند والهند مؤثراً على الفلك العربي حوالي خمسين عاماً إلى عصر المأمون حين بدأت ترجمة مذهب اليونان، فصار منافساً قوياً للنظام الهندي، قبل أن يحل محله تقريباً (٦٣).

ولقد اطلع العرب على «حساب الهنود» فأخذوا عنه نظام الترقيم، إذ أنهم رأوا أنه أفضل من النظام الشائع بينهم، وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام، هذّب العرب بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين، عرفت إحداها بالأرقام الهندية، وهي التي تستعملها أكثر البلاد العربية والإسلامية، وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها في بلاد الغرب والأندلس وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا، كما أوجد العرب طريقة جديدة، هي طريقة الإحصاء العشري، واستعمال الصفر(٦٤).

ويشير صاعد الأندلسي إلى أنه «ولبعد الهند من بلادنا، واعتراض الممالك بينهم وبيننا، قلّت عندنا تواليفهم، ولم يصل إلينا إلاَّ طرف من علومهم، ولا ورد علينا إلاَّ نبذ من مذاهبهم، ولا سمعنا إلاَّ بالقليل من علمائهم، فمن مذاهب الهند في علوم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم، وهي مذهب السند هند، ومعناه الدهر الداهر، ومذهب الأرجبهد، ومذهب الأركند، ولم يصل إلينا منها على التحقق إلاَّ مذهب السند هند، وهو المذهب الذي تقلدّه جماعة من علماء الإسلام، وألفوا فيه الزيجة لمحمد بن إبراهيم الفزاري، وجيش بن عبد الله البغدادي، ومحمد بن موسى الخوارزمي، وغيرهم (٦٥)، كما يذكر أن مما وصل إلى العرب المسلمين من علوم الهند في الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية «يافر» ومما وصل إليهم أيضاً من علوم الهنود في (إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس)، كتاب «دمنة وكليلة» الذي جلبه برزويه الحكيم الفارسي من الهند إلى أنوشروان... وترجمه له من الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه،في الإسلام، عبد الله بن المقفع من اللغة الفارسية إلى اللغة

العربية. ووصل من علومهم في العدد حساب الغيار الذي بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي... يشهد، هذا، للهند «بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختراع»، ووصل من «نتائج فكرهم الصحيحة، ومولدات عقولهم السليمة وغرائب صنائعهم الفاضلة: الشطرنج»(٦٦).

كذلك كان في بغداد أطباء هنود يمسكون الطب الهندي إلى جانب الطب اليوناني، اشتهر منهم في عهد الرشيد «صالح بن بهلة الهندي» – وقد ذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد جلب أطباء من الهند مثل «منكه» و«يازبكر» و«قلبرقل» و«سندباد»(٦٧)، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة لأسماء الأطباء وقد اولع العرب بالسيوف الهندية، وسمّوا السيف المصنوع من حديد الهند بالمهند. وسموا كثيراً من نسائهم هنداً.(٦٨)

أما بالنسبة للصين فقد اقتبس العرب منها صناعة الورق والبارود، ونقلوها إلى شمال أفريقيا، ومنها إلى الأندلس، وأوروبا(٦٩)، وتعلّم العرب أيضاً من فنونهم الدقيقة نسيج الأقمشة الحريرية، وصناعة التحف الذهبية والفضية، فضلاً عن النقش، و(التكفيت)(٧٠).

أما بصدد صناعة البارود، وهو مسحوق مخلوط من ملح وكبريت وفحم صالح لقذف المقذوفات، فالعلماء العرب نسبوه إلى الاختراعات الصينية، بينما ينكر المؤرخون الصينيون هذا الفضل على أنفسهم، وتشير المصادر الصينية إلى أنه من صناعات المسلمين، والعرب بشكل خاص، لأن عدة كتب صينية ذكرت أنهم استعملوا مدافع المسلمين، في محاصرة «سيانغ يانغ فو»، وقد جاء في (يوان شي)، أي، تاريخ المغول، ذكر القائد علي يحيى الأويغوري، الذي بعثه قبلاي خان لمهاجمة سيانغ يانغ فو،مامفاده: إن في عسكره مسلماً يسمى اسماعيل كان يعرف كيف يصنع المدفع الناري، فتمكن القائد المذكور من فتح المدينة بمساعدة هذا النوع من المدافع.(٧١)

وقد عمل العرب على ازدهار صناعة الحرير وانتشارها، بعد أن اقتبسوها، ونشروها في البلاد العربية – الإسلامية(٧٢). ولم ينقل العرب الحرير والخزف والشاي فقط، بل نقلوا معها أيضاً صناعة الورق والبارود والإبرة المغناطيسية، وتشير بعض الملاحظات في الكتب الصينية إلى أن أول مصنع للورق أُنشىء خارج الصين كان في بغداد على يد العرب عام ٧٩٤م، كما أن الطباعة دخلت بغداد في الفترة نفسها ثم انتقلت تلك الصناعة إلى دمشق ثم إلى القاهرة والإسكندرية ومنها إلى صقلية وأسبانيا ومنهما إلى أوروبا(٧٣).

وتشير الروايات التاريخية العربية، إلى أن العرب تحت قيادة زياد بن صالح قاتلوا الصينيين الذين أتو لنجدة أمراء الأتراك، خصوصاً آل أخشيد بفرغانه وسمرقند فأسروا منهم الكثير، وذكر الثعالبي في «لطائف المعارف» أن أولئك الصينيين الأسرى علّموا العرب،فيما بعد، صناعة الورق بسمرقند، وكان ذلك في سنة ٧٥٠م.

وإذا كان الباحثون قد اتفقوا على واقعة أن العرب تعلموا صناعة الورق بسمرقند،على يد الصينيين، غير أن هناك بعض الاختلافات فيما إذا كان وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل هذه السنة وهو ما ذهب إله غوستاف لوبون، بينما يفهم من كلام الثعالبي في «لطائف المعارف» أن مصنع الأوراق لم يكن موجودا بسمرقند إلاّ بعد انهزام الجيوش الصينية أمام زياد بن صالح ووقوع الأسرى الصينيين في أيدي العرب، في واقعة (تالاس) التاريخية عام ٧٥٠م. وكان بين هؤلاء الأسرى من يعرف صناعة الورق فعلموها للعرب ولأهل سمرقند، فانتقلت هذه الصناعة إلى إيران ومكة في عام ٢٢٢هـ،٨٣٧م،وانتقلت ومن بلاد العرب إلى أوربا عن طريق أسبانيا، حتى قيل إن الورق كان يباع في سوق بغداد في سنة ١٧٨هـ، ٧٩٤م، في أسواق خاصة بتلك السلعة،– ولعل هذه الرواية قد استندت على ما ورد في «لطائف المعارف» للثعالبي، وفي «المسالك والممالك» للجويني، كما جاء ورق الصين إلى علم العرب والمسلمين في شكل آخر، أي على صورة أوراق مالية، فمن المعلوم أن الصينيين أوجدوا أوراق المال، ونقلها المغول عنهم إلى إيران في سنة ١٢٩٤م، وبناء على رواية ابن بطوطة، كان أهل الصين في زمنه لا يتبايعون بدينار، ولا بدرهم، بل بقطع (كاغد)، كل قطعة منها بمقدار الكف.(٧٤)

وعرف البحارة العرب مقياس حالات الكواكب (الاسطرلاب) وقد حفظ التاريخ اسم (الفزاري) مخترع هذا الجهاز في القرن الثامن ميلادي، ونقلت الملاحة العربية من الخبرة البحرية الصينية: البوصلة (الحُقة)، التي كانت مقسّمة إلى أربع وعشرين درجة وطورتها حتى اثنتين وثلاثين درجة، ووضعت في أساس هذا المقياس (دائرة الرياح) بوجهاتها الإثنتين والثلاثين (خانه)، وقد استخدم العرب البوصلة مثل بحارة الشرق الأقصى، وقد أعيد رسم هذه البوصلة لعام ١١١٧م في الأرض العربية بشكلها المعدّل[٧٥].

وبالمقابل فقد مارس العرب – المسلمون تأثيرهم على الثقافة الهندية والصينية، فقد كان التجار العرب – المسلمون يجتمعون في أحياء خاصة بهم في المدن الصينية، ولهم نظام إداري خاص بمباركة الإدارة الصينية، التي كانت تختار رجلاً منهم لرئاستهم وليتولى الرقابة والقضاء، ويساعد الحكومة في جلب المكوس، وكان هؤلاء التجار يبنون المساجد في أحياء سكنهم، وكان أقدم المساجد التي بنوها هناك، هو مسجد هواي تشينغ (مسجد الشوق إلى النبي) في مدينة كانتون، ومسجد شينغ جينغ (مسجد الصفاء والطهارة) في مدينة الزيتون (يشوا انتشو) ومسجد شيان خه (مسجد الكركي الملاك) في مدينة بانغ تشو، ومسجد جين جياو (مسجد الدين الحنيف) في مدينة هانغتو، وكانوا في أماكن سكناهم يدرسون اللغتين العربية والصينية، وقد توسعت هذه الظاهرة بعد غزو المغول للعالم، وجلوسهم على عرش الصين[٧٦]

ويذكر «لي تشين تشونغ»، أن جد عائلة «ما» الإسلامية، في مدينة (تشينغ) الصينية، اسمه «ما يي زي» وأصله من العرب من مكة، ووصل الصين سنة ٩٦١م في عهد سلالة سونغ (٩٦٠–١٢٧٩م) الذي دعا «ما» إلى المشاركة في وضع التقاويم فأنجزها في سنتين فمنحه الإمبراطور لقب الشرف، وعينه رقيباً للمرصاد الملكي، ولقد دعاه إلى ترتيب التقاويم، لأن النظام الفلكي العربي «مزايا علمية متقدمة في بعض الميادين» فنقل السيد (ما يي زي) فعلاً العلوم الفلكية العربية المتقدمة إلى الصين، منها النظام الأسبوعي الذي يحدّد على أساسه صلاة الجمعة حيث كان الصينيون يتبعون النظام العشري، وأدخل كذلك طريقة حساب مواعيد الاثني عشر برجاً، وأدخل أيضاً طريقة العرب في حساب مدارات النجوم الخمسة ومواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر.[٧٧]

وكان للمغول أدوار مختلفة على مصير العرب والمسلمين، فإذا كانوا قد قوضوا الطابع المدني لديار العرب والمسلمين في المشرق، وقوضوا مدينة بغداد حاضرة الخلافة، ومعها الخلافة نفسها عام ١٢٥٩م، إلاّ أن الإسلام خرج منتصراً في النهاية، عندما تبنى أغلب المغول الإسلام، وهو ما يظهر جلياً عندما أسلم ورثة هولاكو في العراق وفارس، وأيضاً (القبيلة الذهبية) في بلاد القفقاس وجنوب روسيا، وانفتح تأثير العرب والمسلمين على مركز السلطة المغولية، في عهد قابلاي خان، إذ واصل المغول بعد سقوط بغداد زحفهم على الصين واحتلوا النصف الشمالي منه، واتخذ (قبلاي خان) بكين عاصمة لمملكته سنة ١٢٧٩م، عقب توحيده، وأثناءها «جلب المغول أعداداً كبيرة من مسلمي آسيا الوسطى وبلاد العرب لمساندة غزواتهم».. واستقرت جيوش المسلمين هناك، وعين البارزين منهم في المناصب الهامة للدولة، (وخلال ثمانين سنة من حكم المغول للصين شغل ثمانية وأربعون مسلماً صينياً المناصب الهامة في الدولة بين الوزير والحاكم الإقليمي).[٧٨]

ويذكر المؤرخون الصينيون بجلاء أنه عندما اتخذ قبلاي خان مدينة بكين عاصمة لمملكة سنة ١٢٧٩م، وفقد تولى المهندس المعماري العربي المسمّى «اختيار الدين» تصميم وتنفيذ مخطط المدينة الذي يتضمن بناء القصور والحدائق، والقصور. وذكر تشين يوان خان (١٨٨٠– ١٩٧١م) أنه قرأ في مؤلف لـ (يانغ شوان ١٢٧٤ – ١٣٥٨م) الذي كان يتولى مهمة تأليف ومراجعة كتب التاريخ في البلاط أنه «قبل بناء القصور والمدينة المحرمة (بكين) كان (اختيار الدين) قد قدّم اقتراحاً لبناء الحدائق سنة ١٢٦٣م ونفذ المشروع في سنة ١٢٦٤. ومازالت بعض الحدائق القديمة باقية حتى اليوم، كما أكد الباحث الصيني (مايمنغ داو ١٩٠٨ – ١٩٩١م، في مقالته

«مدينة بكين» أن «مدينة بكين من تصميم المهندس العربي المسلم مقلداً لمدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في القرون الوسطى، وقال: إن معبد السماء في بكين حالياً من تصميم المهندس العربي المسلم أيضاً».(٧٩)

وجاء في كتاب «سجلات تاريخ عهد سلالة يوان» المغولية «أن علاء الدين وهو المسلم من بلاد العرب والماهر في صناعة آلة رماية القذائف وصل إلى الصين عام ١٢٧١م، بدعوة من إمبراطور الصين قبلاي خان، فصنع الدافع (آلات رماية القذائف)، وجربها أمام أبواب المدينة المحرمة (بكين) على مشهد من الإمبراطور والأمراء والوزراء،، ومنح الإمبراطور علاء الدين وزملاءه الهدايا وألقاب الشرف بعد نجاح التجربة»(٨٠)، وأرسلوا علاء الدين مع مدافعه لمساعدة جيوش المغول لضرب مدينة تان تشو (مدينة تشانغ شاميا) الحالية، ولقد سجل العالم لي شون lixun (٨٥٥ – ٩٣٠م) مائة نوع من العقاقير الطبية الواردة من بلاد العرب والفرس وأكثرها عطور وصموغ مثل عطر الورد والصمغ العربي،وصمغ اللك، وصمغ الكثيراء، مع تحديد مواطن إنتاجها وزرعها، وقد وردت مع ازدهار التجارة، الطبية العربية أنواع كثيرة من الأدوية العربية عن الطريق البري والبحري، مثل إهليلج كابلي واللبان «الكندر» والمسك والصبار والمُر والكامون والزئبق والعقيق واللفاح (تفاح الجن)، ودم الغزال، ودم التنين، وعود عطر، وجوز الطيب، وبسابسه القرنفل والفلفل الأسود والزنجبيل والكافور والخروع والباذنجان واليانسون، كما يوجد ذكر في الأجزاء المتبقية الأربعة من الكتاب التراثي الصيني «وصفات هوى هوى» المكوّن من ستة وثلاثين جزيئاً، ما يزيد على ٢٣٢ نوعاً من العقاقير العربية أو الفارسية، منها ما يزيد على مائة وسبعين عقاراً ذكرها ابن سينا في كتابه «القانون في الطب».(٨١)

الرحالة والرحلات

وذهب مع التجار والبحارة الكثير من الرحالة، أو من الجغرافيين الرحالة، فتعرفوا على شعوب الشرق الأقصى، وخبروا أحوالهم وأساليب معاشهم، عاداتهم، ودياناتهم، ودونوا مشاهداتهم في مؤلفات حفظ لنا الزمن أغلبها، منهم من كان تاجراً كسليمان التاجر (٢٣٧هـ – ٨٧١م) في القرن التاسع، والتاجر العماني أبو عبيده عبد الله بن القاسم الذي غادر عُمان إلى كانتون عام ٧٥٠م، وفيهم البحارة كصاحب «عجائب الهند والصين» بزرك بن شهريار (٣٤٢هـ – ٩٥٣م) وآخر لم يترك لنا اسمه كمؤلف «ألف ليلة وليلة»، ولا سيما قصة السندباد البحري، ومنهم من كان سفيراً، يقوم بمهمة سياسية، كابن فضلان الذي مر على بلاد الشرق في مناطق يقطنها الأتراك جيران الهند والصين في طريقه إلى بلغارالفولغا، و سلام الترجمان للتعرف على مصير سد الصين، وأيضاً أبو دلف في رحلته إلى الصين، ورحالة جغرافيون وفي مقدمتهم المسعودي، وابن حوقل، وابن سعيد المغربي، والادريسي (٥٦٢هـ – ١١٦٦م) ومنهم من جمع بين الرحلة وثقافته الموسوعية كالمسعودي (٣٤٥هـ – ٩٦٥م) والبيروني (٤٤٠هـ – ١٠٤٨م) ويقف ابن بطوطة (٧٧٠هـ – ١٣٦٨م) الذي زار الصين والهند وجزر المحيط الهندي، في مقدمة الرحالة جوابي الآفاق، الذين شغفوا بالتجوال والتعرف المباشر على حياة الشعوب وتقاليدهم، وإذا كان قد طغى على الرحلات العربية إلى أوروبا العامل السياسي فإن رحلاتهم إلى بلاد الصين والهند فقد امتزجت غالباً بالأغراض التجارية، فبعد أن دوّن المؤلف العربي مؤلفات كثيرة عن عالمه هو في دار الخلافة وامتلأ قلبه ثقة بالذات، وبشعور عميق بوحدة عالمه العربي – الإسلامي على امتداده وتنوعه، تطلّع إلى معرفة ما يحيط به من عوالم حضارية على تنوعها، في قلب الوحدة الإنسانية التي تشد الجميع إلى لحمتها، يحفزه على الترحال شغف حقيقي بالتعرف على العالم، وهو ما عبر عنه بوضوح ابن الفقيه، في حديثه عن فضائل الغربة، وركوب مخاطرها لاجتراح سبل النجاح، وللتعرف على العالم، ممهداً لحديثه بأحاديث نبوية وآيات قرآنية تحض على الترحال كالآية «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»، وأيضاً الآية «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر»، والقول النبوي «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله،

فحيث ما أصبت خيراً فأقم»، والحديث «سافروا تغنموا» وأيضاً «موت الغريب شهادة» ويذكر قول الصحابي شريح بن عبيد «ما مات غريب في أرض غريبة، وغابت عنه بواكيه إلاَّ بكت السماء عليه والأرض» إلى أن يقول «وقالوا لا توحشك الغربة إذا أنست الكفاية» وقالوا «الفقر أوحش من الغربة، والغنى آنس من الوطن، وترك الوطن أدنى إلى فرح الإقامة... وفي طول الاغتراب نور الاكتساب»... وقال آخر: التمسوا المزيد بحسن الشكر واغتربوا لتكسبوا... وقال «الفقر في أوطاننا غربة.. والمال في الغربة أوطان... وفي طوال الاغتراب فوز الاكتساب، وفي فائدة صالح الأخوان مع النزوح عن الأوطان سلوٌّ عن مقارنة الجيران، ولولا اغتراب الناس عن محالهم ضاقت بهم البلدان.. وقال : «لولا اغتراب المغتربين ما عُرف ما بين الأندلس والصين... وما جمعت الملوك بين الصفائح اليمانية والقضب الهندية والرماح البوصلية، والأسنة الخزرية، والأعمدة الهروية، والخناجر الصفدية، والسروج الصينية، والدروع السابُرية، والجواشن الفارسية، والقسي الشاشية، والأوتاد التركية والسهام الناوكية، والدروع المغربية، والأترسة التبتية، والجلود الزنجية والنمور البربرية والكراسي القُمية، والشهاري النجارية، والبغال الأرمنية، والحمير المريسية، والكلاب السلوقية، والبزاة الرومية، والصوالجة النهاوندية، والثياب المنيّرة الرازية، والأكسية القزوينية، والثياب السعيدية، والحلل اليمانية، والإردية المصرية، والملاحم الخراسانية والثياب الطاهرية، والحلل الاندلسية والدر العماني، والياقوت السرنديبي، والحرير الصيني، والخز السويسي، والديباج التُستري، واليزيون الرومي، والكتان المصري، والوشي الكوفي، والعتابي الأصفهاني».[٨٢]

وهذه الأخيرة قائمة بالسلع التجارية المتبادلة في ذلك العصر، وفوائد الاغتراب التجاري في تسهيل التبادل فيما بينها،وقد دأبت سلطة الخلافة على رعاية المسافرين، وتسهيل حركة الرحالة بتقديم خدمات على الطرقات العامة، ببناء (رباطات) ليبيت فيها المسافرون والرحالة والحجاج والتجار، والتي كان بعضها نقاطاً عسكرية.[٨٣]

ويبدو أن الملاحين العرب، والرحالة والتجار لم يعنوا، في البداية، بتدوين معارفهم ومشاهداتهم، وربما تكون أثارهم المبكرة قد ضاعت، أو كانوا رجالاً عمليين لا يهمهم كثيراً، كتابة مذكراتهم، أوكانوا راغبين عن نشر معارفهم الملاحية، والسياحية على الملأ، كي لا يستفيد منها غيرهم، وإيثاراً لأنفسهم بالنفع التجاري.[٨٤] فلم يدوّن العرب أخبار الرحالة الأوائل، ولكننا ما أن نصل إلى القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري إلاّ ونقرأ في كتبهم الجغرافية والتاريخية، وفي مدونات رحلاتهم معارف مهمة، وأخبار ثرية عن الأمم المحيطة بهم، بما فيها أخبار أمم الشرق الأقصى.

وهكذا أنهى الرحالة صمتهم في القرن الثالث الهجري، في سنة ٨٥١م، على يد سليمان التاجر، الذي ترك أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية – التجارية في المحيط الهندي، وبحر الصين، في القرن التاسع الميلادي، ولعله الأثر العربي الأهم الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية، مع التزام الموضوع، وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها كحال الجغرافيين والمؤرخين، فكان تقريراً شخصياً لتاجر عبر البحر إلى الشرق الأقصى، إلى الصين، أكثر من مرة أبان القرن التاسع الميلادي.[٨٥]

واهتم هذا التقرير بالسرد الموضوعي، ولو على حساب العجيب المستظرف، فالأخبار هنا تؤخذ من التجار لا من البحارة، هؤلاء الأخيرون عرفوا البحر معرفة جيدة بالدرجة الأولى، ثم الساحل بشواطئه ومرافقه. وخلافاً لذلك اطلع التجار من الداخل على البلدان التي أقاموا فيها سنوات طوال أحياناً، وبذا أصبحت تدويناتهم رصينة مفهومة، بينما عُرف النوتيون بتبجحهم، وادعائهم الخبرة في البحار، وروجوا القصص التي يصعب التحقق من صحتها.[٨٦]

فكانت رحلة سليمان التاجر العراقي، في المحيط الهندي والمحيط الهادي، وصولاً إلى البر الصيني من أغنى الرحلات، إذ وصف بدقة هذا الطريق البحري الطويل، ووصف ما شاهده فيه من جزائر، وكما وصف الحياة على البر الصيني، وفي مدنه، وقد دون رحلته سنة (٢٣٧ هـ – ٨٥١م)، التي تُعد من أقدم ما وقع تحت

أيدينا من رحلات عربية، وقد عمل على إعادة تدوينها مجدداً في القرن العاشر الميلادي أبو زيد الحسن السيرافي، وهو من أهل البصرة، وأعطاها الشكل المعروف لنا الآن، وقد ذيل رحلة سليمان التاجر بملحق ضمنه طائفة من الأخبار، عن أهل الهند والصين، جمعها من أقوال الرحالة[٨٧]، فأضاف رحلة ابن وهب القرشي، التي تعود إلى عام ٢٥٧هـ، أي بعد ما يقارب العشرين سنة من رحلة سليمان التاجر، وكان من الأعيان الأثرياء، وقد غادر البصرة، عندما سقطت في أيدي الثوار الزنج سنة ٢٥٧هـ، فوصل إلى عاصمة الصين، وكانت حينئذ «خمدان» وقابل امبراطور الصين، وقد ارتدى وصف ابن وهب أهمية خاصة، لأن رحلته تمّت بعد أن قُضي على الوجود العربي القوي في خانفوه (كانتون)، وانقطعت سبل الاتصال التجاري المباشر بالصين، فصار آخر ميناء تصله السفن العربية ميناء كلة في شبه جزيرة الملايو، ولم يصل الاتصال المباشر بالصين إلا عقب مرور زمن طويل من ذلك التاريخ، وقد التقى السيرافي بالمسعودي عام ٣٠٣هـ، وقد استفاد منه الأخير برواية ابن وهب.[٨٨]

فعندما يدوّن أبو زيد السيرافي عن ابن وهب «أن مدينة قلة سوق الصبر والكافور، الصندل والعاج والقصدير والأبنوس والعود والتوابل والعطور» فهو يدوّن حدثاً تاريخياً، أي تراجع وصول الملاحة العربية من خانفوه إلى مضيق ملاقة، وإحلال شبكة مراكز تجارية في مرافئ هذا المضيق، عوضاً عن العملاء التجاريين العرب في داخل السواحل الصينية، بعد أن انتهى عصر التجار المقيمين هناك[٨٩]. إذ لاحظ أبو زيد السيرافي تغير الأمور في الصين بعد سنة٢٦٤هـ، وبيّن سببه، ويظهر أن ما جاء في الجزء السابع من (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، منقول عن أبي زيد، ثم نقل عن ابن الأثير غيره من العلماء، كان سليمان تاجراً فحسب،لم يعرف الطرق العلمية في البحث، فاكتفى بعرض مشاهداته المباشرة مجردة من التعليلات، والفروض العلمية المنطقية، غير أن هذه المشاهد كان لها أهمية علمية فائقة في نظر المحقّقين، بينما اكتفى أبو زيد بملحقة نقل انطباعات غيره من التجار والرحالة بما فيهم القرشي، وغلفها بانطباعاته الخاصة، أما سليمان فوصف أوضاع الناس كما وجدها في رحلاته، وصورعاداتهم، وتبدل أحوال البحر والتجارة، وأسماء البضائع في سواحل الهند وجنوب الصين، ولم يغفل نظام الحكم، وهيئة الملوك، ومراسيم البلاط. لهذا «اتفق علماء الغرب على أن كتاب (سلسلة التواريخ) من الكتب العربية التي يجب على الباحث أن يستند إليه أو يراجعه إن أراد البحث عن علاقة العرب بالصين.. كما يجب عليه أن يراجع المسعودي والبيروني في البحث عن أحوال الممالك الشرقية الإسلامية في العصور الوسطى»[٩٠].

وقد أوصل إلينا المحققون ما دونه السيرافي تحت اسم «سلسلة التواريخ» تارة، و«أخبار الصين» تارة أخرى، و«رحلة السيرافي» مرة ثالثة، إلاّ أننا نجد تحت تلك العناوين: رحلة سليمان التاجر أولاً، وفي ذيلها الملحق الذي أضافه السيرافي، ونلاحظ التباين بين القسمين، من حيث الأسلوب والموضوعات المتناولة، فإذا كان قد طغى على تقرير سليمان التاجر الموضوعات الواقعية في البر والبحر، إذ تجاوزت اهتمامات سليمان التاجر مصالحه الضيقة: كالسلع المختلفة وأسعارها، والنقود، وطريقة تعامل البلد المضيف مع التجار، والمكوس المفروضة عليهم، إلى تقديم صورة عامة عن المجتمع الصيني، وطبيعة تنظيمه السياسي، وعاداته وتقاليده، بينما يُداخل الملحق الذي أضافه السيرافي، الكثير من قصص البحارة، الذي تتخطف أنظارهم حكايا البحار وغموضه، وما يتصورونه من وجود العجائب في أعماقه وأطرافه، وظواهره ولا سيما في أبعاده القصصية الغامضة. ولقد أبحر سليمان التاجر من سيراف إلى مسقط إلى سواحل مليبار ثم مرَّ بمضيق (بالك) شمالي جزيرة (سيلان) إلى خليج البنغال، ومنه إلى جزيرة لنجبالوس، إحدى جزر نيكوبار، ثم إلى (كله بار) على ساحل الملايو الغربي، ماراً على جزيرة تيومن في الجنوب الغربي من (ملقا)، ومن هناك إلى رأس القديس يعقوب قرب (سايجون)، ومن هناك إلى جزيرة هانيان، ثم عبر المضيق الذي يفصلها عن أرض الصين، ليرسوا في ميناء خانفوه (كانتون) الحديثة، فوصف في طريقه هذه السواحل التي مرّ بها، والجزر

والموانئ المختلفة والمدن، والمحاصيل وسلع التجار، ويعرفنا بوجود جالية عربية كبيرة ومن المسلمين يحكم بينهم شيخٌ مسلمٌ يوليه صاحب الصين، يدعو إلى الخليفة العباسي في بغداد، ويسهب في الحديث عن الهند والصين، وملوكها، وأخبارها، وأحوال الناس وعاداتهم، ويعقد مقارنات هائلة بين أهل الصين وأهل الهند، ويتحدث عن الثغور، والأماكن التي تمّر بها السفن أثناء عودتها من خانفوه إلى سيراف، والبصرة، وعلى هذا النحو نطالع وصفاً أخاذاً للبحار التي كانت تجتازها السفن إلى الصين، كما نقرأ عنده أخباراً كثيرة عن حياة الناس في الصين والهند، ونتعرف منه على شراب الشاي، ولم يكن العرب قد عرفوه بعد، ويقّدم مقارنات واسعة النطاق ما بين أهل الهند، وأهل الصين، وما يتميز به كل شعب منهما من عادات، وأخلاق، وميزات، وصناعات، وعبادات.

كذلك وصلت إلينا أخبار رحلة أبو عبيدة عبد الله بن القاسم من أهل عمان إلى الصين قبل سنة ١٤١هـ – ٧٥٨م، أي قبل نهب خانفوه، وكان عالماً كبيراً في عصره وتاجراً كبيراً اشتغل بتجارة المر، وأيضاً رحلة النضير بن ميمون الأباضي البصيري من أبناء القرن الثالث الهجري، والقرنين الثامن والتاسع الميلادي[٩١].

وقد حفظ لنا ابن رسته رحلة أبي عبد الله محمد بن اسحق، الذي أمضى قرابة عامين في جزيرة قماري (أي قمير – الاسم القديم لكمبوديا الحديثة)، وذلك في أوائل القرن التاسع الميلادي، التي غدت معطيات هذه الرحلة مصدراً مهماً لابن رسته، وابن خرزابه، ولياقوت الحموي عن تلك المناطق التي زارها ابن اسحق، ولعل مذكرات بزرك بن شهريار، المدونة في كتاب «عجائب الهند»، تحتل المرتبة الثانية بين الرحلات البحرية بعد رحلة السيرافي، فقد دوّن الرجل، وهو الربان الشهير، الذي يبدو أنه كان مولعاً بالبحر وقصصه وخبراته البحرية بالإضافة إلى القصص التي سمعها من زملائه في البحر ربابنة وملاحين في المحيطين الهادي والهندي، خلال الفترة ما بين ٢٨٨هـ – ٩٠٠م، و٣٤٢هـ –٩٥٣م، ودوّنها كما سمعها، قصصاً متفرقة لا يربطها رابط، متفاوتة الطول والقصر، تتراوح بين عشر صفحات وبضعة أسطر[٩٢].

وهي حكايات ربما زاد عليها من عنده، أو أقاصيص من عصور متأخرة عن عصر المؤلف، على نحو ما نصادفه في أقاصيص «ألف ليلة وليلة» فصار هذا الكتاب مدونة عن ملاحي العرب الذين أبحروا فوق أمواج المحيطين الهندي والهادي، فيه عجائب الملاحين وغرائب العواصف، وقصص الحيوانات البحرية، كما امتلأ بحكايات عن أحوال الناس في جزائر المحيط الهندي والهادي وعلى ضفافهما، وهو في أثناء ذلك يعطينا ما تختص البلاد من عادات، ويطيل في وصف عُبّاد الهند وكهنتها، ويتعرض لصناعات أهل الهند والصين، وما ينفقه هؤلاء من تقنيات صناعية، فقد تم وضع هذا الكتاب حوالي عام ٣٤٢هـ – ٩٥٣م، فاشتمل على ما تعرّف عليه العرب في القرن الرابع الهجري من بلاد الشرق الأقصى، نقلاً عن الربانية والنواخذ والتجار[٩٣]، أي كُتب بعد قرن من رحلة سليمان التاجر.

تناول بزرك، عقب السيرافي، مجدداً أخبار الصين والهند، وجيرانهما في البحر من جزر وشطآن، وضخَّم الجوانب الأسطورية من الحكايات مازجاً (العجيب)، والغريب بالواقعي، مظهراً ميله إلى جانب العجيب، فبرزت عملياً سيطرة الخوارق على الكتاب، واحتجب البر وراء البحر، والإنسان أمام الحيوان، والبلاد الأجنبية أمام ظفر دار الإسلام، ولم يقيض البقاء إلاَّ للجزائر، ولأفريقية الشرقية والهند، وتوارت الصين في الظلمة فلم تعد تخرج منها إلاَّ لتسلّط أضواء متقطعة على بلدان تحييها الأسطورة وحدها في ذاكرة البشر... فتوضع على مستوى واحد: الهند وبلاد الواقواق، وسرنديب وجزيرة الحيوانات البحرية، لأن الأرض المقصودة أو المحكي عنها، أصبحت ترتبط من الآن فصاعداً بالبحر وبما يتناقله من أحلام، فالبحر يسيطر هنا بلا منازع ويطبع بطابعه ويمتزج فيه العجيب والمغامرة والقريب.[٩٤]

فلقد توارت حكايات ومذكرات التجار الواقعية، مع اختفاء الاستيطان العربي على ساحل الصين، بعد أزمة

خانفوه، ورحيل العرب المسلمين عنها، وانقطاع الاتصال المباشر ما بين التجار العرب، والساحل الصيني، وانتقال مركز التبادل إلى كله بار في شبه جزيرة الملايو، فطغت حكايات البحارة ومغامراتهم، التي امتزج فيها العجيب بالواقعي، على المذكرات الواقعية النافذة للتجار، وعلى سرديات البحر، وعلى التطلع لمعرفة بنية المجتمعات ومعمارها الثقافي. وإذا كانت سردية السيرافي قد أرست نوعاً «من الذهنية العلمية» فقد تعرضت للتراجع لصالح التحليق في الخيال، لتقترب بعض الرحلات البحرية إلى ما يشبه حكايات ألف ليلة وليلة.

وعمل فون ديرليت Von derlit على نشر، كتاب «عجائب الهند» في مدينة ليدن، وكان يظن أن بزرك قد ألف كتابه فيما بين سنة ٩٠٠ إلى سنة ٩٥٠م، ويميل فرّان Ferrand إلى الاعتقاد بأن بزرك الناخداه هو المؤلف الأصلي للكتاب، وأضاف عليه أشخاص آخرون حكايات بحرية أخرى.(٩٥)

انتهى بزرك في مؤلفه إلى جمع حكايات البحارة والرحالة إلى بلاد الهند والزابج (أندونيسيا حالياً)، والصنف (فيتنام) والصين، وقدّم فيه صورة عن الحياة على ظهر البحر الشرقي وفوق شواطئه وجزائره، تساعدنا على فهم كثير مما ورد في كتب الجغرافية العربية، وهو وإن كان يمزج الوصف البليغ والواقعي بالوصف العجائبي، والإسلوب السهل بالحركة، فإن الدكتور حسين فوزي يقول عنه «لكن المطلع المنصف، المتحرر من قيوده هذه البلاغة، لا يتمالك إلاّ أن يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته، والقوة والحركة تسري في أعطافه، لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب العربي الرسمي عن البحار فلم أجد فيه ما يداني ولو من بعيد ما جاء بكتاب «عجائب الهند» صدقاً في الوصف وقوة على الإيحاء بالجو البحري... هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحاً مباشراً عن تجارب شخصية»(٩٦). ومؤلف الكتاب كما يدل عليه لقبه (الناخذاه) كان رُباناً يحترف ملاحة السفن، وتدل حكاياته أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهي حكايات يرويها عن بعض الملاحين الذين جابوا المحيط الهادي والهندي، وحفظ هذا الكتاب قصة ملاحي العرب فوق متن المحيط الهندي والهادي، على توالي العصور، يذكّرنا بما شاهدوه فيها من عجائب الملاحة وغرائب العواصف، والكتاب مليء بالحكايات عن أحوال الناس في جزائر المحيط الهندي، وعلى شطآنه، وهو في أثناء ذلك يعطينا كل ما تختص به البلاد من عادات، وأطال المؤلف في وصف المتعبدين الهنود وكهنتهم وبيوت عباداتهم، وسحرتهم وثيابهم وتعاويذهم، ولم ينس صناعات أهل الهند والصين، وخاصة ما يتقنه الأخيرون من نقش وتصوير.

وقد نتج عن تداول المشاهدات الواقعية، أو الحكايا المتخيلة التي نقلها الرحالة العرب من بحار الهند والصين، أو من برّهما، بالإضافة إلى ما كتبه الرحالة الجغرافيون، وأصحاب المصففات الجغرافية الأكاديمية، وكتّاب سير العجائب، وما رواه جماعة الملاحين من حكايات شاهدوها أو سمعوها في أسفارهم في البحار الشرقية، نتج عنها أدبٌ قصصيٌ تقع بعض حوادثه في الصين والهند وبحارهما، على نحو ما نجده في قصص السندباد البحري المشهور، في «ألف ليلة وليلة»، التي تعتبر بحق أعظم الحكايات الشعبية في كل العصور، وقد أشار إليها ابن النديم، أبو الفرج بن اسحق بن أبي يعقوب (٣٨٣هـ - ٩٩٣م) في كتابه «الفهرست»، فذكّر مرة بأصولها الهندية، تحت اسم «هزار أفسان»، ومعناه ألف خرافة: «وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج إمرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد... فتزوج جارية من أولاد الملوك ممن كان لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد، فلما حصلت معه ابتدات تخرّفه... إلى أن أتى عليها ألف ليلة»(٩٧). وذهب في مرة أخرى باتجاه مغاير، ليؤكد على تأليفها المحلي، حيث يقول «ابتدأ أبو عبد الله محدب بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب «الوزراء» بتأليف كتاب اختارفيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم.. وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون، وأختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما يحلو لنفسه، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم

عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تنمية ألف سمر».[٩٨]

ويشير المسعودي إلى قصص «ألف ليلة وليلة» ومثيلاتها من القصص الشعبي الذي يختلط فيها العجيب الغرائبي بالواقعي باستخفاف وتذمر «وهذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظّمها عن تقرّب للملوك بروايتها وجال على أهل عصره بحفظها، وسبيلها سبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب «أفسان» والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنة شيرزاد ودايتها دنيازاد... مثل كتاب «السندباد» وغيرها من الكتب في هذا المعنى[٩٩].

وفي كلا الحالين فإذا كانت هذه القصص قد استطالت وتوسعت من (نواة) قصصية مترجمة عن الهندية، أو توسعت عن القصص التي كتبها ابن عبدوس الجهشاري «فإنها» لم تكن على هذه الصورة بعينها التي استقرت عليها اليوم، أو في القرون الماضية، فإن المترجم منها عن الهندية أو العائد إلى الجهشياري، لم يكن سوى النواة «أضيفت إليه قصصٌ كثيرة لا نستطيع أن تحدد تاريخها ولا موطنها في تأكيد، وغدت بمجملتها تمثل حياة شعوب الدولة الإسلامية، أو المتصلين بها الذين خضعوا لأثر المدينة الإسلامية خضوعاً تاماً».[١٠٠]

وقد نما الكتاب وزيد عليه في الأقطار الإسلامية في الشام والعراق وفي مصر خاصة، ثم خضع في أزمان مختلفة، وخضع في وقت ما إلى مؤلف ذي شخصية جامعة حوّر فيه وأخضع أسلوب كثير من قصصه لأسلوبه، فخضع الكتاب لمؤثرات الحضارة الإسلامية.[١٠١]

فعلى الرغم من الأصول الأولى للنواة المؤسسة لـ «ألف ليلة وليلة» فقد أضاف إليها التأليف العربي حكايات، وأشخاصاً، وأوصافاً، جعل «الليالي» تنصهر عمقاً في قلب الثقافة العربية، لتصبح جزءاً من متنها، وعكست متخيلها عن العالم، فانصهرت العناصر الهندية في صلب حكاياتها العربية واكتسبت شخوصها روحاً عربية إسلامية، وأعطت الأخيرة لحماً ودماً وخيالاً، لذا لا يمكن التعامل مع هذا الأثر العظيم، إلاّ على أنه ينتمي إلى الأدب الشعبي العربي، والأكثر قرباً وحميميةً من عواطف الإنسان العربي المسلم، ومن عقله وخياله، ورموزه، وقيمه، ومن النسق الثقافي العربي بوصفه شبكة من الدلالات والرموز والمعاني، وقدمت مغامرات «سندباد»، التي تحتل جزءاً هاماً من حكايا «ألف ليلة وليلة» البحرية، مجموعة من قصص البحارة اختلط فيها خيال كاتبها المجهول بالوقائع التاريخية، ومعارف بحرية ومعلومات جغرافية، وصورة عن حياة الهنود والصينيين، وأياً كان مؤلف قصص سندباد، فقد استطاع أن ينشئ قصصه الخلابة من أشتات المعارف الجغرافية، وحكايات الرحالة المتداولة في عصره. أو كما قال كراتشكوفسكي عنها: «أن أسفار السندباد انبعثت في الوسط نفسه الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان، وفي مواصفاتها نفسها' أي سيراف والبصرة وبغداد، وأما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو، وقد أمكن تحديد أماكن بعض حوادثها بالكثير من الدقة».[١٠٢]

وارتبطت رحلات السندباد البحرية الخيالية بازدهار الحضارة العربية، وتطلعها للاتصال بالعالم، وكان للبحر وللتجارة المنزلة الكبرى فيها، إذ مثل التاجر نموذجاً فريداً لهذه الحضارة، وقد ارتبطت سرديات السندباد بالرحلة والسفر واللقاء بالآخر، والتنقل في ربوع الشرق الأقصى وبحاره، وعكست المرجعيات الثقافية العربية، كما ساهمت في تشكيل المتخيل العربي نفسه عن الصين والهند، وجزر المحيط الهندي، ولا سيما أنه تم تداولها على نطاق واسع في الأوساط الشعبية العربية، في مشارقها ومغاربها، وأخذت بألباب الناس وأفئدتهم، لذا فإن الصورة المُتخيلة التي نقلوها عن حياة الصين والهند، وشعوب الجزر الهندية، عكست وشكلت، في الوقت ذاته، المخيال الشعبي العربي عن تلك الشعوب وعلى هذا الأساس، لا يمكننا أن نتجاهلها في بحثنا عن صورة تلك الشعوب في المخيال العربي.

لا تتوقف حكايات السندباد عند وصف المدن وتفصيلاتها، وطبغرافيتها، ولا تهتم كثيراً بالوصف التفصيلي للطرق، وهي كثيرة، التي سلكها السندباد في مغامراته، بل أنها مليئة بالخلط بين المدن، وأعلام التاريخ، ومواقيته، إلاّ أن مايهمنا هنا هو (تخيُّل) تلك السردية، للمكان والزمان، والاهم من ذلك المُتخيل الذي تناقلته عن

حياة الناس هناك، وعن الأنماط العامة لسوك الجماعات، وكل ما يرتبط بحياتها الاجتماعية، وعاداتها، ومعتقداتها، وطقوسها، وآدابها، أي باختصار، مُتخيلها لحياة الناس الثقافية.

فمنذ أن بدأت السردية بالكلام عن شهريار وأخيه، نجد القاص يقول: إنهما من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين. وكلما بعد المكان عن بلاد العرب المسلمين، وجدنا عدم التحديد والغموض والتعميم في ذكر البلدان، حتى أنها تصبح خيالاً فكل أجزاء الهند ومدنها تبدو متماثلة، حالها في ذلك كحال التماثل بين أجزاء الصين، وإذا توجهت بنا حكايا «ألف ليلة وليلة» شرقاً صادفتنا بجزائر الخالدات، وجزائر الكافور، والواق واق، وجزيرة النساء، والكثير مما كان متداولاً بين العرب المسلمين آنئذ عن عجائب الهند والصين، وسنلاحظ بالنهاية أننا أمام جو إسلامي يفرض سيطرته على قصص هؤلاء الذين رووا قصصهم على ملك الصين، وإذا كنا قد وجدنا بعض القصص التي تقع في أرض الهند تغلُب عليها المواعظ والحكم، فذلك لأن هذا مقتبس من الصورة الشائعة عن الهند في ذهن العرب والمسلمين في العصر الوسيط.(١٠٣)

وكان اليعقوبي معاصراً لأبي زيد السيرفي، قام برحلات إلى الهند، وإلى المغرب ماراً بمصر والبلاد الشرقية للخلافة، وألف كتاباً في التاريخ وفي «البلدان»، ويعتبر الأول خلاصة تاريخ العالم، أنهى تأليفه في سنة ٨٧٢م، وأدرك سعة بلاد الصين، وعظمة ملكها وقدّم ملاحظات عن احتكاك العرب بالصين، وما يقطعه البحارة والتجار العرب من بحار ليصلوا الصين. أما المسعودي (٣٤٥هـ - ٩٦٥م) المفكر الموسوعي، المتعدد الاهتمامات الثقافية، والذي اشتهر كمؤرخ وجغرافي على السواء، وهو أبرز كتاب القرن الرابع الهجري، وجمع في شخصيته بين مزايا عدة، واهتمامات متنوعة، وبين الرحلة، فامضى شبابه في الترحال طولاً وعرضاً، فزار أصقاعاً شتى، فبالإضافة إلى ترحاله في ربوع مشرق أفريقيا وتجواله في البلاد العربية الإسلامية، فإنه زار الهند عن طريق البحر فمر بالسند والبنجاب، وكنكان ومليبار، ثم بعد أن اجتاز سيلان (سرنديب) مضى قدماً نحو بحر الصين، ثم عاد إلى زنجبار ومدغشقر وأخيراً قفل راجعاً صوب عُمان متخذاً طريقه إلى مسقط رأسه بغداد، ثم قصد مصر في سني عمره الأخيرة حتى قضى سنة ٣٤٥هـ - ٩٦٥م.(١٠٤)

وهو ليس رحالة وحسب، ولا مؤرخاً، ولا جغرافياً، ولا فلكياً ولا فقيهاً، ولكنه جمع بين تلك الاهتمامات وصقلها في بوتقة الاختبار، بعد أن أضفت عليها الرحلة وسعة الصدر الكثير من العمق في التفكير والدقة في التعبير.(١٠٥)، وقد قال عنه ميكيل إنه «فيلسوف ذكي جداً، واسع الإطلاع، انفتح ذهنه على جميع الأنظمة الفكرية، من فلسفات الحكماء الأسطوريين، إلى معتقدات ومذاهب عصره المتباينة، وهو مؤرخ ديانات، ذهب بعيداً في تقصياته فعرف المادرية والسبأية والبوذية، ومذاهب النصارى واليهود، وقد سأل في أسفاره فقهاء أمم عديدة وعلماءَهم، كاليهود والفرس، والنصارى... ويستغرب الباحث توفيقه بين العقيدة الإسلامية والتقصي العلمي «ومرونته في اتصاله بالكفار».(١٠٦)، وكان قد تحدث عن رحلاته وأسفاره ومنهجه في البحث، في مدخل (مروج الذهب)، أكد صراحة على اعتماده المشاهدة والتجربة في دراساته، وعلى موضوعيته في تناوله للمذاهب والأديان التي تعرض لها، «وليعلم من نظر فيه أني لم أنتصر فيه لمذهب، ولا تحيزت لقول، ولا حكيت عن الناس إلاّ مجالس أخبارهم، ولم اعرض فيه لغير ذلك».(١٠٧)

وتعايش مع الواقع ليعلم الأمور بالمشاهدة والترحال، و«تقاذف الأسفار، وقطع القفار، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند (وهي باكستان حالياً)، والزنج والصنف (موضع بلاد الهند)، والصين، والزابج (يقصد سومطرة) وتقحمنا الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان، والران والبيلقان (نواحي من أرمينية) وطوراً العراق، وطوراً الشام».(١٠٨)

شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلسي، ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين، ومن

المحتمل أن يكون كما يشير كراتشكوفسكي قد زار الصين وأرخبيل الملايو، وكثيراً ما كان يثبت في مصنفاته تاريخ زياراته.(١٠٩) واحتلت مصنفاته مكانة خاصة، بعد أن اكتسب «من رحلاته معارف ومعلومات لا تحصى في أمور الجغرافية والأجناس البشرية، يقدم خلاصة لـلآراء السائدة من الباحثين المسلمين عن امتداد المحيط الهندي».(١١٠)

فعندما كان الجيهاني (جمعة أبو عبد الله أحمد بن أحمد ٩٠٣م) مشغولاً بطريقة مكتبية، بجميع مادته اللازمة لإنجاز كتابه، كان أبو الحسن علي المسعودي يجوب الآفاق، فيقضي الجزء الأكبر من حياته في السفر والرحلات، ووصف أقاليم لم يسبق لكاتب عربي أن وصفها من قبل، فلم تقتصر رحلاته إلى ديار الإسلام من حدودها الشرقية حتى أفريقيا، فقد زار الهند وسيلان، وأرمينيا وساحل قزوين، وبحار الحبشة، والملايو والصين، يحمل معه إطلاعه الواسع على العلوم الإسلامية والتاريخ القديم،والجغرافية، وعقائد وتصورات الشعوب، فتعرض في تأليفه للأقاليم المختلفة في العالم من غاليسيا Galicia والبرانس إلى الصين، وهناك شبه كبير بين آرائه عن التفاعل بين الإنسان وبيئته، وبين الآراء الحديثة.(١١١)

ومما لا ريب فيه أن المسعودي فتح آفاقاً جديدة في أبحاثه، عندما وضع في «مروج الذهب» خلاصة اختباراته وتجاربه وأسفاره، وكان في أكثر الأمور التي عالجها صاحب رواية وبصيرة نافذة، وإن بقيت بعض العجائبية الشائعة عن بلاد الشرق الأقصى وبحارها عالقة في أبحاثه، وحفظ لنا وقائع رحلة ابن وهب القرشي الذي غادر البصرة في رحلته من سيراف إلى خانفوه (كانتون) في الصين، في القرن التاسع الميلادي، ولعله قد سمعها من السيرافي الذي دوّنها بدوره، عندما صادفه عام ٣٠٣هـ، فترك المسعودي وراءه ملاحظات واسعة عن حياة الصينيين والهنود، وسكان المحيط الهندي، ضمنها في كتابيه «مروج الذهب»، و«أنساب الأشراف» وجملة من الصور تعكس بمجملها المُتخيل العربي عن تلك الشعوب.

وقد توقف طويلاً في وصفه للمحيط الهندي، وجزائره، وسكانه، وطبيعته، والتجارة التي تجري فيه، والسفن التي تمخر عبابه، وكيفية صناعتها، واختلافها عن سفن البحر المتوسط، ولا يخلو وصفه من بعض العجائب، إلاَّ أنه يعارض نظرية بطليموس القائلة بامتداد جنوب القارة الأفريقية نحو الشرق بطريقة يوازي فيها هذا الامتداد السواحل الهندية الصينية، وبشكل يُحدث فيه ما يُشبه بحيرة مغلقة مع البر الهندي والصيني، إذ أشار إلى اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلسي وإلى إحاطة البحار الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية، فكان في ذلك مثل البتاني، في تصحيحه لخطأ بطليموس، أما القسم الأثنوغرافي من كتاب «أنساب الأشراف»، فهو يتعرض لتشعبات الأمم والشعوب، وتفرّع حضاراتها، فيقسم الأمم إلى سبعة مجموعات، هي الفرس، والكلدانيون الذين يضم إليهم العرب واليهود، ثم أمة اليونان والروم، ثم الأفارقة، وبعدها الترك، فسكان الهند والسند، وأخيراً الصينيون، ومن المستحيل كما يقول كراتشكوفسكي «إنكار ما يتميز به المسعودي من تنوع النشاط العلمي، وما يتصف به من موضوعية في الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان، فهو يسأل باهتمام ممثلي مختلف العقائد، ويتفحص بانتباه فائق كتبهم، ويتعرف جيداً على آدابهم، وكان موقفه محايداً إزاء النصارى واليهود والصابئة».(١١٢)

ولعل أول الرحلات العربية البرية، باتجاه الشرق الأقصى هي رحلة تميم المطوع بن بحر (٧٦٠ م – ٨٠٠ م) وتميم هو أول الرحالة الذين زاروا بلاد الأتراك جيران الهند والصين، فوصل إلى التغزغز القاطنين حوض أورخون جنوب بحيرة بايكال، وكان لهم قطعان ماشية، ومساكنهم من خيم وأكواخ لباد، ولا توجد عندهم مدينة سوى مدينة (الخاقان)، وهي مدينة كوشان، ومن المحتمل أن يكون قد قام برحلته في أوائل القرن التاسع وأنه وصل إلى عاصمة الأويغور (قره بلاساغوه) على نهر أورخون في مدينة مونغوليا الخارجية، ويذكر أن الأويغوريين على دين (المانويه)، وعلاقتهم وثيقة مع أباطرة الصين، ولقد نقل بعض وقائع رحلته ابن خردابة،

وابن الفقيه وياقوت الحموي.[113]

وهناك رحلة سلام الترجمان في القرن التاسع الميلادي، الذي يقال إنه أول من عبر الطريق البري إلى الصين، وقد أرسله الخليفة الواثق بالله (٢٣٢هـ – ٨٤٧م) ليستطلع حال سد الصين، بعد أن رآه في المنام وقد انهدم، ولعل هذا الحلم المزعج مرده الشائعات عن تحرك القبائل التركية في أواسط آسيا نتيجة قضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالي عام ٨٤٠.[114]

وكان سلام متقناً ثلاثين لساناً، وضم إليه الواثق في رحلته خمسين رجلاً وأعطاهم مئتي بغل لحمل الزاد والعلف، فنقل لنا الترجمان جانباً من أخبار الصين وعجائبها، ونقل إلينا انطباعاً عن الشعوب القاطنة في أقصى شمال شرق المعمورة، تلك التي يسمونها شعب يأجوج ومأجوج في الحدود الشمالية لبلاد الصين،والترك، وانتشرت وقائع رحلته في الأدب العربي، ورواها الجغرافيون: ابن خردازبه، وابن رسته وياقوت الحموي، وأبو حامد الغرناطي، والقزويني والنويري، كما احتفظ لنا الإدريسي بعضاً منها.[115]

أما رحلة (أحمد بن فضلان) الذي أرسله الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩هـ – ٩٢١م، على رأس بعثة إلى بلاد البلغار على نهر آتل، جنوب روسيا، فقد تمّ إعداد هذه السفارة استجابة لطلب بلغار الفولغا الذين أرسلوا رسولاً إلى عاصمة الخلافة يرجون العون ضد ضغط الخزر عليهم في الجنوب، وأن ينفذ إليهم من يفقههم بالدين، ويعرفهم بشعائر الإسلام، وقد غادرت السفارة بغداد في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩هـ – ٢١ يونيو ٩٢١.[116]

وقد قابل في طريقه قبائل تركية وهم على جوار الحدود الشرقية للهند. وصف لنا عاداتهم، وطقوسهم وحياتهم، «وشهادته تكاد تكون المادة الوحيدة عن تاريخ الفترة السابقة للأتراك السلاجقة الذين انبثقوا عن الأوغوز، الذين اجتاحوا في القرن الحادي عشر القسم الأكبر من الشرق الأوسط وأقاموا سلطنتهم الخاصة».[117] وقام أبو دلف مسعر مهلهل الخزرجي الينبعي (٣٩٠هـ – ١٠٠١م) في الفترة نفسها، برحلته إلى الصين عام (٣٣١هـ – ٩٤٢م)، استجابة لتكليف الأمير الساماني نصر بن أحمد، الذي أتته سفارة من الصين تخطب ابنته إلى ملكها، فما كان من الامير الساماني إلاَّ أن كلّف أبا دلف لمصاحبة السفارة الصينية، وليكون رسوله إلى "فالين بن الشخير) ملك الصين ليخطب ابنته لابنه الأمير نوح الساماني، (لأن الشريعة لا تسمح له بتزويج ابنته المسلمة من ملك الصين، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلى خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلاثمائة من الجواري والخصيان وتزوج منها نوح.[118] فخرج أبو دلف من بخارى وعبر تركستان الغربية فالشرقية والتيبت ودخل الصين، ثم غادرها إلى الهند، ومنها رجع إلى بخارى عن طريق تركستان ووصف البلاد التي مرّ بها، وحفظ لنا مقتطفات عن هذه الرحلة ابن النديم وياقوت والقزويني.[119]

وقد وصف لنا مشاهداته في الصين، ومظاهر العمران والأشكال المتنوعة للسلوك الإجتماعي لدى الصينيين، ولدى أهل التيبت. كما وصف معيشة القبائل والشعوب التي مرّ بها في طريقه إلى الصين من مأكل وملبس ومشرب، وعاداتهم وعباداتهم ومبانيهم وأشكال سكنهم، ولم يتوقف عن إصدار الأحكام والمعايير على ثقافتهم، وذهب غريغور ريف V.V. Grigoriev إلى أن رحلة أبي دلف لا تقوم على أساس من الواقع، بل هي جمع لشتات ما قرأه وسمعه من الآخرين، ورأى بارتولد أنها مدلسه، واعتدل مينورسكي قليلاً فرأى أن بعضها حقيقي وبعضها من نسيج الخيال بينما توصل كراتشكوفسكي، وهو رأي أقرب إلى الحقيقة، أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعية حقيقية لا شك فيها، وأن القصص الواردة على لسانه في "الفهرست" لابن النديم "تحمل جميع الدلائل على رجحان حدوثها، كما أن قصة تسلقه لجبل دماوند (دنباوند Demaved) الذي حفظها لنا القزويني، تمثل شيئاً طريفاً للغاية، وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته.[120]

وبكل الأحوال، فإن رحلة أبي دلف بما تحمله من معطيات عن حياة الناس، وبيئاتهم الواقعي منها

والعجائبي، هي خلاصة للتصورات الجغرافية التي كانت سائدة عند العرب المسلمين آنذاك عن الصين والهند، ولقد شمل وصف أبي دلف، أمم الترك والتتار، المنتشرة ابتداءً من سواحل البحر الأسود إلى ضفاف نهر آمور، فيصف لنا التغزغز وهم شعب يعيش على نهري سيحون (سيرادريا) وجيحون (أموداريا) بأن أكلهم اللحم النيء، ولبسهم الصوف والقطن، ومعابدهم، وتربيتهم للخيل، وأيضاً يشمل وصفه الخرخير في طريقة ذاتها، وزار في الهند المولتان والمنصورة وحيدر آباد، والديبل الساحلية، وأيضاً قنوج في شمال الهند، فضلاً عن الصين، وبلاد التيبت، ونعثر على نصوص رحلته في «معجم البلدان» لياقوت الحموي، وفي «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني، وعندابن النديم في فهرسه.

وكان لرحلات أصحاب «المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية»، في القرن العاشر الميلادي، وأبحاثهم العلمية التي اعتمدت على المشاهدة والتجربة، دورها في تقديمهم ملاحظات قيمة عن حياة شعوب الشرق وبحارها، على هامش موضوعهم الأساسي، وهو جغرافية «دار الإسلام» البشرية، فكان لرحلاتهم الواسعة النطاق، والتي شملت البلاد المجاورة لأطراف الهند والصين، والمعلومات التي استقوها وخبروها مباشرة، أو سمعوها من الرواة، دورها في تقديم صورة مهمة عن حياة تلك الشعوب، ولا سيما أن إعلامها قد كانوا متحررين من سطوة نظريات بطليموس، لحساب الاعتماد على المشاهدة والتجربة، واستعاضوا عن نماذج بطليموس الرياضية الفلكية عن الأقاليم، بـ «أطلس الإسلام» يعتمد على فكرة «الإقليم» ذات المحتوى الجغرافي البشري جيوبوليتيكي، ولهذا تحولت عندهم الأقاليم من سبعة محدّدة بخطوط فلكية وهمية على الكرة الأرضية إلى أكثر من عشرين إقليماً، وانتقلوا من مفهوم الإقليم كأحزمة عريضة تضم عدداً من درجات العرض (Kliomata) إلى مفهوم ينظر إليه كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات (Degion)، ولعل (قد امه بن جعفر) بتقديمه مفهوم «دار الإسلام» كتعبيير عن وحدة الجماعة الإسلامية، واتخاذه التجربة والمشاهدة قاعدة لدراسته، واليعقوبي (٢٨٤هـ – ٨٩٥م) بمزجه التاريخ بالجغرافية، واعتماده الرحلة كمصدر لمعلوماته واستنتاجاته قد مهدا الطريق لظهور المدرسة الجغرافية العربية، فكان أن أتى أصحاب هذه المدرسة ليتخذوا من الرحلة أداة لبحثهم، ودار الإسلام – بشكل رئيسي – مجالاً لتقصياتهم العلمية.

وقد وضع البلخي (أبو زيد أحمد بن سهيل ٣٢٢هـ – ٩٣٤م) أسس تلك المدرسة في كتاب «صورة الأقاليم» الذي رفع التقسيمات الأرضية من سبعة أقاليم إلى عشرين إقليماً وتبعه في بحثه الاصطخري (أبو إسحاق أبو إبراهيم بن محمد الفارسي ٣٤٠هـ – ٩٥١م) وأعقبه ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلي ٣٦٧هـ– ٩٧٨م)، بعد ذلك برز المقدسي (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ٣٨٧هـ – ٩٩٧م) في كتاب (أحسن التقاليم في معرفة الأقاليم).

إذا عدنا إلى مخطط الاصطخري وجدنا فيه ستة عشر إقليماً وهي ديار العرب، والمغرب، ومصر، والشام، والجزيرة، والعراق، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند، وأرمينيا، وإيران، وأذربيجان، والجبال والديلم، وسجستان، وخراسان وما وراء النهر، وخوارزم، يضاف إليها أربع مجموعات هي بحر فارس وبحر الروم وبحر الخزر، ومفازة خراسان وفارس فيصبح العدد الإجمالي عشرين إقليماً ستة عربية وثمانية أعاجم، فقدم لنا انطباعات سريعة عن الهند والصين كما وصف المحيط الهادي والهندي، وجزرهما، وطرق التجارة التي تتضمنها، وأكمل ابن حوقل طريق الاصطخري، ولاسيما أنه كان مغرماً بالتجوال لمعرفة العالم، وبدأ تجواله من بغداد في رمضان عام (٣٣١هـ – ٩٤٣م)، فجاب أفريقية الشمالية والأندلس، وزار نابلي وصقلية، وعرف عن كثب العراق وفارس، وجزءاً من الهند.[١٢١] ويطلق المقدسي على الهند عبر وصفه بلاد السند، والملتان، وقنوج، والمواد التجارية التي تُحمل من هناك، ودراهمهم، والتماثيل التي في ملتان، ولم ينس أن يحدثنا عن بحر الصين، وجزر المحيط الهندي: سرنديب، وماسماه جزيرة الكلب. وحفظ لنا وقائع رحلة سلام الترجمان إلى سد الصين، الذي يسميه سد ذي القرنين، وهو صاحب عبارة «وعدن دهليز الصين مع صحار».[١٢٢] وقدّم لنا في

مقدمه كتابه صورة صادقة عن المنهج العلمي الذي اتبعه أعلام تلك المدرسة الجغرافية في تعرّفهم على الأقاليم، وأحوال الأمم، إذ قال «وما تم لي جمعه، إلاَّ بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمة الملوك ومجالستي القضاء، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء، وكتبة الدين ومخالطة الزهاد والمتصوفة، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجار في كل بلد، والمعاش مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الإقليم بالفرسخ، حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيش عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها..[١٢٣]

ودوّن أبو ريحان البيروني (٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) خلاصة تجارب رحلاته وتجواله، في ربوع الهند، والتي استمرت أربعين عاماً، في كتابه الشهير،(تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة)، الذي انتهى من تأليفه عام ٤٢٣هـ - ١٠٣١م، أي بعد عام ونصف من وفاة السلطان محمود الغزنوي، الذي جاء به من خوارزم إلى غزنة، وصحبه في غزواته الهندية، فتعرف من خلالها على حياة الهنود، وخاصة على حياتهم العقلية، والدينية، ويُعد الكتاب وثيقة تاريخية إثنوغرافية عن الهند، فهو لم يدرس فيه طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها وحسب، بل درس كذلك لغة أهلها وآدابهم في مختلف بيئاتهم، ووقف على تقاليدهم، معتمداً على معرفته المباشرة لأحوالهم، وهو الذي قال في مقدمة كتابه المذكور، «إنما صدق قول القائل: ليس الخبر كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حدوثه.[١٢٤] اعتمد فيه على المقارنة بين التجربة الفكرية الهندية وما يماثلها من حياة فكرية عند اليونان، «ليس الكتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم».[١٢٥] وإن لعبارته القائلة «أورد كلام الهند على وجهه» أهمية خاصة نظراً لاتفاقها مع ما يصبو إليه الإثنوغرافي المعاصر من رصد ثقافة مجتمع معين كما يراها ويفسرها أهل هذا المجتمع.[١٢٦]

وكان البيروني قد انضم إلى ركب السلطان محمود الغزنوي عند فتحه الهند، واستطاع تعلّم اللغة السنسكريتية والقيام برحلات وتجوالات بالهند التي قضى فيها طويلاً، وبهذا اجتمع له من المعلومات ما اشتمل عليه كتاب الموسيعي (تحقيق ما للهند) لهذا قال سارتون عن البيروني: إنه أحد أعظم العلماء في التاريخ، فهو عالم، ومؤرخ طبيعي وجيولوجي، وفلكي، ورياضي، كما أنه درس التقاويم والطب، وتمتع بحاسة جغرافية حاذقة، واسع الأفق والمعارف، تعرف في الهند أكثر مما تعرف على المنطقة الشمالية الغربية من الهند، وأتقن السنسكريتية، ليكرس جهوده لدراسة علوم الهندوس، ثم أودع حصيلة دراساته ورحلاته في كتابه «تحقيق ما للهند» الذي يعتبر إحدى الثمار المرموقة في حقل الجغرافية الإقليمية، بسب ما يتميز به من نفاذ للحقائق ومقدرة على الإفادة منها.[١٢٧]

وكانت أولى مؤلفاته الكبرى رسالة علمية عميقة تعرف باسم «الآثار الباقية» قد درس فيها التقاويم والأعياد عند الفرس، وأهل الشام، واليونان، واليهود، والمسيحيين، والصابئة، والزرداشتيين، وعرب الجاهلية، والمسلمين، قال عنه ديورانت «والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة، مبرأة من أقصى حد من الأحقاد الدينية... كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية».[١٢٨]

أما كتابه «تحقيق ما للهند» فلا يمكن اعتباره كتاباً في الجغرافية بمعناها الضيق، إذ خصّصه بشكل رئيسي لعرض المكانة التي تحتلها الحضارة الروحية للهند، قياساً إلى الحضارات الأخرى، وخاصة الإنجاز الروحي والعقلي لليونان، فعرضت مقدمة الكتاب للهند عامة، وضم الفصل الثامن عشر ملاحظات متفرقة عن الأرض والأنهار والمحيطات وعن اتساع الأقطار المختلفة، وتحدث في الفصل الخامس والعشرين عن أنهار الهند، وجمع بالإضافة إلى ذلك كله مجموعة هائلة من المعلومات الإثنوغرافية عن الهند، وخصص فصولاً هامة

عن ديانة الهند وحياتها الفكرية، فكشف في ذلك الكتاب عن معرفته العميقة بالتصورات الجغرافية، والكوزمولوجية لدى الهنود، كما وضح لنا الكثير من المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للعلوم والآداب الجغرافية العربية.[١٢٩]

وأودع في كتابه هذا نتيجة دراساته في تاريخ وعادات وعقائد وآداب علوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض، فأصبح بذلك واسطة العقد بين الإسلام والهند بعد أن نقل إليهم ما عند المسلمين من علوم، ولقد ميّز في مؤلفه ذاك بين ما شاهده بعينيه وما سمعه من غيره.[١٣٠] وهو فيما كتبه، لم يخص تاريخ الهند السياسي إلاّ بحيّز صغير في كتابه، بالمقابل خصّ أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلاً من فصوله، وخصّ أديانها بأحد عشر فصلاً، وكان أكثر ما سحره فيها – كما يقول ديورانت – (جا فادجيتا)، وأدرك ما بين تصور الفدانتا والصوفية، والفيثاغورثية الحديثة، والأفلاطونية الحديثة من تشابه، وأورد مقتطفات من كتابات مفكري الهنود ووازنها بمقتطفات شبيهة بها من كتابات مفكري اليونان.[١٣١]

وقد جمع معلومات قيمة عن جنوب أفريقيا وسواحلها الشرقية، عن طريق التجار العرب، أهلته لأن يقرر: أن المحيط الهندي يتصل بالمحيط الأطلسي، فالبيروني على حد قول أندريه ميكيل «أحد العقول الكبيرة القادرة على فهم أشد المعارف تبايناً وأكثرها إثارة بسبب ميولها الطبيعية، وأحد المفكرين الشموليين القلائل أمثال دافنشي وغوته».[١٣٢]

لقد أتيح له أن يحيط بعلوم الهند ويقرأ أسفارها ويخالط علماءها، حتى إذا ما اطمأن إلى ما وقف عليه من مختلف فنون المعرفة عندهم، وعرف بتقاليدهم ورسومهم، وألمَّ بمناهجهم في البحث وطرائقهم في إعمال الفكر، خرج يعرض علينا في سفره الكثير عن حضارة الهند ومدنيتها مقدماً عرضاً شاملاً يتميز بالعمق والدقة. وضم كتابه عن الهند الكثير من المعلومات القيمة لم يكن بالجديد على المسلمين في ذلك الوقت فحسب، بل كان كذلك حتى بالنسبة للثقافة الأوروبية في العصور الحديثة على ما يشير إليه المستشرق الألماني أدوارد ساخاو. ولم يدرس البيروني طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب، بل ودرس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها. وهو في ما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بإذنه....[١٣٣]

قسَّم البيروني كتابه إلى ثمانين باباً أولها: «في ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما تقصده من الحكاية عنهم» وآخرها: «في ذكر أصولهم المدخلية إلى أحكام النحو والإشارات إلى طرقهم عنها». وهو في هذه الأبواب الثمانين يتحدث عن معتقدات الهند، وشرائعهم وأحكام الفروض. والعبادات عندهم كالمواريث والصيام والقرابين والكفاءات والحج والصدقات والأعياد والعقوبات والمباح من المطاعم والمشارب والمحظور منها. كما يذكر نظام الطبقات في مجتمعهم وأحكامه، ويشير إلى ما عندهم من أنواع الخطوط وطرائق الكتابة ويعرفنا بتراثهم في النحو والشعر وسائر العلوم ويصف لنا بلادهم ومعالمهم الجغرافية. ويسوق لنا حديثاً طويلاً عن علم الفلك عن الهنود، وفصل عن صورة الأرض عندهم وأصناف الشهور والسنين ويشير إلى أحكام الكواكب والنجوم ومراصدها... وهو لا يكتفي بهذا بل يقارن بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الأمم.[١٣٤]

وهو يشير بوضوح إلى أنه ترجم إلى العربية كتابين عن الهندية، قبل أن يؤلف «في تحقيق ما للهند...»، ليكون جامعاً لهما ولغيرهما من المؤلفات، «وكنت نقلت إلى العربي كتابين أحدهما في الميادين وصفة الموجودات، واسمه «سانك» والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويُعرف «بياتنجيل»، وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما وفي التقرير ويؤدي إلى الإحاطة المطلوبة»،[١٣٥] فتميزت أبحاثه عن الهند بالاتساع والتنوع، فبعد أن درس كتب الهنود، في كل ميادين المعرفة، بسط أبحاثه تلك، فكان بذلك كمن يؤسس لانثروبولوجيا ثقافية، لأنه «درس معتقدات الهنود، وأفكارهم الثقافية وطريقة حياتهم دراسة موضوعية وبطريقة علمية مخططة».[١٣٦]

ولقد بدأت الرحلات المغربية والأندلسية بالتكاثر قياساً على مثيلاتها في المشرق العربي، في القرن الحادي عشر والثاني عشر، ولعل مرد ذلك إلى التصدع الذي أصاب وحدة الخلافة العربية – الإسلامية، وتراجع دور بغداد المركزي في تقرير الشأنين السياسي والثقافي، وما أصاب الأطراف نفسها، من تمزقات، يضاف إلى ذلك، تراجع دور العرب في المشرق، وبروز مخاطر الغزو الصليبي في المتوسط، والغزو المغولي من الشرق. في هذه الأثناء، أوصل المغاربة والأندلسيون، مؤلفات الرحلات، والمسالك والممالك إلى ذروتها، كما نراه عند الرازي، وأبي عبيد البكري (٣٩٨هـ – ١٠٠٨م)، والإدريسي (٦٤٩هـ – ١٢٥١م) وابن جبير، والغرناطي (٥٦٥هـ – ١١٧٠م)، وابن سعيد المغربي، وعلى هذين الأساسين: البلدان والمسالك والممالك والرحلات قام التأليف الجغرافي عند الأندلسيين، حيث تحرروا إلى حد كبير من تأثير النظريات الهندية واليونانية.[١٣٧]

صحيح أن أبا عبيد البكري، تلميذ العذري، ومعاصره، وتلميذ ابن حزم وابن بسام، ويشترك معهم في الاتجاه الموسوعي، فإنه وإن لم يكن رحالة جواباً للآفاق، فهو اعتمد على جمع الكثير من الرحلات، وضمّها في مؤلفاته، وظهر ذلك جلياً في معجمه المسمى (معجم ما استعجم)، في تأملاته عن بلاد الهند والصين، واعتمد على رحلات ومؤلفات المسعودي وأسلوبه في ذلك أن يبدأ بالكلام عن المملكة، ثم يذكر مسالكها، وحدودها وتاريخها وعادات أهلها وخصائصها. فيبدأ بالهند ثم الصين وفارس، فيشبه كلامه عن هذه الممالك الثلاث، رواية المسعودي، ويروي بنباهة بأن الذي يخرج من غرب أوروبا يصل شواطئ الصين.[١٣٨]

ولقد ظهر الكثير من الرحالة في هذه الفترة كالجغرافي الكبير الإدريسي، وابن جبير، وابن فاطمة، وليون الأفريقي، إلاّ أن هؤلاء لم يتوغلوا في الشرق الأقصى، ورغم الخرائط التي قدمها الإدريسي، واهتمامه العالمي في «نزهة المشتاق» إلاّ انه لم يضف الكثير على معلومات من سبقه، وظل أسير تصورات بطليموس عن المحيط الهندي، واعتباره إياه كبحيرة مغلقة تحيطها في الجنوب استطالة أفريقيا شرقاً محاذاة لشواطئ الهند والصين. أما أبو حامد الغرناطي، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي، الذي لا يمكن مقارنته إلاّ بابن بطوطة في تشوقه إلى التجوال والضرب بالآفاق، والتعرّف على العالم، بل أربى على ابن بطوطة في بعض الجوانب، إذ كانت له جرأة غير معهودة على اقتحام المخاطر والدخول إلى بلاد بعيدة مجهولة الأحوال والألسن، إذ أوغل شمالاً في بلاد القفقاس وأوروبا، وأوغل شرقاً حتى وصل إلى مشارف الصين والهند، واتجه جنوباً حتى منتصف القارة السوداء، فبعد أن غادر الأندلس عام ١١٠٧م وهو في السن السابعة والعشرين من عمره، طاف بنواحي المغرب الأقصى، ووصل إلى سلجماسة، فأعطانا معلومات عن أصناف المتاجر التي تحمّل إلى وسط أفريقيا، واتجه إلى الإسكندرية بطريق البحر عام ١١١٨ ماراً بجزيرة سردينية، ثم انتقل إلى القاهرة زمن الفاطميين، وبعدها نزل بلاد الشام، ووصل إلى بغداد عام ١١٢٣م، وأقام بها أربع سنوات، وهناك ألف كتابه :المعرب في بعض عجائب المغرب، قد اتخذ بغداد قاعدة لانطلاق رحلاته، ووصل إلى بلاد تركستان على حدود الصين ثم إلى جنوب روسيا، وحوض الفولغا وشرقي أوروبا وتوغل في بلاد الصقالية حتى وصل عاصمتهم كييف، وبلغ في رحلاته المجر وأقام فيها سنوات ووصفها بعمق، ودخل خوارزم ثلاث مرات، ماراً ببخارى، ومرو، ونيسابور، وذلك في عام ١١٥٥م، هذا الشوق إلى استجلاء المجهول الذي تراه عند الغرناطي، وجدنا ما يماثله عند المسعودي، والمقدسي، وغيرهم، وسنجده عند ابن بطوطة فيما بعد، وقد دون الغرناطي مشاهداته في كتبه «المعرب عن بعض عجائب المغرب» وبشكل خاص في «تحفة الألباب في نخبة الإعجاب» ناقلاً معلوماته عن الهند والصين عن رجل يدعوه «أبا العباس الحجازي» الذي أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة، وكان الناس يتداولون عنه العجائب وقد حدثه عن جزيرة سرنديب (سيلان)، كما حدثه عن الهند والصين إلاّ أن هذه الأحاديث غلب عليها العجيب، حيث اتجه الغرناطي بالعلوم الجغرافية نحو الكوزموجغرافية العجائبية، بينما كان معاصره الإدريسي يتجه بالجغرافية وجهة علمية سليمة.[١٣٩] إذ حاول الأخير أن يضم العالم بأسره تحت أنظاره، وقد امتدح أبو حامد ما تذخر به بلاد الهند والصين من ملك عظيم وعدل، وعلم، كما أطرى

طريقة معاملتهم للتجار المسلمين،لدرجة أنهم كانوا يعفونهم من المكوس،ويتمنى على ملوك المسلمين أن يحذوا حذوهم.

وقد شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر، جغرافياً رحالة آخر من مواليد غرناطة بالأندلس في حوالي عام ٦١٠هـ – ١٢١٤م، وهو ابن سعيد المغربي (٦٧٣هـ – ١٢٧٤م)، الذي أمضى الجانب الأكبر من حياته في الترحال طلباً للعلم، وللتعرف على العالم، فقد تنقل في تجواله من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، اصطحب أباه إلى الحج عام ٦٣٨هـ – ١٢٤٠م فزار في طريقه شمال أفريقيا ومصر، والاسكندرية، وأثناء عودته بقي في القاهرة حتى عام ١٢٥٠م، إلى أن أتى الشام وأقام فيها حيناً من الدهر، ومنها ذهب إلى الموصل، ثم إلى بغداد، والبصرة، وتابع دراسته في بغداد قبل أن يدمرها هولاكو بأعوام قليلة،ورحل منها إلى حلب متجهاً إلى أرمينيا يدفعه الفضول ليتعرف على هولاكو مباشرة.[١٤٠] إلاّ أنه رغم تجواله الواسع في أصقاع شاسعة بين أوروبا وأفريقية وآسيا، لم يزر بلاد الصين والهند، فعوضاً عن ذلك حفظ مشاهدات غيره من الرحالة لهذه البلدان، فقد استفاد من معطيات رحلة ابن فاطمه الذي جاب سواحل غرب أفريقيا حتى السنغال، وسواحل شرق أفريقيا، وعرف مدغشقر (جزيرة القمر)، ربما تعود إليه الرواية التي انفرد بها ابن سعيد،وتتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر (جزيرة القمر)، وترك لنا ملاحظات قيمة للغاية عن المحيط الهندي، فنبه على التقائه بالمحيط الأطلسي، خارقاً بذلك نظرية بطليموس التقليدية، ومناقضاً، أيضاً، آراء أستاذه الإدريسي، علماً انه اعتمد اعتماداً كبيراً على تبويبه للأقاليم، وتجزئتها إلى عشرة أقسام، كما اعتمدت معرفته للصين، جزئياً، على المعطيات التي قدمها الإدريسي.

كما أن القزويني (٦٨٢هـ – ١٢٨٣م) الذي قال عنه كرامرز «هو بليني العرب»، يعتبر أكبر كوزموغرافي Cosmography، أي علم وصف الكون، فقد حفظ لنا الكثير من الرحلات، والشذرات التي دوّنها الرحالة العرب الذين جابوا شتى أرجاء العالم، كرحلة هارون بن يحيى إلى بيزنطة، وبعضاً من وقائع رحلة ابن فضلان الذي عبر بلاد الترك نحو بلغار الفولغا، وشذرات من رحلة أبي دلف إلى الهند والصين.[١٤١] فملأ كتابيه «عجائب المخلوقات» و«آثار البلاد وأخبار العباد»، بالكثير مما كتبه سابقوه من الجغرافيين المسلمين، ورحالتهم.[١٤٢]

وظهر إلى جانب ابن سعيد المغربي، في المشرق، العديد من الجغرافيين الرحالة، الذين لم يزوروا الهند أو الصين، إلاّ أنهم حفظوا الكثير من وقائع الرحلات التي قصد أصحابها بلاد الشرق الأقصى. وهو ما نجده عند ياقوت الحموي ٦٢٦هـ – ١٢٢٩م الذي حفظ في مؤلفاه الشهير «معجم البلدان» بعضاً من تلك الرحلات، فبالإضافة إلى خبرته المكتبية واطلاعه الثقافي الواسع، فقد استفاد من تنقلاته ورحلاته في مجال التجارة، التي كان يقوم بها لصالح سيده، التاجر الكبير في بغداد، أو من كثرة أسفاره في المحيط الهندي، وتردده إلى جزيرة كيش العُمانية، التي كانت أحدى محطات تجار المحيط الهندي، حيث أتاحت له توسيع أفقه الجغرافي، وزيادة معرفته عن طرق ما سمعه من التجار فيها عن شواهدهم، وقاده تجواله من بغداد إلى الموصل إلى بلاد الشام ومصر، ثم إلى أرمينيا، وإلى إيران الشرقية، ثم إلى أن قضى عامين في نيسابور، التي غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو فأمضى فيها زمناً، وكان عازماً على زيارة خوارزم وبلخ عندما أتته أخبار خروج المغول عام (٦١٦هـ – ١٢١٩م) فهرب إلى خراسان، ومنها إلى الموصل، وهناك أتيح له الانصراف على تأليف معجمه بعد أن رعاه الفيلسوف ابن القفطي (٦٤٦هـ – ١٢٤٨م) وزير السلطان الظاهر الأيوبي في حلب، وقد انتهى من معجمه عام ١٢٢٤م في حلب، وانتقل إلى جوار ربه عام ٦٢٦هـ – ١٢٢٩م وهو في الخمسين من عمره.(١٤٣) كما حفظ لنا مقتطفات من رحلة أبي دلف بلاد الهند والصين والترك، ووقائع رحلة سلام الترجمان إلى شمال الصين لزيارة سورها العظيم، ورحلة تميم بن المطوع إلى بلاد الشرق الأقصى وتعرفه بالشعوب التركية هناك.

ونجد الشيء نفسه عند ابن فضل الله العمري (٧٤٨هـ – ١٣٤٧م) في موسوعته (مسالك الأبصار) التي جمع فيها الكثير من الروايات ليس عن أوروبا وأفريقيا وحسب، بل عن بلدان الشرق الأقصى، وقد أثبتت دراسة شيفر schefer للأقسام المتعلقة بالصين،أنه يجب ألاّ نعتبر العمري بالنسبة لهذه الأقصاع نقالة يكتفي بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة وحدها فهو يقدم لنا معلومات جمة عن شمال الصين، مروية بألفاظ من التقى بهم من الرحالة،وكان هؤلاء ينتمون إلى مجموعتين من الناس هم التجار، ثم الفقهاء الذين ساقتهم إلى تلك الجهات، في أغلب الظن، حاجة الأقليات المسلمة للتفقه بالدين، وكان بين هؤلاء الرحالة عدد من أهل العراق وإيران وما وراء النهر، وتؤكد جميع قصصهم أن الصين فتحت أبوابها في العهد المغولي للتجار، ولمن يدفع بهم حب الاطلاع إلى الضرب في الأرض، وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل والطير، والصيد والحلي والأبنية المطلية بالميناء من حلب، وتمس معلوماتهم مختلف أوجه الحياة في الصين... وقد اهتموا اهتماماً خاصاً بوصف نظام الإدارة وطرق الموصلات والتجارة... وما يتصل بها من حرف ومهن، وشمل استدلالهم شتى مهارات الصينيين الصناعية.(١٤٤)

وشهد القرن الرابع عشر الميلادي رحلة ابن بطوطة (٧٧٠هـ – ١٣٦٩م) شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين حتى ذلك الزمان، فقد قضى الرجل ثمانية وعشرين عاماً من حياته يتنقل في أجزاء العالم المعروف، فحملته أسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال أفريقية، وإلى الشام، وبعد أن أدى فريضة الحج زار إيران وبلاد العرب ومشرق أفريقية، ومن هناك مضي في تجواله شرقاً إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان، ودخل بعدها إلى الهند والصين، ويمخر البحر الهندي ليزور جزر الهند الشرقية، وجزر المالديف، ثم يأووب إلى بلده فاس، ثم لا يلبث أن يزور الأندلس، وينتقل إلى شرق أفريقيا، فيقطع من خلال تلك الرحلات ما يقارب المائة والعشرين ألف كيلومتر.(١٤٥)

وكان مولد ابن بطوطة في طنجة، ثغر المغرب على البحر المتوسط عام ٧٠٣هـ – ١٣٠٤م، من أسرة اشتهرت بالعلم، والإشتغال بالعلوم الشرعية، والقضاء، فسار على نهج أسرته. بدأ رحلاته الكبرى وهو في الثانية والعشرين من عمره، في عام ٧٢٥هـ – ١٣٢٤م، فقضى ما يقارب من ثلاثة عقود في التجوال في العالم، وقد أملى في نهاية عمره تقريراً برحلاته لصديقه ابن جزي في كتاب «تحفة النظار» الذي أودع فيه تجاربه في الترحال بين الأمم والبلدان التي زارها، وتشتمل على رحلاته الكبرى الثلاث، وتقع رحلته الأولى. ما بين (٧٢٥هـ – ١٣٣٦م) إلى (٧٣٨هـ – ١٣٤٩م)، زار فيها شمال أفريقيا ومصر والمشرق العربي، وأفريقيا الشرقية، وجزيرة العرب واليمن، ثم قصد القسطنطينية ومنها إلى الهند، ثم سافر مع أعضاء بعثة دبلوماسية أرسلها سلطان الهند محمد شاه إلى الصين، أما رحلته الثانية فاستغرقت ما بين (٧٣٩هـ – ١٣٥٠م) إلى (٧٤٠هـ – ١٣٥١م) ودامت رحلته الثالثة ما بين(٧٤١هـ – ١٣٥٢م) إلى (٤٧٣هـ – ١٣٥٤م) زار فيه السودان وغرب أفريقية.(١٤٦)

وقد أتمَّ رحلاته إلى الشرق الأقصى خلال رحلته الكبرى الأولى، التي استغرقت معظم صفحات كتابه، بدأها من طنجه يوم الخميس في ٢ رجب ٧٢٥هـ – ١٣٢٤م حاجاً إلى بيت الله الحرام، ماراً بمصر فالإسكندرية، قابل فيها زاهداً يدعى برهان الدين الذي قال له: «لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكريا بالسند وأخي برهان الدين بالصين.(١٤٧)، ثم اتجه إلى بلاد الشام ومنها إلى مكة في يونيو ١٣٢٥م، وبعد أن أدى فريضة الحج زار العراق ثم جنوب شبه الجزيرة العربية، وزار الساحل الشرقي الأفريقي، إلى مقديشو، وكلوه، ثم عاد مبحراً إلى عُمان إلى هرمز، وسيراف، ولاحظ عظم التجار خلال عبوره البحري هذا، ثم رجع إلى مكة ليحج ثانية، واتجه إلى مصر، ومنها إلى آسية الصغرى ليلاقي نواة دولة الأتراك العثمانيين، وانتشار الطرق الصوفية بين ظهرانيهم، وعاين على السواحل الجنوبية لآسيا الوسطى مسكن التركمان، وانتشار التجار العرب طلباً للأخشاب، وذهب حتى سينوب Sinope، ومن هناك عبر البحر الأسود إلى كوش في بلاد القرم، وسافر إلى مدينة القرم، وكانت تابعة للسلطان المغولي محمد أوزبك خان المغوليين المعروفين بالقبيلة الذهبية وقد دخلها الإسلام والتي هي إحدى

الأقسام الأربعة من الإمبراطورية المغولية التي أسسها جنكيز خان.[١٤٨] وتوجه إلى بلغار الفولغا، واستراخان، ومنها إلى القسطنطينية، وقفل راجعاً إلى خوارزم، أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها"، ثم غادروها إلى بخارى وسمرقند باتجاه غزنة وكابل في أفغانستان،ومن هناك دخل الهند، وعاش في ربوعها تسعة أعوام، وكان قد مضى على خروجه من طنجة تسعة أعوام.[١٤٩]

وزار لاهير Lahiri (بجوار كراتشي)، وسكور Sukkur، وملتان Multan، وسرسه، وهاس، حتى وصل إلى مدينة دلهي، فأقام سنين طويلة برعاية السلطان محمد طغلق، الذي أرسله فيما بعد في سفاره إلى الصين فاجتاز الهند الوسطى، وملوه، واعتلى السفينة من كميال إلى(جوا)، وزار الموانئ الممتدة على طول ساحل مليبار، حتى وصل إلى جزر مالديف Maldive (جزر ديبة المهل) وأقام فيها سنتين ومنها عبر إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، واستأنف رحلته إلى أن رسا في معبر بساحل كرومندل، وأخيرا أقلع إلى البنغال وزار كمروب وسهلت، وسوفرجيون (بجوار دكا)، ثم أبحر بحذاء ساحل أركان حتى بلغ سومطرة، وهكذا وبعد أن زار شبه جزيرة الملايو واندونيسيا انتهى إلى ميناء الزيتون (تشوان شوفو) في الصين، ثم زار بعض المدن الصينية القريبة من الساحل مثل الخنسا (هانج شو)، وهي في نظره أكبر مدينة رآها على سطح الأرض، وفان بالق (بكين) وهي عاصمة الخان، لا يلبث أن يحمل عائداً إلى (الزيتون) ومن هناك حملته سفينة إلى سومطرة ومنها إلى ساحل مليبار، عائداً إلى بلاده ماراً بهرمز إلى العراق وبلاد الشام ثم مصر، إلى فاس، حيث يصلها عام ١٣٤٩م.[١٥٠]

لقد جاءت رحلة ابن بطوطة من الناحية التاريخية، في الفترة التي تحول فيها معظم الغزاة المغول إلى دين الإسلام، ومالت إليه أحوال البلاد العربية – الإسلامية وعلاقتها بالشرق الأقصى إلى الاستقرار، وهو ما ساعد على استئناف النشاط التجاري، وسهل له التنقل، والإقامة الطويلة في الهند، وجزر المالديف والصين، فأينما توجّه شهد أمامه جاليات عربية وإسلامية، جعلت الإقامة لديه مريحة، وسجل مشاهداته وتجاربه، كان عظيم الاهتمام بالناس، فشغلت المواضيع الجغرافية مكانة ثانوية في مصنفه، «فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخ عادة، فتمر من أمام أنظارنا مراسيم البلاط الأجنبية، وأزياء الشعوب المختلفة، وتقاليدها وحرفها، وأصناف أطعمتها وأغذيتها... فلا يمثل كتابه وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب، بل يقدم كذلك نموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن إسلامي من أهل القرن الرابع عشر».[١٥١] فأعطانا صورة عن حياة الهنود والصينيين، وأناس جزر المحيط الهندي، بعيون عربية تختزن معايير الثقافة العربية الوسيطة في الحكم على الآخر، إلاّ أن هذا لا يقلل من قيمة صدقه الموضوعي في تصويره لحياة الناس في ذلك العصر، والكشف عن سلوكهم، وأساليب معاشهم، ومعتقداتهم، وطقوسهم، وحياتهم العائلية وموقفه هو من ذلك كله، ولعل انعدام التنظيم الذي يتصف به عرضة للحوادث، جعل الباحثين يميلون للتشكك في صدقية رواياته، حتى أن البعض أنكر أن يكون قد زار الصين أصلاً، ومن هؤلاء شيفر Shefer وفيران Ferrand، ويول Yule ، وهو زعم فيه كثير من التحامل، صحيح أن وصفه للصين «فيه الكثير من النقاط الغامضة، لكن هذا لا يقيم دليلاً على أن كل ما ذكره الرجل عن الصين إنما هو من نسج الخيال، ففيه فقرات معينة لا يمكن أن تصدر إلاّ عند معاينة مباشرة، وكثير من أحاديثه تؤكده المصادر الصينية فيما يؤيده البحاثة الياباني Yamamoto، وتؤيده رحلة ماركو بولو الذي زار الصين قبله».[١٥٢]

قدم ابن بطوطة صورة واضحة للدولة العثمانية في دور نشأتها، إذ يصف الإمارات والدويلات التركية المتعددة قبل أن يجمعها العثمانيون في دولة واحدة».[١٥٣] وخلال إقامته الطويلة في الهند، سجل لنا دراسة فذة أثنوغرافية عن حياة الهنود، في كل غناها وتفردها، فوصف بلاط سلطان دلهي، ومراسيم احتفالاته، وطرائقه في التقاصي، ولا ينسى أن يشبع هواياته الخاصة في الحديث عن الناس وحياتهم وعاداتهم، ويتحدث عن أشجار الهند، وفواكهها، والحبوب التي يزرعها الهنود، وعاداتهم في حرق الموتى، وفي جزر المالديف، يتزوج، ويتولى القضاء، ويقيم أكثر من سنتين في الجزيرة، ويصف حياته هناك، ويصف عادات سكانها وأعمالهم، ومساكنهم.

لقد سجّل كل من البيروني ومن بعده ابن بطوطة مشاهداتهما في الهند، وما اتصل بالناس ومعتقداتهم، وعلومهم وأوجه حياتهم، فبينما كان ابن بطوطة رجلاً سفاراً يلتمس الطرائف، وحياة الناس في إطار حياتهم العادية، وأيضاً حياة العلماء والفقهاء، ورجال الحكم، فإن البيروني كان دارساً محققاً عالماً، وقارئاً للعلوم، خالط أهل الهند واستمع إلى بيان معارفهم من أفواه علمائهم، وانتبه في بحثه بشكل رئيسي على «الثقافة العالمة» للهنود، أي على استقامتهم الروحية والدينية، وحياتهم العقلية، للوصول إلى معرفة حجم الإنجاز الثقافي والعقائدي للهنود بمقارنته بتجارب الأمم الأخرى، ولا سيما اليونان، أما في حال ابن بطوطة، فإنه لم يترك صغيرة وكبيرة إلاّ وأشار إليها، وخصوصاً فيما يتعلق بحياة الناس، ومكنه في ذلك يقظة ذهنه، وعيونه المفتوحة على العالم، وإذا كانت أسفار السندباد، وعجائب الهند هي نبض البحر، فقد كان ابن بطوطة عين وعقل، البحر والبر، بدقته على رصد الحياة، وجمعه الأخبار والحكايات، داخلاً في نسيج الحياة الاجتماعية، ولم يغفل على أن يلعب دور القاضي أحياناً، كممثل أو كحامل للثقافة العربية الإسلامية، وقيمها ومعاييرها.

لقد تضافرت تلك الأشكال من الاتصالات العربية بشعوب شرق آسيا، لتشكل بالنهاية قاعدة لاتساع معرفة العرب بها، وصار لهم دراية بأوضاعها، وهو ما تجلّى في مدوناتهم الثقافية، وتفوقت معارفهم تلك على مثيلاتها في أوروبا، إذ بقي الشرق الأقصى بأممه وحضاراته، وبأجزائه البعيدة، مكاناً قصياً بالنسبة لليونان، والرومان، اللتين كانتا تتصوران تلك الأصقاع النائية بلاداً للعجائب، والغرائب، فما كانت الهند بالنسبة للأوروبيين إلاّ بلاد الطيوب والتوابل والأفاوية، أما الصين فكانت بلاد الحرير. وعبَّر غوستاف لوبون عن هذه الحقيقة بقوله: «في الوقت الذي كانت فيه أوروبة تشك بوجود بلاد الشرق الأقصى، ولا تعرف من أفريقية سوى بعض شواطئها، كان للعرب علاقات تجارية بالهند، والصين وأفريقية الداخلية، وبأقسام أوروبا النائية، كروسية وأسوج والدانمارك».[١٥٤] صحيح، أن أوروبا كانت تتبادل السلع مع الصين والهند، منذ زمن بعيد، إلاّ أن صلاتهم تلك، كانت تتم أما عن طريق آسيا الوسطى، بعد أن تجوب السلع بلاد التتر، وبلاد فارس، وأما عن طريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحر الأحمر مارة من الخليج العربي، وسواحل بلاد العرب، وكان العرب وحدهم واسطة هذه المقايضات،[١٥٥] لهذا فاقت معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن قارة آسيا معلومات سابقيهم من الجغرافيين اليونان والرومان بدرجة عظيمة، ففيما عدا إيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام، لم تكن معلومات الإغريق والرومان واضحة أو دقيقة عن مناطق وشعوب أواسط آسيا، وشرقيها وجنوبها الشرقي وجنوبها.[١٥٦]

الـهوامش

١- أحمد الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم. الجزء الأول. سلسلة ألف كتاب ١٥٨. إشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم. بمصر مكتبة الآداب. القاهرة. بدون تاريخ. ص ٥٥

٢- د. مقبول أحمد. العلاقات التجارية بين الهند والعرب. مجلة ثقافة الهند. المجلد الحادي عشر. العدد الثالث. يوليو /١٩٦٠. ص ١٠٣ - ١٠٥.

٣- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي. معهد الاستشراق - مجموعة من الباحثين - دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرن ٥ - ١٥ ترجمة د. أيمن أبو شعر. دار التقدم موسكو. ١٩٨٩. ص ٣٦٧.

٤- نقولا زيادة. مشرقيات. في صلات التجارة و الفكر. رياض الريس. لندن. ١٩٩٨. ص ٨٤ - ٨٦.

٥- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي - مصدر سابق - ص ٣٦٦.

٦- موريس لمبار. الإسلام في عظمته الأولى، ياسين الحافظ. دار الطليعة بيروت. ١٩٧٧. ص ١٣.

٧- آدم ميتز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج٢. نقله محمد عبد الهادي أبو ريده. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط٢ القاهرة ١٩٤٨. ص ٢٧٢.

٨- مقبول أحمد. مصدر سابق. ص ١٠٨ - ١٠٩.

٩- برنارد لويس - العرب في التاريخ - ترجمة نبيه أمين فارس ود. محمود يوسف زايد - دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤- ص ١٢٤ - ١٢٥.

١٠- نقولا زيادة - مشرقيات - مصدر سابق - ص ١٨.

١١- د. ساطع محلي. طريق الحرير. مجلة دراسات تاريخية. عدد ٣٩ - ٤٠.دمشق ١٩٩١- ص ١٢٤.

١٢- بشير زهدي - طريق الحرير - وتدمر مدينة القوافل التجارية - مجلة دراسات تاريخية العدد ٣٩ - ٤٠. دمشق عام ١٩٩١. ص ١٢٤.

١٣- د. شوقي عبد القوي مكاوي. تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية. سلسلة كتب ثقافية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ١٩٩٠. ص ٤٢ - ٤٦.

١٤- المصدر نفسه. ص ٦٨.

١٥- ل. م. بانيكار. آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد وزارة الثقافة. دار المعارف. مصر. ١٩٦٢. ص ٣٣.

١٦- عبد المنعم النمر. تاريخ الإسلام في الهند. دار العهد الجديد. مصر ١٩٥٩ ص ٣٣٥.

١٧- مكاوي. مصدر سابق. ص ١٨٥ - ١٩٢. وراجع الدكتور مقبول أحمد. مصدر سابق. ص ١١٢ - ١١٥.

١٨- العلامة سليمان الندوي. العلاقات التجارية بين العرب والهند. مجلة ثقافة الهند. مجلد أول.العدد الثاني. يونيو ١٩٥٠. يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية. ص ١٢٦.

١٩- د. مقبول أحمد. مصدر سابق. ص ١١٥.

٢٠- عزيز العظمة. العرب والبرابرة. المسلمون والحضارات الأخرى رياض الريس لندن ١٩٩١. ص ٢٠ - ٢١، راجع شرح : متنز. ج٢ مصدر سابق. ص ٦١ - ٦٢، حيث يقول : «كان الطريق البحري إلى الصين لما يقتضيه هبوب الرياح الموسمية التي تستطيع السفن بأن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة... نعلم ان الناس كانوا يسرون بحذاء ساحل الهند، او يتجهون من مسقط إلى ميناء كولام (كويلون حالياً) رأساً، وذلك في نحو شهر، ثم يواصلون سيرهم جاعلين جزيرة سرنديب إلى يمينهم، ويقصدون جزائر نيكوبار (على عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً عن جزيرة سرند يب) ثم إلى مدينة (كدا)في ملقا وهي على نحو مسيرة شهر من كويلون. ومن هناك يقصدون جاوه وجزيرة ما هييت في جزائر سندا، ثم يسيرون نحو خمسة عشر يوماً حتى يصلوا كمبوديا، ومنها إلى كوشين إلى الصين، وكان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين، وكان لابد له بعد ذلك من انتظار الرياح الطيبة، لأن تلك النواحي تسودها رياح واحدة في كل ستة أشهر أما في العودة فكان الناس يسيرون أربعين يوماً من تسوان تشو إلى آنيا (على الطريق الشمالي الغربي من جزيرة سومطرة)، وكانوا يتاجرون هناك، ثم يعودون إلى البحر في العام التالي، ويعودون إلى بلادهم في ستين يوماً بمعاونة الرياح العادية».

٢١- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي. مجموعة باحثين. مصدر سابق ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

٢٢- متز. ج٢. مصدر سابق. ص ٣٢٥.

٢٣- المصدر نفسه. ص ٣٢٢.

٢٣- المصدر نفسه. ص ٣٢٤.

٢٥- المصدر نفسه. ص ٣٢٥

٢٦- عزيز العظمة - مصدر سابق - ص ١٩.

٢٧- متز - ج٢ - ص ٣٢٥.

٢٨- س. أي. بوسورث.. آسيا الوسطى. تراث الإسلام. قسم أول. تصنيف شاخت وبوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٨٠. ص ١٨٦ - ١٨٧.
٢٩- اغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ق ١ نقله صلاح الدين عثمان هاشم. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
٣٠- ميتز. مصدر سابق. ج٢. ص ٦٢٥ - ٦٢٧.
٣١- توماس آرنولد. تراث الإسلام. (ج١٠. ج. كرامرز (prof. J. H. Kramers) ترجمة جرجس فتح الله. دار الطليعة. ط٢. بيروت. ١٩٧٨. ص ١٤٨.
٣٢- جورج فضلو حوراني. العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى. ترجمة يعقوب بكر. مكتبة الانجلو مصرية. بدون تاريخ. ص ٢٢٦.
٣٣- ميتز. ج٢. ص ٣٢٦.
٣٤- مكاوي. مصدر سابق. ص ٥٣.
٣٥- المصدر نفسه. ص ١٩٦ - ١٩٨.
٣٦- فيصل السامر. الإسلام في أندونيسيا. مجلة عالم الفكر. المجلد العاشر. العدد الثاني. يوليو.أغسطس. سبتمبر. الكويت. ص ٢٠٠.
٣٧- مصدر سابق. ١٩٨ (هامش ١٠)
٣٨- روسلان موسينه. تاريخ الحضارات العام. المجلد الرابع. بإشراف موريس كروزيه. ترجمة. أسعد داغر. وفريد م. داغر. منشورات عويدات. بيروت ١٩٦٦. ص ٦٠٠ - ٦٠١.
٣٩- المصدر نفسه. ص ٦٠٢.
٤٠- ميتز. مصدر سابق. ج٢. ص ٣٢٥
٤١- ناراشند. الثقافة الهندية ووصول المسلمين إلى الهند. مجلة ثقافة الهند. ج١. عدد ١. مارس سنة ١٩٥٠. ص ٣٢ - ٣٤.
٤٢- نفيس أحمد. جهود المسلمين في الجغرافية. ترجمة فتحي عثمان. سلسلة ألف كتاب ٢٧٢. دار التعليم. بإشراف إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم. مصر. بدون تاريخ. ص ١٣٠ - ١٣١.
٤٣- توماس ارنولد. الدعوة إلى الإسلام. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ترجمة حس إبراهيم حسن. وعبد المجيد عابدين. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة بدون تاريخ ص ٢٢٥.
٤٤- أندريه ميكيل. الإسلام وحضارته. ترجمة. الدكتورة زينب عبد العزيز منشورات المكتبة العصرية. بيروت. بدون تاريخ ص ٣١٦.
٤٥- أكاديمية العلوم السوفييتية. مصدر سابق. ص ٣٧٠ - ٣٧١.
٤٦- أحمد سوسه. الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية. الباب الأول. نقابة المهندسين العراقيين. مكتبة جهري. بغداد. ١٩٧٤م ص ١٠٢.
٤٧- بدر الدين. حي الصيني. العلاقات بين العرب والصين. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.١٩٥٠. ص١٨٠-١٨١.
٤٨- المصدر نفسه. ص ١٨٢-١٨٦.
٤٩- المصدر نفسه. ص ١٨٨ - ٢٠٦.
٥٠- القاضي أطهر مبارك يوري. الروابط الثقافية والعلمية قديماً بين الهند والعرب.كتاب «الذخائر والتحف» لرشيد الدين بن الزبير. مجلة ثقافة الهند. مجلة الثالث عشر. العدد الثاني إبريل ١٩٦٢ ص ١٠.
٥١- المصدر نفسه. ص ١٥.
٥٢- المصدر نفسه. ص ١٦.
٥٣- المصدر نفسه. ص ١٦ - ١٧.
٥٤- تقي الدين المقريزي. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج٤/ق٢. القاهرة ١٩٧٣. ص ٨٧٢ - ٨٧٣.
٥٥- مكاوي. مصدر سابق. ص ٧٨.
٥٦- الجاحظ: أبو عثمان عمر بن حرب. الحيوان. الكتاب الأول. الجزء السابع تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. القاهرة ١٩٥٤. ص ١١٣.
٥٧- أحمد محمد الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم. الجزء الأول. سلسلة ألف كتاب ٤ مكتبة مصر. القاهرة. بدون تاريخ. ص ٦٠- ٦١.
٥٨- المصدر نفسه. ص ٧٩.
٥٩- قدري حافظ طوقان. العلوم عند العرب. سلسلة ألف كتاب ٤ مكتبة مصر. القاهرة. بدون تاريخ ص ٦٠ - ٦١
٦٠- صاحب الفخامة الأستاذ مولانا أبو الكلام آزاد. وزير معارف الهند - أبو ريحان البيروني وجغرافية العالم. مجلة ثقافة الهند. مجلد ثاني. العدد الثالث. ديسمبر ١٩٥١. مجلس الهند للروابط الثقافية. ص ٣٠.
٦١- تاريخ الحضارات العام. المجلد الثالث. مصدر سابق. ص ١٣٤.

٦٢– كراتشكوفسكي. مصدر سابق. ج١. ص ٧٠.
٦٣– المصدر نفسه. ص ٧٢.
٦٤– قد ري حافظ طوقان. مصدر سابق. ص ٤٩.
٦٥– صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. تحقيق. حياة علوان. دار الطليعة. بيروت. ١٩٨٥. ص ٥٤ – ٥٥.
٦٦– المصدر نفسه. ص ٥٥– ٥٨.
٦٧– أحمد امين..ضحى الإسلام. ج١. دار الكتاب العربي. ط ١. بيروت بدون تاريخ. ص ٢٤٤.
٦٨– المصدر نفسه ص ٢٩
٦٩– محمد محمود زيتون. الصين والعرب عبر التاريخ. سلسلة إقرأ. ص ٢٥٣.
٧٠– المصدر نفسه. ص ٤٥.
٧١– بد الدين. حي صيني. مصدر سابق. ص ٢٥٠.
٧٢– بشير زهدي. طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل التجارية. مصدر سابق. ص ١٢٨.
٧٣– فهمي هويدي. الإسلام في الصين. سلسلة عالم المعرفة.٤٣. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٨١.ص ٥٧.
٧٤– بد ر الدين. حي صيني. مصدر سابق. ص ٢٤٣–٢٤٦.
٧٥– أكاديمية العلوم السوفياتية. مصدر سابق. ص ٤٠٦.
٧٦– لي تشين شونغ (أستاذ بجامعة اللغات والثقافة في الصين) اطلب العلم ولو بالصين.الإسلام والثقافة الصينية. مجلة التسامح، سلطنة عمان. مسقط. (وزارة الأوقاف) عدد ٧. صيف ٢٠٤. ص ٢٥٨ – ٢٥٩.
٧٧– المصدر نفسه. ص ٢٦١.
٧٨– المصدر نفسه. ص ٢٥٩ – ٢٦٠.
٧٩– المصدر نفسه ص ٢٧٠ – ٢٧١.
٨٠– المصدر نفسه. ص ٢٦٩.
٨١– المصدر نفسه ص ٢٦٦ –٢٦٧.
٨٢– ابن الفقيه. أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني. مختصر كتاب البلدان. طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل. سنة ١٣٠٢م. ص ٤٦ – ٥٠.
٨٣– أحمد أمين.ظهر الإسلام ج ٢. دار الكتاب العربي. ط٥. بيروت. ١٩٦٩. ص ٢١٠ – ٢١٥.
٨٤– حسين فوزي. السندباد القديم.. الناشر مكتبة الانجلو مصرية. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة عام ١٩٤٣. ص ٢٠–٢١.
٨٥– المصدر نفسه. ص ٢٢.
٨٦– أندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية. ج١. ق ١ ترجمة إبراهيم خوري. وزارة الثقافة السورية. ١٩٨٣. دمشق ص ٢١٣.
٧٨– د. شوقي ضيف. الرحلات. ط٤. دار المعارف مصر.١٩٨٧. ص ٢٩.
٨٨– السيرافي أبو زيد الحسن. رحلة السيرافي. تحقيق عبد الله الحبشي (مقدمة المحقق) المجمع الثقافي. ١٩٩٩ أبو ظبي. ص ٨
٨٩– ميكيل. ج١. ق١. مصدر سابق. ص ٢١٧.
٩٠– بدر الدين. حي صيني. مصدر سابق. ص ٤٩ – ٥٠.
٩١– د. حسين نصار. أدب الرحلة. مكتبة لبنان، والشركة المصرية العالمية للنشر. ١٩٩١. ص ٥٠. وكراتشكوفسكي.مصدر سابق. ص ١٥٥.
٩٢– د. حسين نصار. المصدر السابق. ص ٦٦. وشوقي ضيف. مصدر سابق. ص ٣٣.
٩٣– أحمد سوسه الشريف الإدريسي. ج٢. مصدر سباق. ص ٢١.
٩٤– ميكيل ج١. ق١. مصدر سابق. ص ٢٢٢.
٩٥– حسين فوزي. مصدر سابق. ص ٤٣.
٩٦– المصدر نفسه. ص ٤٥.، وراجع شوقي ضيف. مصدر سابق. ص ٣٣– ٣٩.
٩٧– ابن النديم. أبو الفرج ابن اسحق بن أبي يعقوب. الفهرست. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الإستقامة القاهرة بدون تاريخ.ص ٤٣٦.
٩٨– المصدر نفسه. ص ٤٣٧.
٩٩– د. حسين فوزي. مصدر سابق. ص ١٨٤.
١٠٠– سهير قلماوي ألف ليلة وليلة. دار المعارف بمصر. ١٩٦٠. ص ٨٤.
١٠١– المصدر نفسه. ص ٨٦.

١٠٢- كراتشكوفسكي. ج١. مصدر سابق. ص ١٤٢.
١٠٣- سهير قلماوي. مصدر سابق.ص ٢٦٥.
١٠٤- نفيس أحمد. مصدر سايق. ص٥٥.
١٠٥- نقولا زيادة.الجغرافية والرحلات عند العرب. الاهلية للنشر والتوزيع. بيروت. ١٩٧٢. ص ١٤٧.
١٠٦- أندريه ميكيل جغرافية دار الإسلام البشرية. ج١. ق٢. مصدر سابق. ص ١٩.
١٠٧- المسعودي. أبو علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج٤. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى ط٤. مصر ١٩٦٤. ص ٤٠٩.
١٠٨- المصدر نفسه ج١. ص ٤.
١٠٩- كراتشكوفسكي. ج١. مصدر سابق ص ١٧٨.
١١٠- توماس أرنولد. تراث الإسلام (جي. أ. ج كراموز. J.H. Kramers الجغرافية والتجارة) عربه جرجس فتح الله. دار الطليعة. ط٣. بيروت ١٩٧٩. ص ١٣٨ - ١٣٩.
١١١- س. م. ضياء الدين علوني. الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. تعريب وتحقيق. د عبد الله يوسف غنيم. د طه محمد جاد (نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بحلب) ص ٥٠.
١١٢- كراتشكوفسكي. ج١. مصدر سابق. ص ١٨٣.
١١٣- س. آي. بوسورث. آسيا الوسطى. تراث الإسلام. ج١ مصدر سابق ص ١٨٨.
١١٤- كراتشكوفسكي. ج١. مصدر سابق. ص ١٤٨.و ١٥٦. ١٥٩.
١١٥- أحمد سوسة الإدريسي. الباب الأول. مصدر سابق. ص ١٠٥.
١١٦- أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد. رسالة بن فضلان. مديرية التراث العربي. مجمع اللغة العربية.ط٢. دمشق ١٩٥٩. ص ٩٩ - ١٠٠.
١١٧- س. آي. يوسورث. آسيا الوسطى مصدر سابق. ص ١٨٩ - ١٩٠.
١١٨- محمد محمود زيتون. مصدر سابق. ص ٥٤.
١١٩- د. حسين نصار. أدب الرحلة. مكتبة لبنان بيروت والشركة المصرية. القاهرة ١٩٩١.ص ٤٢.
١٢٠- كراتشكوفسكي. ج١. مصدر سابق. ص ١٨٩.
١٢١- المصدر نفسه. ص ٢٠١.
١٢٢- المقدسي. شمس الدين بن عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. طبع مدينة ليدن المحروسة. مطبعة بريل ١٩٥٤. ص ٣٤.
١٢٣- المصدر نفسه. ص ٢
١٢٤- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. صحح النسخة المكتبة الأهلية في باريس طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر إياد الدكن.الهند ١٩٥٨. ص ١.
١٢٥- المصدر نفسه. ص ٥.
١٢٦- حسين محمد فهيم. أدب الرحلات. (سلسلة عالم المعرفة ١٣٨). المجلس الوطني.للثقافة والفنون والآداب. الكويت.١٩٨٩. ص ١.
١٢٧- نفيس أحمد. مصدر سابق. ص ٦٧.
١٢٨- ول ديورانت. قصة الحضارة عصر الإيمان.الجزء الثاني من المجلد الرابع. ترجمة محمد بدران. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. ص ٨٥م..
١٢٩- كراتشكوفسكي. ج١ مصدر سابق. ص ٢٥٦.
١٣٠- عبد الرحمن حميدة. أعلام الجغرافيين العرب دار الفكر.دمشق. ١٩٨٤.م. ص ٣٤٢.
١٣١- ول ديورانت قصة الحضارة. ج٢ مجلد رابع. مصدر سابق ص ١٨٥.
١٣٢- أندريه ميكيل.مصدر سابق ج١. ق ٢. ص ٣٥.
١٣٣- الدكتور أحمد محمود الساداتي، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لأبي ريحان محمد بن أحمد البيروني. مجلة تراث الإنسانية. مجلد ٣ - ١ الدار المصرية للتأليف والنشر ص ١٣١.
١٣٤- المصدر نفسه. ص ١٣٣.
١٣٥- البيروني. مصدر سابق.ص ٦.
١٣٦- د. أحمد الربايعه. البيروني وأسس الانثروبولوجيا. مجلة دراسات تاريخية. العدد ٣١- ٣٢ السنة العاشرة. دمشق. آذار حزيران ١٩٨٩. ص ١٠١.
١٣٧- حسين مؤنس. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. مدبولي ط٢. القاهرة.١٩٨٦م.ص.١٣.
١٣٨- المصدر نفسه.ص ١٣٥. ١٣٨.

١٣٩- المصدر نفسه. ص ٣٤٢.
١٤٠- كراتشكوفسكي. ص ٣٦٦.
١٤١- المصدر نفسه ص ٣٦٦
١٤٢- عبد الرحمن حميدة. اعلام الجغرافيين العرب. مصدر سابق. ص ٥٠٥.
١٤٣- المصدر نفسه. ص ٢٥.
١٤٤- كراتشكوفسكي. ج١ مصدر سابق. ص ٤١٥.
١٤٥- نقولا زيادة الجغرافية والرحلات عند العرب مصدر سابق. ص ١٨٠.
١٤٦- فؤاد بدوري. ابن بطوطة. دار الكاتب العربي القاهرة بدون تاريخ ص ١٣.
١٤٧- ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي تحفة النظار في غرائب الأمصار .وعجائب الأسفار. دار الشرق العرب بيروت بدون تاريخ ص ١٥.
١٤٨- فؤاد بدوي. ابن بطوطة. مصدر سابق. ص ١٣ - ١٦. راجع إبراهيم أحمد العدوي. ابن بطوطة. سلسلة اقرأ ١٤٤. دار المعارف مصر. ١٩٥٤. ص ٥٤. ٨٢.
١٤٩- محمد محمود الصياد. رحلة ابن بطوطة.مجلة تراث الإنسانية. مجلد الثالث /١/ الدار المصرية للتأليف. ص١١٢
١٥٠- المصدر السابق. ص ١١٢ - ١١٣. راجع نفيس احمد جهود المسلمين في الجغرافية مصدر سابق. ص ١٠٠
١٥١- كراتشكوفسكي ج١. مصدر سابق. ص ٤٣١.
١٥٢- محمد محمود الصياد. مصدر سابق ص ١١٤.
١٥٣- المصدر نفسه، ص ١١٢.
١٥٤- غوستاف لوبون. حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. طبع الحلبي وشركاه القاهرة. ١٩٨٤. ص ٦٦٠.
١٥٥- المصدر نفسه. ص ٢٣٧.
١٥٦- شاكر خصباك. الجغرافية عند العرب. دار المعارف للطباعة والنشر سوسة. تونس بدون تاريخ ص ٧٨.

الفصل الثاني

معايير الثقافة العربية الوسيطة ومرجعيتها

في النظر إلى الآخر في الشرق الأقصى

بلورت الثقافة العربية والإسلامية في العصر الوسيط أطرها المرجعية التي حدّدت فيها معاييرها للنظر الى الاخر شريكها في عمارة العالم، بما فيه شعوب الشرق الأقصى، ورسمت انطلاقا من ذلك صورة مُتخّيلة عن العالم والحضارات والأمم الأخرى أوضحت فيها صفات وملامح هذا الاخر، وأصدرت في حقّه أحكاماً، حملت مزيجاً من الأفكار والمشاعر والمواقف الوجدانية والعقلية، وتضمنت جملة من الدلالات الرمزية والمعايير. وانعكست على صعيد الممارسة على شكل تدخلات واحتكاكات وتنافس واقتباس، وحوار، وتبادلات سلمية،وصراع عنيف،أثرت بدورها على تكوين تلك الصورة المُتخيلة عن الآخر، والتي انبثقت أساسا من تخيل الجماعة العربية لنفسها ولغيرها في أوربا، وأفريقيا، ولجيرانها الهنود والصينيين في الشرق الاقصى، وقد امتزج في هذه الصورة الموقف الإسلامي، بحدود معرفتها آنئذ لمصالحها التاريخية، وبمدى انفتاحهاعلى الغير في الداخل والخارج، وبمجال العلاقات (حرباً أو سلماً) التي ربطتها بالجوار الأقربيين والأبعدين. فالثقافة العربية، في العصر الوسيط، كغيرها من الثقافات كان لابد لها عند اظهار هويتها من أن تُبرز ما يميزها، أو يفصلها ويصلها عن غيرها من الثقافات، ولا سيما بعد أن أدركت الثقافة العربية وزنها الكوني، وتأثيرها الشامل، ورأت في قيمها الخاصة قيما كونية، تحكم بها على شريكهم الحضاري الكوني. وعلى هذا زخرت الثقافة العربية بنصوص ثرية عن الصين والهند، وشعوب جزر المحيطين الهندي والهادي، متوزعة على حقول تأليفها على أنواعه، من الأدب إلى الجغرافية إلى التاريخ، الى المدونات الموسوعية، وأدب الرحلات، والأدب الشعبي، أظهرت فيها حدود معرفتها لهذه الشعوب ومدى تفهمها وتعاطفها وتحيزها لها أو عليها، وحدّدت فيها الأطر المعرفية، والمرجعيات الكبرى لأحكامها، ومعاييرها والرموز والدلالات التي وجهت إلى حد كبير موقفها من أبناء تلك الأمم، ومن سلوكهم الثقافي وهيمنت على نزعاتها الوجدانية، ومتخيلها عنهم، ولقد انعكست تلك المرجعيات الذهنية، والوجدانية و وما تتضمنها من قيم ومعايير ورموز على التأليف العربي الذي غذّى بدوره،ووطد عرى تلك المرجعيات، وأغناها، وبسط في العمق المتخيل العربي عن العالم في ثناياها، وجسد علاقة الأنا بالآخر بطريقة مركبة،لاتفترض التماثل بينهما،أو الوحدة البسيطة الثابتة القارة، بل الوحدة التي تنطوي على التنوع.

وهكذا عبر الفقهاء ورجال الدين والمتصوفة وعلماء الأدب المسلمون عن، وساهموا في، تشكيل المُتخيل العربي – الإسلامي عن العالم، الأمر نفسه نجده في مدونات الرحالة عن أحوال غيرهم من الشعوب، كما نجده في نظرة المؤرخين في تحديدهم لموقع الشعوب، بما فيها شعب الهند والصين في التاريخين الزمني والماورائي، وفي مدى مساهمتهم في تاريخ الوحي النبوي، وأيضا في تفرعات تاريخهم السلالي. ثم يأتي الجغرافيون – الفلكيون ليضيفوا الى هذا المُتخيل معطا جديدا في تعيين موقعهم على خطوط الطول والعرض على الأرض، تبعا لقربهم وبعدهم عن خط الإستواء، وفي تحديد مكانهم على الربع المعمور من الأرض، ومدى بعدهم وقربهم من أطرافه، وقدّم مصنفو مؤلفات (المسالك والممالك) وكتب «البلدان والأقاليم»، معنا خاصا لمنهج التفاضل، والمقارنة بين الفعاليات الحضارية التي تميز بلدا عن بلد، وإقليما عن إقليم، وأمة عن أمة، في إطار وحدها البشرية الجامعة. فأعطى هؤلاء المؤلفون الصفات الحضارية، والأدوار العمرانية المتباينة للبلدان التي درسوها

في دار الإسلام نفسها، ثم طبقوا تلك المعايير في دراستهم لحضارة الصين والهند ولما جاورهما من شعوب، في جزر المحيط، أو في أقصى الشمال. ولغيرها من الحضارات التي تعرضوا لها.

لعب الإسلام دورا مركزيا في تغذية الثقافة العربية الوسيطة،بالقيم والمعايير العامة للحكم على الآخر، فقد أعطى الإسلام لأصحابه نظرة عامة عن العالم والإنسان، تضمّنت اعترافا عميقاً بالاخر المختلف عنه باللون، والعقيدة،والحضارة، حينما شدّد على التنوع بين البشر،وفي الوقت ذاته،على الأصل المشترك الذي يُردّهم إلى أب واحد، هو آدم ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ (الأنعام ٩٨) وخاطب النبي محمد أصحابه في «خطبية الوداع» «يا أيها الناس أن ربكم واحد،وأن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى»[١] فالتمييز الديني الوحيد بين النشر، إنما يتأسس على مدى اقترابهم من الله، أي في «تقواهم» أما في ما عدا ذلك فهم متساوون على تنوعهم، بل أقر القرآن الكريم بهذا التنوع، باعتباره حكمة من الله فقد خلق الله البشر من ذكر وأنثى ﴿أنه خلق الزوجين من ذكر وأنثى﴾ (النجم ٤٥) ومتمايزين في أديانهم ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (التغابن٢)، وأيضا ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا،إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات١٣).

وبالمقابل فقد اعتبر الإسلام الديانات السماوية جميعها تعود إلى وحي نبوي واحد،أتمه الإسلام وأكمله، ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم "ونحن له مسلمون﴾ (البقرة١٣٦) فنظر المسلمون الى أصحاب الديانات السماوية الأخرى باعتبارهم «أهل الكتاب»، وتعاملوا معهم،بين ظهرانيهم، كجزء من الاجتماع الإسلامي،وطبقوا عليه مفهوم «المواطنة الاسلامية».

ومما ساعد على توطيد هذا الانفتاح على الآخر، هو اتسام الاجتماع العربي الإسلامي بالتنوع الديني والثقافي، والإقوامي، واحتضانه لهذا التنوع في بوتقته المرنة، وعلى هذا الأساس،عكست الثقافة العربية الإسلامية هذا التنوع داخل وحدتها العميقة، فامتزجت بداخلها ثقافات الأمم والشعوب الكثيرة، التي دخلت في كنف الخلافة ذات الامتداد القاري، في إطار ضوابط عامة، سمحت للنصرانية في العصر العباسي من أن يكون لها من القوة ما يمكّنها من بناء مراكز للمبشرين للمسيحية في الهند والصين، انطلاقا من دار الإسلام[٢] واتسعت حركة اليهود والنصارى بسبب كثرة الاتصال التجاري والثقافي، فاستقر في بغداد، في القرن العشر الميلادي «الرابع الهجري» نحو خمسين ألفا من النصارى، ويذكر المقدسي أنه كان في الشام، أكثر الصباغين والصيارفة والدباغين من اليهود و وأكثر الأطباء والكتبة من النصارى، حتى افتى بعض الفقهاء بتوزير أهل الذمة[٣]

وذكر ميتز «أن ما يميّز مملكة الإسلام عن النصرانية في القرون الوسطى، إن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلامية، وليست كذلك الثانية، وأن الكنائس و البيع ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطة الحكومة معتمدة على العهود، وما كسبته من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لم تعرفه أوربا في القرون الوسطى[٤]

وقد وسّع المسلمون مفهوم «أّهل الكتاب» و«أهل الذمة» ليشمل في تسامحه الديانات الهندية الصينية. يشير وات إلى أنه «قد عُرفت الأقليات الذمية باسم أهل الكتاب» باعتبارها تتبع أنبياءهم. والحق ان الدين التوحيدي ذو النصوص المدونة قد لقي كمفهوم تفسيرا ليبراليا للغاية فأصبح الزرادشتيون والهندوس والبوذيون من الأقليات الذمية أيضا[٥] وأعترف بأنه «لقي غير المسلمين تسامحا حقيقيا في ظل الإسلام يفوق كثيرا ما لقيه غير المسيحيين في دول العصور الوسطى المسيحية»[٦]

إن الوجهة الدينية التي اعترفت بالتنوع الديني، وحضّت على التعايش معه داخل الاجتماع السياسي الإسلامي، عكست نفسها على موقف المسلمين من التنوع الديني خارج مملكة الإسلام، الذي لا يخرج بنظرهم عن ثلاثة أشكال للإيمان: الإيمان الإسلامي خاتم الرسالات والنبوة والوحي، وأتمها وأشملها، وثانياً أديان «أهل الكتاب» من أصحاب الديانات التوحيدية، السابقين للإسلام، والذين يجمعهم بالإسلام وحيٌ واحدٌ: جبريل، ابتدأ بآدم وانتهي بمحمد،وإلههم واحد ورسالتهم واحدة وإن كان المسلمون يعتقدون أن بعض «أهل الكتاب» قد عملوا على تحريف رسالتهم ببعض الشوائب، التي نالت من نزعتها التوحيدية،أما الأصناف الأخرى من الأديان، القائمة على تعددية الآلهة، أو الأديان الوثنية، فقد أطلق عليها المسلمون «أديان الكفار» وأصحابها «كفار» لأنهم يكفرون بوحدانية الله المطلقة.

وعلى هذا فان المسلمون، ورغم تسامحهم، واعترافهم بالتعددية الدينية، لم يُخفوا أحكامهم التفضيلية للأديان،إذ وضعوا فيها الإسلام في الذروة الروحية للوحي، باعتبار الإسلام أتى متّمما ومكملا وخاتما لقصة النبوة، وشاملا لمعانيها كلها،إلاّ أن هذا لوحده لا يجعل العرب المسلمين متقدمين على غيرهم في المجالات الأخرى، سيما في مجال العمران والحضارة، والمجالات الدنيوية الأخرى، بل لعلّهم رفعوا شان الأمم الأخرى،في تلك المجالات، مقارنة بالعرب.

فإذا كان العرب المسلمون، قد رفعوا الإسلام في المجال الديني إلى ذروة التفضيل فإنهم في المجالات الدنيوية اعترفوا بتفوق كلا من الأمم الأخرى في مجال حضاري خاص، فهم لم يضعوا أنفسهم فوق الآخرين في تلك المجالات، بل خصّوا كل أمة من الأمم أو إقليم من الأقاليم بتميّز خاص، في مجال من مجالات الحضارة، ففيما عدا الإيمان الإسلامي، الديني، الذي هو مطروح منذ البداية على البشرية برمتها، وليس على العرب وحدهم، فان المحاسن والمثالب وزّعت،في المدونات العربية،على الناس كافة، والتي خصّت كل أمة بخاصية من خاصيات الحضارة، وكان للصين والهند في تقسيمهم ذاك للمثالب والمحاسن ولمجالات الإبداع الحضاري دورا مرموقا.

فلم تقتصر رؤية العرب المسلمين للآخر على المعيار الديني فحسب، بل اعتمدت معايير أخرى للحكم، والتفضيل في تعرفّها على الأمم والشعوب، وخاصة أن الاحتكاك بالأخر الداخلي، والتعددية الثقافية والإقوامية، فضلا عن الدينية، داخل دار الإسلام، سهّل على المفكر العربي المسلم، أن يضفي بعض النسبية على أحكامه اتجاه الآخر في الخارج[٧] وأن يطبق المعايير التي عاين فيها المغاير له في دياره على المغاير الخارجي،كما أن توصيفه للمسافات التي تفصله عن الأخر الداخلي، وتميزه عنه داخل الوحدة التي تربطه به، ساعده على تمثيل (النسبية الثقافية) التي غدت عماد نظرته الى الآخر،و المبدأ الأساسي الموجه له في حكمه عليه، ويمكن تلخيص هذا المبدأ، في أن المحاسن والمثالب موزعة على الأمم كافّة، لا تخلو منها أمة، بما فيها أمتهم ذاتها[٨] وأمم الشرق الأقصى.

وقد ازدهر منذ العهد الاموي، في مجال الأدب، وفي إرهاصات كتب التاريخ، هذا النوع من التفاضل بين الحضارات والأمم، انطلاقاً من الحديث عن مميزات الأقاليم والمدن في دار الإسلام نفسها. ويتضح مما نقله ياقوت الحموي عن كتاب الجاحظ المفقود، و المسمى «كتاب الأمصار وعجائب البلدان»، أن الجاحظ قد تابع الى حد ما نمط ماسُمّي بالفضائل، أو الخصائص الذي ازدهرت في العصر الأموي، أي صفات ومحاسن المدن الكبرى حيث يدور الكلام أحياناً عن مواطنيها أكثر مما يدور عن البلاد نفسها، فيتحدث الجاحظ عن أهل دمشق، وعن عجائب البصرة ومساوئها، وعن مساوئ مصر..الخ،وينقل المقدسي عن الجاحظ وصفاً لخصائص المدن العشرة الكبرى في دار الإسلام. وقد اتسع شيئا فشيئا هذا النمط من المقارنة والوصف إلى التخصص في وصف المدن والأقطار المختلفة على طراز «الفضائل» أو «الخصائص» والذي يعود بداية تأليفه إلى العصر

الأموي، ثم تحول هذا النمط الى «كتب البلدان»، وتحول هذا الأخير بدوره، تحت تاثير الموضوعات المثيالوجية، والعجائب، إلى «كتب العجائب» أو باتجاه وصف الطرق، والأقاليم، أي الى «المسالك والممالك».[٩]

وإلى جانب هذه الأنواع من المدونات ظهرت كتب الرحالات و قصصها عن البلاد الأجنبية، بكل أنواعها من «رحلات السندباد» في بحار الهند والصين إلى الرحلات البحرية في المحيط الهندي «عجائب الهند»، ورحلة سليمان التاجر، إلى الرحلات البرية الكبرى، كرحلة ابن بطوطة، ورحلة أبي دلف، لتتعمق وتنبسط تلك النظرة النسبية إلى الحضارات المختلفة المدروسة بحثا عن خصائصها النوعية، شجعها على ذلك اتساع دار الخلافة الإسلامية لتشمل أمما جديدة، وأقاليم جديدة، مما أنعش الفضول المعرفي لإدراك التنوعات الجديدة، التي ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة، على قاعدة الاحترام و الاعتراف، اللتين أقرتهما النظرة الإسلامية إلى الآخر، فظهر على نحو مبكر الاهتمام بالتنوعات، إذ ذكر المسعودي أن عمر بن الخطاب (الخليفة الثاني)، الذي شهد عهده أكثر الفتوحات الإسلامية اتساعاً، كتب إلى حكيم من حكماء العصر يطلب منه وصف تلك المدن المفتوحة، وأهميتها فجاء في إجابة الحكيم: «أما الشام فسُحب وأكام، وريح وغمام، وغدق وركام، ترطب الأجسام وتلبد الأحلام، وتصفي الألوان، ولا سيما أرض حمص، فإنها تحسن الجسم،، وتصفي اللون، وتبلد الفهم،.... وتجفي الطبع، وتُذهب ماء القريحة، وتتصب العقل... أما أرض مصر فأرض فوراء غوراء، تُحمِد بفضل نيلها، وذمّها أكثر من حمدها، هواؤها راكد، وحرّها زائد، غير أنها تسمن الأبدان، وتسود الأبشار، وتنمو منها الأعمار، وفي أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء،... أما اليمن فيضعف الأجسام، ويذهب الأحلام، ويذهب بالرطوبة، وفي أهله همم كبار، ولهم أحساب وأخطار،... أما الحجاز... هواؤه طرُور، وليله يهور، يُنحف الأجسام، ويجفف الأدمغة، ويشجع القلوب، ويبسط الهمم،.... أما المغرب، فيُقسي القلب، ويوحش الطبع، ويطيش اللُّب، ويذهب بالرحمة، ويكسب الشجاعة،... أما العراق فمنار الشرق، وسرّة الأرض وقلبها، عنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم، واحتدت خواطرهم، واتصلت مسرّاتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم»[١٠]

ونلاحظ من هذا التقرير الاثنوغرافي أن الأقاليم الموصوفة وعلى الرغم من أنها تعلق بمناطق عربية، وداخلة في «دار الإسلام» فإن التقرير لا يخفي التنوع داخل وحدة الأمة، او المثالب والفضائل التي تتصف بها المدن والأقاليم العربية والإسلامية دون حرج، وهو منهج طبَّقه المؤلفون العرب في تناولهم لخصائص الشعوب في العالم الخارجي، بما فيهم شعوب الهند والصين، وقادهم تمسكهم بهذا المذهب إلى أن أطلقوا على كل إقليم من أقاليم (الخلافة)، صفة خاصة، فاشتهر عندهم اليمانيون بالعشق، والحجازيون بالدَّل، والعراقيون بالظرف، وأهل السند بالصيرفة، وأهل مرو بالبخل.[١١]

ويتحدث المقدسي، عن خصائص الأقاليم، داخل دار الخلافة، فيقول «أظرف إقليم العراق، وهو اخف على القلب، وأحدُّ للذهن وبها تكون النفس أطيب والخاطر أدق.. وأكثرها علماً وأجلّه على قدر الديلم، وأجودها ألباناً وأعسالاً وألذها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال، وأكثرها تمارا وارخصها اسعاراً ولحوماً وأثقلها قوما الرحاب، وأسفلها قوماً وأشرّهم أصلاً وفصلاً خوز ستان، وأحلاها تموراً وأوطأها قوماً كرمان، وأكثرها فانيذا وأرزازاً ومسكاً وكفَّاراً السند، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس، وأشدها حراً وقحطاً جزيرة العرب، وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام، وأكثرها عباداً وقراء وأموالاً ومتجراً وخصائصا وحبوباً مصر، وأوسطها قوماً اقور وأجفاها، وأثقلها وأغشها قوماً وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب»[١٢]

وروى عن عبد الرحمن بن أبي الأصمعي أنه دخل على الجاحظ، وسأله عن خصائص المدن فقال الجاحظ: «الأمصار عشرة، المروة ببغداد، والفصاحة في الكوفة، والصنعة ببصرة، والتجار بمصر، والغدر بالري، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والصلف ببلخ، والحرفة بسمرقند»[١٣] فقبل أن يهتم الباحثون العرب

بالأمم والحضارات الأخرى وبميزاتها وخصائصها، فإنهم أبرزوا ووصفوا الفروق المحلية المحيطة بهم، بمدينتهم وأقاليمهم، ولم يبخلوا عليها لا بالصفات الإيجابية أو السلبية، وطبقوا تلك الصيغة المنهجية على رؤيتهم للأمم الأخرى، فأعطوا لكل أمة من الأمم، أو لحضارة من الحضارات الأخرى، خاصة من الخصائص التي تنفرد بها عن غيرها، وتمنحها هوية خاصة، ودوراً في مجال العمران، أو في إتقان جانب من جوانب التقنيات الحضارية، وإظهار ما تشتهر به من زرع، وحيوان وعجائب، وغرائب في ظواهرها الطبيعية، ولم يبخلوا عليها، مثلما فعلوا عند وصفهم لمدنهم ولأقاليمهم، بالخصائص السلبية.

على هذا الأساس، أتقن الباحثون العرب في بسط خصائص الأقاليم، والبلدان، وفضائل المدن في مؤلفاتهم المختلفة، ولا سيما المؤلفات «البلدانية»، وتلك المتعلقة بـ «فضائل البلدان» ومصنفات «المسالك والممالك»، إذ ضمت دار الخلافة في ذروة مجدها مزيج هائل من الأجناس واللغات، وإن بقيت الغلبة للغة العربية، لغة الثقافة، واللغة المحكية وخاصة في المدن، دار الإدارة والملك، فحفلت دار الخلافة باجتماع معقد أثنياً ولغوياً وثقافياً، وهو ما يميز الاجتماع السياسي الإمبراطوري، غير أن هذه التعددية الإثنية واللغوية، وأيضاً الدينية، لم تتعارض مع الشعور العميق بالانتماء إلى «أمة» جامعة في إطار «دار الإسلام». فإذا كان المؤرخ، أو الجغرافي «البلداني»، قد اهتم بإبراز خصائص مدينة ما، فإن تلك الخصائص لم تنفصل عنده عمّا يجمعها بهذا الكل الجامع، وفي المقدار نفسه، عندما اهتم الباحثون العرب بإبراز خصائص الحضارات الأخرى، فإنهم كانوا يدركون الجامع الإنساني الذي يجمع الحضارات المختلفة إلى إنسانية واحدة، أبوها واحد (آدم)، وإلهها واحد، ومصيرهم واحد، وهو ما طبقوه على رؤيتهم للصين والهند، والترك، وشعوب الهند الصينية.

كان العلماء والجغرافيون والفقهاء والمؤرخون والرحالة والتجار، هم الممثلون الحقيقيون للثقافة الإسلامية، ونظر هؤلاء إلى «ديار الإسلام» كمملكة واحدة، ولم يتعارض لديهم التفكك السياسي مع الشعور الراسخ بوحدة الأمة، بل عبّر ازدهار التأليف بالتاريخ «البلداني»، عن هذا التوجه،إذ حرص المؤلف البلداني في تركيزه على(الخاص) في المدينة أو الإقليم أن يُبرز أيضاً مدى مساهمتهما في تكوني التاريخ العام للأمة، ويمكن التمييز في التاريخ (البلداني) بين نمطين أساسيين، هما نمط التاريخ الفضائلي الذي يغلب عليه الاهتمام بالفضائل الروحية التي تصف بها بعض المدن كمكة، والمدينة، والقدس، وآخر يكرّس نفسه لحوادث الزمن الدنيوي، ليتوصل إلى معرفة الخصائص العامة لتلك المدن، ككتاب «تاريخ بغداد» لأحمد بن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٠ هـ)، وكتاب «تاريخ الموصل» لأبي زكريا الأزدي (ت ٣٣٤ هـ-٩٤٣م)، وتاريخ أصفهان لأبي نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ-١٠٣٩م). ولعل(المفاضلات) الأولى التي ابتدأت بدلالة الموضوعات الأخلاقية، أو المفاضلة بين قيمة الكوفة والبصرة في مجالات قواعد الأدبي، أو في المجالات الأخرى، توسعت مع الأيام لتشمل المقارنات بين المدن، والأقاليم الأخرى، في دار الخلافة، وإذا كان هذا المنهج قد تجلّى بصوره واضحة في المدونات «البلدانية» و«فضائل المدن»، فقد تردد صداه في نمط جغرافية «المسالك والممالك»، الذي سيقدم صورة وافية عن خصائص البلدان والأقاليم الأقوامية والاقتصادية والثقافية.(١٤)

ولم تقتصر مفاضلة المسلمين للمدن والأقاليم والبلدان، والحضارات، على الإيمان الديني، وعلى أساس اقترابهم وابتعادهم عن طرق الإيمان والتقوى الإسلاميين، فهذه احتفظت بدورها كإحدى مقاييس الحكم على الآخر، إلى جانب العديد من مقاييس المفاضلة والحكم، المتعلقة بالمجال الأخلاقي، والحضاري، وأساليب السلوك، كالكرم، والعفة، والضيافة، والفصاحة، وإتقان الصناعات، ووفرة العلوم والتقنيات، ومدى ما تذخر بها بيئة هذا البلد أو ذاك من نبات وحيوان، وخيرات مادية، ولقد لخّص ابن الفقيه وجهة النظر العربية الإسلامية في النظر إلى تلك التنوعات، والتخصصات التي تميز شعب أو إقليم عن آخر، ومنحها قيمة كبرى لأنها أعطت معناً للتكامل الإنساني،إذ قال: "ولولا أن الله عز وجل خصَّ كل بلد من هذه البلدان، وأعطى كل إقليم من

الأقاليم بشيء منعه عن غيره، لبطلت التجارات، وذهبت الصناعات، ولما تغرب أحد، ولا سافر رجل، ولتركوا التهادي، وذهب الشرى (الشراء) والبيع، والأخذ والإعطاء، إلا أن الله عز وجل أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات، ومنع الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا، ويستمتع قوم بأمتعة قوم ليعتدل القسم، وينظم التدبير، قال الله عز وجل: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات. ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً». وفي قول الله عز وجل: «وقدّر فيها أقواتاً». قال: الكاغد بسمرقند والقراطيس بمصر، لذلك خص الله جلّ وعز بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر، كالياقوت والألماس وغير ذلك من الحجارة الثمينة، والكركدن والفيل والطاووس والأعواد والعنبر والقرنفل والسنبل والخولنجان، والداء صيني، والنارجيل والهليلج والتوتياء والقنى، والخيزران والبقم والصندل، والساج والفلفل وعجائب كثيرة، وخصّ أهل الصين بالصناعات وأعطاهم ما لم يعطه لأحد، فلهم الحرير الصيني والغضائر والسرج، وغير ذلك من الآلات المحكمة العجيبة الصنعة، المتقنة العمل، ولهم أيضاً مسك إلا أنه ليس بجيد، وقالوا إنما يتغير في البحر لطول المسافة. ثم الروم وما قد خصّها الله عز وجل به من العلوم والآداب والفلسفة والأحكام والهندسة والحدق بالأبنية والمصانع والقلاع، والحصون والمطامير، وعقد الجسور والقناطر، وعمل الكيمياء...»[١٥]

وإذا كانوا قد دأبوا على رصف الخصائص السلبية إلى جانب الخصائص الإيجابية، في معاينتهم لحال الشعوب والأمم خارج «دار الإسلام»، بما فيهم شعوب الهند والصين، فلأنهم اعتادوا أن يطبقوا تلك القاعدة، على الأقاليم العربية والإسلامية نفسها. ولهذا يخطئ من يعتقد عندما يصادف في دراسات الباحثين العرب لشعوب الهندو – صينية، ذكر بعض المظاهر السلبية لسلوكهم، ولعاداتهم، أن هذا صادر عن نزعة مركزية ثقافية، أو تعالي ثقافي، أو عن مركزية عرقية، إذ أنهم لم يبخلوا على أقاليمهم العربية الإسلامية ذاتها أو على مدنهم الأحكام السلبية إلى جانب ذكرهم لفضائل هذه المدن والأقاليم، وهي قضايا تمتلىء بها المصنفات «البلدان» والمصنفات الجغرافية «المسالك والممالك» والمصنفات الأدبية، بما فيها مؤلفات الجاحظ. وقد أورد ابن الفقيه حواراً حول فضائل المدن ومثالبها في ديارا لإسلام، بين رجلين، فيقول أحدهما وهو من بلاد الجبال، شمالي إيران، لرفيقه: "فمهما كان فينا يا أبا علي أكرمك الله... فليس فينا جفاء النبط، وعجرفة أهل السواد (وهم فلاحون في أرض العراق)، وأخلاق الخُوز، وغدر أهل الكوفة، ودقة نظر أهل البصرة، وبخل أهل الأهواز، وسوء معاشرة أهل بغداد، وجفاء أهل الجزيرة، وغلظ طبع أهل الشام وجهلهم، وأهل الجبل قد سلموا من شدة حرّ البصرة، ومن كثرة براغيث بغداد وذبانها، ومن نز البطائح، وتغير هواه مصر وثعابينها، ومن جرارات (حيوانات زاحفة) الأهواز، وسائمها، ومن عقارب نصيبين، وأفاعي سجستان».[١٦] و نظروا إلى هذا التنوع القائم بين الأمم، والشعوب، والحضارات على أنه نوع من الحكمة الإلهية، تغني حياة البشر، وتثري أنواعهم، وهو مابينه ابن خلدون (١٤٠٦م) بقوله «إن الله سبحانه وتعالى اعتمد هذا العالم بخلقة وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيهم لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته، فتعارفوا بالأنسب، ويختلفون باللغات، والألوان، ويتمايزون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويفترقون بالنحل والأديان والأقاليم والجهات».[١٧]

ولعل هذه النزعة المساواتية، واعترافها بالتنوع، مع احترامه، قد فتحت الطرق أمام بزوغ نزعة إنسانية اسلامية في العصر الوسيط، عبر عنها بقوة الجاحظ (٢٥٥هـ – ٨٦٦م)، والتوحيدي (٣٢٠ هـ – ٩٣٢م)، ومسكويه (٤٢١هـ – ١٠٣٠م) الذين لخصوا وجهة نظر الثقافة العربية تجاه العالم، وتنوعاته، وتجاه (الآخر) الشريك في عمارة الكون.وكان الجاحظ من المؤسسين العظام لهذه النزعة الإنسانية، وللثقافة العربية في عصورها الزاهية، والذي قال عنه ميكيل «لا بد لنا في الحد الأدنى، أن نعترف، في حدود معارفنا الحالية، أن الجاحظ أول من طرح قضية الإنسان في العالم، ولا سيما في كتابة الحيوان الذي يمثل مختارات تاريخ طبيعي،

واستعراض الخلق في صيغ نوادر أدبية».[١٨] فقد تم إعلاء شأن الإنسان والكائنات الإنسانية، بفضل الجاحظ، فاستناداً على مبدأ الرعاية الإلهية الذي يشمل الخلق جميعاً من الإنسان إلى الملاك، نظر إلى الإنسان على أنه يقع في منتصف سلّم الخليقة، ويتميز عن سائر الحيوانات بمزاياه التعقل التي تجعل منه إنساناً، وبمزايا حسن الاجتماع، ولامتلاكه البيان واستعمال اليد المبتكرة، والحساب والكتابة، وامتلاكه بعض الصفات التي تقربه من الملائكة، أما بصدد الحضارات الإنسانية، فقد نظر إلى مساهمات الأمم المختلفة في مجال العمران والحضارة، بطريقة تكاملية تقوم على منح كل منها أدواراً، وأشكالاً من الإبداع العمراني، و من مظاهر التمدن، بحيث أصبحت فنون العمران المدني والثقافي موزعة على الأمم البارزة، لأن أي منها، حسب الجاحظ، لا يملك إمكانية التفوق بكل جوانب العمران «لأن من كان مقسم الهوى، مشترك الرأي، ومتشعب الرأي النفس، غير موقر على ذلك الشيء ولا مهيأ له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته».[١٩] كما أن تفوق أمة من الأمم في مجال حضاري، لا يعني أن كل مواطنيها يشتركون في هذا التفوق، فإذا كانت اليونان تتميز بالحكمة الفلسفية، والصين بالحذاقة التقنية، والعرب بالشعر، فإن هذا لا يعني أن كل فرد منهم يتفوق بهذه الخاصية، «فلا كل يوناني حكيماً، ولا كل صيني في غاية الحذق، ولا كل عربي شاعراً فائقاً، كريماً سمحاً... لكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأكمل وأتم، وهي فيهم أظهر».[٢٠]

وشرح الجاحظ رؤيته تلك بقوله «ثم أعلم، بعد هذا كله أن كل أمة وقرن، وكل جيل، وبني أب، وجدتهم قد برعوا في الصناعات، وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب، وفي تأسيس الملك، وفي الصبر بالحرب، فإنك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب، وقصدهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور، وتصلح تلك المعاني».[٢١] ويشير إلى إبداع «الصين في الصناعات، واليونان في الحكم والآداب،... وآل ساسان في الملك، والأتراك في الحرب».[٢٢] على هذا فإن «سكان الصين منهم أصحاب السبك والصباغة، والإفراغ والإذابة، والأصباغ العجيبة، وأصحاب المخرط، والنحت، والتصاوير، والنسخ والخط، ورفق الكف في كل شيء يقولونه ويعانقوه».[٢٣]

أما عن الأتراك جيران الهند والصين في الشمال الشرقي، فيقول: «فلم يكن همّهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب المغانم، وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مستمرة ومقصودة، أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم».[٢٤]فميزة الأتراك الأساسية، عند الجاحظ، تتجلى في الشجاعة، والإقدام، ولا يخلون مثل كل الأمم من السالب، والمزايا، فهم «قوم لا يعرفون الملق ولا الخلابة، ولا النفاق ولا السعاية، ولا التصنع ولا النميمة ولا الرياء، ولا البذخ على الأولياء، ولا البغي على الخلفاء، ولا يعرفون البدع، ولم تفسدهم الأهواء، ولا يستحلون الأموال على التأويل، وإنما كان عيبهم، والذي يوحش منهم، الحنين إلى الأوطان، وحب التغلب في البلدان، والصبابة بالغارات، والشغف بالنهب».[٢٥]

ويخلص الجاحظ موقفه الأخلاقي، والمنهجي، من النظر إلى حال الأمم، ومواقعها المختلفة من الفضائل، والمثالب بقوله: «ولكل نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن، وقلة المساوئ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ، دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيها فهذا لا يعرف».[٢٦] ولعل أحد الركائز التي ينطلق منها الجاحظ، في ترتيبه للمزايا المختلفة التي تتصف بها الأمم، مثله في ذلك مثل أهم ممثلي الثقافة العربية الوسيطة، هو اهتمامه في مسألة التخصّص في المجتمع أولاً، وفي الدائرة البشرية ثانياً، انطلاقاً ممن قوله «أن الله لم يخلق أحداً له من القوة، والقابلية بحيث يستطيع أن ينجز أعماله كلها بنفسه دون احتياج إلى سواه لإنجاز ذلك... فأدناهم مسخّر لأقصاهم، وأجلّهم ميسر لأدقهم».[٢٧] ثم وسّع النظر في مسألة التخصص هذه فجعلها تشمل الجماعات والأمم مثلما شملت الأفراد،

فنسب إلى الأمم المختلفة نوعاً من التخصّص في حقول المعرفة المختلفة، وفي مجال العمران وخص الأمم المختلفة: الصين، الهند، اليونان، الترك، العرب، بميزة خاصة تتسم بها، تكمّل بها الجهد البشري العمراني.[٢٨]

وتجلت هذه النزعة المنفتحة على الحضارات المغايرة، وثقافاتها، أكثر ما تجلت في سوق الأدب، ولا سيما في المؤلفات الأدبيةالمعروفة(بالمقابسات)، التي ارتفعت عن التخصص إلى الشمول، وطمحت إلى إعطاء القارئ مقتطفات عن كل العلوم، لتزوده بالمعلومات العامة، وهو حقل معرفي حمل معنى أدب اللسان، وأدب النفس، وكان ابن المقفع (من أوائل من ساهم في هذا الحقل، ونقل "كليلة ودمنة" ذات الأصول الهندية إلى العربية، ونقل فيها الحكم الهندية إلى اللسان العربي، ويلي هذا الكتاب في الأهمية «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير»، لم يتحرج فيها ابن المقفع عن اختيار (الحِكم) من شتى الثقافات إلى القارئ العربي، فقد عرفت عملية تدوين العلم انطلاقة واسعة بعد سنة ١٤٣ هـ- ٧٥٤م فإلى جانب تدوين الموروث العربي الإسلامي، عرفت هذه المرحلة تدوين الموروث اليوناني والفارسي، والهندي، وكان من نتيجة ذلك تعدّد التيارات الثقافية، وتنوع مصادرها، وتعمق في سياق ذلك اتجاه الثقافة العربية للاعتراف بالآخر، وبالتعددية والتعايش بين الثقافات، حتى أصبحت ساحة الثقافة العربية في القرن الثالث الهجري سوقاً للقيم، فظهرت موسوعات ثقافية تعترف بهذا التعدد، وسميت لذلك بـ «كتب الأدب».[٢٩]

وكان ابن قتيبه أبو أحمد عبد الله بن سلم الدينوري النيسابوري (٢٧٦ هـ - ٨٨٣م) من أوائل من دشن التأليف في هذا النوع من «كتب الأدب»، وألف في هذا المجال «عيون الأخبار»، وتبعه ابن عبد ربه/أبو عمر شهاب الدين أحمد بن حمد (٢٤٦ هـ - ٣٢٨هـ) في كتاب «العقد الفريد» وألف في هذا النوع نفسه شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (٨٥٠ هـ-١٤٥٩) مقتدياً بمن سبقه في كتابه «المستطرف في كل فن مستظرف» وانفتح كل من هؤلاء، على مرجعيات ثقافية مختلفة. «في موضوع (الحكمة) التي هي ضالة المؤمن بأخذها أين وجدها، فنحن هنا أمام ليبرالية واسعة تقوم على الاعتراف بالاختلاف، وعدم التعصب لأي مصدر، لا على مستوى المذاهب، ولا على مستوى تنازع الأجيال، ولا على مستوى الانتصار للغير على حساب الجديد».[٣٠]

وقد عبر ابن قتيبه عن مرجعياته المتعددة، «ولم نزل نتلفظ هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم، غير مستنكفين أن نأخذ من الحديث سناً لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخسارته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها،فإن العلم ضالة المؤمن حيث أخذه نفعه، ولن يزري الحق أن نسمعه من المشركين، ولا النصيحة أن تستنبط من الكاشحين، ذلك لأن العلم المطلوب هنا هو علم الدنيا، وهو مشاع للجميع، وهذا على العكس من «علم الدين والحلال والحرام، فإنما هو استيعاد وتقليد».[٣١]

وقسّم ابن قتيبه كتابه إلى عشرة أبواب، أورد فيه أقوال الحكماء والأدباء في كل المواضيع، فنجد حكماء الهنود إلى جانب حكماء الصين والترك، والعجم والعرب، واليونانيين والروم، فيذكر عشرات الحكم الهندية، منها «في كتاب للهند: لا ظفر لبغي، ولا صحة مع نهم، ولا ثناء مع كبر،و لا صداقة مع خب (خداع)، ولا شرف مع سوء أدب، لا برّ مع شُحٍ، ولا اجتناب مُحرم مع حرص، ولا محبة مع زهو، ولا ولاية حُكم مع عدم فقه، ولا عذر مع إصرار، ولا سلامة مع ريبة، ولا راحة قلب مع حسد، ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزراء».[٣٢]

وأورد على لسان الترك حكماً كثيرة ومنها «وكان عظماء الترك يقولون: القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنّنَ الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب»[٣٣] يضعنا كل من ابن عبد ربه، والابشيهي في المناخ الثقافي التعدّدي، المنفتح على الثقافات، طلباً للحكمة التي هي ضالة المؤمن، ويتميز الأبشيهي بأنه حاول أن يضع القرآن والحديث على رأس قائمة

مراجعه، مجتهداً – وأحياناً بتكلف في الانطلاق عند الكلام على كل موضع من آية أو حديث، قبل الإتيان بما يناسب من أقوال وحكايات.(٣٤)

واستمراراً مع هذا التقليد، فضلاً عن التقليد الذي أرساه الجاحظ في كتاباته وهذا الميل العميق للانفتاح على الثقافات الأخرى، واحترام التنوع، ظهر العديد من المؤلفات المسماة «المقابسات»، فبعد أن سيطرت على المناخ الثقافي في العصر العباسي الأول المفاخرة بين الموروث العربي الإسلامي والموروث الفارسي، و دخول الثقافة العربية سن النضج، ولا سيما في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حلّ محله انفتاح عميق على الثقافات كافة، بما فيه ثقافات شعوب الشرق الأقصى، وظهرت فئة من المستهلكين للثقافة الآخذين من هنا وهناك «المتقابسين» الحريصين على «المشاركة في كل علم والإدلاء فيه بدلو خلال المناقشات والمقابسات التي كانت تزخر بها المجالس الثقافية... واللافت، أن هؤلاء المثقفين الذين يشكلون الجيل الثاني من مثقفي القرن الرابع الهجري والذين برزوا مباشرة بعد الفارابي لم يكونوا يرتبطون بسلطة مرجعية واحدة... كانوا ذوي ثقافة عامة متنوعة تحلقوا حول أبي سليمان السجستاني رئيس المناطقة في بغداد»،(٣٥) ومن هؤلاء كان أبو الحسن بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري (٣٨١ هـ) صاحب «مناقب الإسلام» الذي مارس التعددية الثقافية في إطار الحضارة العربية الإسلامية، دون تحزّب لموروث ثقافي معين.(٣٦) فنقل عن مرجعيات ثقافية مختلفة من الشرق إلى الغرب، دون حذر منوهاَ، أن أهم الأمم، أو الأجيال البشرية، هم الصينيون والهنود، والترك، والحبش، والبربر، والقبط، والروم والعجم والعرب، وقد خصّ العرب والعجم من الناحية الجغرافية بموقع الوسط، أي في الإقليم الرابع من الأرض.(٣٧)

وسلك تلميذه مسكويه (٤٢١هـ – ١٠٣٠م) المسلك الثقافي نفسه، وأيضاً معاصره أبو حيان التوحيدي وغيرهم من مثقفي المقابسات، فقد كان مسكوية كالعامري يتجاوز روح المنافسة بين الثقافات، وذلك بالاعتراف لكل أمة بنصيبها من الحكمة والأدب، وهذا ما يميز ظاهرة المقابسات التي تنطوي على نوع من «الليبرالية الثقافية».(٣٨) فكتابه «الحكمة الخالدة» يجمع فيه حزمة من المرويات، والحكم، حرص على أن يعطي فيها مساحة لكل أمة للتعبير عن حكمتها، ابتداءً من حكم الهنود والصينيين وحكم الروم، وحكم العرب، وضمّنه الكثير من حكم ملوك الفرس مثل كسرى الأشروان، وقباذ، أو ملوك الهند، دون أن يقتضي ذلك منه سنداً من الحقيقة التاريخية، بل هي من ذلك النوع من الأدب العام الشائع في ذلك الزمان.(٣٩) وقسّم كتابه إلى ثلاثة أبواب الأول خصّصه للحكم الفارسية، وفي الباب الثاني عرض فيه لحكم الهند، وختم كتابه بـ حكم العرب، يعرض تلك الحكم، باعتبارها تنطلق بحكم الجنس البشري، وتجاربه عبر التاريخ، على تنوع مجموعاتها العرفية والإثنية والدينية.

وقد ذهب أبو حيان التوحيد، بعد الجاحظ، واستمراراً لمنطق أصحاب المقابسات إلى التأكيد على الرؤية النسبية لموقع الأمم في الإنجاز الثقافي الحضاري البشري، وفي التفاضل في المساوئ والمحاسن فيما بينها، إذ يقول: «فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضلة على جميع الخلق، مفضوضة بينهم كلهم».(٤٠) ويشير إلى «أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطراد الفطرة، واختبار الفكرة، ولم يكن بعد ذلك إلا ما يتنازعه الناس فيما بينهم بالنسبة الترابية، والعادة المنشئة والهوى والغالب من النفس الغضبية، والنزاع الهائج من القوة الشهوانية».(٤١) ووصف تقاسم الأمم للفضائل بما فيهم الصين والهند، والترك «فللفرس السياسة والآداب، والحدود والرسوم، وللروم العلوم والحكمة، وللهند الفكرة والروية والخفة (الشعوذة)، والسحر ،وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكد والفرح، وللعرب النجدة والوفاء، والبلاء، والجود والزمام والخطاب والبيان».(٤٢)

أما في مجال ما يمكن تسميته «فلسفة الحضارة» فقد قدّم صاعد الأندلسي المولود عام ١٠٢٩م، وهو تلميذ ابن حزم، كتابه «طبقات الأمم»، الذي ألفه عام ٤٦٠هـ – ١٠٦٨م وضمنه تأملاته عن الحضارة، انطلاقاً من المفاهيم التي بثتها الثقافة العربية الإسلامية، القائمة على بيان ما تنفرد به كل مدينة، وإقليم، وأمة من خاصية تميزها عن مثيلاتها، أو استمراراً لما زرعه المفكرون السابقون، كالجاحظ، والتوحيدي من أطروحات في مجال «فلسفة الحضارة»، غير أن (صاعد) الذي أغفل العامل الديني في تقييمه لأدوار الأمم في مجال الحضارة – وضع سلماً ومراتب لرقي الأمم قياساً على تقدمها في مجال العلم وحسب، فأرجع التفاضل الحضاري بين أمة وأخرى، على مقدار ما تقدمه كلّ منهما من إبداع في مجال العلوم الذهنية والفلسفية، وأبعد الدين عن مجال التفاضل الحضاري، وحصره في مجال تفاضل الإيمان، كما أهمل المهارات اليدوية والبدنية المُعبر عنها في الحرف والصنائع، وعلى هذا استبعد الصين، من مجموعة الأمم المبدعة في مجال العلوم،التي هي عنده المعلم الأول للحضارة، لذا يضع الصين في الطبقة الثانية من الأمم التي اشتهرت في مجال الإبداع الحرفي اليدوي، بينما يضع الهند في المرتبة الأولى أي في صف الأمم «العالمة».

أشار صاعد، في البداية، إلى أن التنوع بين الأمم إنما يقوم على اختلافها في اللغة والأخلاق والسحنة، ويغفل العامل الديني إذا قال: «إعلم أن جميع الناس في مشارقا لأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وإن كانوا نوعاً واحداً، فإنهم يتميزون بثلاثة أشياء، الأخلاق، والصور، واللغات».[٤٣] وهذا التمايز بين الأمم لا يمت بصلة لأحكام التفاضل، فالاختلاف في اللغة والصورة والأخلاق، أي السلوك، لا يتضمن حكماً قيمياً، إنما هو حكم وجود وحسب، وعلى أساس الحكم التقريري، يذكر صاعد «أن الناس كانوا في سالف الدهر، وقبل تشعب القبائل واختراق اللغات، سبع أمم».[٤٤] وهي" أمة الفرس، وأمة الكلدان التي تتضمن العرب، والأمة الثالثة تجمع «اليونان والروم والإفرنجة والجلالقة والبرجان والصقالبة والروس والبرغر (البلغار) واللان وغيرها من الأمم»، والأمة الرابعة: النبط وهم «أمة مصر وأهل الجنوب» ثم الأمة الخامسة: الترك، والسادسة: الهند والسند، والسابعة: أمة الصين. ثم دارت دورة الزمن فتشعبت تلك الأمم السبعة، حيث «تشعبت لغاتهم وتباينت أديانهم، وانقسموا إلى أمم شتى». [٤٥]

ثم أخضع صاعد هذه الأمم إلى الحكم التفاضلي، وذلك بوضعها في طبقتين، فهناك طبقة الأمم العالمة، التي تحتل عنده المرتبة الأولى في مجال الحضارة، أما الطبقة الثانية من الأمم فهي التي لم تستطع المساهمة في مجال الذهنيات والعلوم، واقتصرت دورها على الحذاقة الجسدية، كالبروز في الشجاعة، والإتقان الحرفي والصناعي، والرسم، إلخ. ونلاحظ، هنا، غياب المعيار الديني عن تقسيمه هذا، فهو يقول : وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقهم، وتخالف مذاهبهم طبقتين: فطبقة عنيت بالعلوم فظهرت منها ضروب العلوم، وصدرت منها فنون المعارف، وطبقة لم تعن بالعلوم /عناية يستحق منها اسمه، وتعدّ بها من أهله، فلم ينقل عنها فائدة حكمة، ولا دونت لها نتيجة فكر».[٤٦]

وعلى هذا المقياس،وضع الهند في قائمة الأمم (العالمة) واستبعد الصين، فالأمم التي عنيت بالعلوم، هي عند صاعد ثمانية، الهند، والفرس، والكلدانيون، والروم، ومصر والعرب، والعبرانيون، أما الطبقة الثانية من الأمم التي لم تعن بالعلوم، فهي بقية الأمم، ومنها: الصين، ويأجوج ومأجوج، والترك، وبرطاس، والسرير، والخزر، وموقان، وكشك، واللان، والصقالبة والروس، وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة، وغيرهم، فهؤلاء «لم يستعملوا أفكارهم في الحكمة ولا راضوا أنفسهم بتعلم الفلسفة». [٤٧]

على الرغم مما تشكو منه أطروحات صاعد من فجوات نظرية، إلا أنها تتميز بتجاوزها للعامل الديني والعرقي، واللغوي في أحكامها التفاضلية بين الأمم، إذ تعطي للعلم والنشاط الذهني، دوراً حاسماً في رفع مستوى الأمة إلى

مصاف الطبقة الأولى، وتضع الابتكار اليدوي الصناعي في المرتبة الثانية، ولعل هذا مرده إلى طبيعة تقسيم العمل الاجتماعي، ما بين العمل الذهني، والعمل اليدوي، في ذلك العصر، الذي كان يرفع عموماً من شأن الأول على حساب الثاني، أما بشأن أمة الهند، التي وضعها في الطبقة الأولى، فهي عنده «أمة كثيرة العدد عظيمة القدر فخمة الممالك، وقد اعترف لها بالحكمة وأقر لها بالتدبير في فنون المعرفة جميع الملوك السالفة، والقرون الخالية».[٤٨] وللهند أيضاً «التحقق بعلم العدد، والأحكام بصناعة الهندسة، والخط الأوفى، والقدح المعلى من معرفة أحكام النجوم، وأسرار الفلك وسائر العلوم الرياضية، وبعد هذا فإنهم أعلم الناس بصنعة الطب، وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات، وخواص الموجودات، ولملوكهم السير الفاضلة والملكات المحمودة، والسياسات الكاملة، وأما العلم الإلهي، فهم يجمعون على التوحيد لله والتنزيه له عن الإشراك به، ثم أمنهم مختلفون بعد ذلك في سائر أنواعه، فمنهم براهمه، ومنهم صابئة».[٤٩]

أما الصين والترك فيضعهما في الطبقة الثانية من الأمم التي لم تعن بالعلوم، ويتحدث عن الصين فيصفها باتساع الملك، والثروة والصناعات، فهي «أكثر الأمم عدداً، وأفخمها ملكة، وأوسعها داراً، ومساكنها محيطة بمشارب الأرض المعمور ما بين خط النهار إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال، وحظهم من المعرفة، التي بزوا فيها سائر الأمم، إتقان الصنائع العملية، وأحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب، وتجويد (إتقان) الأعمال ومماسات النصب في تحسين الصنائع».[٥٠] وقال بالترك، جيران الصين، والهند من الشمال والشرق، أنهم «أمة كثيرة العدد أيضاً فخمة المملكة، ومساكنهم ما بين مشارق خراسان من مملكة الإسلام وبين مغارب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمور في الشمال، وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا فضلها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية».[٥١]

ولعل مرد هذا التبخيس لدور الصين والترك وغيرهما في مجال العلم، يعود جزئياً إلى تأثير «نظرية الأقاليم» البطليموسية، التي أعطت دوراً للموقع الذي تتخذه البلدان من خط الاستواء، شمالاً أو جنوباًً، وهو عامل سنرجع له لاحقاً، يقول عن البلدان الأكثر قرباً من خط الاستواء: «فهم لطول مقاربة الشمس رؤوسهم أسخن هواءهم وسخّن وجوههم، فصارت لهم أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة، وتفلفلت شعورهم، فهدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش».[٥٢] لكن صاعد ميَّز داخل هذه الأمم بين أهل المدن وجوارهم أهل الحضر، وبين أهل الحضر والبادية، فأهل المدن وخدّامهم من أهل البادية، لا يخلون، حيث كانوا من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها، من سياسة ملوكية تضبطهم وناموس إلهي يملكهم، ولا يشذ عن هذا النظام الإنساني إلاّ بعض قطعان الصحارى وسكان القنوات والفيافي».[٥٣] مُبرزاً بذلك دور «الدولة» كعلامة على تقدم الأمم، وأيضاً «شريعة» سماوية تحكم فيما بينهم.

ونقل صاعد ما اعتقد أنه قول ملك الصين، ومفاده: «إن ملوك الدنيا خمسة يتبعهم سائر الناس، وأولهم ملك الصين، وكانوا يسمونه «ملك الناس» لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة، وأشدهم انقياداً للسياسة، وكانوا يسمّون ملك الهند ملك الحكمة، لفرط عنايتهم بالعلوم وتقدمهم في جميع المعارف،وكانوا يسمون ملك الترك ملك السباع لشجاعة الترك، وشده بأسهم، وكانوا يسمون ملك الفرس ملك الملوك لفخامة ملكته وجلالها، ونفاسة قدرها، وكانوا يسمون ملك الروم ملك الرجال لان الروم أجمل الناس وجوهاً، وأحسنهم أجساماً».[٥٤]

ولقد دأب الكثير من المؤلفين العرب، على نقل هذه النظرة المتكاملة للأدوار الحضارية للأمم، فهذا ما نجده عند الأصفهاني (٣٥٦هـ – ٩٦٧م) في محاضرات الأدباء بقوله: «إن الهند لهم معرفة الحساب والخط الهندي، وأسرار الطب، وعلاج فاحش الادواء، والرقى، وعلم الأوهام، وخرط التماثيل ونحت الصور، وطبع السيوف، والشطرنج، والحنكة، وهي وتر واحد، يوضع على قَرعة، فيقوم مقام العود – ولهم ضروب الرقص، والثقافة والسحر والتدخين».[٥٥]

وقال القفطي، (٦٤٦هـ – ١٢٤٨م) في (أخبار العلماء وأخبار الحكماء) على خطا صاعد الأندلس: «إن

الأمم الثماني التي عنيت بالعلوم هي: الهند والفرس، والكلدانيون وهذه الامم المذكورة هي التي اعتنت بالعلوم... وباقي الأمم لم تعن بشيء من ذلك ولا ظهر لهم شيء منه»، ثم يعود ويذكر «والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد فخمة المماليك، وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايته بالعلوم.. فكان الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة، ولبعد الهند من بلادنا قلّت تآليفهم عندنا».[٥٦]

لعل تلك النظرة المفعمة بالنسبية الحضارية، المنفتحة على التعدديات الحضارية والثقافية، والتي عبر عنها هذا المقطع الطويل من الثقافة العربية، الذي عرضناه، قد انتقلت إلى جميع فروع المعرفة والثقافية العربية، فتجسدت في مذكرات الرحالة، والجغرافيين والمؤرخين، وأصحاب المعاجم والموسوعيين، كل في ميدانه الخاص، وفي أبواب أبحاثة الخاصة.

وهكذا، نوّه الجغرافي الموسوعي ابن رسته (٣٠٠ – ٩١٣م)، بأن «كل مدينة من المدن، وكل موضع من المواضع التي ذكرناها، لها ولأهلها خاصية وطبيعية في اختلاف صور الناس، وما يكون بها من الحيوانات والنبات والمعادن، والحر والبرد، والمياه والعيون، والسنن والدين والأخلاق، وسائر الأشياء التي ليس لغيرها من المدن».[٥٧] وعبّرت الجغرافية منذ القرن الثالث، عن التصورات العامة للعرب المسلمين ومعارفهم عن الآخر بما فيه شعوب شرق آسيا، فبالإضافة لماعكسته آنئذ من نزوع الثقافة العربية – الإسلامية نحو المعرفة الموسوعية، فقد حضنت جميع البلدان في تقصيها التأليفي الكبير، وحاولت أن تقدم عن البلدان التي تعرضت لها صورة وصفية مركبة، ومقاربة اثنوغرافية بما حفلت به عنها من أفكار وعادات وأساطير، وطقوس، لخصت فيها معارف العرب، ومتخيلهم عن شعوب الشرق الأقصى، والشعوب الأخرى، وامتزجت في بوتقتها جميع الأصول الثقافية، التي اختزنتها بغداد عندما كان فيها: قلب العالم المفعم بالتراسل مع العالم، والموار بتجاذب الأفكار وتلاقحها.

لقد شهد القرن الثالث هجري، التاسع الميلادي ذروة النضج للدراسات الجغرافية العربية حيث سيطر على منهج الدراسات تلك، ميلان، الأول ذو اتجاه فلكي – رياضي، تأثر جزئياً بالترجمات الهندية الفارسية، ثم بالمرجعية اليونانية التي سيطرت بالنهاية، ولا سيما كتابات بطليموس Ptolemow على تأليف الجغرافية الفلكية العربية، وبنظرية جالينوس عن الطبائع البشرية، وتحولت تلك النظريات المقتبسة، ولا سيما نظريتا بطليموس، وجالينوس، إلى عقبة معرفية، عندما رسخّت صورة نمطية ثابتة عن العالم، صار من الصعب اختراقها، فلعبت نظرية الأول في تكريس صورة نمطية عن عالم قسمته إلى سبع أقاليم من الشمال إلى الجنوب، معتمدة في ذلك على خطوط طولية تخيّلية متقاطعة مع خطوط عرض وهمية اخرى، فنظرت إلى خصائص الأمم على ضوء موقعها من تلك الأقاليم، ومن قربها وبعدها عن خط الاستواء، ومجال الحرارة والبرودة، فكلما انحدر موقع سكنى الأمم جنوباً، وقارب خط الاستواء، حيث ذروة الحرارة في العالم المعمور، كلما تضاءلت فرص العمران، إلى أن نصل إلى منطقة تنعدم فيها إمكانية الحياة البشرية وهو ما ينطبق على ذروة درجات البرودة في أقصى الشمال، لذا حصرت مجال العمران البشري إلى ما يقرب الثمانين درجة تبدأ من الدرجة الثلاث والستين أو الستة والستين شمالاً وتنتهي في الجنوب عند الدرجة الثانية عشر أو السادسة عشر، وبلغت سلطة بطليموس على بعض المفكرين العرب، إلى درجة أنهم قبلوا فرضيته عن امتداد جنوب القارة الإفريقية شرقاً، وتشكيلها لساناً برياً يقابل ساحل الهند والصين، وجزيرة العرب، ليصبح المحيط الهادي شبه بحية مغلقة، صار هذا الافتراض بمثابة مسلّمة امتد تأثيرها على شخصية علمية بوزن الإدريسي، ورغم غنى المعرفة العربية عن سواحل الأفريقية، وعن المحيط الهندي قياساً على المعرفة اليونانية.

هكذا، تحولت نظرية بطليموس إلى عائق نظري حبس خبرة الباحثين العرب بالشعوب المحيطة بهم، وبالعالم، وضيق عليهم بافتراضاته، فهم على غرار بطليموس ظنوا أن المعمور من الأرض يشكل ربع الكرة الأرضية، ويقع

في نصفها الشمالي، وأسموه (الربع المعمور من الأرض) كما تقيدوا بالنظرية القائلة باستحالة الحياة في البلاد شديدة الحرارة في الجنوب، والقارسة البرودة في الشمال. كما أن (الربع المعمور) مقسّم إلى سبعة أقاليم، تبدوا على شل أحزمة أفقية من الجنوب إلى الشمال، وأن الإقليم الرابع، الذي تقع فيه دار الإسلام، هو في وسط تلك الأقاليم، وأعدلها، وأفضلها. هواءه متوسط بين إفراط الحر والبرد. فلكل إقليم تأثيراته على الناس القاطنين فيه بالإضافة على الحيوان والنبات، يشير ابن رسته «ان الذي خلف معدل النهار، إلى ناحية الجنوب أشد سواداً وشعوراً أشد تفلفلاً، وخلقهم أشد تشوهاً ممن كان في مثل بعدهم عن معدل النهار في جهة الشمال، ونحن نجد ذلك، فإنهم يأتون منهم بناس كثير على ما وصفنا من الخلقة، متوحشي الطباع، متشبهين بأكثر طباعهم بالسباع المتوحشة.. وما يحدث فيها وإنما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها، أو بعدهم عنها، وبيان ذلك (الترك) فإنهم من أجل بعدهم عن مدار الشمس عند صعودها وهبوطها كثرت الثلوج فيهم، وغلبت الرطوبة والبرودة على أراضيهم، فاسترخت لذلك أجساد أهاليها وغلظت، وصارت شعورهم سبطة وألوانهم بيضاً حمراء».(٥٨) وبالمقابل، في أقصى الجنوب، على حافة العالم المعمور، فإن «الشمس في هبوطها وصعودها إذا كانت في تلك البروج وتوسط السماء، وتكون على سمة رؤوسهم فتسخن أهويتهم وتحرقهم، وتكثر الحرارة واليبس فيهم فلهذه العلّة صارت ألوانهم سوداء وشعورهم قططة، وأبدانهم يابسة نحيفة، وطباعهم حارة، وكذلك دوابهم وأشجارهم ومن أخلاق أهل هذه الناحية الجفاء والذكاء.

أما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان إلى الشمال وذلك مثل بابل، ونحوه من البلدان، فإن الشمس لا تبعد من سمت رؤوسهم ولا تقترب منهم، ولكن ممرها معتدل عليهم، فإن هواءهم حسن في التمزيج، وموضعهم معتدل ليس فيه حرٌّ شديد، ولا برد شديد، وألوانهم وأبدانهم، وطبائعهم معتدلة وعقولهم وأخلاقهم حسنة وقد كثر فيهم العلم والذكاء، وتقدمة المعرفة بالأشياء، ومحاسن الأخلاق وهي أرض العلماء والنبيين، فالأجسام والصور والألوان والعلوم والأخلاق متباينة متباعدة الشبه لاختلاف مواقعهم من مدار الشمس واختلاف أزمان السنة وتغييرها عليهم...».(٥٩)

وعلى مقاس تأثير الأقاليم هذه، نظر الجغرافيين العرب المتأثرين بتلك النظرية، إلى الشعوب كافة، إلاَّ أنهم استثنوا الهند والصين وايضاً الجزيرة العربية من ذلك التأثير،على الرغم من وقوع الهند في الإقليم الأول والثاني الجنوبيين، وتناثر الصين مابين الإقليم الأول والسادس،، وذلك بإدعائهم أن الصين والهند فضلاً عن جزيرة العرب، قد نجوا من تأثير موقعهم الإقليمي، وذلك لإحاطة ماء المحيط بهم، مما خفّف من وطأة الحرارة عليهم، وأخضعوا له الشعوب الشمالية المتاخمة للصين: الترك، وشعوب يأجوج ومأجوج، وأيضاً الشعوب الجنوبية الذاهبة في أعماق المحيط الهندي، والتائهة جنوباً، التي تعرضت أحياناً لأحكام قاسية وأخرى تخُليلية مفرطة في الغرابة.

وبالإضافة لفكرة الأقاليم البطليموسية تلك، فإن الجغرافيين العرب تاثروا بنظرية جالينوس وابقراط التي افترضت وجود صلات بين طبائع البشر ومصيرهم على الأرض، وبين الكواكب والنجوم في البروج السماوية، فغدا التنجيم جزءاً من العلوم الجغرافية،وهو مافتح الباب للتقصّي عن الروابط التي تنظّم علاقات الجماعات بالنجوم، وانتهوا في أبحاثهم الجغرافية إلى إرجاع الخصائص المختلفة للشعوب إلى موقعهم الإقليمي – الفلكي في الأقاليم السبعة،والتي يقع كل منها تحت تأثير كوكب معين، ونجم محدد «وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل.. وله من البروج الحمل والقوس، ومن الأنجم السبعة المشتري، والإقليم الثاني الهند والسودان، زحل، والإقليم الثالث مكة والمدينة واليمن والطائف، والحجاز وما بينها، وله من البروج العقرب، ومن الأنجم السبعة الزهرة وهي سعد الفلك، والإقليم الرابع مصر وأفريقية والبربر والاندلس، وما بينهما، له من البروج الجوزاء، ومن الأنجم السبعة عطارد، والإقليم الخامس الشام والروم والجزيرة، له من البروج الدلو، ومن الأنجم السبعة المريخ... والإقليم السابع الديبل والصين، له من البروج الميزان، ومن الأنجم السبعة الشمس».(٦٠)

وقسّم المسعودي العالم المعمور إلى أربعة أرباع، كل منها يتميز بخصائص محدّدة بتأثير الأجرام السماوية، فالربع الشرقي الذي يقع إلى الشرق من خط الطول الشمالي، وهو الذي فيه الصين والهند، «فهو ربع مذكر، يدل على طول الأعمار، وطول مُدد الملك والتذكير وعزة النفس وقلة كتمان السر، وإظهار الأمور، والمباهاة بها، وما لحق بذلك، وذلك طباع الشمس، وعلمهم الأخبار والتواريخ والسير والسياسات والنجوم» أما في الربع الغربي، فهم يتصفون بكتما السر والتدين وسلامة النية، وهذا يأتي من تأثير القمر، والقسم الشمالي «فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم، وجفت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلدت أفهامهم، وثقلت أنفسهم، وابيضت ألوانهم، وسبطت شعورهم.. ولم يكن في مذاهبهم متانة.[٦١]

أما الميل الثاني الذي تنازع السيطرة على الدراسات الجغرافية في مواجهة النظريات اليونانية، فهو منهج محلّي اعتمد على المشاهدة، والتجربة المباشرة، والرحلة لاستقصاء، وتجميع الشواهد للوصول إلى الاستنتاجات القاعدية، فطرح الجغرافيون المتمردون على سلطة بطليموس، منهجاً واقعياً،اعتمد المشاهدة والرحلة، وتأثير البيئة على الإنسان مقابل التأثيرات النجمية والفلكية (التنجيم) التي نوهنا بها، فانتقلوا إلى معالجة جغرافية صرفة للموضوع، وقد أشار المسعودي نفسه إلى هذه التأثيرات البيئية على الإنسان، بطريقة شبيهة بالآراء الجغرافية الحديثة، إذ يفحص الموضوع تحليلياً، ويتتبع تأثيرات البيئة على حياة الناس وأفكارهم، و بيّن أهمية توفر المياه، والغطاء النباتي الطبيعي، والتضاريس كعوامل هامة تؤثر على الحياة البشرية.. وتأثيرات ارتفاع الجبال على برودة المدينة، وانخفاض الأرض على درجات الحرارة.[٦٢] فقال: «وقد تختلف قوى الأرضين، وفعلها في الأبدان لثلاثة أسباب: كمية المياه التي فيها، وكمية الأشجار، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها، فالأرض التي فيها مياه كثيرة تُرطب الأبدان، والأرض العادمة للمياه تجففها، وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار التي فيها تقوم لها مقام السترة، فبهذا السبب لا تسخن، والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار، وأما اختلاف قواهامن قبل مقدار علوها وانخفاضها، فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة، والأرض المنخفضة العميقة حارة».[٦٣]

فإلى جوار سلسلة الجغرافيين الفلكيين التي تبدأ بمحمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٢ هـ – ٨٨٧م) (صورة الأرض) والفرغاني (٢٤٧هـ – ٨٦١م) وسهراب (٢٣٤ هـ – ٩٤٥م) ظهرت الجغرافية الوصفية التي أطلق عليها لقب «المسالك والممالك» والجغرافية الإقليمية، وجغرافية «البلدانية» التي تحدثنا عنها سابقاً، تعتمد في أبحاثها على المشاهدة والتحقق، استناداً على الأسفار والرحلات في مختلف أنحاء العالم، وذلك لأن الخط الحقيقي للجغرافية العربية الإسلامية هو خط المسالك والممالك والبلدان، وهو خط سليم يقوم على الرحلة والمشاهدة، والتحقق من أهل البلاد عمّا هم.[٦٤] وأكد كراتشكوفسكي على هذه الحقيقة بقوله «في موازاة هذا الاتجاه (الفلكي – الرياضي) وجد اتجاه آخر تشكل معه في وقت واحد، بل ربما تشكل قبله تبعاً لبعض المصادر، أعني نهج الجغرافية الوصفية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرحلات... وهو يسترعي الانتباه بغزارة مادته، وهو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبغ عليه طابعه المميز، ويعطيه شكله الخاص، ما يصعب إيجاد مثيل له في آداب الأمم الأخرى».[٦٥]

اقترنت كتب المسالك والممالك بالقرن الرابع هجري / العاشر الميلادي، ويعتبر اليعقوبي في هذا السياق رائد هذا النمط، الذي دمج التاريخ بالجغرافية، والجغرافية بالرحلة والمشاهدة، واكتمل هذا الإتجاه الدراسي منهجياً مع أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية، الاصطخري (٣٤٠هـ – ٩٥١م) وابن حوقل (٣٦٧هـ – ٩٧٧م) والمقدسي (٣٨٠هـ – ٩٩٠م) وأفضت جهود أصحابه إلى رواج الأدب الرحلي، ومؤلفات «البلدان» الإقليمية التي انكبت على دراسة كل إقليم بعينه، وأدب فضائل المدن، ثم أدب العجائب والغرائب، وأستفادت

مصنفات المسالك والممالك بدورها من الإتجاهات الجغرافية كافة،بما فيها الجغرافية الإدارية، وأخبار الرحلات، والأدب، ونموذج صورة الأرض، وانصبت جهودها بالنهاية على الوصف الدقيق للأقاليم المدروسة، بكل جوانبها، اعتماداً على المشاهدة العيانية، والاتصال بالناس واستقراء أفكارهم وآرائهم وأخبارهم، وأعطت صورة اثنوغرافية عن حياة الشعوب التي درستها، وقدمت خلاصات عن خاصيات هذا الإقليم أو ذاك، ومحاسنه ومساوئه، وهو منهج نجده في كتب «فضائل المدن»، والمؤلفات «البلدانية» لهذا تضمن «كتاب البلدان» لليعقوبي على معلومات جغرافية سياسية إدارية واجتماعية، وإثنية ولغوية، ودينية وزراعية، وصناعية، وتجارية. وشرح اليعقوبي القواعد المنهجية المتبعة لدى أصحاب المسالك والممالك، والمؤلفات البلدانية بقوله بأنه قد عنى بالمسافة ما بين كل بلد وبلد، «لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري، ودام تغريبي، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن موطنه، ومقره، وإذا ذكر لي محل داره، وموضع قراره، سألته عن بلده... ما هي، وزرعه ما هو، وسكنيه من هم: عرب أم عجم؟... مشرب أهله حتى أسأله عن لباسهم... وديانتهم، ومقالاتهم والغالبين عليه، والمترأسين فيه... وما هي مسافة ذلك البلد، وما يقرب من البلدان...»(٦٦)

وعلى أساس منهج المفاضلة، والبحث عن خصائص الأقاليم، قدَّم جغرافيو «المسالك والممالك»، و«البلدان»، والجغرافية الإقليمية، دراسات مهمة عن الهند، والصين، والترك ولجوارهم الجنوبيين،عملوا فيها مابوسعهم للإحاطة بالجوانب المختلفة لثقافة تلك الجماعات والأمم، وأبرزوا خصائصها النوعية، خارج إطار الصورة النمطية، التي اقتبسها الجغرافيون الفلكيون العرب عن هذه البلدان، وجرى فيها احتباسهم في موقعهم الإقليمي الفلكي، وقد شرح المقدسي أيضاً منهجه بطريقة مقاربة لتوجهات اليعقوبي فأشار إلى أنه في دراستة للأقاليم، اتجه لذكر «ما فيها من المغاور والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمال والتجارات، واختلاف أهل البلاد في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذِكر مواضع الأخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات، وذكر السياخ والصلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال، والحواير والسماق، والسمان منها والرقاق، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والحدود، والمصارد والجردم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر».(٦٧)

وكان للرحلة أثرها الحالم في تحطيم الصورة النمطية التي كونتها الجغرافية الفلكية عن العالم، بما فيه شرق أسيا، فقدمت صورة حية أخاذة عن واقع الشعوب في الصين والهند، وفي المحيط الهندي، بكل تنوعاتها وخصبها، ولم يكترثوا في دراستهم الاثنوغرافية للشعوب بتلك التقسيمات الإقليمية الفلكية، ولا بتحديداتها الصارمة، فتركوا الفرصة لتتنوع أوضاع الناس لتعبر عن نفسها بكل موضوعية، وانفتاح، وساعدت مذكرات الرحالة أصحاب مصنفات «المسالك والممالك»، على إنضاج دراساتهم، وأبحائهم، إلاَّ أن هذا لا يعني، انتفاء أثر السلطة المعرفية لنظريات الأقاليم الفلكية، وكما يقول كراتشكوفسكي «وبالرغم من أن العرب قد كشفوا في القرن التالي للخوارزمي عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقي لأفريقيا، وفي الهند وجنوب شرقي آسيا، فإن النظرية القائلة باستحالة السكن، في الإقليم الحار الأول قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة، إذ حافظ جميع الفلكيين والجغرافيين المتأخرين دون استثناء على التقسيم القديم للأقاليم».(٦٨)

وحدة التاريخ الكوني للأمم

أنه لأمر ذو دلالة، أن يربط اليعقوبي، كأول مؤلف (بلداني)،الجغرافية بالتاريخ، ويمزجهما في بوتقة واحدة، فالتاريخ ديوان العرب إلى جانب الشعر، وكذلك الجغرافية، ولقد وضع اليعقوبي بذلك أول تاريخ للعالم عند المسلمين، تتويجاً لمحاولات المؤرخين العرب لاحتضان تاريخ البشرية منذ آدم إلى محمد (ص)، وقد تجلّت هذه النزعة التاريخية، في التدوين التاريخي، بظهور حوالي خمسة آلاف مؤرخ، وما يزيد على عشرة آلاف إلى اثنتي عشر ألف كتاب في التاريخ في أقل التقديرات، ويمكن أن نلاحظ،منذ تأليف شرحبيل بن حسنة (ت١٢٣هـ-٧٢٥ م) وابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ-٧٢٦م) كيف حاول المؤرخ العربي أن يجعل تأليفه أساساً لكتابه تاريخ عالمي، من خلال سلسلة الأنبياء، وما يوازيهم من تاريخ الملوك، تنتهي بسيرة خاتمة النبيين، والأمة الخاتم، أمة المسلمين.(٦٩) وبلغ هذا التاريخ ذروة نضجه على يد الدينوري (٢٨٢هـ - ٨٩٥م) واليعقوبي والطبري (ت ٣١٠هـ - ٩٢٢م) ولقد حافظ المؤرخ في منهجه الشامل، على الجمع بين الخاص والعام، على الرغم من تنوع الموضوعات التاريخية، أكان تاريخاً عاماً، أم تاريخ إقليم، أو تاريخ مدينة، أو طبقة الرجال، فقد التزم بنظرته الجامعة لتاريخ الأمم ووحدتها، في سياق وحدة الإنسانية، وعلى هذا الأساس وضعوا الأمم التي تطرقوا ذكرها، في تاريخهم الكوني،: اليونان والروم الهند والصين، كحلقات لا تتجزأ من سلسلة التاريخ الكوني والروحي، للإنسانية، تحتل فيها أمة المسلمين موقع الأمة حاملة للرسالة الخاتم.فيصبح كل الناس، وفق هذه النظرة (التاريخية) القرآنية لنشأة المجتمعات، أمة واحدة، وجماعة واحدة صدرت عن نفس واحدة «آدم»، وبعث الله إليها النبيين ليحكموا بالكتاب الذي أنزله الله فيما بينهم، ثم تفرعت هذه النفس الواحدة، وتشعب منها البشر، وصاحب هذا التشتت ظهور الرسل «مبشرين ومنذرين» ليحكموا «بالحق» ولهدايتهم، وظهرت السلطة التي كان بعضها مترفاً ومتكبراً، وفي مقابلها أنزل «الرسل» ليقيموا «القسط» أي «العدل»، إلاّ أن الرسل انحصرت رسالتهم ببني قومهم ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾. (النحل ٣٦)، ﴿وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير (فاطر ٢٤)، وكل رسول يُرسل بلسان قومه ﴿وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه ليبين لهم﴾ (إبراهيم: ٤) ولم تخلو قرية من رسول ﴿وما أهلكنا من قرية إلاَّ لها منذرون﴾ (الشعراء: ٢٠٨) وفي حين يبدأ نبي المرحلة السابقة للإسلام بقومه وحسب، فإن نبي الإسلام يتخذ من قومه نقطة بداية لنشر الدعوة في العالمين، وإن يبقى لقومه دورهم الخاص المميز في تبني الدعوة ونشرها، ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ (الزخرف: ٤٤) فالنبي محمد هو استمرار لما قبله من الرسل الذين انتشروا في العالم كافة، إلاَّ أنه يتميز بشمول رسالته وعالميتها على الناس كافة، أنه «خاتم النبيين» وأمته «خاتم الأمم» عليها أن تأسس الأمة في العالم واستيعاب العالم في الأمة. رجوعاً جدلياً إلى نقطة بداية آدم ولكن بطريقة نوعية على نحو أكثر علواً وشمولاً إلى الحد الأقصى، وعلى هذا يصبح افتراض نزول الوحي على الرسل والأنبياء في الصين والهند وجوارهما افتراضاً واقعياً، ويصبح التساؤل ممكناً حول ما إذا كانت البوذية التي قالوا عنها «السمنية» والبراهمية، والكونفوشية، ديانة موحى بها في البداية، ثم أصابها التحريف فيما بعد، وبالتالي يصبح تعاملهم معها كتعاملهم مع أصل الكتاب: المسيحية، واليهودية، والصابئة.

ومما ساهم في هذا التفهم للديانات الهندية الصينية، هو أن نظر الحضارة العربية الإسلامية إلى تمدن الشعوب وتحضرها، كانت تتقبل الإختلاف الديني، حتى الديانات الوثنية للصينيين والهنود، مع إبدائها أحيانا الاستفظاع والاستهجان بصورة واضحة، دون أن يكون الاستفظاع الطابع الغالب على خطابهم، بل اقتصرت عبارات الاستهجان على مواضيع بعينها، ولاسيما ما يتعلق منها ببعض الطقوس، والإعتقادات غير المألوفة.(٧٠)

فإذا كان التأليف العربي للتاريخ العالمي الدهري احتضن كل الأمم بما فيها الهند، والصين، والترك في وعائه الشامل، فإن تأليفهم للتاريخ الروحي وضع جميع الأديان السماوية، التي لم تخل منها أمة، كحلقات في سلسلة تجليات الوحي النبوي، وهو ما جعلهم أحياناً ينظرون لديانة الهند والصين، بانفتاح أكثر، وتفهم، وهو ما نجده في عرض البيروني لها، الذي اتسم بحيادية وموضوعية، باهرين، رغم مظاهر تعدد الآلهة، ومظاهر الوثنية التي نظروا إليها أحياناً على أنها رموز بالنسبة لمتعبد الهندي تشير إلى الإله الواحد، كما أن المؤرخين

العرب اهتموا من ناحية أخرى، في بواكير أعمالهم، بعلم السلالات، وأن الجديد في تدوينهم هذا للأنساب عمّا سبقه من التداول الشفهي لها في العهد (الجاهلي)، هو أنه دمج النسب في إطار ارتباطه بالأمة، وبتاريخ المساهمة في تاريخ الإسلام، وقد قام عمر بن الخطاب على هامش إنشائه لديوان الجند بتشكيل لجنة لوضع ثبت بأنساب العرب، فقامت بهذه المهمة في ارتباط مباشر بتوزيع الخراج، لذا نظمته تلك اللجنة وفق تراتبيه بدأت بالعباس عم النبي، ثم ببني هاشم، مراعية بذلك الترتيب، الاعتبار الديني أولاً، والاعتبار القبلي ثانياً، كما أن القبائل فاخرت بموقفها أثناء الفتوح، مما دفع إلى عنايتهم بالإنساب.(٧١) فكونت علوم الأنساب إحدى محطات الدراسات التاريخية لاحقاً، وساهمت بإعطاء مادة أولية لهذا الدراسة إلى جانب السير والمغازي، وكانت المشاركة في فعالية الدعوة الإسلامية عاملاً مهماً في تقدير المكانة الاجتماعية، وفي تحديد العطاء في الديوان، ثم ظهر تمايز في تدوين الأنساب بين الاتجاه القبلي (الأنساب والأيام) والاتجاه الفقهي الذي نجده عند علماء الحديث، وكانت الغلبة للثاني، أي للعقيدة، من هنا أخذت الكتابة التاريخية للأنساب تتدرج منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي في تاريخ الجماعة أو الأمة الإسلامية.(٧٢)

ونقل المؤلفون العرب تلك الترسيمة السلالية إلى مجال العالم بأسره، فجمعوا فيها بين تأكيدهم على وحدة الجنس البشري بإرجاعهم الحلقات السلالية إلى أصل واحد: آدم، وما تفرع عنه من أحفاد، ولا سيما في حلقاتهم الرئيسية التي تتمفصل مع أولاد نوح، حيث يذهب المؤلفون العرب إلى أن الأرض تقاسمها أولاد نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث فيما بينهم، فكان من حصة سام وأولاده وسط الدنيا بما فيها بلاد العرب، ولحام الشام ومصر وأعالي النيل، والسودان والهند، وبقي ليافث وذريتة بلاد الصقالبة والروم والفرنجة والصين.(٧٣)

يضع المسعودي الصين، في هذا التقسيم، في قسمة أولاد يافث، والهند في ذمة أولاد حام، بينما افترض اليعقوبي ترسيمة أخرى: «صار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والتبت والبلغر والديلم وإلى ما وراء خراسان، ولولد حام المغرب وما وراء الفرات إلى مسقط الشمس، ولولد سام الحجاز واليمن وباقي الأرض»(٧٤)

ويشير بعضهم أنه في زمن (نمرود) الذي تطاول على رِفعة الله، فأراد بناء حصن يرتفع صوب السماء، فأتى الطوفان الكبير، فافترقت الأمم، وتبلبل لسانها، وتفرقت البشر به إلى سبعة أمم، أمة الفرس، وأمة الكلدانيين وتضم العرب، وأمة اليونان والروم والصقالبة كانت لغتهم واحدة، وملكهم واحد، والأمة الخامسة أجناس الترك، والأمة السادسة وتجمع أجناس الهند والسند وما يتصل بها، لغتهم واحدة وملكهم واحد، والأمة السابعة الصين والسيلي (كوريا) وما يتصل من ولد عامور بن يافث، ثم ما لبث أن كثر النسل، وتشعبت الشعوب والقبائل، وافترقت مرة أخرى اللغات، والأمم، وتباينت الآراء والعبارات والمساكن والمناسك(٧٥)

ولوّن بعض المؤلفين العرب هذه الترسيمة، بالمعايير أعطوا فيها الأفضلية لأولاد سام، وذريته، بان خصوهم بوسط الدنيا، وخصوا أولاد حام بما يشبه الدرجة الثانية، وبعضهم تحدث عن عصيان حام، لأبيه، فاستحق غضب أبيه نوح.(٧٦) وبالمقابل فإن يافث، الذي تنتسب إليه شعوب الصين والهند، والترك وبعض الشعوب الأوروبية، لم يوجّهوا له ولأحفاده خصائص طبيعية تحط من وزنهم ومرتبتهم في الجنس البشري، ولم يظهروا أية أحكام سلبية بحق الهنود، أو الصين لانتسابهم إلى يافث. وقد علّق ابن خلدون على تلك الترسيمة بتشكك، ووجه نقده لأصحاب المؤلفات القائلين بذلك: «وما أداهم إلى هذا الغلط إلاّ اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك، فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة (بموقع المكان)، والسمة واللون، كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان،

ويكون بالعقائد والشعار والنسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم، وخواصهم ومميزاتهم، فتعميم القول في أهل جهة من جنوب أو شمال بأنهم ولد فلان.. إنما هو من الاغاليط».[٧٧] فبقي المفهوم السلالي موضوعاً للتنازع داخل الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين، الذين لم يصلوا إلى اتفاق حول تحديد قيمتة المعيارية، فضلاً عن تنازعه، في بعض مبادئه مع المبدأ الإسلامي.

فقط كان ما يشغل بال ابن خلدون أثر البيئة والوسط الجغرافي، واختلاف العمران في الخصب والجوع، والمعتدل من الأقاليم والمنحرف، والهواء في حياة البشر، وكل تلك المواضيع لم يحدث أن أُخضعت – كما يقول كراتشكوفسكي، قبل ابن خلدون لفحص منظم، فمثل هذه الأفكار لم تظهر في أوروبا إلا ابتداء من مونتسكيو m ntesquieu .[٧٨]

العوامل الإجتماعية السياسية التاريخية وحدود المعرفة

ولعل طبيعة العلاقة بين العرب المسلمين وشعوب الشرق الأقصى، التي غلب عليها الطابع السلمي، والحاجة لتبادل المنافع، هي التي عكست نفسها على المتخيل العربي عن الهنود والصينيين، وأضفت على مقاربتهم لأحوالهم وأساليب معاشهم، ومستوى موقعهم الحضاري طابع الصدقية والموضوعية والتفهم.

ولا يمكننا في الخاتمة، إغفال الحدود التي وصلت إليها المعرفة العربية بعوالم شرق آسيا، على تكوني صورتهم عنها، علماً أن معرفتهم تتضاءل طرداً كلما اتجهنا مبتعدين عن الشواطئ الشمالية للمحيط الهندي، أو ابتعدنا شمالاً فيما وراء الحدود الصينية والهندية، فاضطر المؤلفون العرب عندها إلى ملء فجواتهم المعرفية بتحليلات لا ترتكز في أغلبها على وقائع،أو على شواهد معروفة، فازدادت، من جراء ذلك، سيرة الأعاجيب والغرائب على حساب المعطيات التجريبية.

وبالنهاية، فإنه يمكن القول، إن معايير الثقافة العربية في النظر إلى الآخر في الشرق الأقصى، وفي بقية العالم، لم تدفع العرب إلى رسم حدوداً ثقافية وحضارية صارمة تفصلهم عن الآخرين، أو تُعلي من شأنهم عليها في شتى المجالات، كالتي رسمها الإغريق والروم فيما بينهم وبين الأغيار، الذين سموهم: البرابرة، فالعرب – المسلمون لم يتخذوا من «دار الإسلام» أو «دار الخلافة» حداً فاصلاً بين الحضارة والبربرية، أما ما ظهر منهم من أحكام تبدو قاسية على الشعوب، والثقافات، وخاصة على تلك التي تقطن في أقصى جنوب العمران أو في شماله، فقد كان نتيجة لتصوراتهم لتأثير البيئة الأشد برودة، والأشد حرارة، أوكان بتأثير حدود معرفتهم بتلك الشعوب، التي افترضوا أنها في نهاية العمران، أما الأحكام «القاسية» التي أطلقوها أحياناً على بعض عادات، ومظاهر حياة شعوب الشرق الأقصى، ولغيرها، فكان لها ما يماثلها في أحكامهم التي طبقوها على بعض أجزاء ومدن البلاد العربية الإسلامية، وعلى الأقوام التي تدخل في «دار الإسلام»، أو حتى العرب أنفسهم، فعلى الرغم من شعورهم المفعم بتفوق حضارتهم، وثرائها، ومنعتها، فإنهم لم يبخلوا حتى على مجالهم الحضاري نفسه بالكثير من النقد، أو التبخيس للحواضر العربية، والإسلامية، فإذا استثنينا شعورهم بالتفوق الديني، فإنهم طبقوا منهج كشف المثالب والفضائل عليهم، كما طبقوه على غيرهم، ويكفي أن نتذكر ما أورده ابن خلدون من أحكام قاسية، بل مجحفة، في حق أبناء قومه العرب، نال فيها من دورهم في مجال الحضارة والعمران: «العرب أبعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضاري وما يدعوه إليه من الصنائع وغيرها، والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران».[٧٩]

وهو ما يظهر جلياً، أيضاً في ما يقوله المقدسي في بعض المدن العربية الإسلامية، بل حتى في مكة نفسها: «وإيليا القدس تصلح لأهل الدين والدار، وأهل بغداد قليلو الأعمار، وصفاء نيسابور بالضد، وليس أكثر ولا أرذل من مذكري نيسابور ولا أطمع من أهل مكة، ولا أفقر من أهل يثرب، ولا أعف من أهل بيت المقدس، ولا آدب من أهل هراة وبيار، ولا أذهن من أهل الري، ولا أنقب من أهل سجستان، ولا أبخس من أهل عمان، ولا من أهل الري، ولا

أجهل من أهل عُمان، ولا أقبح من أهل خوارزم، ولا أشرب للخمور من أهل بلعبك ومصر، ولا أشغب من أهل سيراف، ولا أعصى من أهل سجستان، ودمشق، ولا أشغب من أهل سمرقند والشاش، ولا أوطأ من أهل مصر، ولا أبله من أهل البحرين، ولا أحمق من أهل حمص...».(٨٠)

لعل المسعودي في ترميزه لخصائص الحضارات الكبرى ممثلة بملوكها، قد قدّم «الصورة النمطية» العربية عن تلك الحضارات، حيث تبدو كلاً منها حاملة خصالها الذاتية التي تميزها عن غيرها من الحضارات، وتتكامل في الوقت نفسه معها، وإلى جانب ذلك، ورغم ثقته الكبرى بحضارته العربية – الإسلامية، وهي التي كانت حينئذ في عزّ تألقها، فإنه لم يذكر العرب بالإسم، أو يذكر ملوكهم إلا باعتبارهم ورثة للموقع الذي لعبه (ملوك بابل) في الحضارة من قبل،. فإلى جانب تأكيده على احتلال ملوك بابل للمكان الأول بين ملوك العالم قديماً،ثم يليه ملك الهند لحكمته، ثم ملك الصين لسياسته وإتقانه الصنعة، وملك الترك للشجاعة، وملك الروم لرجاله، فيشرح قائلاً: «قد أقرّت ملوك الصين والترك والهند وزنج وسائر ملوك العالم لملك بابل بالتعظيم، وانه أول ملوك العالم، وأن منزلته فيهم كمنزلة القمر والكواكب، لأن إقليمه أشرف الأقاليم، ولأنه أكثر الملوك مالاً وأحسنهم طبعاً، وأكثرهم سياسة وأثبتهم قدماً».(٨١) ثم يستدرك قائلاً: «هذا وصف ملوك هذا الإقليم فيما مضى، لا في هذا الوقت» هل يعني هذ الاستدراك أنه يستبد مكانة ملوك العراق،و الخلافة العربية الإسلامية، آنئذ، بالموقع الذي كانت تحتله بابل؟ ثم ينتقل الحديث عن ملك الهند، على أنه يلي ملك بابل في الأهمية، لأنه «ملك الحكمة، وملك الفيلة، لان عند الملوك الاكاسرة، ان الحكمة من الهند بدؤها».(٨٢) ثم يتلوه في المرتبة ملك الصين، وهو «ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة وليس في ملوك العالم أكثر رعاية وتفقداً من ملك الصين لرعيته... وهو ذو بأس شديد، وقوة ومنعة، وله من الجنود المستعملة والكراع والسلاح» الكثير.(٨٣) و يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوشان، وهو ملك الطغزغز من الترك: «ويدعى ملك السباع وملك الخيل، إذ ليس في ملوك العالم أشد بأساً من رجاله». ثم يتلوه ملك الروم «ويدعى ملك الرجال، وليس في ملوك العالم أصبح وجوهاً من رجاله».(٨٤)

ويؤكد ابن عبده (ت ٣٢٨هـ٩٣٧) في السياق نفسه، على الصورة النمطية ذاتها حول الحضارات الكبرى، وذلك على لسان كسرى، والنعمان أمير المملكة العربية الحدودية المحاذية لفارس قبل الإسلام، في حديث حواري بينهما، بحضور وفود من الروم والهند والصين،فجمع ابن عبد ربه في حديث النعمان وفي رد كسرى من عليه، مأأراد ،ن يعرضه من آراء حول الأنماط الثقافية للأمم الكبرى في العالم وفي مقدمتها الصين والهند والعرب والروم، إذ يبدأ النعمان بافتخاره «بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارس وغيرها».(٨٥) ويشيد بالعرب ويميزهم عن غيرهم «بعزها ومنعتها وحسن وجوهها، وبأسها وسخائها، وحكمة ألسنتها، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها».(٨٦) فيتناول كسرى الحديث، وقد استفزه أطناب النعمان قي فخره بقومهم، وأخذته عزة الملك: «يانعمان، لقد فكرت في أمر العرب، وغيرهم من الأمم، ونظرت في حال من يقدم علي من وفود الأمم فوجدت الروم لهم حظ في اجتماع أُلفتها، وعظم سلطانها، كثرة مدائنها، ووثيق بنيانها، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها... ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صنائعها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيتها وهمتها، أن لها ملكاً يجمعها...».(٨٧) ويختم كسرى كلامه بالتبخيس بدور العرب، رداً على أطناب النعمان بموقعهم.

الهوامش

١– محمد الخضري. نور اليقينفي سيرة سيد المرسلين. القاهرة ١٩١٠. ص.٣٢٥
٢– حسين عويدات. العرب والنصارى. الاهالي. دمشق ١٩٩٢. ص ٦٦.
٣– أحمد أمين، صخر الإسلام. ج١. دار الكتاب العربي. ط٥. بيروت١٩٦٩. ص ٨١–٨٤.
٤– عن أحمد أمين. صخر الإسلام. ج١. دار الكتاب العربي. ط١٠. بيروت بدون تاريخ ص ٢٢٣.
٥– مونتغمري وات. الفكر السياسي الإسلامي. (المفاهيم الأساسية). ترجمة. صبحي حديدي، دار الحداثة بيروت ١٩٨١. ص ٧٦.
٦– المصدر نفسه ص ٧٦.
٧– محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط. المركز الثقافي العربي. بيروت ٢٠٠٠ ص ١١٩.
٨– الطاهر لبيب، الآخر في الثقافة العربية. (في ندور صورة الآخر – العربي ناظراً ومنظوراً إليه). تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٩٩. ص ٢١٠.
٩– بوليانوفيتش كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. القسم الأول. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. مراجعة ايغور بلايف. الإدارة الثقافية. في جامعة الدول العربية. ١٩٦٣. ص ١٢٩–١٣٢.
١٠– المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. ط٤. القاهرة١٩٦٤. ص٦١–٦٣.
١١– أحمد أمين. صخر الإسلام. ج١. مصدر سابق. ص ٦.
١٢– المقدسي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري. أحسن التقاسيم في معرفة الإقاليم. طبع في مدينة ليدن المحروسة. مطبعة بريل. ط٢. سنة ١٩٠٦. ص٣٢–٣٣.
١٣– المصدر نفسه.ص٣٣
١٤– أندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية. ج١. ق١. ترجمة ابراهيم خوري. وزارة الثقافة ١٩٨٣. ص٢٧٥.
١٥– ابن الفقيه. أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني. مختصر كتاب البلدان. طبع في مدينة ليدن المحروسة. بمطبع بريل سنة ١٣٠٢. ص ٢٥١ – ٢٥٢.
١٦– المصدر نفسه. ص ٢٣٣
١٧– عبد الحرمن بن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٢. دار الكتاب العربي.بيروت ١٩٥٦ ص ٣–٤.
١٨– اندريه ميكيل. مصدر سابق. ج١. ق١. ص ١٤٦–١٤٧
١٩– الجاحظ أبو عثمان بن بحر /رسائل الجاحظ. ج١. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٦٤. ص ٦٧.
٢٠– المصدر نفسه. ص ٧٣
٢١– المصدر نفسه. ص٦٧.
٢٢– المصدر نفسه ص ٦٧.
٢٣– المصدر نفسه ص ٦٨.
٢٤– المصدر نفسه ص ٧١.
٢٥– المصدر نفسه ص ٦٢.
٢٦– المصدر نفسه ص ٣٧.
٢٧– الجاحظ. الحيوان. الكتاب الأول. الجزء الأول تحقيق عبد السلام هارون مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.ط٢. مصر. بدون تاريخ ص ٤٣–٤٤.
٢٨– د. وديعة طه نجم. الجاحظ والحاضرة العباسية. مطبعة الإرشاد. بغداد ١٩٦٥. ص ٦٥
٢٩– د. محمد عابد الجابري. العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ٢٠٠١ ص ١٩٨.
٣٠– المصدر نفسه ص ٢٠٣.
٣١– المصدر نفسه ص ٢٠٢.
٣٢– ابن قتيبة. عبد لله بن مسلم بن قتيبة الديوري. من عيون الأخبار منشورات وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٧٧. ص ٤٧.
٣٣– المصدر نفسه ص ٥٥.
٣٤– الجابري. العقل الأخلاقي. مصدر سابق. ص ٢١٨.
٣٥– المصدر نفسه ص ٣٩٤.

٣٦- المصدر نفسه ص ٣٩٥.
٣٧- أبو الحسن العامري. كتاب الأعلام ومناقب الإسلام. تحقيق أحمد عبد الحميد غراب. دار الأصالة. الرياض ١٩٨٨. ص /١٧-٧٢/
٣٨- الجابري. العقل الأخلاقي... مصدر سابق. ص ٤٠٧.
٣٩- مسكويه. أبو علي أحمد بن محمد. الحكمة الخالدة. حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي. مكتبة النهضة المصرية. ١٩٥٢. ص ١٠.
٤٠- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس. كتاب الإمتاع والمؤانسة. صححه وضبطه أحمد أمين واحمد الزين. منشورة دار الحياة. بيروت بدون تاريخ. ص ٧٣.
٤١- المصدر نفسه.ص ٧٤.
٤٢- المصدر نفسه. ص ٧٤.
٤٣- صاعد الأندلسي. أبو القاسم صاعد بن احمد التغلبي. طبقات الامم. تحقيق حياة العيد بو علوان. دار الطليعة. بيروت ١٩٨٥ ص ٣٣.
٤٤- المصدر نفسه ص ٣٣-٣٤.
٤٥- المصدر نفسه ص ٣٩.
٤٦- المصدر نفسه ص ٣٩ – ٤٠
٤٧- المصدر نفسه ص ٤٣- ٤٥.
٤٨- المصدر نفسه ص ٥٠ – ٥١.
٤٩- المصدر نفسه ٥٢- ٥٣.
٥٠- المصدر نفسه ٤٠ – ٤١
٥١- المصدر نفسه ص ٤١.
٥٢- المصدر نفسه ص ٤٢.
٥٣- المصدر نفسه ص ٤٣ – ٤٤.
٥٤- المصدر نفسه ص ٥٠ – ٥١.
٥٥- أحمد أمين. ضحى الإسلام. الجزء الأول. دار الكتاب العربي. بيروت ط١٠. بدون تاريخ. ص ٢٣٤.
٥٦- القفطي جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب. أخبار العلماء بأخبار الحكماء. ليبسك ١٩٠٣. ص ٢٦٦
٥٧-ابن رسته.أبو علي احمد بن عمر. كتاب الاعلاق النفيسة. الجزء السابع. تحقيق دي خويه. مطبعة بريل. ١٩٩٢. ص ١٠٢-١٠٣.
٥٨- ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر. كتاب الاعلاق النفيسة. المجلد السابع. طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل. سنة ١٨٩٢. ص ١٠١- ١٠٢.
٥٩- المصدر نفسه ص ١٠٢.
٦٠- المسعودي أبو الحس علي بن الحسين. مروج الذهب. ومعادن الجوهر. ج١ز تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة. ط٤. القاهرة. ١٩٦٤. ص ٨٧.
٦١- المسعودي. التنبيه والإشراف قسم ١ إعداد قاسم وهب وزارة الثقافة.دمشق، ٢٠٠٠ ص ٥٦ – ٥٨.
٦٢- س.م. ضياء الدين علوي. الجغرافية العربية في القرنين التاسع عشر والعاشر ميلاديين... نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بحلب.
٦٣- المسعودي. التنيه والإشراف. القسم الاول. مصدر سابق. ص ٦٤.
٦٤- د. حسين مؤنس. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس. مكتبة مدبول ط ٢. القاهرة ١٩٨٦ص ٨.
٦٥- كراتشكوفسكي مصدر سابق ص ١٨.
٦٦- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب. كتاب البلدان. تحقيق مخائيل بانوس. دي خويه. ليدن. ١٨٦٠ص ٢-٣.
٦٧- المقدسي. شمس الدين أبو عبد الله. مصدر سايق. ص ١-٢
٦٨- كراتشكوفسكي. مصدر سابق ص ١٠١.
٦٩- شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون.. ج٢. بيروت. ١٩٧٨. ص ٩٤.
٧٠- عزيز العظمة، العرب والبرابرة، المسلمون والحضارات الاخرى. الريس لندن. ١٩٩١.ص٩٢ صورة شعوب الشرق الأقصى –م٨
٧١- عمر رضا كحالة. التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية.المطبعة التعاونية. دمشق ١٩٧٢. ص ٧٣.
٧٢- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٨٣. ص ١٩- ٥١.

٧٣- المسعودي. اخبار الزمان ومن أباده الحدثان. وعجائب البلدان. دار الأندلس. ط٢. بيروت. ١٩٦٦. ص ٩١-٩٢.

٧٤- اليعقوبي أحمد بن يعقوب تاريخ اليعقوبي. ج١. بيروت دار صادر. ص ٢٠.

٧٥- المسعودي التنبيه والإشراق. قسم أول مصدر سابق. ص ١٤٦- ١٥٤.

٧٦- الدمشقي. شيخ الربوة.محمد بن أبي طالب الأنصاري.كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.طبع مدينة بطربورغ المحروسة في مطبعة الأكادمية الأمبراطورية ١٨٦٥.ص٢٦٦

٧٧- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار القلم. بيروت. بدون تاريخ. ص ٨٥.

٧٨- كراتشكوفسكي. مصدر سابق. ص ٤٤٤.

٧٩- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون. دار القلم. بيروت ١٩٧٨. ص ٤٠٤.

٨٠- المقدسي. أحسن التقاسيم... مصدر سابق. ص ٣٤.

٨١- المسعودي. مروج الذهب. ج١. مصدر سابق. ص ١٥٩-١٦٠.

٨٢- المصدر نفسه ص ١٦٠.

٨٣- المصدر نفسه ص ١٦٠

٨٤- المصدر نفسه ص ١٦٠

٨٥- ابن عبد ربه. أحمد ابن محمد الاندلسي. العقد الفريد. الجزء الأول. تحقيق. محمد سيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة.ط٢. القاهرة ١٩٥٣. ص٢٢٨

٨٦- المصدر نفسه. ص٢٢٩

٨٧- المصدر نفسه، ص٢٢٨

الفصل الثالث

موقع شعوب الشرق الأقصى الكوني في المُتخيل العربي

قدّمت الثقافة العربية العديد من التصورات حول العالم، ومواقع الأمم المختلفة فيه، قبل أن تستلهم فكرة الأقاليم، التي اقتبستها في البداية، عن الفرس والهند،، ثم عن التصورات اليونانية، التي تحولت إلى مرتبة الهيمنة تدريجياً.

ففي وقت مبكر، تداول المصنفون العرب مُتخيلاً عن العالم نسبوه لعبد الله بن عمرو بن العاص، يبدو فيه العالم على «صورة طائر : فرأس الدنيا الصين، وخلف الصين أمة يقال لها واق واق، ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصى إلاّ الله، والجناح الأيمن الهند، وخلف الهند البحر وليس خلفه خلف، والجناح الأيسر الخزر وخلف الخزر أمتان يقال لأحدها منشك وماشك وخلف منشك ومانشك يأجوج ومأجوج، ومن الأمم لا يعلمها إلا الله، وصدر الدنيا: مكة والحجاز والشام والعراق ومصر، والذين من ذيل الحمام إلى المغرب»(١)

على الرغم من التدقيقات، والتحسينات التي أدخلوها على هذا المُتخيل، إلاّ أن المؤلفين العرب أبقوا على معانٍ مهمة منه ضمنوها في تصوراتهم اللاحقة للعالم، كفكرة التفاضل التكاملية بين أمم الأرض، على شكل أعضاء في كائن عضوي واحد، هو هنا الطير، تحتل فيه الصين موقع الرأس والهند موقع الجناح الأيمن بكل ما يحمله هذا من مغزى، في مقابل الصدر – القلب الذي أعطوه لدار العرب والمسلمين.

أما عن الحدود القصوى الجنوبية، والتي هي خلف الصين فهناك أمة يقال لها «واق واق»، وهي في نهاية العمران، أو هو البحر الذي خلف الهند أي (المحيط الهندي)، والذي (ليس خلفه خلف)، أي آخر حدود العالم، أما الحدود الشمالية المحاذية للصين فهناك شعوب يأجوج ومأجوج ومانشك وماشك. فلقد بقيت تلك التصورات عالقة في المتخيل العربي عن العالم رغم الاكتشافات الكبرى التي أنجزوها، والمعارف التي حصلوا عليها عبر رحلاتهم وعلومهم المتراكمة، علّها كانت تغطي بعض الفجوات المعرفية لديهم / أو التي بقيت غامضة عندهم، أو كانت نتيجة تأثر نظريات بطليموس، التي استحوذت على سلطة معرفية قوية عليهم، علماً أن معرفة العرب «تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان والرومان، فإن معرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة، كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند والصين، بينما عرف العرب طريق اليابس الذي يرتفع إلى أعالي نهر أرتيش ونهر ينس، وعرفوا سواحل آسية إلى كوريا شمالاً، ولا يزال موضع شك معرفتهم المباشرة باليابان».(٢)

وتداول المؤلفون العرب أيضاً تصوراً يقسم الأرض إلى أربعة أقسام أو قارات وضعوا الهند والصين في إقليم واحد مع بلاد العرب الجنوبية. «فمنها أورفى: وفيها الأندلس والصقالية، والروم والفرنجة، ولوبية: وفيها مصر والقزم والحبشة والبربر وما والاها وأتيوفيا: وفيها تهامة واليمن والسند والهند والصين. واسقوتيا: وفيها أرمينيا وخراسان والترك والخزر».(٣)

كما أنهم قسموا المعمورة إلى سبعة أقاليم نسبوا كل منها إلى أمة كبرى، وخصُّوا لكل من الهند، والصين إقليماً خاصاً بهما، إذ قالوا «إن الأقاليم سبعة، إقليم في أيدي العرب وإقليم في أيدي الروم، وإقليم في أيدي الحبشة، وإقليم في أيدي الهند، وإقليم في أيدي الترك، وإقليم في إيدي الصين، وإقليم في أيدي يأجوج ومأجوج»(٤)

وقدّم المسعودي عرضاً آخر، أكمل فيه هذا التقسيم، وذلك بنسبة الأمم العظمى إلى خمسة ملوك، يرمز كل منهم إلى خاصة تتميز بها الأمة عن غيرها من الأمم، بمقدار ما تكملها، وتعاضدها في الخصال والسجايا، بقوله «أوسع الملوك الخمسة مُلكاً الذي يملك العراق، وامبراطور الصين «ملك الناس»، لأنه لا أحد من الملوك

أسوس منه، ولا أضبط لملكه، وملك الترك هو «ملك السباع» وهو كناية عن شجاعة شعبه، وملك الهند «ملك الحكمة» و«ملك الفيلة» لاشتهار أهله بالحكمة، وشهرتهم بامتلاك الفيلة، وملك الروم ملك الرجال لأنه أمته «الأحسن وجوهاً».[٥] ويذهب ابن الفقيه في السياق نفسه، نقلاً عن يحيى بن خالد البرمكي، وذلك بقوله «فأما ملك الأثاث فهو ملك الصين (وهو كناية عن إتقانهم للصناعات الحرفية)، وملك الدواب ملك الترك،وملك المال ملك العرب، وملك الفيلة ملك الهند، وملك الأكسير ملك الروم»[٦]

وقد ساهمت «الجغرافية» في تشكيل صورة العرب عن العالم، وعن موقع الصين والهند فيه، ولا سيما في القرن التاسع الميلادي الذي كان بحق عصر انبثاق العلوم الجغرافية العربية، ومصنفاتها الكبرى، وأنماطها المتعددة، الفلكية، والوصفية، والبدائية، وما تفرع عنها من مدونات الرحلات في اتجاهات العالم كافة، وقدمت تلك الجغرافية، في جملة ما قدمت، فكرة «الأقاليم»، في تحديداتها للمكان، وأفسحت فيه المجال لاستخدام هذا المفهوم تبعاً للتقاليد المدرسية المختلفة، كما أنضجت تصور العرب «العلمي» للعالم، ولشكل الكرة الأرضية، وموقع الأقاليم المختلفة، والأمم بما فيه الصين والهند عليها، وأيضاً البحار واليابسة، والقسم المغمور فيها، فتوصلوا، أثناء ذلك، إلى ما يشبه الإجماع، إلى النظرية القائلة: «إن الأرض ذات الشكل الكروي تقف بلا حراك في مركز الكون، وتدور الشمس والقمر، والكواكب والنجوم حولها متخذة شكل الدوائر» وهي نظرية اقتبسوها عن اليونان، عن طريق أرسطو، وبطليموس، وحسب تعبير ابن الفقيه الهمذاني «إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك، كالمحة في جوف البيضة، النسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك... والأرض مقسومة نصفين بينها خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب، وهذا طول الأرض، وهو أكبر خط في كرة الأرض، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك... واستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربعة وعشرون إصبعا... فيكون بذلك تسعة آلاف فرسخ».[٧]

وكان العرب قد أخذوا، عن اليونان، النظرية القائلة بأن القسم المعمور من الأرض يقتصر على الربع الشمالي منها، الذي يشمل أوروبا وآسيا وقليل من شمال أفريقيا شمال خط الاستواء، الذي يمتد طولياً إلى مائة وثمانين درجة، أي نصف القطر الملتف حول منتصف الكرة الأرضية، يبدأ من حدود جزيرة الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي (المحيط الأطلسي) في أقصى الغرب إلى أقصى العمران مشرق الصين في جزيرة سيلي، التي يعتقد البعض أنها اليابان أو كوريا، فمتى غابت الشمس عن أقصى بلاد الصين، في الشرق الأقصى للعالم المعمور ظهرت في جزائر الخالدات، في نهاية العالم المعمور في الغرب، أما العرض، أي عرض المعمور من الأرض، من الشمال إلى الجنوب، فيبدأ من خط الاستواء أو حواليه إلى ناحية الشمال حيث ينتهي إلى جزيرة تولي، التي هي في بريطانيا.[٨] أما ثلاثة أرباع الكرة الأرضية الباقية، فهي أرض يباب، ينعدم فيها العمران، فهي الجانب المغمور بالماء، الذي يحيط اليابسة من جميع اتجاهاتها، لذا يسمى البحر المحيط، فالجانب المغمور يعادل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وهو مغمور بمياه المحيط، «فالخلق في الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب، والنصف الذي تحتنا (أي في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية) لا سكن فيه»[٩]

فالأرض القفر تقع في أقصى الشمال، وفي أقصى الجنوب، إذ تنتهي العمارة شمالاً عند الدرجة ستين عند جزيرة تولى، يبدأ بعدها القفر، وينتهي العمران في الجنوب تحت خط الاستواء عند الدرجة تسعة عشر تقريباً.[١٠] ويذهب ابن خرداذبة إلى «أن عمارة الأرض بعد خط الاستواء (جنوباً) أربعة وعشرون درجة، ثم الباقي من غمره البحر الكبير، فنحن في الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه».[١١]

وأن العامل الحسم في وفرة العمران أو تضاؤله، واختفائه، فيتعلق عندهم بدرجات الحرارة، فتتوقف الحياة عندما تزداد الحرارة إلى حد الإفراط في أقصى الجنوب، أو إلى حد الإفراط بالبرودة في أقصى الشمال، ويلخص

المسعودي الأمر بقوله فالأرض قسمان «أحدهما مسكون والأخر غير مسكون، والعامر منهما أقسام، أحدهما مفرط الحر، وهو ما كان على جهة الجنوب، (وفيه قسم من بلاد الصين والهند وبحرهما) لأن الشمس تقترب منه، فيلتهب هواءه.. والآخر الشمالي مفرط البرد لبعد الشمس عنه، وأن المشرق والمغرب معتدلان وإن كان فضل الشرق أظهر واعتداله أشهر (وهو حكم ينطبق على بلاد العرب والمسلمين وأهل الصين والهند).[١٢]

أما خارج المعمور من الأرض فأكثره من البحار، أو قفار غير مسكون، إذ أن ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تغمرها المياه، التي تحيط اليابسة على شكل «بحر محيط مظلم»، وكان عند العرب فكرة قريبة الصحة عن منابع النيل، ونهر طنايس (نهر الدون) وبحيرة مايطس (بحر آزوف) ونهر دنيه (نهر دنيبر) ونهر آيتل (نهر الفولغا)، وبحر تيطس (البحر الأسود) وبحر الخزر (بحر قزوين) وبحيرة خوارزم (بحيرة آرال)، ونهري سيحون وجيحون (نهري ساراداريا وأموداريا)، أما المحيط المظلم، أو ما سمّوه بالبحر المحيط، وهو المحيط باليابسة، أو بالأرض المعمورة، فقد تعرفوا على أجزاء كبيرة من سواحله، ولا سيما سواحله الغربية (الأطلسي)، ومنها جزر الخالدات التي نظروا إليها على أنها آخر المعمور من الأرض غرباً، وأيضاً على الساحل الأفريقي الشرقي والمحيط الهندي [١٣] وجزء من المحيط الهادي، إلى جزيرة سيلا، التي يعتقد أنها اليابان أو كوريا، وعلى حافة السواحل الصينية في الشرق.

يشرح أبو الفداء (٧٣٢هـ – ١٣٣٥م): سمي محيطاً لإحاطته بجميع القدر المكشوف من الأرض، ولهذا كان يسميه أرسطو الإكليلي، لأنه حول الأرض كالإكليل»[١٤]. ويشرح البيروني «فالمعمورة إذن في ربع من أرباع الأرض، ويطيف به بحر يسمى في جهتي المغرب والمشرق محيطاً»[١٥] ولقد أطلقوا على البحر المحيط أحياناً أسمي: البحر الأخضر، الأوقيانوس وأحياناً أخرى أطلقوا هذين الإسمين على المحيط الأطلسي، فهذا المسعودي «اما البحر المحيط الذي هو عند أكثر الناس معظم البحار وأنها معه متشعبة، ويسميه كثير منهم الأخضر، ويسمى باليونانية أوقيانوس، وأكثر نهاياته مجهولة عند بطليموس وغيره فإنه يبتدئ من نهاية العمارة في الشمال إلى أن يصير إلى المغرب وينتهي إلى نهاية العمارة في الجنوب، ليس له نهاية في غربية ولا شمالية نهاية محدودة، ويتصل ببحر الصين مما يلي الزابج وجزائر المهراج (الجزر الاندونيسية) وشلاهط»[١٦] ويأخذ هذا البحر المحيط في استدارته على اليابسة، أو على حافة العالم المعمور، أسماء البلاد التي يحفها، فهو في أقصى الغرب يحاذي الساحل الغربي لأفريقيا، ويسمونه أحياناً الأقيانوس أو البحر الأخضر، وحسب أبو الفداء «إن جانب المحيط الذي على ساحله بلاد المغرب، يسمى أقيانوس، وفيه الجزائر الخالدات»[١٧] ويشرح ابن رسته «وبحر اوقيانوس هو بحر المغرب – البحر الأخضر – لا يعرف منه إلا ما يلي المغرب، والشمال من أقصى أرض الحبشة (أفريقية الغربية) إلى بريطانية، وهو بحر لا تجري فيه سفن، وفيه ستة جزائر مقابل أرض الحبشة (أفريقية) تسمى الجزائر الخالدات (الكناري)، وجزيرة أخرى تسمى غديرة (لعله يقصد الآزوري)[١٨] ولا يعلم أحد حسب الإدريسي، «ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلامة أنوائه وتعاظم موجه، وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه»[١٩]

كما أطلقوا على جزء (البحر المحيط) الذي يحف أطراف الصين، من أقصى الشرق المعمور، اسم «البحر الزفتي»، أما البحر الذي يحاذي الصين في الجنوب فيسموه البحر الصيني، ويأتي بعده البحر الهندي، ويسمون أحياناً البحار المحاذية لجنوب الصين والممتدة إلى سواحل أفريقية الشرقية، البحر الهندي، أو البحر الصيني، أو يطلقون عليه اسم المنطقة المحاذية له، يذكر الإدريسي «البحر الصيني المسمى بحر صنخي ومن الناس من يسميه بحر الصنف، ورأسه ومبدؤه من البحر المحيط المسمى هناك البحر الزفتي، لأن ماؤه كدر وريحه عاصفة والظلمة لا تزال واقعة عليه في أكثر الأوقات، ويتصل هذا البحر الزفتي بالبحر المحيط المتصل ببلاد يأجوج ومأجوج»[٢٠]

فقد تصوروا أن الجزء من البحر المحيط، الذي يحاذي الصين من الشرق هو نهاية المعمور من الأرض،

وله رائحة عكرة، ويتصل بالجنوب في بحر الصين، ويؤكد على هذا غالبية المؤلفين العرب، فيذكر الدمشقي «قال أهل العلم... إن في جهة أقصى الشرق ساحل البحر المحيط الشرقي، ويسمى البحر الزفتي لشدة ظلمته وسواده، ويستأنف القول: «قال أهل العلم بذلك أن في البحر الزفتي المشرقي ما هو وراء جبال النشادر والأخوار، قريب من سواحله ست جزائر كبار تسمى بالسيلي لما فيه من الياقوت والجواهر والمعادن والمغاصات»[٢١] فالبحر الزفتي الذي يحاذي جزيرة السيلي، يقف مع هذه الجزيرة في نهاية العالم المعمور وسيلي هذه، يعتقد الباحثون المعاصرون أنها اليابان أو ربما هي كوريا، وهو ما أكده المسعودي أيضاً، أنه ليس بعد هذا البحر «ممالك تعرف ولا توصف، إلا بلاد السيلي وجزائرها»[٢٢]

وكان قد أشار الدينوري (٢٨٢هـ - ٨٩١م) المؤرخ الكبير، أن الاسكندر عندما أراد الاجتياز إلى «أرض الشرق" قال له وزراؤه: كيف يمكنك الاجتياز إلى مطلع الشمس من هذه الجهة، ودون ذلك البحر الأخضر ولا تعمل فيه السفن لأن ماءه شبيهة بالقيح، ولا يصبر على نتنه أحد»[٢٣]

ويحيط بالحافة الجنوبية لشرق الأقصى، جزء آخر من البحر المحيط المظلم، تتحدد أسماؤه حسب الجهات التي يحاذيها: البحر الصيني، والبحر الهندي، وبحر فارس إلى بحر الزنج، والقلزم ويطلقون على هذه الأجزاء كلها أحياناً اسم البحر الصيني، أو البحر الهندي، وحاولوا تقدير في امتداده ومساحته، يشير المسعودي «فأما البحر الهندي فإنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبشة إلى أقصى الهند، ويكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل »[٢٤]

وهذا الإدريسي يعدد تسميات هذا البحر، فبعد أن يلفت نظرنا بأن العالم المعمور بأقاليمه السبعة، تخترقه سبعة بحور متصلة، وواحد منفصل هو بحر الخزر (قزوين)، يقول إن: أحد البحور التي في الأرض المعموره هو بحر الصين والهند والسند واليمن وينتهي في باب المندب... وهناك يبلغ طوله فيما حكاه الثقاة والمسافرون.. من مبدأ بحر القلزم إلى الواق واق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ وفيه من الجزائر نحو ثلاث مائة جزيرة بين عامره وخاليه»[٢٥] ويطلقون أحيانا على هذه البحار الجنوبية كلها اسم «البحر الحبشي» وهو ما يشير إليه المسعودي بقوله: «البحر الحبشي، هو بحر الصين، والسند والهند، والزنج، والبصرة، والأبله وفارس، وكرمان، وعمان، والبحرين والشحّر، واليمن، وإيله، والقلزم، والحبشة... وطوله... ثمانية آلاف ميل، وعرضه في الشمال ألفان وسبعمائة، وقيل ألف وتسعمائة»[٢٧]

ويتصل (البحر الزفتي)، الذي يحاذي الصين من الشرق، بالبحار التي تحيط شمال أوروبا وتتصل بدورها بالبحر الأخضر (الأطلس)، كما أنه يتصل بالجنوب بما كانوا يسمونه بالبحر الصيني، أو الهندي، أو الحبشي، ليتصل بالنهاية بالبحر الأخضر (الأطلس)، وهكذا تتصل أجزاء (البحر المحيط) ببعضها لتحيط اليابسة في اتجاهاتها كافة، وهو ما يصوره أبو الفداء بقوله عن (البحر المحيط) «يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصلب ببحر الصين والهند،ثم يأخذ مشرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة، وهناك بلاد الصين، ثم ينعطف في شرقي الصين إلى جهة الشمال، ثم يمتد شمالاً على شرقي بلاد الصين، حتى يتجاوز بلاد الصين، ويسامت سد يأجوج ومأجوج ثم ينعطف ويستدير على أرض غير معلومة الأحوال ويمتد مغرباً ويصير جهة الشمال عن الأرض، ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها، ويعطف مغرباً وجنوباً. ويستدير على الأرض ويصير من جهة الغرب، ويمتد على سواحل أمم مختلفة من الكفار حتى يتجاوزها إلى سواحل الأندلس[٢٨]، فإذا كنا قد عرفنا أن الشرق الأقصى، المقذوف على أطراف العالم المعمور في الشرق، تحيطه المياه من الشرق (البحر الزفتي)، ومن الجنوب بـ «البحر الصيني – الهندي)، فإن من الشمال تحيطه العوالم الغامضة، تختلط فيها صور شعوب غريبة الأطوار «يأجوج ومأجوج»، أو البحار الملتفة حول اليابسة من الشمال، أما في الشرق، فتفصله عن بلاد الإسلام «التخوم والثغور»، التي ظلت ثابتة في المخيلة العربية لقرون طوال، قبل أن تنزاح أمام اندماج الهند كلها في بوتقة الإسلام، وتحت سيطرة نخب

حاكمة مسلمة. كان الباحثون العرب يميزون في مخيلتهم عالم «الشرق الأقصى» كمجال جغرافي محدد بوضوح، أطلقوا عليه اسم «الشرق الأقصى» تارة، طالما أن «أقصى العمران في المشرق الأقصى حدود بلاد الصين والسيلي إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج»(٢٩)، وتارة أخرى يطلقون عليها اسم «آسيا» ينقل ياقوت الحموي عن أبي ريحان البيروتي قوله: «كان اليونان يقسمون المعمورة من الأرض بأقسام ثلاثة: لوبية، وأورفى، ثم قال: وما استقبل هاتين القطعتين من الشرق يسمى: آسيا، ووصف بالكبرى، لآن رقعتها أضعاف الآخرين بالسعة، ويحدها من جانب الغرب النهر والخليج إلى البحر الغربي غرب أفريقيا. المذكوران الفاصلان إياها عن أورفي، ومن جهة الجنوب بحر اليمن والهند، ومن الشرق أقصى أرض الصين، ومن الشمال أقصى أرض الترك وأجناسهم»(٣٠)

ولقد أخضعوا العالم المعمور لتقسيمات «أقاليمية» مختلفة، احتلت فيها أمم الشرق الأقصى مكاناً خاصاً، وعندما استعرض البيروني مختلف الطرق المتبعة في تقسيم الربع المعمور من الأرض، أتى إلى الفرس فشرح كيفية تقسيمهم للمعمورة إلى سبع أقاليم أو مناطق تُسمى (كشورات) وجعلهم (إيرانشهر) أو (بابل) الكشور الرابع الأوسط، والكشورات الست تحيطان به من جميع أطرافه، وعلى هذا يقع الكشور الأول، وهو (الهند) في الشمال الغربي، والثاني وهو (المغرب) في الشمال، والثالث وهو (الشام) في الشمال الشرقي، والخامس وهو (الروم) والصقالية في الجنوب الشرقي، والسادس وهو (الخزر والترك) جنوباًُ، والسابع وهو (الصين) والتبت في الجنوب الغربي.(٣١)

وكما مرّ معنا، فإن العرب بدأوا بإعطاء الأقاليم مفهوماً جغرافياً، منذ القرن الثالث هجري، مع تحديداته البيئية البشرية اللازمة له، إلا أنهم أعطوه على الأقل ثلاثة معاني، أول تلك المعاني التي تجلت في استعمالهم الخاص له،عكس منهجيتهم العربية الخاصة، وهي التي تجلب في دراساتهم (البلدانية) وفي «المسالك والممالك» وفي «أدب الرحلة» فأخذ هنا معناه الجغرافي البشري بحق، رسموا فيه،ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى على انه إقليم خاص، أما الاصطلاح الثاني فقد أتاهم تأثراً بمذهب السند هند، وبالمذهب الهرمسي الإيراني، قسموا الممالك المحيطة (بايرانشهر) إلى كشورات سبع تدور ستة منها حول إقليم إيرانشهر، فطوره العرب، ليحيلوا العراق محل إيران شهر، أي إقليماً مركزياً. وخصوا لكل من الصين والهند بإقليم مميّز في هذا التقسيم، ويشرح المسعودي هذا المذهب "وذهب هرمس في مُتبعيه من المصريين، وغيرهم إلى أن في الجنوب سبعة أقاليم، كما هي في الشمال، وكان يجعل قُسمة أقاليم العمران من الشمال مدورة، فيجعل الإقليم الرابع، وهو إقليم بابل واسطاً لها، وستة دائرة حوله، وأن كل إقليم سبعمائة فرسخ في مثله، فالأقليم الأول: الهند، والثاني: الحجاز والحبشة، والثالث: مصر وأفريقية، والرابع: بابل والعراق، والخامس: الروم، والسادس: يأجوج وماجوج، والسابع: بوماريس، والصين، يبتدئ جميعها من المشرق مما يمر ببلاد الصين"(٣٢) ويعطي المسعودي للإقليم الرابع، الذي فيه بابل، العراق أهمية خاصة، إذ يقول: «ونحن ذاكرون الإقليم الرابع وما بان به عن سائر الأقاليم، وجلالة صُقعه، وشرف محله».(٣٣) ولعل مفهوم مركزية «دار الإسلام» ممثلة بعاصمتها الروحية: «مكة» وعاصمتها السياسية: بغداد، قد اقتبسه العرب من المفهوم الجغرافي الإيراني، إلاّ أن هذا المفهوم أخذ ينافسه مفهوماً فلكياً للأقاليم، بتأثير الترجمة عن اليونانية، وهذا ما تجلى في «خريطة المأمون» التي أنجزها عدد من العلماء العرب، والتي عرّبت الأسماء الكلاسيكية اليونانية، وعبّرت بعمق عن ثقة العرب بعلو مكانتهم في العالم، وقد فاقت هذه الخريطة ما تقدمها من دراسات في الجغرافية، بما فيها دراسات بطليموس الذي كان لتأثير مؤلفاته دوراً حاسماً في تحول العرب منذ القرن التاسع ميلادي، نحو الجغرافية الفلكية تأثراً بما أرساه بطليموس من قواعد، ولا يمكن إغفال المكانة الهامة للخوارزمي / أبو عبد الله محمد بن موسى (٢٢٠هـ – ٨٣٥م) صاحب كتاب «صورة الأرض» الذي يسترعي الانتباه بشكل خاص تقسيمه للربع المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم، ممتدة عرضياً بموازاة خط الاستواء شمالاً من المشرق إلى الغرب، على الطريقة البطليموسية، تمتد

الأقاليم واحدها فوق الآخر من الجنوب (خط الاستواء) إلى الشمال حتى نهاية العالم المعمور، وكما يقول الإدريسي «وهذا الربع المسكون من الأرض قسمته العلماء سبعة أقاليم، كل إقليم منها مار من المغرب إلى المشرق على خط الاستواء، وليست هذه الأقاليم بخطوط طبيعية ولكنها وهمية محدودة موجودة بالعلم النجمي».[٣٤]

ثم أصبحت هذه الطريقة مذهباً شائعاً في المصنفات الفلكية العربية، فقد اتبعها الفرغاني، وسهراب والبيروني واعتمدها الإدريسي، وابن سعيد المغربي، والكثير من الجغرافيين كابن خرداذبة، وابن رسته، وابن الفقيه، واليعقوبي، بعد أن جمعوا بين الأخذ بهذا التقسيم، والطريقة الأخرى التي تجعل العراق وسط الأقاليم، وتدور حولها الستة الباقية.

وافترضوا على أساس تقسيمهم الفلكي للأقاليم، كأحزمة عرضية متخيلة فوق خط الاستواء، أنه كلما أمعنا جنوباً باتجاه خط الاستواء زادت الحرارة شدة، وأشد الأقاليم حرارة هو الإقليم الأول، ويليه الثاني، وهي الأقاليم التي تقع في الصين،و الهند وأيضا بلاد العرب الجنوبية، وكلما ذهبنا شمالاً ازدادت حدة البرودة حتى تصل إلى أشدّها في الإقليم السابع، الذي تقع فيه شمال الصين، والهند، والشعوب المجاورة لها في الشمال ولا سيما قوم يأجوج وماجوج، والترك. أما خارج الأقاليم السبعة هذه شمالاً جنوباً، فتنعدم فيها فرص الحياة، وهو ما عبر عنه ابن رسته «أرضون مجهولة لم يصل إليها أحد، ولا أذكر أحداً أنه عاين أحداً من تلك الأرضين، فلا يعلم فيها من نبات أو حيوان، إلاّ أنه قد. نعلم اضطراراً (بالضرورة الطبيعية) أنه غير ممكن أن يكون في المطالع (الأماكن) التي يفرط حرّها أو بردها حيوان أو نبات».[٣٥]

وعلى هذا فإن الإقليم الأول، ثم الثاني المحاذيان لخط الاستواء، وللعالم غير المعمور من الأرض، هما الأشد حرارة بين الأقاليم الباقية، أما الإقليم الرابع فهو يتوسط الأقاليم، ويأخذ مزاياه الجيدة لأنه متوسط البرودة والحرارة، وهو الإقليم الأكثر ملاءمة للعمران، ولنهوض الحضارة، لقد وصل تأثير هذا التصور إلى ابن خلدون وعبر عنه خير تعبير: «ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادّين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً فالإقليم الرابع أعدل للعمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما، والثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس، والأقوات والفواكه بل والحيوانات،و جميع مايتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً».[٣٦] ثم يكمل القول: «وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من الورق والشجر يخصفوها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس وحديد وجلود، يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم من ذلك قريبة من خلق الحيوانات العُجم».[٣٧]

ويترتب على هذا المبدأ، أن يتغير حال بلدان الشرق الأقصى، تبعاً لوقوعهم في هذه الإقليم أو ذاك في الأقاليم الجنوبية، الأول والثاني، أو الأقاليم المتوسطة في الثالث والرابع ويترتب على ذلك أن تصيبها التطورات المنمطة الملازمة لتلك الأقاليم، والتي اقتبسها العرب من اليونان، وشكلّت تلك التصورات المقتبسة ولا سيما تصورات بطليموس وجالينوس قيوداً، وسلطة على المعرفة العربية للعالم، لم يستطيعوا التغلب عليها إلاّ عن طريق معارفهم المباشرة التجريبية التي حصل عليها رحالتهم، وجغرافيوهم الرحالة.

ينفرد ابن خلدون، في وضع الهند والصين في الإقليمين الثالث والرابع اللذان يقع فيهما أغلب بلاد العرب والمسلمين، ويقع عليهما ما يقع على أهل هذين الإقليمين من صفات، ومزايا، إذ يقول «وأما أهل الأقاليم الثلاثة

المتوسطة، أهل الاعتدال في خُلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم، من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والمُلك، فكانت فيهم النبؤات (من النبوة) والمّلك، والدول، والشرائع، والعلوم والبلدان، والأمصار والمباني، والفراسة، والصنائع الفائقة، وسائ الأحوال المعتدلة، وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين».(٣٨)

غير أن الأغلبية الساحقة من المؤلفين العرب، ولا سيما جغرافييهم، اتجهوا لتصنيف الصين، والهند، أو الجزء الأكبر منهما، ناهيك عن جزر المحيط الهندي في الإقليمين الأول والثاني، وبالتالي تعريضهم للأحكام والصفات الملازمة لتأثيرات هذين الإقليمين، إتباعاً لتصورات المُتخيل اليوناني المجسد في بطليموس وجالينوس، ووضعوا الجزر المتناثرة، في المحيط جنوب السواحل الهندية الصينية على حواف العالم غير المعمور مع كل المتخيلات الغامضة والعجيبة التي يمكن أن ترافق تصور تلك العوالم، ومع ذلك فإن الباحثين العرب، حاولوا تجنيب الهنود والصينيين مما يتلازم ووجودهم في الأقاليم الجنوبية الأول والثاني، من أحكام تبخيسية، وذلك بتدخل عوامل مناخية أخرى تخفف من وطأة حرارتهما ويبوستهما وهي الطريقة نفسه التي استثنى بها ابن خلدون مناطق الجزيرة العربية الواقعة في هذين الإقليمين بتدخل رطوبة البحر الذي يحيط بها، إذ يقول: «ولا يعترض على هذا القول (أي القول بتأثيرات مناخ الإقليمين الأول والثاني) بوجود اليمن والحضر موت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة، وما يليها من جزيرة العرب فهي الأول والثاني، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها، فنقَّص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر».(٣٩)

وعلى هذا الأساس أوضح الأدريسي أسباب خروج الصين والهند عن أحكام الإقليمين الأول والثاني، ومن خصائصه المنحرفة، والتي نمطها جالينوس بصفات متلازمة، إذ يتذكر الإدريسي «وأهل الإقليم الأول كلهم سمر أو سود، فأما أهلا لهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فألوانهم سمر، واما أهل الصحارى من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلّة الرطوبة البحرية وتوالي إحراق الشمس لهم، وممرها عليهم دائماً تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم، وأنتنت أعراقهم، وتقشفت جلود أقدامهم وتشوهت خلقهم، وقلّت معارفهم، وفسدت أذهانهم، فهم في نهاية الجهالة واقعون، وإليها يُنسبون».(٤٠)

وأعلى الجغرافيون العرب من مساحة الإقليم الأول، والثاني قياساً إلى الأقاليم الأخرى، فأوضح البيروني في كتابة «القانون المسعودي» مساحات الأقاليم السبعة تبعاً لتلك القاعدة، التي تخفّض باطراد، مساحة الإقليم كلما صعدنا شمالاً، وتوسعه كلما انحدرنا نحو الجنوب، وأخذ أبو الفداء الترسيمة ذاتها في كتابه «تقويم البلدان».(٤١) ويذهب المقدسي إلى أن عرض الإقليم الأول «نحو ثلاثمائة وتسعين ميلاً، والميل أربعة آلاف ذراع». وعرض الثاني «ثلاثمائة وخمسون ميلاً» والثالث «نحواً من مائتين وستين ميلاً»، والخامس «نحو مائتين وثلاثين ميلاً»، والسادس مائتي ميل ونيف «والسابع، كما هو الإقليم السادس».(٤٢)

ولعل اتساع الإقليم الأول، يشير عند جغرافيينا إلى مقدار الغموض إلى يكتنف نهاياته في الجنوب المتداخلة مع العالم غير المعمور والبحار الغامضة التي يغرق بها خلف خط الاستواء، التي تصل إلى أربع وعشرين درجة، ويضع في وسط الإقليم الأول بالإضافة إلى صنعاء وعدن، والأحقاف، وحضر موت ونجران، وأراض من بلاد السودان «طوائف من بلد الهند والصين مما يلي ساحل البحر، وكل ما في سمت هذه البلاد شرقاً وغرباً فهو داخل في هذا الإقليم».(٤٣)

كما يضع الإدريسي الأقسام الجنوبية من «الهند والصين» كذلك بحار الهند والصين، وما فيها من جزر في هذا الإقليم.(٤٤) فيتذكر أن مبدأ هذا الإقليم يبدأ من جهة الغرب «من البحر الغربي المسمى ببحر الظلمات، البحر الذي لا يعلم ما خلفه وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات ومن هذه الجزائر بدأ بطليموس بأخذ الطول

والعرض»[٤٥] ويدخل فيه أيضاً مدن أو ليل وسلى وتكرور، وجنوب مملكتي غانه، وزغاوه، ومالي في أفريقيا، وجنوب الحبشة، ثم البحر اليمني ومدينة صنعاء وعدن وأرض حضر موت، وجزيرة سوقطره، ثم البحر الهندي وجملة من جزائره المتفرقة، كجزائر الزابج (سومطره)، وما يسميه جزيرة القرود. وجزائر الدبيجات (مالديف) وجزيرة سرنديب (سريلانكا)، في بحر هركند، ثم جزيرة الرامي في الطرف الشمالي من سومطره، وهي تابعة للهند، ثم البحر الصنفي وهو جزء من البحر الهندي، وجزائر شلاهط، (خليج البنغال) وهزلج، وكله،والصنف فيتنام، ثم إلى جنوب الصين، والبحر الصيني المسمى صنخي، إلى أن ينتهي هذا الإقليم بالبحر الزفتي المحاذي للصين من الشرق، ويتصل هذا البحر من جهة الجنوب بجزائر الواق واق إلى البحر المحيط بالأرض في جهة الجنوب.[٤٦]

وهذا الإقليم لا بد له من أن يترك تأثيراته على البيئة والبشر، والحيوانات التي تدخل فيه، فإذا كانت الرطوبة وإحاطة البحر لبلاد العرب الجنوبية، ولبلاد الهند والصين تخفف من غلوائه على البشر، إلا أن تأثيرها على النبات والحيوان ظاهر، إن كان في جزر المحيط الهندي، أو على البر الهندي الصيني، يذهب الإدريسي إلى القول: «وفي هذا الإقليم الأول من الحيوانات التي لا توجد بغيره من الأقاليم الستة الباقية: الفيله والكركدنات، والزرائف، والقردة ذوات الأذناب، والبقر ولجواميس التي لا أذناب لها، والنسانيس.. وبذا الإقليم أيضاً معدن الزمرد.. والياقوت بأنواعها... ودابة (البابة لا توجد إلاّ في هذا البحر) (بحر هوكند).. وسمكة الغرا»، وليس هذا وحسب، بل ينفرد هذا الإقليم على أشكال من النبات، لا تنبت في غيره «وفي هذا الإقليم، من الطيب والقرنفل والصندل والكافور والعود، وكل هذه لا يوجد شيء فيها في سائر الأقاليم».[٤٧]

كما يُظهر الإدريسي، مثل غيره من المؤلفين العرب، وقوع أجزاء من الهند والصين في الإقليم الثاني أيضاَ، والذي تتقارب تأثيراتها مع تأثيرات الأول. ويضع الأجزاء الشمالية من الصين والتيبت أيضاً في الإقليم الثالث، مع الأجزاء الجنوبية لبلاد الترك، وتقع بقية أرض الترك،في الإقليم الخامس والسادس، وفي الإقليم السابع الأخير تقع بلاد يأجوج وماجوج، أي في حدود العالم المعمور في الشمال، وهم الجيران الشماليون للصين، أما ابن سعيد المغربي، الذي بدأ وصف أقاليمه المعمورة من عند الدرجة السادسة عشر، إلى الدرجة الثمانين شمالاً، وأضاف إلى الأقاليم السبعة، التي اعتمدها أغلب المؤلفين العرب لتنظيم حدود المعمورة، إقليماً في الجنوب سماه «المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب»، وآخر في الشمال سمّاه «المعمور في شمال الأقاليم السبعة»، ولعله فعل ذلك ليستوعب الاكتشافات، والمعلومات التي أضافها العلماء والعرب ورحالتهم عن العالم، وضع في «المعمور خلف خط الاستواء» وعرضه ستة عشر درجة، جزر المحيط الهندي كجزيرة سرنديب، بالإضافة إلى بحر العرب، وجنوب أفريقيا، والأجزاء الجنوبية من البحرين الهندي والصيني ومدينة خمدان، وقيـ[illegible]

أن يضع فيه الجزائر الغامضة، جزائر الواق واق.[٤٨] وهي في نهاية العالم المعمور. ويشير إلى ان الإقليمين الأول والثاني، ويبدآن من الجزائر الخالدات في المحيط الأخضر (الأطلسي)، ويمران ببلاد التكرور وبريسا وبلاد كوكو، وكانم، وزغاوة، وجنوب الحبشة، وهم الأفارقة السود، في جنوب القارة، عابراً جنوب الجزيرة العربية، وبحر اليمن، إلى جزر المحيط الهندي، (جزائر النرجل)، والساحل الهندي، وجزر المهراج، وجزيرة جاوه الكبيرة، وجزيرة كلة وجزائر القامرون (كمبوديا)، وجزائر الصين، ومدينة الصنف الصينية، والأجزاء الجنوبية من الهند والصين، إلى جزائر السلي (كوريا أو اليابان).[٤٩] ويضع باقي أجزاء الصين والهند، في الإقليمين الثالث والرابع، وهي الأقاليم المتوسطة، أما في الإقليمين السادس والسابع، وأيضاً المعمور في شمالي الأقاليم السبعة، فيضع جيران الصين والهند الشماليين من شعوب الترك، والشعوب الأخرى الغامضة يأجوج ومأجوج.

وإذا كان كل من الإدريسي وابن سعيد المغربي، ويبدآن في عرض مواقع الأقاليم، من الغرب على طريقة

بطليموس، فإن ابن رسته، وياقوت، وأبو الفداء، يبدأون ذلك من الشرق على الطريقة الفارسية، والهندية، لهذا يذكر ابن رسته أن الإقليم الأول «يبتدئ من الشرق من أقاصي الصين، ويمرّ على الصين، ثم يمر على سواحل البحر في جنوب السند، ثم يمر في البحر على جزيرة الكول، ويقطع البحر إلى جزيرة العرب، وأرض اليمن..» واما الثاني فيبتدئ من المشرق «فيمر على بلاد الصين، ثم على بلاد الهند، ثم على بلاد السند، وفيه المنصورة والنيرون والديبل...»، ويمر الثالث «على شمال بلاد الصين، ثم على بلاد الهند... وشمالي بلاد السند..» ويمر الرابع «ببلاد التيبت ثم على خراسان...».(٥٠)

ويضع ابتداء استقرار شعوب يأجوج ومأجوج، وشعوب الترك، جيران الصين والهند ابتداءً من الشمالي، في الإقليم الخامس، ويمتد وجودها في السادس والسابع، الذي «يبتدئ من المشرق من الشمال بيأجوج ومأجوج، ثم يمر على بلاد الترك ثم على ساحل بحر طبرستان... أما ما وراء هذه الأقاليم.. فإنه يبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمر على بلاد التغزغز، وأرض الترك».(٥١)

وفي السياق ذاته يذهب ياقوت إلى أن الإقليم الخامس يبتدئ «من أرض الترك المشرقين ويأجوج المسدودين. ويمر على على أجناس الترك المعروفين بقبائلهم إلى كاشغر..الخ»، كما أن الإقليم السادس «يبتدئ من مساكن ترك المشرق، من فاني وفون، وخرخيز، وكيماك وتغزغز وأرض التركمان... وفاراب... ويمر على القسطنطينية...» بينما يتمركز في الإقليم السابع، فرق من الترك كالمستوحشين. (٥٢)

وعلى هذا فإن البحار المحاذية لسواحل الهند والصين، والجزر المتناثرة فيها تقع في أطراف الجزء الجنوبي من الإقليم الأول، كما تقع في أجزائه الشمالية، وفي الإقليمين الثاني، والثالث بلاد الصين والهند، أما الجوار الشماليين من أتراك ويأجوج ومأجوج، فهم في الأقاليم الخامسة والسادس، وخاصة السابع.

تنازع المؤلفون العرب حيال الصين والهند، نموذجين للتفسير، الأول يأخذ دلالته من وقوع أغلب بقاعهما في دائرة الإقليمين الأول والثاني، الفلكية، ومقتضياته الملازمة له، التي تجعلهما في أطراف العالم الجنوبية بكل غموضها وخصائصهما الفجّة التبخيسية، باعتبارها تعكس حرارة خط الاستواء المتوهجة، التي تضعف الشروط الملائمة للعمران، والثاني نابع من احترامهم العميق لهذين البلدين، وتقديرهما لدورهما العمراني والحضاري، الناتج عن معرفتهم المتراكمة بهما، فابتهلوا لذلك تعليلاً يمكّنهم من وضع البلدين خارج أحكام وتأثيران الإقليمين الأول والثاني، فوضع ابن خلدون قاعدة مناسبة لهذا التعليل، استناداً إلى تأثير إحاطة البحر بهذه البلدان، وكثافة الرطوبة، وأكمل هذا النموذج التفسيري من بعده، الإدريسي وغيره من المؤلفين، وذلك بالاستناد أيضاً إلى إحاطة البحر بهذه البلاد، وكثافة الرطوبة اللتين لا تسمحان بحصول اليباس والانحراف الذي يقتضيه الحر. لقد لخّص المروزي (القرن ١١م)، هذا النموذج التفسيري في كتابه «أبواب في الصين والترك والهند الذي كتبه عام ٥١٤هـ – ١١٢٠م، فبعد أن يضع الصين في الإقليم الأول والثاني، يعلق قائلاً» فأرض الصين داخله في ثلثة (ثلاثة) من هذه الأقاليم لامتداد أطرافها، وكثرة بلادها، ولما كانت بلادها موضوعة في مشارق الشمس كانت أهويتها صافية ومياهها باردة عذبة، وتُربها طيبة، وإذا كانت البلاد بهذه الصفة كان سكانها وعُمارها كذلك، لما ذكرنا أن أخص الأشياء بالحيوان تُربته التي يتكون فيها، ولهذا ينسب الإنسان إلى الترب... فأهل الصين معتدلوا المزاج حسنو الشكل، والصورة سلسو الأخلاق، وهم أجناس مختلفة البلاد والمساكن».(٥٣)

واستعانوا لذلك، أيضاً، بتأثير النجوم الذي سماهم في تعديل مفاهيم موقعهم الأقاليمي، وكان لزحل وعطارد دورهما الحاسم في ذلك، وكما يشير صاحب (أبجد العلوم): «وعلّل ذلك اهل التنجيم بأن زحل وعطارد ويتوليان بالقسمة لطبيعة الهند، فلولا ولاية زحل أسودت ألوانهم، فهم أهل الآراء الفاضلة، والأحلام الراجحة لهم التحقق بعلم العدد والهندسة والطب، والنجوم والعلم الطبيعية والإلهي، فمنهم صابئة... ولهم في الحساب والأخلاق والموسيقى

تأليفات». [٥٤]

ويذهب المسعودي في الاتجاه ذاته، حين يضع في تقسيمه الأقاليمي تأثير النجوم والأفلاك، «فأرض بابل» في الإقليم الأول «له من البروج الحمل والقوس، ومن الأنجم السبعة المشتري، الإقليم الثاني الهند والسند والسودان، وله من البروج العقرب، ومن الأنجم السبعة المزهرة... والإقليم السابع: الديبل والصين، وله من البروج الميزان، ومن الأنجم السبعة الشمس». [٥٥]

وإذا كنا قد عرفنا أن الشعوب المجاورة لبلاد الصين والهند في أقصى الشمال هي الشعوب التي يطلق عليها اسم «يأجوج ومأجوج» فإن تلك الشعوب تبدو لهم وكأنها على تخوم العالم المعمور، يحدّها، في النهاية، الأرض اليباب، وكما يقولون «وأما ما بين يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الشمال.. فقفز خراب ما بلغنا أن فيه عمارة». [٥٦]

حافظ المؤلفون العرب، نسبياً، على استقلالهم الفكري، وهم يقتبسون النموذج الفلكي البطليموس للأقاليم، أو النموذج الأقاليمي الآخر الذي يرجع إلى مذهب (السند هند) و«المذهب الهرميسي الإيراني»، ولم يستسلموا لحرفيّة تلك النماذج، بل وظفوا أطرها المنهجية لمقاصدهم، وكان تأليفهم لـ «خريطة المأمون» إشارة على شعورهم العظيم بالاستقلالية، وبدورهم المتعاظم في العالم، يل ذهب بعض المؤلفين كابن رسته، وابن خردزابه، وابن الفقيه إلى الجمع بين هذه النماذج في مدوناتهم، بأن وظفوا النموذج الهندي – الإيراني لوضع المدن المقدسية الإسلامية، أو العاصمة السياسية للخلافة العربية كمراكز للعالم بدلاً من إقليم «إيرانشهر»، وقد افتتحوا مؤلفاتهم بتصوراتهم المختلفة عن الأرض والجزء المعمور، والمغمور فيها، وعن الأقاليم، والبحار السبع، ثم بدأوا بالمدن المقدسة الإسلامية (مكة والمدينة)، وعاصمة الخلافة السياسية «بغداد»، ليعرضوا بعدها المدن والأقاليم، حتى ينتهوا إلى الشرق الأقصى.

ولقد تجلّت هذه الاستقلالية المنهجية والتصورية، مع أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية، في القرن العاشر الميلادي، وذلك بجمعهم بين مفهوم خاص للأقاليم. وركزوا أبحاثهم على «دار الإسلام»، واعتماد الخط الحقيقي للجغرافية العربية، وهو خط القائم على الرحلة والمشاهدة، وعلى التحقق من المعلومات التي يُدلي بها أهالي البلدان، ومقارنتها بغيرها، ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها، وهي منهجية مارسها أصحاب «المسالك والممالك» و«البلدان». [٥٧]

على الرغم من أن أبا زيد أحمد بن سهيل البلخي، الذي ولد (٢٣٥هـ – ٨٥٠م)، هو المؤسس للمدرسة الجغرافية العربية، فإنه يمكن اعتبار اليعقوبي (٢٧٨هـ – ٨٩١م) الذي دمج التاريخ بالجغرافية، واعتمد التجربة والمشاهدة أساسين لأبحاثه، وهيمن على كتابه الجغرافي «كتاب البلدان» الإهتمام بـ «دار الإسلام»، هو من وضع النواة المنهجية لـ «المدرسة الجغرافية العربية» واتخذ تقسيماً للأقاليم تبعاً للإتجاهات الأربعة، حول بغداد مبتدأ بالأخيرة، باعتبارها وسط الدنيا، «وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسدة الأرض وذكرت بغداد لأنها في وسط العراق والمدينة العظمى، التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة وهواءً، ولأنه سكن من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وأثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم». [٥٨] ثم يعقبها بأقسام العالم الأربعة، ذاكراً «سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة ومدينة على أقسامها الأربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة ومطلع سهيل... وجهة الشمال وهو كرسي نبات يعش». [٥٩] أما ربع المشرق، فهي شرق بغداد من بلدان حتى «ما اتصل بخراسان من البيت وتركستان» [٦٠]

ووقف إلى جوار اليعقوبي في التمهيد للمدرسة الجغرافية العربية قدامة بن جعفر (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) صاحب «كتاب الخراج وصفة الكتابة»، الذي كرّس مفهوم «مملكة الإسلام» إضافة إلى «دار الإسلام»، كمفهوم جغرافي وسياسي وحضاري، الذي بقي سائداً في التأليف الجغرافي حتى نهاية القرن الحادي عشر ميلادي على الأقل، وتعرض في كتابه لـ (صورة الأرض)، ولمعطيات متعلقة بدار الإسلام، كالضرائب والثغور وتخوم دار الإسلام، عرج بعدها على الأمم الأخرى، وفي النهاية لشعوب الأقصى. مظهراً موقع دار الإسلام الممتاز في علاقتها بتلك الأمم،[٦١] ونظر إلى أمم الشرق الأقصى كغيرها من الأمم، على أنها تتحلق حولها، بعد أن قسّم الجزء المعمور من الأرض على طريقة اليعقوبي قياساً على الاتجاهات الأربعة، متحلقة حول دار الإسلام، مفتتحاً عرضه للأقاليم والبلدان بمدينة الخلافة بغداد، ومعها المدينة المقدسة: مكة: «ونبدأ بالطريق الماخوذ من مدينة السلام (بغداد) إلى مكة وهو المنسك الأعظم وبيت الله الأقدر، نأخذ بعد البلوغ إليه ذكر ما بعده».[٦٢]

هكذا تبلورت أبحاث المدرسة الجغرافية العربية في القرن العاشر ميلادي، بشكل رئيسي على يد الاصطخري وابن حوقل والمقدسي، الذين كرسوا أبحاثهم على مجال «دار الإسلام» ولم يخصوا سوى القليل من أبحاثهم لأمم الجوار وذلك تعبيراً عن ثقتهم بموقع هذه الدار في العالم، ولتعاظم شعورهم بوحدة الجماعة العربية الإسلامية، على الرغم من التصدعات التي باتت تصيب الواقع السياسي للخلافة. إذ شهد القرن العاشر الميلادي إلى جانب ذلك ازدهاراً لافتاً للحضارة العربية الإسلامية، أو ما يسميه ميتز «عصر النهضة»، فبلغ الأدب الجغرافي ذروة اكتماله، وتم فيه تشكيل «المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية»، التي ضمّت بين صفوفها رحالة جوابي آفاق، وامتازوا بدقة نظرهم واعتمادهم على التجربة والمشاهدة، وبلغوا في تقصيهم عن خصائص أقاليم «دار الإسلام» شأناً كبيراً.

ولعل مفهوم «دار الإسلام» أو «مملكة الإسلام»، والذي انكبت عليه أبحاثهم، باعتباره الموقع الأهم بين الأقاليم، يعود في جذوره إلى المفهوم الإيراني الهرمسي عن إقليم «إيرانشهر»، الذي تدور حوله الأقاليم، ويتصل بالمفهوم الفقهي «دار الإسلام»، وهذه كانت تعني فقهياً، بأنها «جملة الأقاليم التي تطبق أحكام الإسلام، ويتمتع جميع من فيها بالأمان الذي يتمتع به المسلمون».[٦٣]

أما من زاوية الحدود السكانية، فتشمل أبناء الأمة الإسلامية، كائناً ما كانت أصولهم وأعراقهم وألسنتهم بالإضافة إلى أهل الذمة، من سكان البلاد المفتوحة، واعتبرها أبو حنيفة تشمل الأقاليم التي فيها مسلمون، ومتاخمة لأراضي الإسلام، حتى وإن لم تقام فيها أحكام الشريعة[٦٤] وقباله (دار الإسلام) كانوا يضعون «دار الحرب»، والتي لا تشملها عقود أو معاهدات، والتي يتوقع إمكانية نشوب الحرب معها، وإن كان هذا المفهوم لا يستدعي الدعوة إلى الحرب، فأغلب الفقهاء يؤكدون على أن العلاقة بين دار الإسلام «ودار الحرب» يجب أن تكون علاقة سلم كقاعدة عامة، ولا تأتي الحرب إلاّ استثناء، وأنه لا يحق للمسلمين شن حرب ضد الأمم الأخرى، حتى لو كانت في دار حرب، إلاّ إذا بادأت هذه الأمم دار الإسلام في الحرب أولاً[٦٥]، وذهب بعضهم إلى أن الإسلام لا يقر الحرب الهجومية بقصد التسلط، أو التوسع، لأن الحرب المشروعة الوحيدة بنظرهم، هي الحرب الدفاعية لردع اعتداء أو الدفاع عن حق ثابت بمقتضى عهد أو معاهدة نقضها الخصم[٦٦]، واستند هؤلاء في ذلك على الآية القرآنية ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان. إنه لكم عدو مبين﴾ (يونس:٢٥) والآية ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (الأنفال:٦١)، وأيضاً الآية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذي يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يُحب المعتدين﴾ (البقرة:١٩٠) فضلاً عن ذلك، فقد أقر الفقهاء في تصوراتهم الفقهية، وجود منطقة وسط بين الدارين سموها (دار العهد) من جراء التحالف والتعاهد بين الطرفين، وأول ما تضمنته هذه الدار، هو عدم جواز شن الحرب عليها.[٦٧] غير أن تلك

المفاهيم، لم تكن لها وزنها وثقلها دائماً عند رجال الحكم، فبعد اندفاعة (الفتوح) الأولى، ترسخت الحدود وساد الهدوء، بين دار الإسلام والعالم المحيط بها، ولا سيما في العهد العباسي، وكان لهذا أثره في الشعور باستقرار حدود دار الإسلام وثباتها وفي نقل مفهوم «دار الإسلام» الفقهي إلى المستوى الجغرافي الحضاري، لإحساس الباحثين باستقرار حدود هذه الدار ومن جهة، ولتنامي شعورهم بالثقة بالذات الحضارية من جهة أخرى، من هنا أتى تركيز «المدرسة الجغرافية العربية» على دار الإسلام، وتقسيمها إلى إحدى وعشرين إقليماً لا بالمعنى الفلكي الرياضي كأحزمة عريضة تضم عدداً من درجات العرض (Kilomata)، بل كمناطق جغرافية وواسعة، أو ولايات (Regions)(٦٨) أي كإقليم (بلداني) في وحدته الاقتصادية والإدارية، والأنثوغرافية، ودأب أصحابها في أطالسهم على أن تبدأ خارطتهم بخريطة العالم المستديرة ثم يليها خارطة جزيرة العرب، وبحر فارس والمغرب ومصر وبلاد الشام والبحر الرومي – الشامي ثم أربعة عشر خارطة تمثل الأقاليم الوسطى والشرقية لبلاد الإسلام، فبلغ الأدب الجغرافي ذروته على أيديهم، فاستعملوا مفهوم الإقليم، بعد أن أعطوه معنى جديداً بينوا فيه حدود الإقليم جغرافياً وبشرياً، وتعمقوا في وصف أوضاع الناس فيه، وأساليب معاشهم، وعاداتهم وسلوكهم الثقافي، واعتقاداتهم وأصولهم الأقوامية وحالتهم الإقتصادية، فاقتربت أبحاثهم من نمط الدراسات الإثنوغرافية، وقد عبر المقدسي عن طريقة أصحاب هذه المدرسة، الذين جمعوا بين الرحلة والجغرافية، في البحث، بقوله: «فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عاينّاه، والثاني ما سمعناه، من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب، وفي غيره، وما بقيت خزانة ملك إلاّ وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلاّ وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلاّ وقد شهدتهم حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب»(٦٩) وكانوا على إدراكهم العميق بالتنوع العميق الذي تزخر به دار الإسلام، يستشعرون وحدة شعوبها الجامعة.

ويشرح ابن حوقل «قد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً، وصقعاً صقعاً، وكورة كورة لكل عمل، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً، لأن الكعبة فيه ومكة أم القرى، وهي واسطة الأقاليم»(٧٠)، ويذكر ابن حوقل في عبارة تكاد تكون متطابقة مع الأصطخري «ثم أفردنا لكل إقليم منها صورة على حدة، فبينّا فيها شكل ذلك الإقليم، وما يقع فيه من المدن، وسائر ما يحتاج إلى علمه... وابتدأت بديار العرب لأن القبلة بها ومكة فيها وهي أم القرى»(٧١)، وقد استفادوا من رحلاتهم الواسعة في العالم، وعلى أطراف الهند والصين.

لكن إلى جانب تركيز اهتمامهم بالأوضاع البشرية والاقتصادية لأقاليم دار الإسلام، فإنهم لم ينسوا الأمم المحيطة بهذا الدار، أو بإعطاء ملاحظات على العالم بأسره، فقد كان لابد لهم وهم المهتمون بأوضاع هذه الدار، من أن يهتموا بما يكتنفهم من أقاليم وشعوب، وباحتمالات العلاقات بينهم، وهو ما نجده جلياً في عرض الاصطخري وابن حوقل والمقدسي. فلدى تحديدهم لدار الإسلام، تعرضوا لتداخل حدودهم مع الأمم الكبرى المحيطة بها، وحدود وتخوم هذه الأمم الكبرى وما يحيط بها من بحار وعلاقات مع بقية العالم المعمور، مضمنين عرضهم معطيات نموذج الأقاليم السبعة، ومحددين موقع بلاد العرب والمسلمين جغرافياً داخل الأمم الكبرى المحيطة بها: الصين، الهند، الترك، الروم، بلاد القرم، فتحدثوا في البداية عن امتداد دار الإسلام، فأشار الأصطخري «إن شرقها أرض الهند، وبحر فارس (بحر الهند)، وغربها مملكة الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان والران والسرير والخزر والروس وبلغار، والصقالية وطائفة من الترك، وشماليها مملكة الصين، وما يتصل بها من بلاد الترك، وجنوبها بحر فارس)».(٧٢)

وبعد أن ذكر الاصطخري وابن حوقل ممالك الأرض الأربع: ومملكة إيران شهر، ومملكة الروم ومملكة الصين، ومملكة الهند، فإنهما أشارا إلى مدى ما أخذتها «مملكة الإسلام» في صعودها من تلك الممالك من بلاد، «فيقولان بكلمات تكاد تكون متطابقة: فلما جاء الإسلام أخذ من كل مملكة بنصيب، فأخذ من مملكة الروم: الشام ومصر والمغرب، والأندلس، وأخذ من مملكة الهند ما اتصل بأرض المنصورة والملتان إلى كابل، وطرف أعلى طخارستان،

وأخذ من مملكة الصين ما وراء النهر».[٧٣]

فالصين والهند بنظر الاصطخري وابن حوقل اثنتان من الأمم الأربع الأعظم في العالم، وأن مساحة «مملكة الصين'، من أربعة أشهر في ثلاثة» وتمتد «ما بين البحر والتغزغز (قوم من الترك) والتيبت».[٧٤]، وأن حدودها «فإن شرقيها وشماليها البحر المحيط، وأما جنوبيها فمملكة الإسلام،و الهند، وأما غربيها فهو البحر المحيط، لأن يأجوج ومأجوج ومن إليهم إلى البحر المحيط من هذه المملكة».[٧٥] وهو هنا ورنك (بحر الشمال) أما «أرض الهند فإن شرقيها بحر فارس وغربيها وجنوبها بلاد الإسلام، وشماليها مملكة الصين»[٧٦].

وقد وضعوا الشعوب التركية، ما بين الصين وبحر الخزر (قزوين) وبلاد بلغار الفولغا، ويأجوج ومأجوج هم في ناحية الشمال ليتصل بالبحر المحيط.[٧٧]

التخوم والربط والثغور

لقد استتبع حديث المؤلفين العرب عن مملكة الإسلام، معرفة أو تحديد طبيعة (الحدود) التي تفصلها وتصلها عن غيرها من عالم الجوار، بما فيها أمم الشرق الأقصى: الصين والهند والترك، وخلفهم الشعوب الغامضة المخيفة: يأجوج ومأجوج، وكان مفهوم «الحد» يشير إلى نهاية «دار الإسلام»، أو إلى الحد الفاصل بينها وبين غيرها من البلدان، دون أن يتضمن ذلك بالضرورة حمولات عدائية، في حين أن مفهوم «الثغر» أو «التخم»، الذي يستتبع وجود منشآت عسكرية أو رباطات (جمع رباط) على خط الدفاع، متحفزاً للمخاطر المحتملة، فله حمولات عدائية. فهي كانت مراكز دفاعية على الخطوط النهائية لدار الإسلام، وقد انتشرت أينما تمثل الخطر، فهي في الأندلس قبالة: الجلالقة أو الفرنجة، وهي في جبال القبق (القوقاز) على باب الأبواب (دربند) قبالة الشعوب الغامضة في الشمال والمنتشرة ما بين قزوين والبحر الأسود، وهي قبالة بيزنطة شمال الشام، وفي بحر الشام – الروم، وهي أيضاً قبالة الشعوب التركية الغامضة، التي كانت كحاجز يفصلها ويصلها بالصين واختلطت حتى القرن العاشر الميلادي، بالمخيلة العربية – الإسلامية، قبل أن تصبح في الدائرة الإسلامية، بصورة يأجوج مأجوج، وهي أيضاً قبالة الهند على حدود السند، أمام المعبد البوذي (ملتان الكبير)، إلا أن الحدود الإسلامية مع الشرق الأقصى، مع الهند والصين والترك، كانت أقلّ خطراً وأكثر قرباً للسلام والاستقرار، من التخوم التي تفصلها عن بيزنطة، أو التي تحاذي الجلالقة والنورمان شمال الأندلس، ولقد حذَّر قدامه بن جعفر من هذه الواقعة، عندما قال «ينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذراً منهم للروم».[٧٨]

فالحظر الرئيسي، كما يستشعره العرب حتى القرن الثاني عشر ميلادي، يأتيهم من بيزنطة، أما الأخطار الاخرى فتبدو أقل إثارة للقلق. إلا أن هذا لا يضعف شعورهم بالتوجس والخيفة من الخطر الغامض المحدق بهم من الشمال الشرقي قبالة الشعوب التركية، التي لم يألفوها بعد كفاية، رغم تجنيد الخلافة لهم – منذ أيام المعتصم – في ديوان الجند، إذ تحدثوا عنهم بلغة تمتزج فيها المتخيل العجائبي بالواقع، فيذكرون أنه في آخر حدود خراسان نحو الشمال الشرقي – يوجد تخم – ثغر يدفع خطر الأتراك إلى الوراء، ويشير قدامه إلى أن «من الثغور الكبار ثغر الترك، ولهم برية، مما يلي بلاد جرجان يخرجون منها، وكان أهلها قد بنوا حائطاً من آجر تحصّناً من غاراتهم، ومعظم الترك في الثغر الذي بخراسان يسمى توشجان، وهو وراء سمرقند في الشرق بنحو ستين فرسخاً (الفرسخ = ثلاثة أميال) نحو الشاش وفرغاته».[٧٩] ويروي أيضاً مازجاً الوقائع بالخيال العجائبي أن الاسكندر عندما غزا الهند ووصل إلى الصين صحبه ملك الصين إلى البرية القفر حيث مواقع الأتراك هناك، فأشار عليه صاحب الصين بإقامة سد أمام بلادهم حتى يمنعهم من التقدم، ومفاد الرواية أن الإسكندر «بلغه

عن قوم لهم عدد جم من هؤلاء الأتراك ناحية المشرق من جهة الشمال أنهم مفسدون في الأرض، فاستشار صاحب الصين فيهم، فأخبره أنه لا غنيمة عندهم غير المواشي والحديد، وأنه يحيط من ناحية الشمال البحر الأخضر الذي لا مجاز فيه (لا معبر فيه) لأحد، ومن ناحية المغرب والجنوب جبال ذاهبة في السماء لا ترام ولا لأحد عليها مسلك، وأنه لا منفذ لهؤلاء الأتراك إلاّ من درب واحد ضيق كالشراك، وأنهم في زاوية من الأرض لو سد عليهم هذا المنفذ بقوا فيها وكفى الناس شرهم»[٨٠] فنفذ الاسكندر رغبة ملك الصين وأقام السد ليفصل هؤلاء عن الصين وغير ها من الأمم، ويذهب الخيال بابن الفقيه إلى حد أبعد، فيمزج بين الأتراك والشعوب الغامضة يأجوج ومأجوج، ذاكراً حادثة بناء الصين من قبل الاسكندر، نزولاً عند طلب الشعوب المجاورة للأتراك ويأجوج ومأجوج، «إذ لما انتهى إلى موقع بناء السد (الردم)، واجتمع إليه خلق كثير، واخبروه (أن خلف هذه الجبل مما لا يحصيهم إلاّ الله جلّ وعزّ، وقد خربوا علينا بلادنا، وهم قوم قصار صلع عراض الوجوه، وهم أمم كثيرة ولا يحصيهم إلا الله».[٨١] وأن أهم قبائلهم يأجوج ومأجوج، ولهم أربع وعشرين قبيلة، وكانت إحدى قبائلهم وهم الترك خارجة من وراء الردم (السد)، «فردم ذو القرنين السد على ثلاثة وعشرين قبيلة، قال مقاتل بن سليمان: وإنما سموا الترك لأنهم تركوا خلف الردم».[٨٢]

أما الثغر المركزي في المشرق، فهو ثغر خوارزم الذي يقع في منطقة استراتيجية على جسر الاتصال مع الهند وأيضاً الصين، الذي تقف دونه الشعوب التركية، ويقع في منطقة العلاقات التجارية الكبرى، بين الشرق الأقصى، ودار الإسلام، وأيضاً مع روسية، وأوروبا الشرقية، فكانت الجبهة الأمامية لما كانوا يسمونه ما وراء النهر، وهي المنطقة الواقعة ما بين النهرين سيحون (سرداريا)، وجيحون (موريداريا)، فيقول الاصطخري عن أهل هذه المنطقة، واستشعارهم للمخاطر، وترى الغالب على أهل ما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد، «وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط».[٨٣] ويشير ابن حوقل إلى دور ثغر خوارزم المحوري، «أن جميع حدود ما وراء النهر إلى دور الحرب أقرب، ومن ذلك خوارزم إلى ناحية اسبيجاب فهم ثغر الغزية، وتطوف حدود ما وراء النهر من الشقنية وبلد الهند من حد ظهر الخُتل إلى حد الترك في ظهر فرغانه» ويؤكد أن أصحاب ثغر خوارزم «وهم ثغر المسلمين في وجه الترك يمنعونهم من دار الإسلام ويصدونهم عن انتهاكها». [٨٤]

وهناك (الثغور) التي تواجه بلاد الهند، ويذكر ابن سعيد المغربي منها مدنية قنديار (لعلها قندهار) على أنها «من قواعد بلاد الهند كما فتحها المسلمون بعد كابل صارت ثغراً في وجه الهند».[٨٥] وإلى جانبها قاعدة السند: المنصورة التي كان في جبالها عقاقير هندية، وكانت من ثغور المسلمين في وجه الهند.[٨٦] إلاَّ أن الثغر الرئيسي لديهم، كان يتمحور في مدينة (الملتان) التي فيها تمثال عظيم لبوذا، وتسمى كما يقول ابن حوقل «فرج بيت الذهب، وفيها الصنم العظيم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر أصقاعها»[٨٧] وبعد أن فتحها المسلمون لم يكتف الهنود عن محاولة استرجاعها، لهذا بنوا «على الملتان حصن وبها منعة»، وكان المدافعون عن المدينة من المسلمين، يتظاهرون كلما هاجمهم الهنود لانتزاع الصنم منهم، «بكسره وإحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخرّبوا الملتان».[٨٨]

جبل قاف

اقترن الشرق الأقصى، وخاصة حدود الصين القصوى، في مخيلة الجغرافيين العرب، بجذور الجبل الكوني أو نقطة انطلاقته البدئية، التي تلتف في كل الجهات، لتشكل جبال العالم في شتى الاتجاهات، وسموه بـ «جبل قاف» الذي ينتصب شامخاً على حدود الصين الشرقية في محاذاة تخومها التي تفصلها عن الجزء

(المغمور) من العالم، عن مياه المحيط المظلم، أو عن قفار العالم، يعرفنا ابن رسته بهذا الجبل بقوله «أن حول الأرض جبلاً محيطاً بالأرض، وأن الشمس تطلع من حدّ ذلك الجبل في وقت واحد». (٨٩)

ويشير المسعودي، إلى أن سد الصين، الذي يعزو بناءه إلى الاسكندر، قد أقيم على حافة الجبل الكوني هذا، لصدّ الشعوب الغامضة (يأجوج وماجوج) التي تقبع خلفه، ثم يمتد من الصين حتى الحدود القصوى للعمران في المغرب، فيشرح الأمر «وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسيلي (كوريا) إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج (أي سد الصين)، الذي بناه الاسكندر دافعاً ليأجوج وماجوج عن الفساد في الأرض، والجبل الذي وراءه ووقع في فجة الردم، ومنه كان مخرجهم، بدؤه خارج العمران في الإقليم السابع، وطرف مبدئه مستقبل الشرق، ثم ينعطف إلى ناحية الجنوب، ويستقيم ممّرُه طولاً إلى أن ينتهي إلى بحر أوقيانوس المظلم المحيط، فيتصل وأقصى عمران المغرب، وينتهي إلى بحر أوقيانوس المظلم المحيط (المحيط الأطلسي)».(٩٠)

ويتحول هذا الجبل العظيم لدى ابن حوقل، إلى الجبل الأساس الذي تتفرع منه جميع جبال العالم، ويشرح لنا تفرعاته من حدّه عند أطراف العالم شرق الصين، إلى تشعباته ونهاياته في القارة الأفريقية، فهو عند ابن حوقل «جبل على وجه الأرض، أوله بالمشرق من بلد الصين خارجاً من البحر المحيط على (وخان) من نواحي خمدان Khumdan (جون شوان أو سينانفو Sinanfo وعند ابن بطوطه الزيتون) فيقطع بلاد التيبيت لا في وسطها بل على مغاربها ومشارق بلاد الخرلخية (قبائل تركية) إلى أن يأتي حدود الإسلام... فيمر صدر هذا الجبل على فرغانه إلى جبال التيم، ومنه شرب سمرقند ومياهها منه».(٩١)

ثم يفصّل في تعقب حلقات سلسلة هذا الجبل الكوني، وعقب مروره سمرقند، يقطع نهر جيحون، ويتصل به جبال جرجان وطبرستان إلى الري... ثم جبال الديلم وجبال أذربيجان، والقبق (القفقاس) واللان وبلاد الروم... وجبال أصبهان إلى أن يتصل إلى بحر فارس... وإلى ناحية تكريت جانب دجلة، ويكون جبل بارما وجبل زامر شرقي الموصل، ويتشعب إلى جبال أرمينيا.. ويصل إلى بيت المقدس، وجبال لبنان، إلى جبل القلم ويمر بالاتجاهات المختلفة لأفريقيا وتمضي شعابه، حتى ينتهي في برابري غرب أفريقيا إلى أودغست حتى البحر المحيط، ويذهب في خط آخر إلى أن يصل جبل القمر من جانب النيل الغربي. (٩٢)

في الترسيمة السلالية

استعمل الكثير من المؤرخين العرب، وجغرافييهم الترسيمة السلالية لربط أمم الشرق الأقصى، كغيرها من الأمم، بالفروع الكبرى التي ترتد إليها جميع أصول البشر، أي أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث، ولم يخل هذا الترتيب التسلسلي لحلقات القرابة من أحكام قيمة، تُفاضل في قيمة بعض السلالات قياساً على الأخرى، على الرغم من اصطدام تلك المعايير مع القيم الإسلامية العامة، واصطدامها أيضاً برفض بعض المفكرين وفي مقدمتهم ابن خلدون، التفاضل في النسب، وإن سلم بروابط سلالية لبعض الأمم كالعرب والفرس العبرانيين «ولما رأى النسابون اختلاف هذا الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب، فجعلوا أهل الجنوب كلُّهم السودان من ولد حام، وارتابوا في ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم وأكثرهم من ولد يافث، وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام، وهذا الزعم وأن صادق الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد... وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك، فإن التمييز لجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة (الإقليم والبيئة)، أو السمة كما للزنج والحبشة والصقلية والسودان، ويكون بالعقائد والشعار والنسب كما للعرب. ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم..».(٩٣)

كان أول تدوين فعلي لأنساب العرب، قد أتى على يد الخليفة الثاني، لأسباب دينية تتعلق بمساهمة تلك القبائل بالفتح، وبديوان الجند، فعلى الرغم مما للإسلام من رؤية إنسانية (أخوة الإيمان)، وأخوة الإنسان بالرجوع إلى أب واحد: آدم، وأصلهم الترابي الواحد، فقد كان المحاربون المسلمون ينتمون بحكم الواقع، وبحكم طبيعة الاجتماع السائد يومئذ إلى قبائل، فشكل الخليفة الثاني في سياق إنشائه لديوان الجند لجنة ثلاثية من: أبي عدي جبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وعقيل بن أبي طالب، وكلفهم بوضع ثبت بأنساب العرب، يقوم على أساسه الديوان، وكان ذلك أول تدوين تاريخي لأنساب العرب.[٩٤] وبدأت بتدوين الأنساب مراعية الاعتبار الديني، والقرابة للنبي ثم الاعتبار القبلي، ووضعت أساساً للافتخار القبلي بما كان للقبيلة من دور في الإيمان، ومدى مساهمتها في قتال فارس والروم أثناء الفتح[٩٥] فصارت المشاركة في فعالية الدعوة، وبالفتوحات قياساً مهماً على المكانة الاجتماعية لتلك القبائل، وعنصراً في تحديد (عطاء) الديوان، ولكن مع التقدم في الزمان، ظهر تمايز ما بين الاتجاه (الفقهي) الديني، وبين الاتجاه القبلي في عملية تدوين الإنسان، عكس التمايز داخل الاجتماع السياسي العربي والإسلامي في صدر الإسلام ما بين التيار القبلي، والتيار الإسلامي، الذي غلب عليه أصحاب الحديث في الكتابة التاريخية[٩٦] وبالتالي غلبة العقيدة، التي تعاملت مع العرب والمسلمين كجماعة، أو أمة مؤمنة ترتقي على الانتماء القبلي، دمجت القبائل في تاريخ إنبثاق الأمة المؤمنة، ويمثل تأليف البلاذري (٢٧٩هـ – ٨٩٢ م) في «فتوح البلدان» و«الأنساب والأشراف» بمثابة تاريخ للجماعة المسلمة في إطار الإسلام.[٩٧] إلا أن هذا لم يمنع من تأثير «المنهج القبلي» على دراسة الأنساب، وفي تعميم معطيات «ترسيمة الأنساب» ليطال أصول الأمم الأخرى، رجوعاً إلى الفواصل الكبرى في التاريخ الإسلامي البشري ومعطياته، ومنهجه التفاضلي في تمييز مواقع أولاد نوح: يافث، وحام، وسام، داخل تلك الترسيمة السلالية. وقد تناقل الفقهاء المسلمون حديثاً نبوياًَ، مفاده «أن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك السهل والحزن، والخبيث والطيب» وهو يدل على وحدة الأصل البشري والوحدة الترابية لتلك الأصول، إلا أن هذا الأصل ما يفتأ أن يتفرع تبعاً لأولاد نوح الثلاثة، يذهب اليعقوبي إلى أن نوح قسم الأرض المعمورة على أولاده، «فصار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والتيبت وخراسان... ولولد سام الحجاز واليمن وباقي الأرض... ولولد حام المغرب وما وراء الفرات إلى مسقط الشمس «أي إلى نقطة غيابها»».[٩٨]

فإذا كان اليعقوبي قد وضع الصين والهند والترك في حلقة أولاد يافث، إلا أن هذا الجمع بين تلك الأمم لم يكن محل إجماع بين المصنفين العرب، فهناك من فرق بين حلقاتهم السلالية، فهذا القرطبي يذهب إلى أن «العرب وفارس والروم، وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح، والسند والهند والزنج والحبشة والنبط والنوبة، وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح، والترك وبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالية يعد كلهم من ولد يافث بن نوح»[٩٩] وجمع بعضهم بين الهند والعرب في أرومة واحدة تعود إلى سام بن نوح، فالطبري يذكر على لسان ابن عباس قوله: «العرب والفرس والنبط والهند والسند من ولد سام بن نوح»[١٠٠] ويذهب المسعودي في الاتجاه ذاته عندما يضع الصين والترك ويأجوج ومأجوج في سلالة يافث مع جملة من الشعوب الأخرى، إذ يقول «وكان قسم من ولد يافث: أرمينية، وما جاوزها، إلى الأبواب، فمنهم الأشبان والروس والبرجان والخزر والترك والصقالية، وياجوج ومأجوج وفارس وفرنان، وأصحاب جزائر البحر، والصين والبلغار وأمم لا تحصى»[١٠١] وضم الهند والسند إلى بلاد النوبة والسودان في انتسابه إلى أولاد يافث، وخصَّ أبناء يافث بنصف لغات العالم، حين يقول: «عن جميع اللغات اثنان وسبعون لغة منها سبع وثلاثون في ولد يافث بن نوح»[١٠٢] دلالة على وزنهم السكاني العظيم.

يرجع المسعودي ويؤكد على هذا التقسيم في (مروج الذهب)، معيداً انتساب الترك والصين ويأجوج

وماجوج مع الصقالبة وغيرهم إلى ذرية يافث، وينظر إلى الهند والسند مع أبناء الحبشة والنوبة والسودان إلى ذرية حام[١٠٣]. أما الدمشقي، فقد ذهب إلى أن نوح قد قسم الأرض «فكان الشرق والشمال ليافث وبنيه ونسله وعقبهم، وكان المغرب والجنوب لحام وبنيه ونسلهم وعقبه، وكان وسط الأرض لسام ولبنيه ونسلهم وعقبهم، وكان أولاد سام وبينهم: العرب والفرس والروم، وأولاد يافث وبينهم: الترك والصقالبة ويأجوج وماجوج، وأولاد حام وبينهم: النبط والبربر والسودان»[١٠٤] فهو يضع الترك ويأجوج ومأجوج في سلالة أولاد يافث، ويضيف إلى هذه السلالة في مكان آخر (الصين) في فصل عنوانه «في وصف بني يافث بن نوح وهم: الترك والصقالبة والصين»[١٠٥] ويذهب بشأن الصين إلى القول، «وأما الصين فزعم أن فالغ لما قسم الأرض بين ولد نوح (ع) أعطى لبني يافث الشرق، فعمل عابور بن سويد ابن يافث فلكاً مثل فلك نوح (ع) ثم أتي سفينة فركب فيه بولده، وقطع البحر الشرقي، فنزل بولده في تلك الأرض (أرض الصين) فبنوا المدن والآثار والمعادن وأجروا الأنهار وغرسوا الأشجار، ثم هلك، وملك من بعده ولده صابور وهو أبو الصين، وهم شعوب وقبائل حتى أن الرجل يبلغ بنسبه إلى عابور، وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات ولا سيما التصوير حتى أن رجل منهم يفرق في تصويره بين ضحك الهازي والشمت والمتعجب والمسرور، وبلادهم قسمان صين داخلية وصين خارجية، يسمى صين الصين، وبين الحيزين حاجز، لها جبال منيعة لها أبواب يعبر منها إلى التيبت».[١٠٦]

ولم يخلُ ترتيبهم للتفرعات السلالية، من حمولات تفاضلية بين السلالات الثلاث الكبرى، ولعل وضع ذرية سام وفيهم العرب في وسط الدنيا يحمل دلالاته. كما أن وضع أبناء حام ومنهم الهند أحياناً في الغرب والجنوب له دلالاته الخاصة، وكذلك أولاد يافث وموقعهم في الشرق والشمال ومن بينهم الصين والترك ويأجوج وماجوج له أيضاً دلالاته الخاصة، وإذا كانت تلك التقسيمات قد رفعت من شأن أولاد سام، ولم يخل ترتيبهم لأولاد حام أحياناً من بعض الأحكام السلبية، يبدو أمامها أولاد يافث في موقع يخلو من الأحكام السلبية، وأيضاً أن وضعهم أحياناً الهند ضمن سلالة حام لم يخفف من أحكامهم الإيجابية عن أصل الهند وحضارتهم، وكانت كل هذه التقسيمات التي تعتمد الدم، والسلالة في أحكامها التفاضلية تتعارض كلياً مع الأخلاق الإسلامية، والقيم العامة التي دشنتها وشكلت قلب الثقافة العربية، ووعيها الحاكم، كما تتعارض مع آراء كثير من الباحثين وعلى رأسهم ابن خلدون، الذي وضع البيئة، والعمران عاملين حاسمين للحكم على إنجازات الأمم الحضارية.

الهوامش

١- ابن الفقيه. أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني. مختصر كتاب البلدان. طبع مدينة ليون المحروسة ، بمطبعة بريل. ١٣٠٢. ص٤، وراجع أيضاً الدمشقي، شيخ الربوة شمس الدين بن عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري. كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبع مدينة بطرسبورغ المحروسة. مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية. ١٨٦٥. ص٢٤.
٢- اغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي ج١. الترجمة صلاح الدين عثمان. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. القاهرة. ١٩٥٧. ص٢٢.
٣- ابن خرداذبه. أبو القاسم عبد الله. المسالك والممالك. مكتبة المثنى ببغداد. ومؤسسة الخانجي بمصر. بدون تاريخ. ص١٥٥. وابن الفقيه. مصدر سابق. ص٧. الدمشقي. مصدر سابق. ص٢٤.
٤- ابن الفقيه. مصدر سابق. ص٥.
٥- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج١. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. ط٤. مصر ١٩٦٤. ص١٦٠.
٦- ابن الفقيه. مصدر سابق. ص١٣٦.
٧- المصدر نفسه. ص٤-٥. ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر. كتاب الأعلاق النفسية. طبع في مدينة ليون المحروسة بمطبعة بريل. سنة ١٨٩٣. ص٨.
٨- أحمد سوسه. الشريف الإدريسي. الباب الأول. نقابة المهندسين العراقيين. مكتبة جهري في بغداد. ١٩٧٤. ص٢٢٧-٢٢٨.
٩- ياقوت الحموي الإمام شهاب الدين بن عبد الله. معجم البلدان. المجلد الأول. دار صادر بيروت. ١٩٥٥. ص٢٠.
١٠- ابن رسته. مصدر سابق. ص٩٩.
١١- ابن خراذبه. مصدر سابق. ص٥. والشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمود بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ج١ مكتبة العقائد الدينية. دون مكان وتاريخ. ص٨.
١٢- المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين. التنبيه والإشراف. قسم أول. تحقيق قاسم وهب. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠٠٠. ص٥٨-٥٩.
١٣- أحمد سوسه. مصدر سابق. ص٢٢٩.
١٤- أبو الفداء. عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر. كتاب تقويم البلدان. طبع مدينة باريس. ١٨٥٠. دار صادر. بيروت. بدون تاريخ. ص١٩.
١٥- البيروني. أبو ريحان محمد بن أحمد. كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. الدكن. الهند. ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م. ص١٥٦.
١٦- المسعودي. التنبيه والإشراف. قسم ١. مصدر سابق. ص١٣١.
١٧- أبو الفداء. مصدر سابق. ص٣٠.
١٨- ابن رسته. مصدر سابق. ص٨٥.
١٩- الإدريسي. مصدر سابق. ص٥٢٦.
٢٠- المصدر نفسه. ص٨٧ وأبو الفداء. ص٢١.
٢١- الدمشقي. مصدر سابق. ص١٠٠ - ١٠١.
٢٢- المسعودي. مروج الذهب. الجزء الأول. مصدر سابق. ص ١٥٥ - ١٥٦.
٢٣- أبو حنيفة الدينوري. أحمد بن داوود. الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. وجمال الدين الشيال. أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد. ص٣٥.
٢٤- المسعودي. مروج الذهب. ج١. مصدر سابق. ص٥١.
٢٥- الإدريسي. مصدر سابق. ص٩.
٢٦- المصدر نفسه. ص٩ - ١٠.
٢٧- المسعودي. التنبيه والإشراف. القسم الأول. مصدر سابق. ص١٠٣.
٢٨- أبو الفداء. مصدر سابق. ص٣٠.
٢٩- المسعودي. التنبيه والإشراف. قسم أول. مصدر سابق. ص٦١.
٣٠- الحموي. مجلد أول. الجزء الثاني. مصدر سابق. ص٥٤.
٣١- أحمد سوسه. مصدر سابق. ص٢٠٠.
٣٢- المسعودي. التنبيه والإشراف. قسم أول. مصدر سابق ص٧١.
٣٣- المصدر نفسه. ص٧٥.
٣٤- الإدريسي. ج١. مصدر سابق. ص٩.
٣٥- ابن رسته. ص٩٩.
٣٦- ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون. دار القلم. بيروت. ١٩٧٨. ص٨٢.
٣٧- المصدر نفسه. ص٨٣.
٣٨- المصدر نفسه. ص٨٥.
٣٩- المصدر نفسه. ص٨٣.

٤٠- الإدريسي. مصدر سابق. ص٩٨.
٤١- د. شاكر خصباك. مقدمة علم الجغرافيا عند العرب. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية. ج١. مؤسسة الدراسات العربية (ثلاثة أجزاء) بيروت. ودار فارس – عمان. ١٩٩٥. ص٤٧٦.
٤٢- المقدسي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الشامي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مدينة ليون. مطبعة بريل. ١٩٠٦. ص٥٩ – ٦٢.
٤٣- المصدر نفسه. ص٥٩.
٤٤- الإدريسي. مصدر سابق. ص٩٨.
٤٥- المصدر نفسه. ص١٧.
٤٦- المصدر نفسه. ص١٧ و ٨٧.
٤٧- المصدر نفسه. ص٩٩.
٤٨- ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى. كتاب الجغرافيا. تحقيق إسماعيل العربي. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت.١٩٧٠. ص٨٥ – ٨٩.
٤٩- المصدر نفسه. ص٩٠ – ١١٠.
٥٠- ابن رسته. مصدر سابق. ص٩٦ – ٩٧. ياقوت الحموي. مجلد أول/ج١. مصدر سابق. ص٢٨ – ٣٠، إذ يقول «الإقليم الأول... فهو من المشرق يبتدئ من أقصى بلاد الصين، ويمر على ما يلي الجنوب من الصين، وفيه جزيرة السرنديب، وعلى سواحل البحر في جنوب بلاد السند، ثم يقطع البحر إلى جزيرة العرب... إلخ، الإقليم الثاني... يبتدئ في المشرق، فيمر على بلاد الصين، وبلاد الهند، وعلى شماليها جبال قامرون (= كمبوديا) وكنوج، والسند، والإقليم الثالث:... فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند والسند، ثم كابل، وكرمان... والإقليم الرابع... ويبتدئ من أرض الصين والتيبت والختن... ويمر على جبال كشمير... وكابل...».
٥١- ابن رسته. المصدر نفسه. ص٩٨.
٥٢- ياقوت الحموي. مجلد أول/ج١. مصدر سابق. ص٣٢.
٥٣- الطبيب شرف الزمان طاهر المروزي. أبواب في الصين والترك والهند. طبع في بريطانية العظمى. من قبل W.HF.FFER وأولاده في كمبرج. لندن. ١٩٤٢. ص٢.
٥٤- القنوجي. صديق بن حسن. أبجد العلوم. ج١. دار الكتب. ١٩٧٨. ص١٦٨.
٥٥- المسعودي. مروج الذهب. ج١. مصدر سابق. ص٨٧.
٥٦- الاصطخري. أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (الكرخي)، المسالك والممالك. تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر. ١٩٦١. ص١٧. وابن حوقل أبو القاسم النصيبي. كتاب صورة الأرض. منشورات دار مكتب الحياة. بيروت. ١٩٩٢. ص٢٢.
٥٧- د. حسين مؤنس. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس. مدبولي القاهرة. ط٢. ١٩٨٦. ص٨ – ٩.
٥٨- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب. كتاب البلدان. (يلي: ابن رسته. كتاب الأعلاق النفيسة) مصدر سابق. ص٢٣٣.
٥٩- المصدر نفسه. ص٢٦٨.
٦٠- المصدر نفسه. ص٢٦٩.
٦١- أندريه ميكيل. جغرافيا دار الإسلام البشرية. ج١. ق١. ترجمة ابراهيم الخوري. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٥م. ص١٩٢.
٦٢- قدامه بن جعفر. أبو الفرج الكاتب البغدادي. نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابه. (يلي كتاب ابن خرداذبه. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. المسالك والممالك. مكتبة المثنى. بغداد. بدون تاريخ. ص١٨٥.
٦٣- د. إحسان الهندي. أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، دار النمر. دمشق. ١٩٩٣. ص٧.
٦٤- المصدر نفسه. ص٨.
٦٥- خديجة أبو أتله. الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب. دار المعارف. القاهرة. ١٩٨٣. ص١١٢.
٦٦- علي علي منصور. شرعة العدو شريعة الإنسان. سلسلة كتابي ٣. دار المعارف. القاهرة. بدون تاريخ. ص٥٢.
٦٧- إحسان الهندي. مصدر سابق. ص٦٧.
٦٨- كراتشكوفسكي. مصدر سابق. ص٢٠١.
٦٩- المقدسي. ص٤٣.
٧٠- ابن حوقل. مصدر سابق. ص١٥ – ١٦.
٧١- الاصطخري. ص١٩ – ٢٠ ابن حوقل ص٢٧. المقدسي. ص٦.
٧٢- الاصطخري. ص١٦. ابن حوقل. ص٢٠.
٧٣- الاصطخري. ص١٥ – ١٦. ابن حوقل. ص١٩.
٧٤- ابن حوقل. ص٢٣.
٧٥- المصدر نفسه. ص٢٠. الاصطخري ١٦.
٧٦- ابن حوقل. المصدر نفسه. ص٢٠. الاصطخري. ص١٦.
٧٧- ابن حوقل. المصدر نفسه. ص٢٣. الاصطخري. ص١٨.
٧٨- قدامه بن جعفر. ص٢٥٢.
٧٩- المصدر نفسه. ص٢٦٢.

٨٠- المصدر نفسه. ص٢٦٥.
٨١- ابن الفقيه. ص٢٩٨.
٨٢- المصدر نفسه. ص٢٩٩. المقدسي. ص٣٦٢ - ٣٦٣.
٨٣- الاصطخري. ص١٦٣. ابن حوقل. ص٣٨٦.
٨٤- ابن حوقل. ص٣٨٧. الاصطخري. ص١٦٣.
٨٥- ابن سعيد المغربي. ص١٣٣.
٨٦- المصدر نفسه. ص١٣٣.
٨٧- ابن حوقل. ص٢٧٧ - ٢٧٨. الإدريسي. ص١٧٦.
٨٨- ابن حوقل. المصدر نفسه. ص٢٧٨.
٨٩- ابن رسته. ص٢٣.
٩٠- المسعودي. التنبيه والإشراف. ق١. مصدر سابق. ص٦١.
٩١- ابن حوقل. ص١٥٦.
٩٢- المصدر نفسه. ص١٥٦ - ١٥٧.
٩٣- ابن خلدون. المقدمة. ص٨٥.
٩٤- شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون العرب. ج١. بيروت. ١٩٧٨. ص٧٩.
٩٥- عمر رضا كحالة. التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية. المطبعة التعاونية. دمشق. ١٩٧٢. ص٧٣.
٩٦- عبد العزيز الدوري. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت. ١٩٨٣. ص١٩.
٩٧- المصدر نفسه. ص٥١.
٩٨- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب. تاريخ اليعقوبي. ج١. دار صادر. بيروت. ١٩٦٠. ص٢٠.
٩٩- الإمام القرطبي. تفسير القرطبي. ج٧. ص٣٣٣.
١٠٠- الطبري. تاريخ الطبري. ج١. ص١٢٧.
١٠١- المسعودي. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان. دار الأندلس. ط٢. بيروت. ١٩٦٦. ص٩١.
١٠٢- المصدر نفسه. ص٩١.
١٠٣- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص٣١٠ - ٣١٦.
١٠٤- الدمشقي. شيخ الربوه. مصدر سابق. ص٢٥.
١٠٥- المصدر نفسه. ص٢٦١.
١٠٦- المصدر نفسه. ص٢٦٥.

الفصل الرابع

الصين في المُتخيل العربي

لم تكن الصين بعيدة عن اتصال العرب المسلمين بها، ولم تكن عصيّة على معرفتهم، وتصوراتهم، فكانت حاضرة، بشكل مبكر، في اتصالاتهم ومعارفهم،و متخيلهم، شجع على ذلك الاحتكاك العربي المبكر بها، فلم يأت القرن الثاني الهجريين حتى امتلأت سواحلها والجزر القريبة منه، بالجاليات العربية، التي عاشت على هامش النشاط التجاري والبحري. فامتلك العرب متخيلاً عاماً عن حضارة الصين، ولعل ما يوحي بذلك الحديث المأثور «اطلبوا العلم ولو في الصين» الذي حمل في طياته الإشارة إلى بعد الصين، وإلى ما تختزنه من علوم، إلى أن بدأ عصر التدوين في القرنين الثاني والثالث هجريين، ونشط التأليف الأدبي، وكتب الأنساب والجغرافية، والفلسفة والفقه، ومدونات التاريخ، وهذه الأخيرة طمحت إلى الإحاطة بالتاريخ العالمي برمته، باعتباره قصة أمم يقودها ملوك، ورسالات نبوية نزلت على هذه الأمم، توجتها رسالة النبي محمد(ص). على أمته، الأمة الخاتم، التي ينفتح بها أمام العرب التاريخ الكوني بحق، الذي تحتل فيه الأمة الصينية مكاناً مرموقاً، وكان أفضل نموذج لهذا السردية التاريخية قدمها الطبري، والمسعودي، واليعقوبي، وابن الأثير وغيرهم، واكمل هذا الطموح إلى العالمية المدونات الجغرافية الكبرى في دأبها المحموم للإحاطة بالعالم برمته، بأممه وحضاراته، وأقاليمة المختلفة، فضلاً عن الرحالة الذين واكبوا ذلك الفضول المعرفي للعالم، واحتلت الصين مجالاً حضارياً جاذباً لذلك الفضول المعرفي المتعدد الجوانب، وللاتصالات المباشرة عن طريق التجار والرحالة، والسفارات، ولتبادل المعارف والاقتباسات الثقافية، وكانت حصيلة ذلك، تراكم المعرفة المكتبية عن الصين، انعكست فيها صورة زاهية عن الحضارة الصينية،و عن الشعب الصيني، مفعمة بالحماسة والإعجاب، لم ينل منهما التحفظات التي ترد هنا، وهناك عن بعض جوانب عادات الصين الاجتماعية، وعن اعتقادهم الديني، وانساقهم الثقافية فلقد استأثرت الصين بمكانة ممتازة في نظر العرب، في مجال العمران، والعلم والخبرة الصناعية، وبسمعة الثراء، والحكمة، وأيضاً عدل حكامهم.

ولقد كثف القزويني في قليل من السطور صورة الصين في المتخيل العربي، التي جاء فيها «بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الإقليم الأول إلى الثالث، عرضها أكثر من طولها، قالوا: نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين، وانها كثيرة المياه، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات وافرة الثمرات، من أحسن بلاد الله وأنزهها، وأهلها أحسن الناس صورة، وأحذقهم بالصناعات الدقيقة، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس، لباسهم الحرير، وحليهم عظام الكركدن والفيل، ودينهم عبادة الأوثان، وفيهم مانوية ومجوس، ويقولون بالتناسخ، ولهم بيوت عبادات».[(١)]

صلات مبكرة ومقارنات في الحضارة

لا نستطيع أن نحدد بدقة، اعتماداً على المصادر العربية، الزمن الذي أتى فيه العرب إلى الصين اول مرة، أو الطريقة التي جاءوا بها، وعلى الرغم من قلة الشواهد التاريخية الواضحة، فإنه يمكن القول، أنهم أول ما اتصلوا بالصين إنما عن طريق التجار الذي كانوا يسلكون الطريق البحري القديم، ولكن أسبق النصوص، التي يمكن الثقة بها تشير إلى علاقات سياسية مبكرة عن طريق البر، وذلك بعد أن أخضع العرب بلاد فارس، فبعد وفاة يزدجرد آخر ملوك آل ساسان، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب، فقيل إن إمبراطور الصين أرسل إلى البلاط العربي سفيراً يدافع عن قضية الأمير الهارب، في زمن الخليفة عثمان، فأرسل الأخير أحد قواد العرب ليرافق السفير الصيني في طريق عودته سنة ٦٥١م، فأكرم الامبراطور وفادته.[(٢)] وذلك في عهد الامبراطور تاوتسنغ سليل أسرة

تانغ الملكية، وذكر الطبري هذه الواقعة، وذلك بأن يزدجرد نفسه ملك الفرس، أوفد بعد هزيمته في معركة «ناهوند» مبعوثاً إلى إمبراطور الصين، وعندما عاد سألوه عما رآه، فسرد لهم حوار الإمبراطور معه، الذي تضمن تعريف المبعوث بحال العرب المسلمين، وتعليق الإمبراطور على ذلك، فوضعنا هذا السرد أمام مقاربات حضارية، جعلت إمبراطور الصين يقرّ بتفوق العرب المسلمين، وجاء في هذا الحوار، على لسان المبعوث الفارسي «قال: لما قدمت على ملك الصين بالكتاب والهدايا، فأنا بما ترون (بهدايا مماثلة)، ثم قال لي: قد عرفت أن حقاً على الملك إنجاد الملك على من غلبهم، فصف لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذي تصف منكم، فيما أسمع من كثرتكم، إلاّ بخير عندهم وشرّ فيكم، فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيوفون العهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلونكم. قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم. أو الجزية والمنعة أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قال: أطوع قوم لمرشدهم قال: ما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته؟ فقال : أيحرمون ما حّلل لهم و يحلّلون ما حرّم عليهم؟ قلت: لا. قال: هؤلاء قوم لا يهلكون أبداً».[٣] وكتب امبراطور الصين إلى يزدجرد يخبره «أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بحق علي، ولكن هؤلاء الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلي بينهم أزالوني ما داموا على ما وصف».[٤]

ولعل أول الوافدين من التجار – الرحالة العرب إلى الصين، الذين ذكرتهم المصادر العربية، هو تاجر عُماني، اسمه أبو عبيدة عبد الله، أقلع من عُمان إلى خانفو (كانتون) حوالي ١٣٣هـ – ٧٥٠م) واشترى من الصين بعض أخشاب الند.[٥] وروى بزرك حكاية (عبهرة الربان) الذي «سافر إلى الصين سبع مرات، ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلاّ من غرر (أي من جازف بالمخاطر)، ولم يسمع أن احداً سلكه وعاد قط... وما سمعت أن أحداً سلم في الذهاب والمجيء سواه».[٦] يُظهر هذا التعريف، أن عبهره من أوائل المتاجرين مباشرة مع الصين، من القرن الثاني الهجري،لهذا ساعد بعض المراكب على اجتياز بحر الصنخي إلى الصين،كما دوّن القاضي الرشيد بن الزبير (القرن الخامس الهجري) رسالة وجّهها ملك الصين إلى معاوية بن أبي سفيان، أرفقها بهدية كتاب في العلوم، ودعوة لإرسال مبعوث يعرّفه بالإسلام. وتعكس هذه الرسالة، إذا افترضنا أن كاتبها عربي، ودوّنها فيما بعد، جانباً من صورة الصين عند العرب، إذ تجمع بين إجلال مكانة السلطان والدولة الصينيين، والمكانة العلمية لأهل الصين، فقد جاء فيها "من ملك الأملاك الذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي بنيت داره بلبن الذهب، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران يسقيان العود والكافور، الذي يوجد ريحه من عشرين ميلاً.

إلى ملك العرب الذي يتعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

أما بعد، فإني قد أرسلت إليك هدية، وليست بهدية، ولكنها تحفة، فابعث إلي بما جاء نبيكم من حرام وحلال، وأبعث إلى من يبينه لي،[٧] لا يتوقف ابن الزبير عند تدوين الرسالة، بل يعلق، مبيناً تأثير هذه الهدية الثقافية على تطور العلم عند العرب، «وكانت الهدية كتاباً من سرائر علومهم، فيقال أن صار بعد ذلك إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها».[٨]

وليست المرة الوحيدة، التي تأتي فيها الدعوات لإرسال مبعوثين للخلفاء المسلمين لإرسال مبعوثين ليعلموا الدين الإسلامي للبلاد البعيدة، إذ أورد اليعقوبي، في تاريخه مجيء وفد من (التيبت) في الصين، في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز، إلى والي خراسان الجراح بن عبد الله المكي. يسألونه أن يبعث إليهم من يعرض عليهم الإسلام، فوجّه إليهم عبد الله الحنفي.[٩]

وذكرت التواريخ الصينية، أن سفيراً يدعى سليمان، أوفده الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٦ إلى

الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتنحى عنه لابنه سو تسينغ Suting (٧٥٦م)، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي المنصور، وأجابة الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش العربية، نجحت بمساعدته في استرجاع عاصمته سينغو Si-mqan-fu وهو ننفو Ho-nan-fu من أيدي الثوار، وفي نهاية الحرب، لم ترجع هذه القوات العربية إلى بلادها، بل تزوجت في الصين واستقرت فيها.(١٠) غير أن هذه الحادثة لا يرد ذكرها في المصادر العربية، وفي المقابل، فإن المصادر العربية تعرضت لاستيطان جاليات عربية أخرى في الصين. ولأسباب مختلفة، فنقرأ عند المروزي، عن لجوء جالية عربية (من الطالبيين الهاربين من السلطة الأموية) إلى أطراف الصين الجنوبية، في جزيرة ملاصقة لإحدى مرافيْ الصين، يقومون بدور الوسيط التجاري، وأحياناً الترجمان بين أهل البلاد والغرباء القادمين إلى الصين، أو كما يقول المروزي «هم سفراء بين أهل الصين وبين من يفد عليهم من القوافل والتجار، أما عن سبب استقرارهم في أطراف الصين، فيقول» فما رأوا جدّ بني أمية في طلبهم وإبادتهم، خلصوا نجياً وتوجهوا نحو المشرق.. فانحازوا إلى الصين... ولما علم صاحب الصين أن ليس وراءهم غائلة، وأنهم مضطرون إلى التمسك بجانبه، أقرهم في ذلك الموضع... فسكنوا آمنين».(١١) وروى ياقوت عن أبي دلف أنه في الأخير من رحلته إلى الصين، عن طريق البر، وكان موفداً من سلطان خراسان نصر بن أحمد الساماني، في القرن العاشر ميلادي، صادف أناس في هضبة التيبت، ما اعتقد أنها من بقايا قبائل يمنية أتت مع حملة (تبع) في بلاد الصين،فعندما انتهى إلى «موضع يقال له (القليب) فيه بوادي عرب من تخلّف عن تبع لما غزا بلاد الصين، لها مصايف ومشات في مياه ورمال، يتكلمون بالعربية القديمة، لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام، وملكهم من أهل بيت منهم.. ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شراب جيد من التمر، وملكهم يهادي ملك الصين»(١٢)

وروى الجاحظ عن الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمر، أنه رأى في ديوان معاوية بن أبي سفيان، بعد وفاته، كتاباً من ملك الصين جاء فيه «من ملك الصين الذي على مربطه ألف فيل، وبنيت داره بلبن الذهب، والفضة، والذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي له نهران يسقيان الألوة (العود الذي يتبخر) إلى معاوية»(١٣) وفي هذا النص، يظهر فيه مميزات الصين، وما تشتهر به، ويبرز قوة هذا البلد وغناه.

ولعل أبرز اللقاءت السياسية، التي حملت في سرديتها العربية صورة اللقاء الحضاري، وحوار مدنيتين، بقدر ما حملت معاني التحدي، وصراع الغلبة، هي تلك التي جرت في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ – ٧١٥م) عندما عبر قائد جيشه قتيبة بن مسلم نهر جيحون، منطلقاً من خراسان، واخضع على التوالي بخارى وسمرقند، ومدناً أخرى، ومضى قدماً في فتوحاته فدخل بارقند، وختن دون مقاومة، واستولى على كاشغرد وهي أدنى بلاد الصين، ثم وصل إلى طرخان متوغلاً في اطراف الصين، وذلك في سنة ٩٦هـ – ٧١٥م، فأدرك إمبراطور الصين، وكان حينئذ وانغ جونغ (Yuang chung) المخاطر القادمة، فكتب ملك الصين إلى قتيبة، كما روى الطبري، وابن الأثير، وغيرهما «إن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم» فانتخب قتيبة من عساكره إثني عشر رجلاً، لهم «جمال والسنّ وشعور وبأس» تحت قيادة (هبيرة بن المشمرج الكلابي)، وقال لهم «لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فاعلموه: أني قد حلفت ألاّ أنصرف حتى أطأ بلادهم. واختم ملوكهم، وأجبي خراجهم»، فلما وصلوا، أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها غلائل،وتدخنوا(أي تبخروا)،ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه، وكان عنده عظماء مملكته، فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه، فنهضوا وانصرفوا، فقال الملك لمجلسه «كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوماً ما هم إلاّ نساء، ما بقي أحد، حين رآهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ما عنده» فلما كان الغد، أرسل إليهم مجدداً، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه «فلما دخلوا عليه، قيل لهم: أرجعوا، فقال ملك الصين لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا له» هذه الهيئة شبه بهيئة الرجال من تلك

الأولى «وأرسلوا إليهم في اليوم الثالث، فشدوا عليهم سلاحهم، ولبسوا البيض والمغامر، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكبوا القسي، وركبوا خيولهم، وغدوا» فنظر إليهم صاحب الصين فرأى «أمثال الجبال مقبلة» «فلما انصرفوا سأل أصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا ما رأينا مثل هؤلاء قط».(١٤)

فأرسل إليهم الملك: «إن ابعثوا لي زعيمكم وأفضلكم رجلاً، فبعثوا إليه هبيرة». فسأله ملك الصين «لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟» فأجابه هبيرة: «أما زيّنا الأول فلباسنا في أهالينا، وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني، فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزيّنا لعدونا، فإذا هاجنا هيّج وفزع كنا هكذا، قال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم»(١٥)

وهكذا ارتدت مقابلات العرب الثلاث، رمزية كثيفة، ففي الأولى، وهم في زي يستعملونه في وسطهم العائلي، ظهروا للصينين برقة النساء ووداعتهن، وفي هيئتهم الثانية، التي يظهرون فيها أمام أمرائهم، فكانوا أشبه بالرجال، وأما في هيئتهم في اليوم الثالث فظهروا في زي الحرب، فكانوا «امثال الجبال المقبلة».

أما في الفصل الحواري التالي ما بين ملك الصين وهبيرة، فيستعرض كل منهما مصادر قوته، لإرهاب الآخر، وتهديده، طلب الملك من هبيرة «انصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلاّ بعثت عليكم من يهلككم، فأجابه هبيرة:» كيف يكون قليل الأصحاب من (كان) أول خيله في بلادكم، وآخرها في منابت الزيتون (يقصد بلاد الشام)، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها ! أما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا رجالاً، إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه» فلما سمع الملك لغة التحدي هذه من هبيرة. اضطر للمساومة، فسأله: «ما الذي يُرضي صاحبك؟» فبيّن له هبيرة «إنه حلف ألاّ ننصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطى الجزية»، فتوصل الملك إلى مخرج يجنبه مخاطر المواجهة مع قتيبة، ويحفظ لقتيبة طلباته، مُظهراً كل مظاهر الرضوخ، إذ قال: «فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه جزية يرضاها» فأرسل الملك إلى قتيبة «بصحائف من ذهب فيها تراب من أرض الصين) وحرير وذهب، وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم».(١٦)

لعل أقدم الرحلات إلى الصين، التي حملت معها سجالاً حول موقع الحضارات، وأغنت المكتبة العربية بمعرفة الآخر: الصيني، هي رحلة الملاح والتاجر (سليمان التاجر)، الذي يخلف وراءه معلومات موثوقة عن الصين مرفقة بتقييمه وأحكامه عن أنماط السلوك الاجتماعي – الثقافي، ومقاربات (صريحة) عامة وواسعة ما بين الحضارة الصينية، وثقافتها، وبين أمثالها في الهند، ومقاربات أخرى ضمنية مع ما يقابلها في (ديار الإسلام)، بالإضافة إلى ما نقله عن مشاهداته في بلاد الصين، وعن أهلها، في رحلاته العديدة إليها في منتصف القرن التاسع الميلادي، وعلى التقريب في عام ٨٥١م، وأن ما يهّمنا هنا هو الجانب (الحواري) من هذه الرحلة، تلك التي اختزنتها مقابلة (وهب بن الأسود القرشي)، لامبراطور الصين، والتي حكاها سليمان التاجر، ودونها فيما بعد عنه أبو زيد السيرافي، ونجد وقائعها أيضاً عند المسعودي، الذي سمعها من السيرافي، عندما قابله في سيراف. أما النقطة الأخرى التي تهمنا هنا فهي ملاحظاته العامة عن الحضارة الصينية في سياق مقارنتها بالحضارة الهندية، وسنترك معطيات رحلة السيرافي الأخرى إلى سياق البحث.

تختزن رحلة القرشي ومقابلته لإمبراطور الصين، كثافه من الرموز والدلالات، فكل حادث أو جملة حوارية فيها على مغزى يتعلق بحوار الحضارات، والتفاضل فيما بينها، لقد رحل القرشي من البصرة بعد ثورة الزنج، واجتاز البحور حتى وصل ميناء (خانفو)، وكانت خمدان، التي ذكرها المسعودي والإدريسي، وابن سعيد المغربي، وأطلق عليها ابن بطوطة اسم (الزيتون)، عاصمة الصين في القرن التاسع الميلادي، ولعلها سينانفو حالياً Sinanfo، والتمس القرشي مقابلة الملك في خمدان، ومما له مغزاه، أنه ادعى «أنه من أهل بيت نبوة

العرب»، فاهتم الملك بأمره، لهذا السبب، فاستضافه في إحدى المساكن، لكن قبل أن يسمح بمقابلته، أمر عامله في خانفو التقصي عن صحة نسبه إلى النبي، من التجار العرب المقيمين في المدينة، «فكتب صاحب خانفو بصحة نسبه، فأذن له، ووصله بمال واسع».[١٧] وهذا يعكس تصور العرب بأن نبيهم له مكانته الرفيعة في نظر أباطرة الصين ورعيتهم. ولقد تأكدت للقرشي هذه الحقيقة فضلاً عن تقديرهم لمكانه ملوك العرب لديهم، عندما قابل الملك، ففي هذه المقابلة، سأله الملك: «عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم، فأجابه» بالله جل ذكره، وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله»، فسأله مرة أخرى: «فما منزلة سائر الملوك عندكم»، فأجاب القرشي: «مالي علم بذلك»، عندها قال له الملك رافعاً من مكانة العرب إلى مصاف الأمة الأولى بين الأمم في علو المكانة، وباعتراف ملوك العالم بذلك، بينما وضع الصين وملكها في المرتبة الثانية، ووضع لكل أمة خصائصها وفضائلها المميزة، وجاء في قوله: «إنا نعد الملوك خمسة، فأوسعهم ملكاً الذي بملك العراق، لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا عندنا ملك الناس، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منه ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا، وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتمَّ خلقاً من رجاله ولا أحسن وجوها، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم».[١٨]

وهكذا. فإذا كان ملك العراق يتميز بأنه،وأن ملكه يقع في وسط الدنيا أوسع ملكاَ،فإن ملك الصين يتميز حكمه بدقّة النظام الذي يسوس به رعيته، وملك الترك بالشجاعة، وملك الهند لامتلاكه الفيلة، وأيضاً لأن ملكه منبع الحكمة، وملك الروم لتميز شعبه بتمام الخلقة والجمال، فجعل المؤلف العربي ملك الصين نفسه يعترف بتفوق العرب، دون أن يغمط الأمم الأخرى ما تتسم به من فضائل، وقد ذكر السيرافي في موقع آخر من مذكراته، «لأن أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة، فأول من يعدون من الأربعة: ملك العرب، وهو عندهم إجماع... أنه ملك أعظم الملوك، وأكثرهم مالاً، وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير (يقصد هنا الإسلام) الذي ليس فوقه شيء، ثم يعدّ ملك الصين نفسه بعد ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهر (أي ملك الهند)»...[١٩]

وقدّم السيرافي سلسلة من المقارنات الثقافية ما بين الصين والهند، وهي خلاصة تجربته، ومشاهداته، هذا إذا نظرنا إلى الثقافة على أنها الأسلوب العام لحياة الجماعة، وتشمل كل ما يرتبط بالحياة الاجتماعية أو الفردية بالبيئة الاجتماعية، كالعادات والمعتقدات والطقوس والآداب، وجاء في هذه المقارنة «لأهل الهند قضاة يحكمون بينهم... وكذلك أهل الهند.. وأهل الصين والهند يزعمون أن البدّد (أي الأصنام) تكلمهم» والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله، ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى يموت. ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة، وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون.

والهند لا يأتون النساء في الحيض... والصين يأتونهن في الحيض.. وأهل الهند يستاكون، ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل، وليس يفعل ذلك أهل الصين، وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين... وبلاد الصين أعمر، وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر.

وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهو يزعمون أن الهند وضعوا لهم البدّد، وأنهم في أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ، ويختلفون في فروع دينهم.

الطب بالهند والفلاسفة، ولأهل الصين أيضاً الطب، أكثر طبهم الكي، ولهم علم بالنجوم، وذاك بالهند أكثر...

وبلاد الصين أنزه وأحسن، أكثر الهند لا مدائن بها، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواءً، لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهذا كثير في بلاد الهند...

وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة، والصين كلها عمارة، وأهل الصين أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب واللباس والدواب».[٢٠]

تجار وتجارة ومدن تجارية

لم تنحصر علاقات العرب بالصين على العلاقات السياسية، أو تبادل الرسائل، والرحلات، والمعارف، بل صاحب ذلك كله علاقات تجارية نامية، وما يرافقها من تبادل للمنافع وللتعارف، ولقد أدرك المصنفون العرب هذه الصلات، واتجاهاتها، وموضوعاتها، وأورد ابن خرداذبة، في معرض حديثه عن «مسلك التجار اليهود والراذانية» أن هؤلاء التجار يمضون في البر «إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدار الصيني، وغير ذلك... حتى يرجعون إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما (في مصر)، ثم يركبون في البحر الغربي (البحر المتوسط)، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها إلى الروم، وربما صاروا فيها إلى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك».[٢١]، وأورد بزرك رحلة تاجر يهودي، من دار الخلافة، إلى الصين، فدخل بلد اسمه (لوبين) وهو من مدن التيبت في الصين، وأنه سلك إليه بين جبال شاهقة، وأن وعورتها حتمت أن «يحمل المتاع إليه على الغنم،لأن صعود جباله مثل الدرج لايستطيعه إلاّ الغنم، فوجد في البلد «ملكاً كبيراً له قدر وجلالة عظيمة الشأن، فدخل إليه» وهو يجلس على سرير من ذهب مرصع بالياقوت »وعليه حلي مثل النساء، وزوجته إلى جانبه عليها أكثر مما هو عليه، وفي رقبته أطواق من ذهب وزبرجد... وعلى رأسه نحو من خمسمائة جارية» فقال له الملك «يا عربي هل رأيت أحسن من هذا – يعني طوقاً مرصعاً من أطواقه»، فقال له، نعم «معي واحدة اشتريتها بمال عظيم»، ولما عرض عليهما الطوق الذي يحمله، ورأه الملك «سجد من ساعته لها، وسجدت امرأته». ووهبا لها مكافأة «لها قدر عظيم».[٢٢]،وذلك لأن ملوك الصين، كما يقول بزرك مولعون بالجواهر.

ولا يُخفى على المسعودي وعورة الطريق البري إلى الصين، فهناك أنهار عظيمة للصين «تجري من بلاد الترك والتيبت والصغد، وهي بين بخارى وسمرقند، وهناك جبال النوشادر»، منها يحمل النشادر، إلا أن هذه الجبال خطرة في الصيف، لاحتمال أن تشتعل النوشادر من فوق الحرارة، إلاّ أنها في الشتاء تبدو سالمة، فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين، عليه أن يسلك واد بين تلك الجبال، طوله أربعون ميلاً أو خمسون، فيأتي إليه أناس هناك، على فم الوادي، "فيرغبّهم في الأجر النفيسة فيحملون ما معه على أكتافهم... حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادي". لأن الحيوانات لا تستطيع المرور هناك، والمسافة من "بلاد خراسان على الموضع الذي ذكرناه إلى بلاد الصين نحو أربعين يوماً".[٢٣] غير أن المسعودي ينبهنا إلى، وجود طرق أخرى، للتجارة مع الصين تمر في بلاد الأتراك، وهي "مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر، إلاّ أن ذلك في خفارات أنواع من الترك".[٢٤] ويخبرنا أيضاً أنه رأى "بمدينة بلخ شيخاً جميلاً، ذا رأي وفهم، وقد دخل الصين مراراً كثيرة، ولم يركب البحر قط، ورأيت عدداً من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النشادر إلى أرض التيبت والصين".[٢٥]

أما المروزي، فدلنا على طريق تجاري آخر ينطلق من كاشغر، "فالقاصد نحوهم (نحو الصين) للتجارة أو غيرها يسلك من كاشغر إلى باركند في أربعة أيام، ومنها إلى خُتن في أحد عشر يوماً، ومنها إلى كروبا في خمسة أيام، ومنها إلى ساجو في خمسين يوماً، ومن هناك تفترق الطرق إلى الصين".[٢٦]

و فصّل الإدريسي معالم هذا الطريق، متوقفاً عند كاشغر كمحطة كبرى للتجارة مع الصين، ليقول له:

"ومدينة كاشغر من بلاد الصين، وهي مدينة عامرة كثيرة الخيرات،مشتملة البركات، فيها متاجر وبضائع،وأسفار وحركات.. ومن مدينة كاشغر إلى مدينة خيغون ثماني مراحل، ومدينة خيغون مدينة عامرة من مدن الصين والقاصد إليها كثير، وبها التجارات الكثيرة، وبأرضها توجد دواب المسك والزباد".[٢٧] وأشار اليعقوبي، وكان معاصراً لأبي زيد السيرافي، إلى هذا الطريق. مبيناً انه "من أراد الصين على البر، فإنه سار في نهر بلخ وقطع بلاد السند، وفرغانه والشاش والتيبت، حتى يصير إليها".[٢٨]

وكان للعرب دراية واسعة بخطوط التجارة البحرية مع الصين، ودونوا ذلك في مؤلفاتهم، وتناولوا هذه التجارة من جميع جوانبها، وسجل بعضهم وصول السفن الصينية إلى مرافئهم العربية حتى القرن التاسع الميلادي، وهو ما نجده عند السيرافي، وتبعه في ذلك ابن الفقيه، "أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان، وغيرها إلى سيراف، فيعبأ في السفن الصينية بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع معينة".[٢٩] وأشار المقدسي البشاري، إلى أن سيراف "كانت حينئذ دهليز الصين".[٣٠] كما نبه الإدريسي، وغيره، إلى أهمية عدن في هذه التجارة، وإلى السلع المستوردة من الصين، فيقول: "ومدينة عدن صغيرة، وإنما شهد ذكرها لأنها مرسى البحرين، ومنها تسافر مراكب السند والهند والصين، وإليها يجلب متاع الصين مثل: الحديد والفرند، والكيمخت (أي الحرير المشجر) والمسك، والعود، والسروج، والغضار، والفلفل والدار فلفل، والنارجيل، والهرنوة، والقاقلة، والدار صيني، والخولجان، والبسباسة، والإهليلجيات، والأبنوس، والذبل، والكافور، والجوزبوا، والقرنفل، والكبابة المتخذة من الحشيش، والثياب العظيمة المخملة، وأنياب الفيلة، والرصاص القلعي، وغيرها من القنا، والخيزران،وأكثر السلع التي تبحر بها إلى سائر البلاد".[٣١] وتطرّأ اليعقوبي في تاريخه، إلى الطريق البحرية التجارية التي تعبرها السفن الذاهبة والآيبة ما بين الموانئ العربية والصينية، فذكر أن للصين بلاداً واسعة، إذا أراد أحد السفر إلى الصين بحراً، يجب عليه أن يجاوز سبعة أبحر، يختلف كل واحد منها، في اللون والريح والأمواج، وغيرها من المخلوقات البحرية، وأول هذه البحار بحر فارس "يبحر فيه التاجر من سيراف وينتهي برأس الجمجمة، والثاني يقال له بحر لا روي، والثالث الهركند، حيث توجد جزائر سرنديب، والرابع بحر كلاه بار، الذي فيه أشجار الكافور، والخامس بحر شلاهط الذي فيه العجائب، والسادس كندرج، والسابع صنخي، ويقال له أيضاً كنجلى (وبحر صنخي حسب الجغرافية الصينية هو بحر تشان هاي الذي يلتقي ببحر آخر يقال له كنجلى)، ويقول اليعقوبي عن بحر صنخي أنه "بحر الصين، وإنما يسار فيه بريح الجنوب حتى يصيروا إلى بحر عذب عليها المسالح والعمران، حتى ينتهوا إلى مدينة خانقو".[٣٢] وتعقب ابن خرداذبة طريق التجارة البحري إلى الصين بدءاً من الفورما في مصر على البحر الأحمر (القلزم)، إلى جده "ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني، وغير ذلك".[٣٣] وكان العرب ينظرون إلى الصين كموطن للبضائع الكمالية الدقيقة الصنع، وقد علّق الثعالبي من نيسابور في القرن الحادي عشر ميلادي على ذلك بقوله: "إن العرب كانوا يسمون كل إناء دقيق أو غريب الصنع، وما شابه ذلك، بغض النظر عن مصدره الحقيقي: (الصيني)، لان الأشياء الدقيقة الصنع من اختصاص الصين"، ويتابع في ذكر خزفهم الدقيق والشفاف وحريرهم المنوع الألوان، وأقمشتهم المطرزة بخيوط الذهب – ومعاطفهم المحمية من المطر، بواسطة الشمع، ومناديل المائدة المصنوعة من الحرير الصخري ومراياهم المصنوعة من الفولاذ وكانت هذه المنتجات تصل العرب بواسطة الطريق البحري.[٣٤]

وكانوا أيضاً على معرفة بالمرافئ الصينية، وطريقة تعامل الصينيين مع القادمين من التجار العرب، وتطرأ ابن خرداذبة إلى هذا الموضوع، مع تقدير المسافات التي تفصل بين المدن الصينية الساحلية، والسلع التي تشتريها، فذكر أن "لوقين هي أول مرافئ الصين، مائة فرسخ في البر، فذكر أن من الصنف (أو صنخي)، "إلى

لوقين (تونكين Tonken) هي أول مرافئ الصين، مائة فرسخ في البر والبحر، وفيها الحجر الصيني، والحرير الصيني، والغضار الجيد الصيني، وبها أرز، ومن لوقين إلى خانفو، وهي المرفأ الأكبر مسيرة أربعة أيام في البحر، ومسيرة عشرين يوماً في البر، وفيها الفواكه كلها والبقول والحنطة والشعير والأرز، وقصب السكر، ومن خانفو إلى خنجو (Hangochow) مسيرة ثمانية أيام، وفيها مثل مافي خانفو، ومن خانجو إلى قانطو مسيرة عشرين يوماً، وفيها مثل ذلك، ولكل مرقى من مراقي الصين نهر عظيم تدخله السفن".[٣٥] وأشار المروزي أيضاً إلى أن "الطريق إلى الصين من جانب البحر، فأول مرفأ من البحر إليه يقال له لوقير ثم مدينة خانقو، وهي أعظم من لوقير وهو مرفأ عظيم، وبها نهر ماء عذب كبير يخترق البلد، وعليه جسور وعلى جانبيه أسواق التجار الغرباء، وعلى جانبه الآخر أسواق أهل المدينة، وأكثر من يقصدهم من التجار الفرس والعرب، والفرس يركبون المراكب إليهم من سيراف والعرب من البصرة".[٣٦] وعلمنا من المروزي، على الطريقة التي تدير فيها سلطة المدينة العلاقة مع التجار وطريقة تعاملهم مع العرب المسلمين خاصة، ففي هذه المدينة محصل الضرائب مندوباً عن ملك الصين، "يجمع أمتعة التجار، ويأخذ منهم العشر"، ولا ينسى إطراء أخلاق أهل المدينة، فهم أصحاب "وفاء وأمانة وصدق لهجة"، وفي هذه المدينة تصنع "الغضائر الصينية والكواغد الحسنة (ورق حريري) التي يكون أحد وجهيها أبيض والوجه الآخر أصغر، والحرير الصيني الجيد، ولباس أهلهم الخفاتين".[٣٧] وتخضع المدينة لنظام ثابت، إذ ينصرف الناس إلى بيوتهم مساء "فإذا غربت الشمس قرع الطبل في الجانبين ينصرف كل فريق إلى مواضعهم، فمن وجد بعد ذلك من الفريقين في سوق غيره أدّب وغُرّم". والبضائع التي تستوردها من التجار، وأكثرها من بلاد العرب والهند "أنياب الفيل والفلفل، والزجاج والزعفران والفولاذ وخشب الطرفا والحور وجميع الفواكه اليابسة كالتمر والزبيب" وملكهم "يكرم التجار ولا يظلم أحداً ممن يرد ناحيته.. يأخذون من التجار الذين يردون هذه المدينة من جميع ما معهم من كل عشرة ثلاثة، ويكون نصفة لصاحب الجيش والنصف ينفذ إلى ملك الصين".[٣٨] ويخضع التجار القادمين في المراكب لنظام دقيق، إذ متى وصل المركب إليهم خرج إليه الأمناء والكتاب من أهل البلد، فيكتبون عدد ما في المركب من النساء والصبيان والعبيد، ثم يكتب اسم صاحب المركب، وأسماء الذين معه، ويثبتون جميع ما في المركب من الأمتعة، وكل من كان أنظف ثياباً وأحسن كان أكرمهم عندهم، وهو ما يشير على اعتنائهم بالنظافة، ويحرصون على ألاّ يقع "بخس وضرر بالبائع والمشتري".[٣٩] وأشار السيرافي من قبل، إلى أن هذه المدينة (خانفو) وهي مجمع التجار، وأن المسلمين فيها يحتكمون إلى قوانينهم فحسب، إذ فيها "رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك، وإذا كان في العيد صلي بالمسلمين، وخطب ودعا لسلطان المسلمين، وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً، وفي أحكامه وعمله بالحق، وبما في كتاب الله عز وجل".[٤٠]

إلا أن كتاب العرب سجلوا انقطاع الاتصال المباشر بين المراكب العربية التجارية إلى مرافئ الصين. كما خسرت الجاليات العربية مراكزها الكبرى في المدن الساحلية الهندية، ولا سيما في مدينة خانفو، ودوّن تلك الواقعة كلّ من السيرافي، والمسعودي، وأصبحت العلاقة بين التجارة الصينية والهندية تلتقي تبادلاتها في (كله)، وهي مدينة تقع كما بينوا ذلك في منتصف الطريق بين البلاد العربية والصين، فنقرأ عند المسعودي أن كله "هي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليه تنتهي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس والبحرين والأبلة والبصرة... ولما عدم العدل (ويقصد في الصين) وفسدت النيات، وكان من أمر الصين ما وصفناه التقى الفريقان في هذا النصف".[٤١]

علّل المسعودي والسيرافي هذ الإنقلاب الكبير في السياسة الصينية، في اضطراب الحكم، وذلك لاغتصاب ملك شرير الحكم في عام ٢٦٤هـ – ٨٧٨م، فكتب المسعودي: أن الأمور في الصين لم تزل "مستقيمة في العدل

حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام، وانقضت به الأحكام والشرائع... وهو أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدائن الصين يقال له بانشو، وكان شريراً يطلب الفتنة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر"، ومع الأيام، اشتد أمره، ونما ذكره، وقويت شوكته وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانفو، وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم، تدخل هذا النهر "سفن التجار الواردة من بلاد البصرة، وسيراف وعمان ومدن الهند، وجزائر الزابج، والصنف، وغيرها من الممالك، بالأمتعة" وفي هذه المدينة "خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، وغير ذلك من أهل الصين" فقصدها هذا العدو وحاصرها، وأتت جيوش الملك فهزمها، وافتتح مدينة خانفو عنوة، "فقتل من أهلها خلقاً لا يحصون كثرة، وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي ألف".[٤٢]

قضت هذه الحادثة – الكارثة على الجاليات العربية – الإسلامية في المدن الساحلية الصينية، وانقطعت من مفاعيلها الصلات المباشرة بين مرافئ الصين، والمرافئ العربية، فتحولت هذه التجارة إلى مرافئ الأرخبيل الأندونيسي، ولا سيما مرفأ (كله)، الذي هو في منتصف الطريق بين الصين وبلاد العرب، ولقد نوه الباحثون المعاصرون بهذه الأحداث ذاتها، فكتب آدم ميتز "وتؤيد التواريخ الصينية ما حكاه بحريو العرب من القضاء على المراكز والجاليات التجارية في الصين، ولا سيما في مدينة خانفو، حوالي سنة ٨٨٠م، ذلك أن شريراً في الصين كما يقول المسعودي، قضى على إسرة تنج، وأفسد أمور الصين، وفتح خانفو... وقتل من أهلها مائتي ألف من المسلمين ومن غيرهم، وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصين واختفت معالم التجارة البحرية من هناك".[٤٣] و كما أشار أحد الباحثين، في سياق تعرضه لذلك التحول الصيني، "ولكن حدث في ٢٦٦هـ – ٨٧٩م أن اندلعت ثورة في الصين بقيادة هوانج – شو، أعقبها تغير سياسة الصين تجاه التجار الأجانب، فأغلقت موانيها أمامهم، فلجأ معظمهم إلى شبه جزيرة الملايو".[٤٤]

غير ان المؤلفين العرب أشاروا، إلى أن هذه الحالة من الانقطاع لم تستمر، فعادت الامور إلى ماكانت عليه، فإن بزرك روى في القرن العاشر الميلادي، عن ذهاب تاجر اسمه (كاوان) من عُمان إلى المرافئ الصينية في العقد الثاني من القرن العاشر، وقابل ملك الصين (بغبور).[٤٥] كما دوّن المروزي، وهو من أبناء القرن الحادي عشر ميلادي، معلومات واسعة عن وجود مراكز تجارية عربية في خانفو، ووصول التجار العرب إليها، كما ورد معنا سابقاً.وهذا ما يتوافق مع الأبحاث المعاصرة، إذ كتب متز، "ان حكومة الصين بذلت في نهاية القرن العاشر (ميلادي) جهداً كبيراً لاجتذاب التجارة الأجنبية الآتية من البحر إلى الصين رأساً، وأرسلت بعثه تدعو التجار الأجانب... للحضور إلى الصين... وفي ذلك العصر وما جاء بعده تذكر روايات كثيرة عن تجار مسلمين زاروا بلاط إمبراطور الصين، واستقبلوا هناك استقبالاً مملوءاً بالمودة".[٤٦]

وسجل ابن بطوطة في رحلته إلى الصين. في القرن الرابع عشر، كثافة الوجود العربي والإسلامي في الصين، وعلى سواحلها، وازدهار التجارة العربية فيها، وكان قد وصل الصين وهي تحت حكم المغول، الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي، وفتحوا الطريق أمام المسلمين لدخول الصين والاستقرار فيها، وجاءت زيارة ابن بطوطة في هذه الفترة، وتجول في مدنها، فتحولت مذكراته إلى سجل حافل عن حياة المسلمين، ونشاطهم الكبير في حياة المدن الصينية.[٤٧]

وكانت أول مدينة وصل إليها ابن بطوطة، هي التي يسميها (الزيتون)، ويعتقد البعض أنها كانتون نفسها، وأن محقق كتاب ابن فضل الله العمري، يضعها بين مدينة أموي وفوتشينو، وثالث يعتقد أنها جوان شو Tch – Jung الحالية، ولعل الأرجح أنها مدينة كانتون، لأن مواصفاتها عند ابن بطوطة تشابه، ما يذكره الباحثون العرب الآخرون عن خانفو، أي كانتون، وصفها ابن بطوطة بأنها "مدينة عظيمة كبيرة، تصنع فيها ثياب الكمخا والاطلس، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، أو هو أعظمها"، وقد رأى فيها مائة (جنك) كبير، أي مركب كبير، ووجد من الجنك

الصغيرة ما لا يحصى،ومرفؤها، "خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر العظيم"، وما يهم هنا أنه رأى فيها "المسلمين ساكنين بمدينة على حدة"، وتعرّف على قاضي المسلمين فيها، وكبار التجار، وإذا قدم التجار المسلمون إليها "فرحوا أشد الفرح، وقالوا: جاء في أرض الإسلام" فلا يشعر المسلم الغريب بالغربة.[٤٨]

وانتقل إلى ما سماه مدينة (صين الصين) ويعتقد أنها مدينة (مهاجين) الحالية، ومعناها الصين الكبرى، وهي حسب محقق كتاب الجغرافيا، لابن سعيد المغربي هي (عاصمة منزي في ولاية فوكين الحالية، فرأى فيها جالية عربية ومسلمة،[٤٩] وعندما انتقل إلى مدينة أخرى سمّاها (الخنسا)، التي يعتقد أنها هانج جو الحالية، قال عنها "أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام"، وهي مقسمة إلى (ستة مدن) الأولى يسكنه حراس المدينة وأميرهم، و الثانية يسكنها "اليهود والنصارى والترك وعبدة الشمس"، والثالثة، يسكنها المسلمون "ومدينتهم حسنة، وأسواقها مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون،... ولها زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة، وبها طائفة الصوفية... وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير".[٥٠] وهو وصف لمدينة إسلامية في اكتمال مواصفاتها، وهو ما يعبر عن الحرية التي يتمتع بها المسلمون بهذه المدينة، وبالصين عموماً، فيتنقل التجار العرب والمسلمون بهذه البيئة الاجتماعية المرحّبة بهم بكل أمان وحرية.

وترك ابن بطوطة في مذكراته، وصفاً شاملاً لسفن الصين ومراكبهم، وطريقة صنعهم لها، فهناك ثلاثة أصناف لمراكب الصين: الكبار منها تسمى (الجنك)، والمتوسطة تسمى (الزو)، والصغار يسمى مفردها (الككم)، ويحتوي المركب الكبير من ثلاثة قلوع إلى اثني عشر قلعاً، وتصنع قلوعه من الخيزران منسوجة بالحصر، ويخدم المركب ألف رجل فما دون، منهم البحرية ستمائة، والمقاتلة أربعمائة، وفيها الرماة، وأصحاب الدرق الذين يرمون بالنفط، ولا تُصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون، أو بصين صينية، أو صين كلان، ويعتمدون في إنشاء المركب على صنع حائطين من الخشب ضخمين جداً، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسمار منها ثلاثة أذرع، فإذا التأم الحائطان الخشبيان، صنعوا على أعلاها فرش المركب، وعلى جوانب ذلك الخشب توضع المجاديف، وهي كبار كالصواري. يجدف واحدها العشرة إلى الخمسة عشر رجلاً. ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب. ويعاملون وكيل المركب كأنه أمير كبير، تحف به عند نزوله الرماة والحبشان بالحراب والسيوف والأطبال والاطباق. [٥١]

الأصول السلالية

اهتم العرب بترتيب أنسابهم، وأصولهم السلالية، وشكل هذا "النموذج" أحد الأعمدة التي قام عليها تأليفهم التاريخي فيما بعد، وإن لم يحظ بنفس الأهمية عند الجميع، إلاّ أنهم اتفقوا على أن الشعوب برمتها انحدرت من أب واحد: آدم، وأم واحدة: حواء، ثم تفرعوا، أما الحلقة الأخرى لتفرعهم، فهي حلقة نوح الذي انجب: سام وحام ويافث. فكانوا أجداداً للبشرية جمعاء، وأرجعوا شعوب الأرض إلى هؤلاء الثلاثة، كما أن الأرض توزعت بين أولادهم أيضاً، روى ابن الكلبي أن الصين سميّت صين: وذلك لأن "صين وبغر ابنا بغبر بن كماد بن يافث"، وروى الحموي أيضاً عن أبي القاسم الزجاجي أنها "سميت بذلك لأن صين بن بغير بن كماد أول من حلّها وسكنها".[٥٢]

وأرجع البعض إلى فالغ بن عابر بن شامخ بن أرفخشند بن سام بن نوح توزيع المعمورة بين أولاد عمومته، فأشار اليعقوبي إلى أنه "قسم الأرض لهم فصار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والتبت والبلغر والديلم وما والى خراسان. ولولد حام المغرب وما وراء الفرات إلى مسقط الشمس، ولولد سام الحجاز واليمن وباقي الأرض".[٥٣]

وكتب في مكان آخر أن أول ملوك الصين "صاين بن باعور بن يرج بن عامود بن يافث بن نوح بن لمك، فإنه... عمل فلكاً حاكى به فلك نوح فركب فيه، ومعه جماعة من ولده وأهله، حتى قطع البحر فصار إلى موضع استحسنه وأقام به، فسمى ذلك الموضع الصين باسمه".[٥٤] وأكّد الدمشقي على الحقيقة ذاتها، بقوله:"أما الصين، فزعم أن فالغ لما قسّم الأرض بين ولد نوح أعطى لبني يافث الشرق، فعمل لبني يافث سفينة فركب فيه بولده فقطع البحر الشرقي، فنزل بولده في تلك الأرض، فبنوا المدن والآثار والمعادن وأجروا الأنهار وغرسوا الأشجار، ثم هلك وملك من بعده ولده صابور وهو أبو الصين".[٥٥] وأشار المسعودي إلى التباس، واختلاف الرأي، اللذين يحيطان معرفة أصول الصين،فبين"قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم: فذكر كثير منهم أن ولد عابور بن سويبل بن يافث، لما قسّم فالغ بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح ساروا مسيرة في الشرق، فسار قوم منهم من ولد أرعوا على سمت الشمال... وعبر ولد عابور نهر بلخ، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار".[٥٦] وقارن المسعودي بين التركيب الاجتماعي لأهل الصين، العرب، فوجد شيئاً من الشبه بينهما "فأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها، وتشعبها في أنسابهم، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أباً إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك وأقل"[٥٧] فمنهم في البوادي وسكان الجبال، ومنهم الحضر في المدن، "فمنهم الجيل، وهم سكان جيلان، والأشروشة والصفد، وهم بين بخارى وسمرقند، ثم الفراغنة وأشاش واستيجاب واهل بلاد الفاراب، فبنوا المدن والضياع وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي".[٥٨]

مظاهر تفوق الصين في العمران

هيمن جانب الإعجاب، والتبجيل على نظرة العرب نحو المدنية الصينية، وأبرزت تلك النظرة تفوق الصينيين في مجالات شتى، ولا سيما في تقنياتها الدقيقة، وصناعتها، وزخرفها وتصويرها، وفي ألبستها الحريرية الرائعة الإتقان، وثرائها،وفي النظام المدني الدقيق الذي يكتنف حياة سكانها، وفي تقسيم مدنها، وترتيبها لعلاقتها مع الغريب، والتاجر العابر للبلاد، هذا إذا لم نتحدث عن إعجابهم بطريقة إدارة سلطانها، وملوكها للحكم ولأحوال الرعية، الذي سنتطرأ إليه لاحقاً.

فذهبت شهادة سليمان التاجر إلى حد القول إن "أهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة، وكل عمل لا يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم".[٥٩] وترتبط شهادة الكفاءة، والتفوق بتقدير من الملك نفسه، فالرجل الذي يجد في نفسه التفوق في صناعة ما، ويجد أن غيره يعجز عن مجاراته يقصد الملك "يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمره الملك بأن يقف على بابه سنة كاملة، "فإن لم يُخرج أحد فيه (في صنعته) عيباً جازاه وأدخله في حملة صُنّاعه، وإن أُخرج فيه عيب أطرحه ولم يُجازه".[٦٠] ونوه الثعالبي بهذا التفوق الصيني الصارخ، إذ "كانت العرب تقول لكل طرفة من الأواني، وما أشبهها: صينية، كائنة ما كانت، لاختصاص الصين بالطرائف، وقد بقي هذا الاسم إلى الآن على الصواني المعروفة، وأهل الصين قديماً وحديثاً مخصوصة بصناعة اليد، والحذق في عمل الطُرف والملح، يقولون: أهل الدنيا ما عدانا عُمى، إلا أهل بابل فإنهم عور".[٦١] ولهم كما يقول القزويني "يد باسطة في الصناعات الدقيقة، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم".[٦٢] وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات ولا سيما التصوير".[٦٣]

وقد أجمل الثعالبي في نص معبر، عن أبرز المجالات التقنية التي أبدع بها الصينيون، "ولهم الإغراب في خرط التماثيل، والإبداع في عمل النقوش والتصاوير حتى أن مصورهم يصور الإنسان، ولا يغادر (أي لا يترك له

شيئاً) إلاّ الروح، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت، وضحك الخجل، وبين المبتسم والمستغرب، وبين ضحك الهازئ، فيركّب في صورة، وصورة في صورة".[٦٤] إذ أثار العرب إتقان الصينيين لفن الرسم والنحت والتصوير، وأبهرهم، فإن رجلاً منهم، حسب سليمان التاجر، "صور سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير، لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة وأن عصفوراً عليها".[٦٥]

وأصاب ابن بطوطة العجب والدهشة، عندما لمس دقة رسومات فناني الصين، "فأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه، من الروم ولا من سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً، ومن عجيب ما شاهدته لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت منها، إلاّ ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد (ورق حرير)، موضوعة في الأسواق".[٦٦] فكان حديثه عن فنون الصين، حلقة متميزة عن إعجاب العرب في مختلف العصور بفنون الصين التشكيلية.

وأثارتهم أيضاً صناعة الخزف الصينية، وعبروا عن ذلك بإعجاب "ولهم الغضائر المستشفة – حسب الثعالبي –، يطبخ فيها البطيخ، فيكون الواحد منها قدراً مرة، ومقلى تارة، وقصعة أخرى، وخيرها المشمشي الرقيق الصافي الشديد الطنين، ثم الزبدي على هذا الوصف، ولهم الفرند (الحرير الملون من الثياب) الفائق، والحرير المدفون، الذي تخفى فيه الصور (وتظهر) ويقال له: الكمخا (الحرير الموشى أو المشجر). ولهم المماطر (واقي من المطر) المشمعة التي لا تبتل على الأمطار الكثيرة، ولهم مناديل الغمر (التي يتلقى فيها الآكل دسم الطعام)، التي إذا اتسخت القيت في النار فنقيت، ولم يحترق منها شيء، ولهم الحديد المصنوع يعمل منه المرائي والتعاويذ وغيرها، ولهم السنجاب الفارماني الذي هو من أنفس الآبار، ولهم اللبود التي تُفضل على اللبود المغربية".[٦٧] وتحدث ابن بطوطة، أيضاً، عن صناعة الخزف (الغضار) وشاهد طريقة صنعه بمدينة الزيتون فأشار إلى أن الفخار الصيني، لا يصنع منه إلاّ بمدينة الزيتون وبصين كلان، وهو من تراب جبال هناك. ويضيفون إليه حجارة من عندهم، توقد فيه النار ثلاثة أيام، ثم يصبّون الماء، فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه، فالجيد منه ما خمر شهراً كاملاً"[٦٨]

كما أن المقريزي لم يفته الحديث عن عظمة أهل الصين في صناعة (التكفيت)، أي تطعيم المعادن بالذهب والفضة، عند حديثه عن سوق الكفتيين بمصر. وكذلك الكداهي، أي الأواني الفضية، المصدرة من الصين[٦٩]

كما أطنبوا في صناعة الحرير الصينية، وفي نسجهم له، وفي خياطتهم لثياب الحرير، روى بزرك عن تاجر اسمه (كاوان) زار الصين وقابل ملكها (البغبور)، فأدخله الملك إلى بستان بخانفو رأى فيه النرجس والمنثور وشقائق النعمان، والأنوار (زهر أبيض) فعجب كاوان "من اجتماع الأنوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد"، ولم يخطر لبال كاوان أن مايراه زهور مصنوعة من نسج الحرير، فسأله الملك (وكيف ترى) فأجابه كاوان "ما رأيت حسنة، إلاّ وهذا أحسن)، فأخبره الملك عندئذ أن "جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير" فلمسه كاوان وتقراه بيده، فتأكد أن "الورق والأنوار من الحرير، فقد عُمل وضُفر وحُبك ونُسج وسوّي، ومن رآه لم يشك فيه أنه شجر ونور".[٧٠] وهو ما يُظهر براعة الصين في نسج الحرير، وصناعته، كما روى سليمان التاجر، في هذا السياق، عن تاجر (لايشك في خبره)، أنه عندما كان في خانفو للتجارة، قابل (خصي) الملك، الذي أنفذه سيده "ليتخير ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب" فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب الحرير، فعجب الرجل من خال يشف من تحت هذه الثياب"، وكانت مفاجأته ودهشته أكبر، عندما أظهر له الخصي، أنه يلبس" خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها".[٧١] وشهد ابن بطوطة على ضلوع الصين في صناعة الحرير، وتربية دودة القز.[٧٢] وأن تفوقهم في الصناعة أهّل بعض صناعهم، كما يقول ابن فضل العمري،

على صنع سرج من أختاء البقر، وأبدعوا في صنعه، لدرجة أن الخان نفسه أعجبه، كما عمل بعضهم الآخر "ثياباً من ورق، وباعها إلى التجار على أنها من الكمخا".(٧٣) واعترف لهم المصنفون العرب في إتقانهم لعلوم الطب وممارستها، فإذا كانت الهند تشتهر بطبّها وفلسفتها فإن "لأهل الصين أيضاً طب، وأكثر طبهم الكي، ولهم علم بالنجوم".(٧٤) ولمّا سأل ابن فضل العمري للشريف السمرقندي الضليع بمعرفة الصين: عن أهل الصين وما يُحكى عنهم من رزانة العقل، وإتقان الأعمال"، أجابه السمرقندي: "هم أكثر ما يقال"، واتاه بمثل عن براعتهم في الطب، أن صديقة العلامة أبا ثناء الأصفهاني، كان يشكو من ألم ضرسه، فاستدعى أصدقاؤه الصينيون "شخصاً حطاباً"، أخرج له درسين من فمه دون أن يشعر بالألم، ثم "لم يزل يقيس مواضع ما قلع حتى وضع موضعهما" ضرسين بديلين". "ثم ذرّ عليهما ذروراً، ودهنهما بدهن، التأمتا به لوقتها".(٧٥) ولم يغفلوا عن تفوق الصين في الطبخ، فحكوا عنهم، أن في مدنهم "مطابخ (مطاعم) يطبخ فيها الأطعمة الفائقة والمشروب اللذيذ مما لا يوصف حسنه" لدرجة أنه يمكن أن يُقدم إلى الملوك، وقد اعتاد الأكابر منهم على الطلب من هذه المطابخ وجبات للطعام، فيطبخون لهم "من بدائع المأكولات والمشروبات" وهذه المطابخ العامة، تُقدم في قاعاتها الطعام لزبائنها، إذ أُعدت لذلك مكان خاص " فيه ما يحتاج إليه من البسط والفرش والآلات والغلمان، على قدر ما حدّده له المضيف من القيمة".(٧٦) ومن عجيب ما شاهده ابن بطوطة في مدينة الخنسا، أن في أسواقها يصنعون أطباقاً "يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعه أبدع الصاق، ودهنت بصبغ أحمر مشرق، وتتكون هذه من عشرة أطباق: واحدها في جوف آخر لرقتها، تظهر لرائيها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطي جميعها، ويصنعون من هذا القصب صحافاً، ومن عجائبها أن تقع من العلو ولا تنكسر، ويجعل فيه الطعام الساخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول".(٧٧)

بالإضافة إلى تفوق الصين في التقنيات الصناعية، فإنه لا يقل عن ذلك تفوقها في استخراج المسك من الظباء على أرضها، ورغم "أن الأرض التي بها ظباء المسك الصيني والتيبت أرض واحدة لا فرق بينها... فإنما فضل المسك التيبتي على الصين بحالتين". أحداها لأن مرعى ظبي المسك في التيب "سنبل الطيب"، بينما رعيه في أرض الصين "سائر الحشائش"، وثانيها أن أهل التيبت تترك نوافج المسك في حالها بينما يغشّها أهل الصين، وأجود المسك كله ما حكّه الظبي والتصق على أحجار الجبال، وذلك أن المادة التي تصير في سرته وتجتمع دماً كاجتماع الدم في الدمامل، فإذا أدركه المسك وأضجره حك الظبي سرته على الحجارة فيسيل ما فيها ملتصقاً بالحجارة... فيخرج من التيبت رجال مخصّصون لجمع ما ترك على الحجارة، وأودعه النوافج، ثم يحملونه إلى ملوكهم. "وهو نهاية المسك إذا كان قد أُدرك في نوافجه على حيوانه وصار له فضل على غيره من المسك كفضل ما يدرك من الثمار في شجرة على سائر ما ينزع منه قبل إدراكه".(٧٨)

وكان للتيبت وقع أخاذ في وجدان الباحثين العرب، لاسيما لأجوائها الخلابة وطقسها الجميل ينسبونها تارة إلى الصين، ويضعونها في جوارها مرة أخرى، وينسبون أغلب أهلها إلى أهل اليمن، من حمير، وفيهم بعض التبابعة، وفيهم حضر وبدو، وبواديهم أتراك. (٧٩)

وفي هذه البلاد (التيبت) ما أثار العجب، فأجمع الباحثون العرب مع ما قرّره المسعودي حولها "ولبلاد التيبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبالها،. ولا يزال الإنسان أبداً ضاحكاً بها فرحاً مسروراً، ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها، وهي بلاد تقوي فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام، وفي أهلها رقّة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمعاقرة، وأنواع إيقاع الرقص، حتى أن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب".(٨٠)

وإلى جانب ذلك، فقد أثار انتباه العرب، إعجابهم، ما تمتع به الصينيون من مستوى تعليمي، ومن انتشار

واسع له، إذ إن "الفقير والغني من أهل الصين" والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة".[٨١] دون أن ننسى غنى الصين وثروتها الوارفة، ففي "أرض الصين الذهب الكثير، والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها، بها من الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر، وفي جزائرها أشجار الطيب كالقرنفل والدار صيني ونحوها".[٨٢]

هذا الغنى، فضلاً عن تقدم التعليم، والطب، والتنظيم، جعل من الصين بلداً يكاد يخلو من الأمراض "فمن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرى بها ذو عاهة كالأعمى والزمن ونحوهما".[٨٣]

نظام السلطة

لا تتوقف مظاهر الإعجاب عند مايتقنه الصينيون من صنائع، وتقنيات، وزخرفة وعلوم طبية وفلك، بل تعدت ذلك إلى مجالات أخرى، يمكن أن نختصرها بفكرة التنظيم، نظام السلطة وآليات عملها على أساس عقلاني، نظام الإدارة، نظام البريد، ونظام التجارة، والنظام النقدي، وفي تنظيم السجلات المدنية، وفي نظام المدن وتناسقها.

توقفوا طويلاً عند بناء السلطة والملك، ولم يخفوا إعجابهم بعظمة ملك الصين ومهابته، التي ترتكز، فضلاً عن الثروة الطائلة التي بين يديه، وأبهة الملك، وعن ثراء بلاده، فهناك ما يوازي ذلك، بل يزيده أهمية بنظرهم، فهناك النظام الدقيق الذي يدير فيه ملك الصين بلده، والذي يستند على العقل ومقتضياته، وأحياناً أخرى على مقتضيات العقل والشريعة المستقاة من دينهم، فيأتي الدين عندهم ليسند سلطة العقل، وهناك أيضاً العدل الوافر الذي يشمل الجميع، وتسنده قوة السلطان والتقليد الراسخ، وهناك ثالثاً العمران والمدنية، التي يسندها النظام أيضا، وهو ما يتجلى بتنظيم إدارة المدن وشوارعها، وبنائها، وإقرار العدل فيها، كل هذه المظاهر الراسخة، وآليات عملها رفعت من قدرة الصين وحضارتها في أعين باحثينا.

عرفّنا المسعودي والسيرافي على أن لقب ملك الصين الدائم هو (البغبور) ويعني (ابن السماء)، وعلى حد تعبيرهما "وهو الملك الأعظم وإنما سُمي البغبور ومعناه ابن السماء ونحن نسميه المغبون".[٨٤] بينما ذهب المسعودي إلى القول "والعامة تسميه يعبور، وتفسير ذلك ابن السماء، وهو الاسم الأخص لملوك الصين، والذي يُخاطبون به جميعاً".[٨٥] وعاصمة الملك خمدان ويقال أنها (Tch – tang) "فهذه قصبة الصين الأكبر، وبها البغبور الأكبر"[٨٦]، ومن هذه المدينة العظيمة كان ملك الصين يدير ملكه بنظام وعدل، فهو "ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة" كما مرّ معنا، وحاول المؤلفون العرب وفي مقدمتهم اليعقوبي والمسعودي والقلقشندي والنويري، تعقّب سلسلة ملوك الصين، ليبينوا في سياقها حلقات تقدم النظام والمدنية الصينيين، فإذا كان أول ملوكهم المؤسسين الكبار (صاير بن عامور)، [٨٧] فإن ملكهم الفعلي هو نسطرطاس، حسب المسعودي، الذي سقى الأنهار، وقتل السباع،و غرس الأشجار وأطعم الثمار"، ثم أتى بعده (عيثدون)، الذي "أحسن السياسة للرعية، وسوّاهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل، فكثر النسل وخصبت الأرض".[٨٨] وملك بعده (حراتان) فأحدث الفلك، وحمل فيها الرجال، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائق والتحف والمآكل والمشرب والملبس، وان يعرفوا قوة سياسة كل أمة، وشريعتها ونهجها، فحملوا إليه ما ليس عندهم فاستقامت أمور مملكته. ولكن أهم الملوك الذين مرواً على الصين هو ابنه (الملك توتال)، الذي وضع قاعدة، زعم فيها "أن الملك لا يثبت إلاّ بالعدل، فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل[٨٩] ثم حصّن، وشرّف، وتوج، ورتب الناس في رتبهم، واهتدى هذا الملك العظيم إلى تدعيم سياسته القائمة على العقل، بشريعة تستند على ديانتهم ليمنحها صلابة، لذا "جمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه

ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوي النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليها الخلل، ودخول الفساد والزلل، فرتب لهم سياسة شرعية، وفرائض عقلية، وجعلها لهم رباطاً، ورتب لهم قصاصاً في الأنفس والأعضاء، ومستحلات ومناكح... فمنها لوازم موجبه يُحرجون من تركها، ومن نوافل يتنفلون بها".(٩٠) ولعلهم في هذا العرض لدور الشريعة في الحكم، كانوا يتمثلون التجربة الإسلامية. فقد أسس هذا الملك نظام الملك العادل في الصين، "فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذ االملك، أمورهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع".(٩١) وقد اعترض سير أمور الملك هذه، قيام شرير اسمه (بانشو) بالعصيان فعطل العدل والتجارات في القرن الثالث هجرية، كما مرّ معنا، ثم ما لبثت الأمور أن عادت إلى مجراها المألوف، وخلص النويري في عرضه إلى تقرير "وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلاّ أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل وسنن الحق، في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك".(٩٢)

فكان الحكم في الصين مثار إعجابهم، طالما أنه قائم على العدل الذي يحرسه العقل، وأحياناً الشرع والعقل معاً، وإن كان هذا الشرع لا يرتقي إلى مصاف الشرع الإسلامي الذي مصدره الوحي، فكان الرائج عند المفكرين العرب كما عبر عن ذلك ابن خلدون، أن هناك سياسة تقوم على العقل، وهي التي تراعي مصالح العباد في حياتهم الدنيا وحسب، وهي مقبولة ومرحب بها عندهم طالما تقوم على العدل والإنصاف، وإن لم ترتق إلى مصاف السياسة الشرعية التي مصدرها الإسلام، وهي السياسة التي تراعي مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهي تأمنت شروطها في زمن الخلافة الراشدية وحسب.

لذا فإن بعض المفكرين العرب المسلمين، وبسبب إعجابهم بالسياسة العقلية العادلة للصين، تمنوا أن تكون سياسة بلاده، وهي التي غدت تحت ملك عضوض، ناقص الشرعية، مثيلة لنظام الصين السياسي، وهو ما عبر عنه رجل مثل الغرناطي، فبعد أن قال: إن "ملوكهم أهل عدل وإنصاف... إذا مات بينهم غريب وله أحمال من الأموال، لا يتعرضون لتركته... ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام، ولا يؤخذ منهم عشور في بيع أو شراء، ولا مكس"، يخلص إلى التمني "يا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بهذه السياسة الحسنة، فهم كانوا أحق بها، ولكن ذلك لحكمة الله".(٩٣)

العدل أولاً، والتنظيم ثانياً، والحكمة ثالثاً، هي التي يتصف بها سلوك ملك الصين، تجاه رعيته وبلاده، حتى أن حرصه على العدل جعله، كما تحدث السيرافي، أن يتدخل إذا غلت الأسعار في السوق، إذ "أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلاء". وأن الملك وضع في كل مدينة جرس فوق رأسه، ممتد من قصره إلى الطريق العامة "فإذا حرك الخيط المدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كان له ظلامة (من الناس) حرك هذ الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك، فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه، ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك".(٩٤) وإذا أفلس رجل مدين للآخرين، حبسه الملك، فإذا تأكد من إفلاسه "دُعي الغرماء فأعطوا من مال البغبون".(٩٥)

أما عن ترتيب مواقع السلطة، فإذا كان السلطان على قمة هرم السلطة، ومحركها فإنه يعتمد إلى جانبه: الوزير، وقاضي القضاة، والخصي، وجنوده وخصيانه، ففي العاصمة خمدان تتركز السلطة الملكية وإدارتها العليا، فالمدينة مقسومة، حسب شهادة ابن وهب القرشي إلى قسمين "يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وجنوده وقاضي القضاة، وخصيان الملك وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه". ولا يخالطهم أحد من العامة، ولا فيه شيء من الأسواق، وفي الشق الأيسر "الرعية والتجارة والميرة والأسواق" وفي النهار يأتي قهارمة الملل أي وكلائه، وغلمان داره، وغلمان القواد ووكلائهم، ليأخذوا وظائفهم، وحوائجهم، ثم ينصرفون، فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلاّ في اليوم التالي، وإن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلاَّ النخل فإنه

معدوم".[٩٦]

وكان يتولى الإدارة المالية، نيابة عن الملك، وتحصيل الخراج، خصيان الملك، أعلمنا السيرافي عن "أمر الخدم... إنما هم ولاة الخراج وأبواب المال، فمنهم من سبي من الأطراف (أطراف الصين) فخصي، ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين، ويهديه إلى الملك تقرباً به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزائنه، ومن يتوجه إلى مدينة خانفو (الساحلية) التي عقد عليها تجار العرب هم الخدم" [٩٧] وأكد المسعودي على هذه الحقيقة، اعتماداً على شهادة تاجر خراساني، الذي ركب إلى خانفو، فوجد "أن أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم في الخراج وغيره من العمالات والمهمات" فقد استقبل التجار في مرسى خانفو خصي نيابة عن ملك المدينة، فعرض عليه التجار "ما احتاج إليه من المتاع وما يصلح له".[٩٨]

وروى هذا التاجر قصته، وما جرى له مع الخصي في خانفو، الذي زاد من "تثمين متاعه"، وبالتالي رفع الخراج المترتب عليه، وأمر بسجن الخراساني، فما كان من الأخير، الذي سمع عن عدل ملك الصين، إلاّ أن ذهب إليه في مقره، وشكاه أمره، فما كان من الملك إلا أن تحقق في حقيقة قضيته، فاستدعى "الوزير وصاحب الميمنة، وصاحب القلب، وصاحب الميسرة،.. فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم إلى صاحبه بالناحية، ولكل واحد منهم خليفة في كل ناحية". فلمّا تحقق من صدق الخراساني استدعى خادمه الخصي، فلما وقف بين يديه "سلبه ما كان أنعم به عليه، ثم قال له: عمدت إلى رجل تاجر، قد خرج من بلد شاسع، واجتاز بملوك في بر وبحر، فلم يتعرض له، يؤمل الوصول إلى مملكتي ثقة منه بعدلي، ففعلت به ما فعلت، أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك"، فعاقبه الملك بتوليته مقابر الموتى، طالما انه لم يستطع رعاية الأحياء. وهذه القصة من الأمثلة التي يعرضها المؤلفون العرب عن عدالة ملك الصين وحكمته.[٩٩]

ويعتمد الملك في اتصالاته، بأطراف بلده، ببريد منظم غاية التنظيم، (وذلك أن ملوك الصين لها في سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مُسرجة محذوة الآلات للأخبار".[١٠٠] وهذه الطرق آمنة مثلها في ذلك مثل عموم الصين، إذ اعترف ابن بطوطة أن (بلاد الصين آمن البلاد وأحسنها للمسافرين،فإن الإنسان يسافر تسعة شهور، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف".[١٠١]

ويتوفر للمسافة إضافة إلى الأمان الراحة في كل مكان، (فالفنادق) منتشرة في شتى الأرجاء، ولا سيما في المدن، والإدارة منظمة بطريقة دقيقة، فإذا جاء المساء أتى الحاكم "إلى الفندق ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم فإذا كان الصباح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه"[١٠٢] مدققاً بغيابهم وحضورهم.

ويبلغ حرص الإدارة الصينية إلى درجة أنها ترتّب (سجلات مدنية) لإحصاء مواطنيها، كما أنها تدقق سجّلات أسماء المسافرين والتجار القادمين إليها، فإذا قدم التاجر المسلم، كما يشير إلى ذلك ابن بطوطة، على بلد من بلاد الصين، خيّر بين النزول عند تاجر من المسلمين المستوطنين، أو في الفندق، فإذا نزل عند تاجر (حصى ماله، وضمنه التاجر المستوطن)، وإذا أراد السفر، أحصى ماله، فإذا وجد شيئاً منه قد ضاع، يغرّم المستوطن به، أما إذا نزل الفندق "سلّم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه".[١٠٣] وسجّل المروزي، أن المراكب التجارية عند وصولها باب مدينة خانقو، يخرج إليها "الأمناء والكتاب من أهل البلد، فيكتبون عدد ما في المركب من الرجال والنساء والصبيان والعبيد، ثم يكتبون اسم صاحب هذا المركب واسم أبيه، ويكتبون أسماء الذين معه من التجار، وتكتب أسنانهم (أعمارهم) بأن يسأل الرجل كم أتى عليه من السنين، ومن أي بلد هو، ومن أي قبيلة، ثم يكتبون ويثبتون جميع ما في المراكب من الأمتعة على أصنافه".[١٠٤]

كما أن من أراد من أهل الصين السفر داخل بلادهم، "أخذ كتابين من الملك والخصي" ويسجّل في كتاب الملك (اسم الرجل واسم من معه، وكم عمره، وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو".(١٠٥) فهذا الكتاب شبيه (بالسجل المدني) للمواطن الصيني، ولكل واحد منه سجله الخاص، فالجميع في بلادهم، أكان من أهل البلاد "أو من العرب وغيرهم، لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفونه" أما مضمون "كتاب الخصي" فيتعلق (بالمال، وما معه من متاع، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضائع، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، عُلم كيف ذهب، ورد عليه أو على ورثته من بعده".(١٠٦) بل أن جميع أهل الصين يدوّنون أسماءهم في سجلات ويُحفظ بها "فإذا ولد المولود فيهم. يكتب وقت مولده من ليل أو نهار، ويوضع المكتوب عند والده، أو قريبه كيلا يشتبه عليهم سنة، وإذا بلغ مبلغ الرجال ضربت عليه الجزية". (١٠٧)

والشيء اللافت أنهم يستثنون النساء والأطفال والشيوخ من الضرائب، وكما قال المروزي "جميع أهل الصين عليهم جزية إلاّ النساء والصبيان".(١٠٨) وأكمل السيرافي الصورة هذه، بتقريره، أنه "ليس عليهم خراج في ضياعهم، وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم، وضياعهم، وإذا ولد لأحدهم ذكر، كتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثماني عشر سنة أُخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية، وأجري (أُنفق) عليه مزيد من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً"، كما أن "في كل مدينة كتّاب ومعلم يعلّم الفقراء، وأولادهم من بيت المال يأكلون".(١٠٩) فالملك كان يتكفل برعاية الطفل والشيخ، ويعفي المرأة من الجزية.

ولا تعتمد خزانة الملك على الجزية، أو الخراج المفروض على الرؤوس وحسب، فله مصادر أخرى من احتكاره لمادتي الملح، وما سمّاه مؤلفونا بالحشيش، وهو الشاي، وكان السيرافي أول ما أتي بذكر مادة (الحشيش)، الشاي بين المؤلفين العرب، وهو ما يدل على أنهم كانوا على دراية بعادة شرب الشاي عند الصين، يقول السيرافي "ويختص الملك من المعادن بالملح، والحشيش، يشربونه بالماء الحار ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له الساخ، وهو أكثر ورقاً من الرجلة (أي البرسيم)، وأطيب قليلاً، وفيه مرارة فيغلى بالماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شيء، وجميع ما يدخل بيت المال: الجزية والملح وهذا الحشيش".(١١٠)

وأطرى العرب النظام النقدي الصيني، إذ تعرفوا على تطوره وبساطة استعمالهم لما يشبه العملة الورقية، وهي من الحرير، سمّوها الكاغد، فهم – حسب ابن بطوطة – لا يتبايعون بدينار ولا درهم "وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها".(١١١) وروى ابن فضل الله العمري عن الشريف السمرقندي، الخبير بمجال الصين أيام حكم المغول، أن "معاملتهم بورق التوت، ومنها الكبار ومنها الصغار، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين،و هو يؤخذ من لحاء شجر التوت اللين، ويختم بأسم اللقان (أي الخان)، وتجري به المعاملات".(١١٢)غير أن السيرافي أخبرنا منذ القرن التاسع، أن لهم عملة أخرى تسمى (الفلوس)، وهي معمولة من نحاس وأخلاط من غيره، والفلوس في قدر الدرهم، في وسطه ثقب واسع ليفرد الخيط فيه، وقيمة الفلس منها مثقال من الذهب.(١١٣)

وللقضاء مكانة عالية لديهم، فقاضي القضاة من المناصب القريبة من الملك إلى جوار (الخصي)، والوزير، ومنصب القاضي منصب خطير للغاية لديهم، فهو يسهر على رعاية الأحكام وتطبيقها،و التي لها "جلالها في صدورهم" لذا فهم يختارون لهذا المنصب "من لا يخالج قلوبهم الشك في علمه بشرائعهم، وصدق لهجته، وقيامه بالحق في كل أحواله وتجنبه الإغماض عمن جلّ مقداره حتى يقع الحق موقعه، ويكون عفيفاً عن أموال أهل الضعف".(١١٤) فإذا عزموا على تقليد قاضي القضاة أنفذوه قبل تقليده إلى جميع

البلدان التي هي أعمدة بلادهم، حتى يقيم في كل بلد شهراً أو شهرين، فيبحث عن أمر أهله، وأخبارهم ورسومهم، ويعلم ما يجب قوله منهم، فإذا سلك هذه الأمصار، ولم يبق في المملكة بلد جليل إلاّ زاره،" رحل إلى دار المملكة وولي قضاء القضاة وجعل إليهم اختيارهم، فهم لا يكتفون بأن يتصف المرشح لمنصب قاضي القضاة، بالحكمة، والعلم بالشرائع وحب الحق والعدل، بل يتوجب عليه أن يخوض تجربة العيش مع الناس في مناطق الصين المختلفة ليزيد علمه وخبرته، وبعدها يتقلد المنصب، ثم أن لقاضي القضاة "مناد في كل يوم ينادي على بابه فيقول: هل من متظلم على الملك... أم من أحد أسبابه وقواده... فإني أنوب عنه في ذلك كله عنه.. يقول ذلك ثلاثاً"[١١٥]، ففي الصين، "لم يل الحكم إلاّ من يقوم بالحق، فالملك منتظم".[١١٦]

وأهل الصين يوثقون معاملاتهم وديونهم، فإذا كان للرجل على أحدهم ديناً كتب عليه كتاباً، وعلّمه بعلامة أصبعيه الوسطى والسبابة"، لذا، عندما يجري اختلاف قيل للجاحد الذي عليه الحق: أحضر كتاباً بأن هذا الحق ليس عليك، فإذا لم يستطع، ضُرب بعشرين خشبة على الظهر، وغرامة مادية، علماًُ أن "العشرين خشبة فيها موته"[١١٧] و من أحكامهم أن "من سرق زيادة على مائة فلس، وهو عشر دراهم يقتل ولا يترك البتة".[١١٨] ودوّن اليعقوبي أنهم "يقتلون على الكذب، ويقتلون على السرقة، ويقتلون على الزنا".[١١٩] ولكن إذا بلغ الشيخ ثمانين سنة، "وأذنب، ذنباً يستوجب القتل أو العقوبة عفي عنه، وإن كان رجلاً أو امرأة خصومة كانوا إلى المرأة أميل".[١٢٠]

المدينة والمنزل

طغى الطابع المديني على نظرة العرب للصين،فمنذ وقت مبكر قدّر ابن خرداذبة أن في"الصين ثلاثمائة مدينة عامرة كلها منها تسعون مشهورة"[١٢١]، وذهب ابن فضل الله العمري، معتمداً على ابن جلال الدين السمرقندي "وهو ممن جال في الأرض، وفي الآفاق، وهو من الثقات"، إلى حدّ القول "إن بلاد الصين تشتمل على ألف مدينة "[١٢٢]، وأشار السيرافي، بالمقارنة مع الهند، إلى أن"بلاد الصين أعمر"، وأنها "كلها عمارة"[١٢٣]، وتتصف مدنها بالتناسق، والتنظيم، فلاحظوا، كما مرّ معنا، أن مدينة (خمدان) مقسومة إلى شطرين، يفصل بينهما شارع طويل وعريض، الملك وحاشيته وإدارته في طرف، وبقية الناس في الشطر الآخر من المدينة، الذي تقع فيه التجارة والأسواق.[١٢٤] وحول هذه المدينة "مائة وعشرون قرية، في كل قرية زهاء ألف رجل مرتبة، وللمدينة أربعة أبواب، وإذا ركب الملك معه ثلاثون ألف فارس".[١٢٥] كما لاحظنا وصف ابن بطوطة، لمدينة (الخنسا)، وتقسيمها إلى ست مدن، كل مدينة مخصّصة لوظيفة خاصة، فهناك مدينة تتجمع فيها إدارة السلطة، وأقسامها،و هناك مدينة يسكن فيها خليط من الطوائف (النصارى والترك)، وثالثها يسكنها الحرس، وأخرى يسكنها المسلمون، والخامسة دار الأمارة، ويسكن بها أيضاً عبيد السلطان وخدامه "وهي من أحسن المدن الست"، ودار الأمارة في وسط المدينة، وفيها (المشور) أو مجلس الحكم، الذي يتوسط المدينة، ويحفّ بها من جميع الجهات سقائف الصناع الذي يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب.[١٢٦] واتسمت هذه المدن بتداخل البساتين والحدائق فيها، وأضاف العمري إلى معطيات ابن بطوطة، بأن امتداد مدينة الخنسا طولاً "يوم كامل وعرضها، نصف يوم، وفي وسطها سوق ممتد من أولها إلى آخرها وكل شوارعها وأسواقها مبلطة بالبلاط، وبناؤها خمس طبقات، بعضها فوق بعض، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشُرب أهلها من الآبار، وأهلها في قشف عيش، وغالب أكلهم لحوم الجواميس،

والأرز والدجاج، والموز، وقصب السكر والليمون، وقليل الرمان،و هي شبيهة بمزاج مصر في حرّها وهوائها، وأسعارها متوسطة، ويجلب إليه الغنم والقمح، ولكنه قليل، ولا يوجد بها من الخيل إلاّ ما قلّ عند الأعيان والأكابر، وأما الجِمال فلا يوجد بها شيء منه البتة، فإن دخل إليها جمل أعجبوا منه".(١٢٧)

ولما وصل ابن بطوطة إلى ما يسميه مدينة (خان بالق)، وهي مدينة بكين، وصفها بأنها "من أعظم مدن الدنيا"، غير أنه وجدها تختلف عن مدن الصين الأخرى، وذلك لأن مدن الصين في داخلها البساتين والحدائق، وبينما هي "كسائر البلاد البساتين خارجها"،(١٢٨) وقصر الخان الأعظم، "في وسط المدينة المختصة بسكناه، وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب"، ولقصره سبعة أبواب، في الباب الاول لأمير البوابين، والثاني للأصبهاية وهم الرماة، والثالث للنزدارية، أصحاب الرماح، والرابع للتغدارية، أصحاب السيوف والترسة، وعلى الخامس ديوان الوزارة، والسادس عليه الجنذارية، وأميرهم الأعظم، وفي السابع يجلس عليه الفتيان(١٢٩) وأنها كما يقول العمري هي قاعدة الملك، وتتألف من مدينتين قديمة وجديدة، في وسط إحداها منزل القان الكبير، وهو قصر عظيم يسمى (كوك طاق) ومعناه "القصر الأخضر".(١٣٠) وكان أبو دلف قد زار، في القرن العاشر مدينة سندابل، عاصمة لمملكة باسم (كين)، قبل أيام المغول، واشتهرت بالكتب العربية باسم (ماصين) وكانت على علاقة قوية بالدولة السامانية المجاورة لها، تعدت صلاتهما العلاقات التجارية إلى الناحية السياسية والدبلوماسية(١٣١) ولعل أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبوعي، هو أول العرب الذين كتبوا عنها، ونقل عنه ياقوت والقزويني، ووصف مدينة سندابل، بأنها "قصبة الصين وبها دار المملكة"، ووجدها "مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعاً" وكل من هذه الشوارع "ينفذ إلى دار المملكة". فيقع دار الملك، تبعاً لهذا الوصف، في قلب المدينة وتتفرع من حولها الشوارع الستون كالأشعة، وارتفاع سور المدينة تسعون ذراعاً،و عرضه تسعون باباً، وفيها نهر يتفرع إلى ستين جزءاً على عدد شوارعها، فعند باب الشارع تتلقاه رحى توجهه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقى البساتين، ويرجع نصفه الآخر إلى المدينة، فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك، ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد، وبذلك يصبح لكل شارع نهران: الداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم. ولهذه المدينة بيت عبادة عظيم، يقال أنه "أعظم من مسجد بيت المقدس"، فيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يأكلون اللحوم أصلاً، ومن قتل منهم شيئاً من الحيوان قتل.(١٣٢)

وسلّط الإدريسي الأضواء، على بعض المدن الصينية، التي يصعب معرفة ما يقابل بعضها الآن، فهناك مدينة كاشغر المعروفة، "مدينة عامرة كثيرة الخيرات مشتملة البركات، فيها متاجر وبضائع وأسعار وحركات، وهي على نهر صغير من جبل قطيفور، وفي هذا الجبل معادن فضة فائقة الجودة".(١٣٣) كما أن هناك مدينة (اسقيريا) على نهر خمدان، "عامرة وبها ملوك وسادات، وجله وعمال وبها تجتمع أموال الصين التي تصل إلى ملكها الأكبر" وقريب منها، مدينة تاجه، مدينة الملك العظمية، التي يستودع فيها المال الذي جيء به في خزائن الملك البغبور، وتبعد مدينة طوخا عن اسقيريا ستة أيام، على نهر كلهي، وهي "عامرة بالناس وفيها تجار وبضائع وذخائر، يصنع بها الثياب الطوخية من الحريرالعشي، ولها قيمة وافرة، ويتجهز منها إلى سائر البلاد". وتبعد عنها مدينة (بورا) بيومين، وهي كثيرة الخلق والتجارات، متصلة العمارات وافرة النعم، بها حنطة وأرز، وشجر مقل شهي الأكل"، وهناك أيضاً مدينة (قاقلا) كثيرة الحرير، وأهلها يربون دود الحرير، إليها تنسب الثياب القاقلية، والحرير القاقلي.(١٣٤)

وأشار الحميري إلى مدينة طوقين (تونكين) ذاكراً، أنها أول مرافئ الصين "بها يعمل الغضار الصيني،

ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد والتي تتصل بها وتبعد عنه، وبها أرز وحبوب ونارجيل وقصب، وهم يجالسون التجار، ولهم همم عالية ونفوس أبية، ويستعملون الطيب أكثر من سائر بلاد الهند".(١٣٥)

أما عن طريقتهم في بناء منازلهم، فهي مبنية "من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب... ويليط بالطين، وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج (أي القنب)، فيصير في بياض اللبن، تدهن به الجدر فيشرق إشراقاً عجيباً".(١٣٦) فمنازلهم معرضة للحريق طالما أنها من خشب، لذا فإنهم يضعون أملاكهم وذخائرهم، وما تحويه أيديهم في صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإن وقع الحريق دفعوا تلك الصناديق بما فيها.(١٣٧) ودورهم كما يقول المروزي "مزوقة المجالس بالتماثيل والنقوش وسككهم مغطاة بكنائس من خشب الشربين... ويجعلون عتبات دورهم مرتفعة لتمنع القمامة من دورهم".(١٣٨) وتتميز منازل الصين في شتى أرجائها،في المدينة والريف، حسب مشاهدات ابن بطوطة، بأن المنزل يتوسط بستان أو حديقة.(١٣٩) كما لا تخلو مدنهم من الأبنية الشاهقة التي تصل إلى ستة طوابق، حسب ما ذكره العمري في وصفه لمدينة خان بالق (بكين).

أنماط السلوك الاجتماعي والعادات

عندما يقترب الرحالة والباحثون العرب من الحياة الاجتماعية: العلاقات الإجتماعية، أنماط السلوك، والعادات، يجدون فيها ما يثير الإعجاب من جهة، وما يستحق منهم الاستهجان من جهة أخرى، غير أن جوانب الإعجاب كانت لها الأرجحية عندهم على جوانب الإستهجان،" فأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي مُشرب بالحمرة، وهم أشد الناس سواد شعور،و نساؤهم يجزّن شعورهن"،(١٤٠) وأشاد السيرافي ببهاء محياهم،بقوله"وأهل الصين أجمل من أهل الهند،وأشبه بالعرب في اللباس والدواب،وهم في هيئتهم وفي موكبهم شبيه بالعرب،يلبسون الأقبيةوالمناطق"،(١٤١) وهم ناس متأنقون في هيئتهم وملبسهم، حتى أن "كل من كانت ثيابه أنظف وأحسن كان أكرم"(١٤٢) ولباسهم "الحرير والديباج، وعامتهم يوسعون أكمامها ويطوّلون ذيولهم حتى تنجر وراءهم على الأرض"(١٤٣) والصغار والكبار منهم" يلبس الحرير، في الشتاء والصيف أما الملوك فيلبسون الجيد من الحرير، ومن دونهم فعلى قدرهم، وإذا جاء الشتاء لبس الرجل السراويل من ثلاثة إلى خمسة، وربما أكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم، وقصدهم في ذلك، أن يدفّوا أسافلهم لكثرة الندى، وخوفهم منه، فأما في الصيف، فيلبسون القميص الواحد من الحرير، ونحو ذلك، ولا يلبسون العمائم"(١٤٤) وأن أشرف ما يتحلّون به، كما قال الوردي، "قرون الكركدن، يتخذون فيها مناطق (حزام)، ويفتخرون بها.(١٤٥) أما نساؤهم،" فإنهن يكشفن رؤوسهن، ويجعلن فيها الأمشاط، فربما كان في رؤوس واحدة منهن عشرون مشطاً من عاج،و الرجال يغطون رؤوسهم بشبه القلانس"،(١٤٦)

ورفع مؤلفونا من شأن بعض جوانب سلوكهم الأخلاقي، ولا سيما احترامهم للأسرة، وللكبير فيهم، وهم الذين حثّهم الإسلام على رعاية الوالدين إحساناً، إذ لاحظ ابن طاهر المقدسي، أن "لهم آداب وأخلاق... ومن حسن أدبهم أن لا يقعد الصبي بين يدي الأب، ولا يأكل معه، ولا يمشي بين يديه ويسجد له، كذلك يسجد صغارهم لكبارهم تعظيماً لهم.(١٤٧) وسجلوا للصين: أن طعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان (لعله شراب العنب) فيصبونه على الأرز فيأكلونه، أما ملوكهم فيأكلون خبز الحنطة، واللحم من سائر الحيوان والخنازير وغيرها، ولهم من الفواكه: التفاح، والخوخ، والاترج (الكباد)، والرمان، والسفرجل،و الكمثرى، والموز، وقصب السكر، والبطيخ والتين، والعنب والقثاء، والخيار والنبق، والجوز، والجلوز (نبات

يشبه الفستق ولعله البندق) والفستق، والأجاص، والمشمش، والغبيراء، (نوع من الزهر)، النارجيل، وليس عندهم نخل كثير، وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا يحمل إليهم، ولايعرفونها، ولا يشربونها، ويعمل عندهم من الأرز: الخل والنبيذ. والناطف (نوع من الحلوى)[١٤٨] بالإضافة إلى شربهم الشاي، كما رأينا سابقاً، وفي بلاد الصين أيضاً، كما أشار ابن بطوطة، السكر الذي يضاهي السكر المصري، بل يفضله، والأغباب والأجاص، "وكنت أظن أن الأجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الأجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم، وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جداً، ولم أر قمح أطيب، وكذلك العدس والحمص".[١٤٩] إلاّ أن ما أثار اشمئزاز المؤلفين العرب هو أن الصينيين "يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم". [١٥٠]

ولقد توقف باحثونا عند موضوع أثير لديهم في تناولهم للحياة الاجتماعية للآخر، وهو موقع المرأة الاجتماعي، وروابط الزواج، والضوابط الأسرية، ومدى التحفظ الذي يحيط بسلوك المرأة تجاه الرجل، فكان لسليمان التاجر ملاحظات مهمة عن زواج الصينيين، والتقاليد المرافقة له، فحالهم مثل حال الهنود "فإذا أرادوا التزويج تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان".[١٥١] وأضاف السيرافي إلى تلك الملاحظات، معطيات أخرى، تتفق في جانب منها مع ما ذهب إليه المسعودي، فهما يتفقان – السيرافي والمسعودي – بأن بلاد الصين "شعوب وقبائل، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له".[١٥٢] كما اتفقا في خلاصاتهما حين شدّدا معاً على حرص الصينيين على (الزواج الخارجي) إذ "لايتزوج أهل كل فخذ من فخذهم مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة، أو من ربيعة فيتزوج في مضر، أو من كهلان فيتزوج من حمير، أو من حمير فيتزوج كهلان، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء، وأتم للعمر، وأسباباً يذكرونها".[١٥٣]

ويتبين من تقارير مصنفينا أن المؤسسة الزوجية محصنة، ومصانه، بروادع قانونية قوية للغاية، فعقاب المتزوج (المحصن) الزاني، والمتزوجة (المحصنة) الزانية القتل، وحسب تعبير سليمان التاجر "ومن سنن أهل الصين... سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل".[١٥٤] كما تحدث المروزي عن وضعهم الأرجحية للمرأة في العديد من المجالات، حين قال: "ونساؤهم يغلبن على الرجال في الصناعات والتجارات، ونساؤهم مكشفات الشعور".[١٥٥] وهناك أشكال من العلاقات بين الرجل والمرأة تتفلت من الضوابط القانونية للعلاقات الزوجية المعتادة بينهم، كالسماح لهم ببيع بناتهم للغرباء القادمين لبلادهم، غير أنهم لايسمحون لهن بمغادرة الصين، وهو ما أشار إليه ابن النديم، بقوله: إذا تزوج الواحد منا (أي من العرب) إليهم، وأراد الإنصراف، قيل: دع الأرض (أي المرأة) وخذ البذر(أي الوليد)، فإن أخذ المرأة سراً وظهر عليه أُغرم غرماً له مبلغاً قد اصطلحوا عليه وحُبس وربما ضُرب".[١٥٦] وقد اختبر ابن بطوطة هذه الصيغة من العلاقات الزوجية المؤقتة أو العابرة، وذكر أنه صادف في المدن الصينية، تقليد النزول بالفنادق، يتكفل فيها بالضيف صاحب الفندق، "فإن أراد التسري اشترى له جارية، وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق،وانفق عليهما"، ويستطرد مبيناً: "أن الجواري (النساء) رخيصات الأثمان، إلاّ أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيباً عندهم، غير أنهم لا يُجبرون على السفر مع مشتريهم، ولا يُمنعون منه إن اختاروه، وكذلك إن أراد التزويج تزوج"،[١٥٧] وهذا النوع من العلاقة يعتبر علاقة زوجية شرعية، لا يصيب من يقبلها العار، ولا تعتبر مدانة أخلاقياً أو اجتماعياً، طالما أن هذه العلاقة ذات طابع أحادي الزواج تجمع

رجل وامرأة في عقد التسري، إلا أن الصين عرفت، تبعاً لما روى لنا مؤلفونا، علاقات من النكاح مستهجنة ليس منهم فحسب بل من الصينيين أنفسهم، الذين تعاملوا مع هذه الظاهرة كشر لا بد منه، وهو العهر، الذي رعته الدولة نفسها، وأخضعته لنظام خاص، ففي أسواقهم، تبعاً لتعبير المروزي "نساء يعرفن بالزناء، وللسلطان عليهن ضريبة وهن من سفلتهم وسقاطهن"[١٥٨] فهذا التقليد ليس مستهجناَ عند كتابنا العرب فحسب، بل وجدوه موضع استهجان للصينيين أنفسهم ويعتبرون من يقوم به من الأسافل، وأن "من أراد من نسائهم البغاء – كما يقول النويري – فعليه جزية مقرّرة... وإن أقلعن عما كن عليه، تكف الجزية عنهن" غير أن أولاد تلك النساء البغي: إن كانوا صبياناً (يكونون للملك خدماً وعبيداً، ومايكون من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن".[١٥٩]

ولقد شرح سليمان التاجر، من قبل، آليات عمل النظام المتبع لضبط وظيفة البغاء اجتماعياً، قائلاَ: "إن فيهم نساء لا يردن الإحصان، (أي التقيد بزوج واحد داخل أسرة)ويرغبن في الزنا"، وسبيلهن إلى ذلك، هو أن تحضر المرأة إلى مجلس صاحب الشرطة، وتعلن "رغبتها في الدخول في جملة الزواني"، ومن رسمهم (أي من تقاليدهم الرسمية) أن يطلبوا" ممن أرادت ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها، وموضع منزلها، وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيط فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور (وثيقة) يذكر فيه دخولها في جملة الزواني، وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلساً". غير أن المرأة متى اختارت ممارسة هذه المهنة، تكون في نظر الصينيين قد وضعت نفسها في الحضيض لذا فإن "من تزوجها فعليه القتل" أما الطريقة التي يسمح لهن فيها بعرض أنفسهن، فقد بين السيرافي أن "هذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان من الثياب من غير استتار، فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد..، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات".[١٦٠] وفي المقابل، فالرجال أنفسهم يمارسون الزنا المنظم، أو اللواط، "فأهل الصين يلوطون بغلمان، وقد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البدّدة".[١٦١] أي بمنزلة العهر المقدس لأصنامهم المقدسة.

وألقى مؤلفونا الأضواء على الطقوس المرافقة للموت والدفن، فكانت تلك الطقوس مثار دهشتهم،وإن كانوا قد حرصوا على الموضوعية في عرضهم لوقائعها، فروى ابن النديم، أن الصيني إذا مات بقي في منزله "في نقر خشب يشبه التابوت سنة، ثم حينئذ دفن في ضريح بلا لحد، ويُطالب أهله ومخلفوه بالمصيبة والحزن ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات".[١٦٢] وقد فصَّل المروزي في وصف هذه الطقوس، فمن مات منهم، فإنه لا يدفن إلاّ في السنة والشهر واليوم والساعة التي ولد بها، فإن مات في أهله ومنزله وضع في نقير من خشب كهيئة التابوت "ويطرح عليه أدوية تحفظ جثته من النتن والتحلل"، إن كان موسراً، وإن كان مقلاً طُرح عليه الصدف المحرّق بعد أن يُسحق حتى يصير كالذرور، فينشف رطوباته ولا ينتن، وهذا النقير الذي يوضع فيه الميت يمكث في أرضهم ألف سنة، وأكثر، لا يكاد يعفن، وإذا مات الرجل منهم فإن زوجته تمكث في الحداد ثلاث سنين، ويبكي الرجل والمرأة على موتاهم في أول النهار، ووسط النهار، وآخره، مادام الميت عندهم، وإن لم يبك واحد منهم ومن الأقرباء "أُدبٌ وضُرب"، ويقال له: "إنك قتلته إذا لم يحزنك موته". وحين يجئ وقت دفنه، وأرادوا حمله إلى قبره، فإذا كان موسراً وضعوا على طول الطريق، من منزله إلى المقبرة أطعمة وفواكه، وشراباً، مغطاة بالحرير والديباج، فإذا وضعوا الميت في قبره، أُخذت تلك الأطعمة، وربما حملوا إلى قبره "فاخر ثيابه" لتمزيقها على قبره.[١٦٣] وتبدو طقوس الحزن، والإمعان في إظهار هذا الحزن على الملأ مسألة مهمة وأساسية في هذا الطقس، وقد صور سليمان التاجر المشهد الأخير من هذا الطقس، فهم "يدفنونه في ضريح كضريح العرب، ولا يقطعون عنه الطعام، ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئاً، فيقولون قد أكل، ولا يزالون في البكاء

والإطعام ما بقي الميت في منزلهم، فلا يبقى له نقد ولا ضيعة إلا وأنفقوه عليه، وقد كانوا مثل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته من ثياب ومناطق، ومناطقهم تبلغ مالاً كثيراً، وقد تركوا ذلك الآن، وذلك أنه نُبش بعض موتاهم وأُخذ ما كان معه".(١٦٤) أما إذا مات أحد المسلمين، ولم يجدوا له وريث، فإنهم يأخذون ماله ويضعونه في بيت مال الملك، مكتوباً عليه اسم صاحبه واسم أبيه وجده، وتاريخ موته، ثم ينتظرون ثلاث سنين، وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، فإن جاء وليّه "يُسلم المال إليه".(١٦٥)

ولقد شهد الكاتب الصيني (بدر الدين حي الصيني)، بصدق الرواية العربية عن طقوس الموت والدفن الصينيين، مقراً "بأنه من عادات الصين قديماً، أن يوضع جسم الميت في صندوق طويل من الخشب، ويختتم بالشمع ويُحكم غطاؤه بالجبس، حتى لا تخرج منه الرائحة الكريهة، فيبقى في البيت مدة طويلة، تكون في بعض الأحيان أكثر من سنة، وكان الحزن عليه من أهله وأولاده، إلى ثلاث سنوات أمراً عادياً، وكان هذا من العادات المحمودة التي يمتدحها أدباء الصين ويروجون لها... والأدب الصيني يفيض بهذه العادة من قديم الزمان حتى ثورة الصين الكبرى في سنة ١٩١١م.(١٦٦)

ومن السلوكيات التي أثارت استغراب العرب، أو استهجانهم، تلك التي بدت لهم شاذة، أو غريبة، ولا سيما تلك التي تعلقت بالجنس، أو النظافة، أو الطهارة، فسجلوا على الصينيين أنهم "يأتون النساء في الحيض"، وأنهم "لا يغتسلون عن جنابة" بالإضافة إلى ذلك، فإنهم لا يستخدمون الذبح (الحلال)، على الحيوان الذي يراد أكله، لأنهم "يضربونه على هامته". كما أن الرجل الصيني يتزوج ما شاء من النساء.(١٦٧) وعندما يريد أن يبول فهو يبول واقفاً، "فأما الملك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشب منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة، فيقف على رجله، إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم... وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلّا مع القيام بذلك".(١٦٨)

الدين والطقس

لامس العرب من بعيد أحياناً، وعن قرب أحياناً أخرى، مكتبياً وتجريبياً، المناخ الديني للصين، وروح الاتجاهات العامة لدياناتها، إذا أشاروا إلى انتشار عبادة الأسلاف لدى الصينيين، وإلى انتشار الاعتقاد بقداسة الملوك "أبناء السماء" وإلى عبادتهم للأصنام، وانتقال ديانة ماني إليهم من فارس، وديانة السمنية أي البوذية من الهند، وإلى انتشار ما سموه الثنوية وإلى اغلاق الصين أبوابها أمام النسطورية، وهي إشارات لها مصداقية، وإن كان ينقصها العرض المنهجي للمذاهب.

والحال، كان الصينيون قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم، يتخذون الأجسام السماوية والظواهر الطبيعية معبودة لهم، أما الحكماء الذين ظهروا في الصين بعد هذا الزمن، مثل "لاوتسي" و"كونفوشيوس" و"مونشيوس"، فلم يأتوا بكتاب مقدس، إلاّ أن كلامهم يوحي بالاعتقاد فيما وراء الطبيعة، فالطريقة عند (لاوتسي) ليست بصوت ولا بصورة، وهو تعريف يتوافق مع تصور لإله متعالي، وأما (السماء) في عقائد كنفوشيوس، فهي عنده صاحبة السلطة العليا، وليس هناك فرق كبير بين سماء كونفوشيوس وسماء مونشيوس وبقي الصينيون محافظين على دياناتهم القديمة، حتى بعد أن اعتنق أكثرهم الديانة البوذية التي وصلتهم من الهند، إذ لم تستطع أن تحدث تغييراً جذرياً في اعتقاداتهم القديمة، مع أنها أثّرت في آدابهم وفلسفتهم، فالرجل المتدين في الصين لا يجد حرجاً في الجمع بين هذه العقائد والمبادئ التي ترجع إلى دياناتهم المختلفة، فهو يمكن أن يكون بوذياً وكونفوشسياً، ولا وتسياً، وفي وقت واحد. (١٦٩)

ولقد انتشرت بالفعل، ولو على نطاق ضيق، ديانات أجنبية أخرى: المانوية والمجوسية والنسطورية، دخلت المانوية إلى الصين في القرن السابع ميلادي، عن طريق تركستان، فانتشرت في شمال الصين، كما انتشرت المجوسية قبل بزوغ الإسلام بقرن، واتسعت دائرة نشاطها، بعد لجوء يزدجرد إلى الصين إثر سقوط فارس بيد العرب، ولكن أنصارها اقتصروا على فئة ضيقة، ما لبثت أن اندثرت آثارها في سنة ٨٤٦م إثر اضطهاد أباطرة الصين لها، أما الديانة النسطورية فوصلت إلى الصين في سنة ٦٣٥م تقريباً مع داعية لها يدعى اولوبن Oloben استوطن جانغ – آن وبنى معبداً نسطورياً فيها، إلاّ أن هذه لم تثمر في الصين، وتلاشت في القرن التاسع ميلادي.[١٧٠]

كان سليمان التاجر من أوائل الذين تعرضوا للديانة الصينية بالبحث، فقدم ملاحظتين: الأولى قال فيها إن "أهل الصين يعبدون الأصنام، ويصلون إليها ويتضرعون إليها، ولهم كتب دين".[١٧١] ونوه في الثانية بأن "أصل ديانة الصين من الهند"[١٧٢]، وفي ذلك إشارة إلى انتقال البوذية من الهند إلى الصين، وهو ما يطابق الحقائق التاريخية' التي لم تكن بعيدة عن وعي ابن طاهر المقدسي، والمسعودي، والمروزي، وابن النديم، والنويري، الذين أضافوا معطيات أخرى على المشهد الديني الصيني، فالمروزي والمقدسي أشارا إلى المذهب المانوي، فنظر المروزي إلى تقديسهم التماثيل باعتباره "تعبّد وتقرّب، لأن ماني أمرهم بذلك، وغرّهم بقول الفلاسفة، فإنهم قالوا: في حد الفلسفة إنه التقبل بالله بحسب الطاقة الإنسانية".[١٧٣] ونقرأ عند المقدسي "ويزعمون أن أهل الصين منهم الثنوية والسمنية ولهم فرخارات(أمكنة عبادة) فيها أصنام يعبدونها" وأضاف "أنهم يسجدون للشمس والقمر والكواكب والنار، وكل ما استحسنوا من شيء خرّوا له سجداً".[١٧٤] وحفظ ابن النديم (٣٧٧هـ – ٩٨٧م) حواره مع الراهب النجراني مبعوث الجاثليق (النسطوري)، إلى بلاد الصين، بصحبة خمسة من الدعاة للمذهب النسطوري، مكثوا هناك ست سنوات، ورجعوا عام (٣٧٧هـ – ٩٨٢م)، فسأله ابن النديم عن الصين ودياناتها ومذاهبها، فأعلمه الراهب النجراني أن "أكثرهم ثنوية، وسمنية، وعامتهم يعبدون الملك ويعظمون صورته" إلى درجة أنهم إذا شاهدوا صورة الملك وقع عليهم الأفطل والرعدة والجزع، حتى ربما فقد الواحد عقله أياماً".[١٧٥] ثم أخبر ابن النديم "أن النصارى الذين كانوا ببلد الصين فنوا وهلكوا".، وختم ابن النديم هذا الحوار، بتقرير أن عبادتهم للأصنام، ليست موجهة للصنم بحد ذاته بل اتخاذهم لها واسطة "تقربهم إلى الله زلفى، وأن "من سنة الصين تعظيم الملوك والعبادة لها، على هذا أكثر العامة، أما مذهب الملك وأكابر الناس، فثنوية وسمنية".[١٧٦] ومنذ وقت مبكر، أكد اليعقوبي، على أن مذهب عبادة الأسلاف يمتزج لدى الصينيين بتقديس ملوكهم، وأن ملك (عرون) شيّد الهياكل، وعمل فيها صوراً لأبية، وجعلها في صدر الهيكل، فكان إذا دخل الهيكل، سجد لتلك الصورة تعظيماً لصورة أبيه"، كما عمل، أيضاً، ابن عرون بعد وفاة أبيه، صورة له من ذهب مكلل بالجواهر والرصاص والنحاس" اتخذها أهل مملكته جميعاً في مدنهم وبلداتهم، وقالوا: ينبغي للرعية أن تعمل صورة ملك قد ملكها من السماء".[١٧٧]

ولعل أشمل صورة موضوعية، وشاملة عن الدين الصيني، قدمها المسعودي، إذ جمع بين الموضوعية، وفهم الموضوع من الداخل، وبين الشمول، وهو يقترب بذلك بعرضه للديانة الصينية، من عرض البيروني للديانه الهندوسية، والإثنان نظرا إلى عبادة الأصنام هنا وهناك، على أنها واسطة أو رمز للوصول إلى التعالي المجرد، الواحد، كما ميزا بين ديانة العامة التي تعتمد التمثيل والتجسيد، وإيمان الخاصة التي تعتمد على التجريد للوصول إلى الوحدانية.

لم يغب (التاريخ) عن عرضه لظهور المذاهب، وتفرعاتها، فالحلقة المركزية التاريخية لتطور تلك

المذاهب تبرز عنده مع الملك الذي يسميه (توتال)، فهو الذي رتب لهم "سياسة شرعية، وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطاً". وهو الذي رسّخ بموته، وتعظيم أهل الصين له، عقيدة عبادة السلف المندمجة بقداسة الملوك، إذ جعل الصينيون يوم وفاته صلواتاً وعيداً يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة، وعلى الدنانير والفلوس، على الثياب".[١٧٨]

وإن كان قد أرجع بذور هذه العقيدة، إلى تقليد أسبق ينسب إلى ملوك الصين، ولا سيما إلى زمن ما سمّاه (الملك عيثون) الذي جعل جسد أبيه مخزوناً في تمثال من الذهب الأحمر... وكان يسجد له، ويبدأ بجده الأول ثم أبيه، وأهل مملكته يسجدون له".[١٧٩] وقدموا القرابين للهياكل، التي تحتوي هذه الصور الملكية المقدسة. وأوقدوا البخور، وعملوا لهؤلاء الأجداد تماثيل من الأحجار والأشجار. وآمنوا بقدرة الكواكب على مصيرهم ومصير العالم المحيط بهم، "فجعلوا لكل كوكب منها وقتاً بتقربون فيه إليه بدخن (بخور) معلوم من أنواع الطيب والعقاقير"،[١٨٠] كما أشار إلى أتّباعهم للديانة البوذية، ديانة السلف ويسميها السمنية التي كان يعرف أنها أتتهم من الهند، أو كما قال: "وهو رأي الهند"، كما أن لهم "آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية، وأهل الدهر".[١٨١]

ولاحظ المسعودي أن المذاهب الدينية الصينية اتخذت، بالنهاية، الأصنام والصور مقاصد للعبادة، مشبهاً إياها بعادات العصر الجاهلي القرشي، أو كما قال: "عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات".[١٨٢] غير أن المسعودي قد ميّز في داخل عبادة الأصنام هذه بين مقصدين للمتعبدين، بين جاهل يشرك بها، لأنه يتوجه إليها بالعبادة فحسب، وعابد ينظر إليها كواسطة للإقترب من الله، والتقرب منه، أو كما يقول بصدد عبادة الأصنام والصور: "اللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة" أي كمحطة مقدسة يتوجه عبرها المؤمن إلى الخالق، "والجاهل منهم، ومن لا علم له، يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدها جميعاً، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، وأن منزلتهم (أي للأصنام) في العبادة تنغص عن عبادة الباري لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة له، وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياه".[١٨٣]

وعزا المسعودي انتشار مذهب الثنوية في الصين، "والقول بالنور والظلمة"، وقوعهم تحت تأثير المانية، (نسبة إلى ماني) وأحد دعاتها الذي "زخرف لهم كلاماً يريهم فيه من تضاد ما في هذا العالم، وتباينه من موت وحياة، وصحة وسقم، وضياء وظلام،و غنى وفقر، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار، وغير ذلك من سائر المتضادات" ويستمر المسعودي في عرض حجج الرجل الماني التي قدمها لأهل الصين ليفتنهم بمذهبهم، فذكر لهم: أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم، وما يعرض للأطفال والبله والمجانين، وأن البارئ جل وعز غني عن إيلامهم، وأراهم أن هناك ضداً شديداً، دخل على الخير الفاضل في فعله، فاجتذبت حجج الداعية هذه بعض الصينيين، الذين فيهم، حسب تعبيره من (الشُّبه في عقولهم) فدانوا للمانية[١٨٤]

وختم المسعودي عرضه هذا لمذاهبهم الدينية المختلفة، بما فيها تلك التي قارنها بديانة العصر الجاهلي، بالتأكيد على أن هذا الاختلاف في مجال الشرائع والديانات، لم يؤثر على رصانة العقل الصيني، وذلك بقوله : "وملوك الصين ذوو أراء ونحل، إلاّ أنهم، مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق، وفي نصب القضاة والحكام، وانقياد الخواص والعوام".[١٨٥]

الهوامش

١- القزويني. آثار البلاد واخبار العباد. ص ٥٣.
٢- توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٢
٣- الطبري. ج٤. ص ١٦٧
٤- المصدر نفسه ص ١٦٧ – ١٦٨
٥- البلاذري. ص ٤٣٥ – ٤٣٦ والمسعودي التيه والاشراف. ج١ ص ٥٥
٦- بزرك. ص ٨٧
٧- القاضي الرشيد بن الزبير. كتاب الذخائر والتحف. حققه د. محمد حميد الله سلسلة (التراث العربي ١) تصدرها دائرة المطبوعات والنشر في الكويت. الكويت ١٩٥٩. ص ١٠ – ١١
٨- المصدر نفسه. ص ١١
٩- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٣٠٢
١٠- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ص ٢٥٢
١١- المروزي. ص ٥-٦
١٢- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٣. ج١٢. ص ٤٤٣ – ٤٤٤
١٣- الجاحظ. أبو عثمان عمر بن بحرالجاحظ. الحيوان. الكتاب الأول. ج٧. تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ١٩٤٥. ص ١٣
١٤- الطبري. ج٦. ص ٥٠١-٥٠٢ وابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج٤. ص ١٣٥
١٥- الطيري. المصدر نفسه. ص ٥٠٢ وابن الأثير. المصدر نفسه ص ١٣٦
١٦- الطبري المصدر نفسه. ص ٥٠٢-٥٠٣ و وابن الأثير. المصدر نفسه ص ١٣٦
١٧- السيرافي ص ٦٠-٦١ والمسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٤٣
١٨- السيرافي المصدر نفسه. ص ٦١، والمسعودي المصدر نفسه. ص ١٤٣
١٩- السيرافي ص ٣٣.
٢٠- المصدر نفسه ص ٥٠-٥١ وابن الفقيه ص ١٠-١١
٢١- ابن خرداذبة. ص ١٥٤
٢٢- بزرك – ص١١٠-١١٢
٢٣- المسعودي. مروج الذهب. جض ص ١٥٦
٢٤- المصدر نفسه ص ١٥٦
٢٥- المصدر نفسه ص ١٥٧
٢٦- المروزي ص ٦
٢٧- الإدريسي ص ٢٠٣ – ٢٠٤
٢٨- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٠٨
٢٩- السيرافي ص ٢٤ – وابن الفقيه. ص ١١
٣٠- المقدسي البشاري. ص ٤٢٦
٣١- الإدريسي ص ٥٤
٣٢- اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ج١. ص ٢٠٧ – ٢٠٨
٣٣- ابن خرداذبه ص ١٥٣
٣٤- عن. س. أي. بوسوروث. آسيا الوسطى. تراث الإسلام. قسم أول. مصدر سابق. ص ١٨٦
٣٥- ابن خرداذبة ص ٦٩
٣٦- المروزي ص ١٠
٣٧- المصدر نفسه. ص ١٠
٣٨- المصدر نفسه. ص ١٠
٣٩- المصدر نفسه. ص ١١
٤٠- السيرافي. ص ٢٤
٤١- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٤٠
٤٢- المصدر نفسه. ص ١٣٨، السيرافي ص ٥٤ والنويري. من نهاية الارب، ج١٤ ص ٣٣١

٤٣- آدم ميتز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري. ج٢ مصدر سابق. ص ٣٢٥
٤٤- مكاوي. ص ١٩٥ وحوراني. ص ٢٦
٤٥- بزرك. ص ١٢٨-١٢٩
٤٦- ميتز. الحضارة الإسلامية ج٢ – ص ٣٥٦، ومكاوي ص ٧٥
٤٧- ابراهيم أحمد العدوي. ابن بطوطة في العالم الإسلامي. إقرأ ١٤٤ دار المعارف. مصر ١٩٤٥ ص ١٧ – ١٨
٤٨- ابن بطوطة. ص ٤٩٠
٤٩-المصدر نفسه. ص ٤٩١ – ٤٩٢
٥٠- المصدر نفسه ص ٤٩٤ – ٤٩٥
٥١- المصدر نفسه ص ٤٣٧ – ٤٣٨
٥٢- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٣. ج١٢. ص ٤٤٠
٥٣- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج١. ص ٢٠
٥٤- المصدر نفسه. ص ٢٠٥
٥٥- الدمشقي. ص ٢٦٥
٥٦- المسعودي، مروج الذهب. ج١. ص ١٣١
٥٧- المصدر نفسه. ص ١٣٧
٥٨- المصدر نفسه. ص ١٣١
٥٩- السيرافي ص ٦٠
٦٠- المصدر نفسه ص ٦٠
٦١- الثعالبي. لطائف المعارف، مصدر سابق ص ٢٢٠
٦٢- القزويني. آثار البلاد. ص ٥٤
٦٣- الدمشقي. ص ٢٦٥
٦٤- الثعالبي لطائف المعارف ص ٢٢٠ والقزويني آثارالبلاد ص ٥٤
٦٥- السيرافي. ص ٦٠ والمسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٤٦
٦٦- ابن بطوطة. ص ٤٨٨
٦٧- الثعالبي. لطائف المعارف. ص ٢٢١ والقزويني آثار البلاد.. ص ٥٩
٦٨- ابن بطوطة ص ٤٨٦
٦٩- عن. محمد محمود زيتوني. الصين والعرب عبر التاريخ. مصدر سابق ص ١١٤-١١٥
٧٠- بزرك. ص ١٢٩
٧١- السيرافي ص ٥٩
٧٢- ابن بطوطة ص ٤٨٧
٧٣- أبن فضل الله العمري مسالك الأبصار. ج٣. ص ١٣٦
٧٤- السيرافي ص ٥٠-٥١
٧٥- ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار ج٣/ص ١٣٦
٧٦- المصدر نفسه ص ١٣٦-١٣٧
٧٧- ابن بطوطة ص ٤٩٧
٧٨- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٧.
٧٩- السيرافي ص ٧٦ والمسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٦والقزويني. آثار البلاد. ص ٧٩
٨٠- المصدر نفسه ص ١٥٧ والقزويني آثار البلاد. ص ٧٩ والمروزي. ص ١٦ والحميري. ص ١٣٠ والإدريسي ص ٢٠٤
٨١- السيرافي ص ٤٠
٨٢- القزويني. آثارا لبلاد. ص ٥٤
٨٣- المصدر نفسه. ص ٥٥ والسيرافي. ص ٥١ وابن افقيه ص ١٥
٨٤- السيرافي ص ٤٤
٨٥- المسعودي مروج الذهب ج١. ص ١٣٩
٨٦- بزرك. ص ٩٣
٨٧- اليعقوبي. حتى تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٠٥
٨٨- المسعودي مروج الذهب ج١ص ١٣٣ والنويري من نهاية الأرب. ج١٤. ص ٣٢٤-٣٢٥
٨٩- المسعودي. المصدر نفسه. ص ١٣٤

٩٠- المصدر نفسه ص ١٣٤-١٣٥ والنويري. من نهاية الارب ج١٤. ص ٣٢٦-٣٢٧
٩١- المسعودي. المصدر نفسه ص ١٣٦، والنويري المصدر نفسه ص ٣٢٨
٩٢- النويري المصدر نسه ص ٣٢٩
٩٣- الغرناطي عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب تحقيق اسماعيل العربي. دار الجيل. بيروت. دار الآفاق الجديدة. المغرب ص ٤٦
٩٤- السيرافي ص ٤٢
٩٥- المصدر نفسه ص ٤٢
٩٦- المصدر نفسه ص ٦٤، والمسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٤٦
٩٧- السيرافي المصدر نفسه ص ٥٨
٩٨- المسعودي مروج الذهب ج١. ص ١٤٠
٩٩- المصدر نفسه ص ١٤١-١٤٢ والسيرافي. ص ٧٢-٧٣
١٠٠- المسعودي. المصدر نفسه ص ١٤١
١٠١- ابن بطوطة ص ٤٨٩
١٠٢- المصدر نفسه ص ٤٨٩-٤٩٠
١٠٣- المصدر نفسه ص ٤٨٩
١٠٤- المروزي ص ١٠-١١
١٠٥- السيرافي ص ٤٢
١٠٦- المصدر نفسه ص ٤٢
١٠٧- المروزي ص ١١-١٢
١٠٨- المصدر نفسه ص ١١
١٠٩- السيرافي ص ٤٥
١١٠- المصدر نفسه ص ٤٢
١١١- ابن بطوطة ص ٤٨٧
١١٢- ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار. القرن الثالث ص ١٣٤-١٣٥
١١٣- السيرافي ص ٥٨، والنويري من نهاية الأدب. ج٤. ص ٣٢٧
١١٤- السيرافي ص ٧٤
١١٥- المصدر نفسه ص ٧٤
١١٦- المصدر نفسه ص ٧٥
١١٧- المصدر نفسه ص ٤٤
١١٨- المروزي ص ١٤. والسيرافي ص ٤٨
١١٩- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج١. ص ٢٠٨، وأيضاً المقدسي. كتاب البدء والتاريخ. ج٤. ص ٢٠
١٢٠- المروزي. ص ١٢-١٣.
١٢١- ابن خرداذبة. ص ٩٩
١٢٢- ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار. ج٣. ص ١٣٣
١٢٣- السيرافي. ص ٥٠ و ٥١
١٢٤- المسعودي مروج الذهب ج١. ص ١٤٥-١٤٦
١٢٥- المروزي. ص ١٤
١٢٦- ابن بطوطة ص ٤٩٤ - ٤٩٥
١٢٧- ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار ج٣ ص ١٣٣
١٢٨- ابن بطوطة ص ٤٩٨
١٢٩- المصدر نفسه ص ٤٩٨ - ٤٩٩
١٣٠- ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار. ج٣. ص ١٣٢
١٣١- بدر الدين الصيني ص ٢٩٩
١٣٢- ياقوت الحموي معجم البلدان. مجلد ثالث. ج١٢ ص ٤٤٤
١٣٣- الإدريسي. ص ٢٠٣ والحميري. ص ٤١٣
١٣٤- المصدر نفسه ٢٠٤-٢٠٥ والحميري ص ٣٩٨
١٣٥- الحميري. المصدر نفسه. ص ٣٥٨

١٣٦- السيرافي. ص ٥٨
١٣٧- المصدر نفسه ص ٥٨
١٣٨- المروزي. ص ١٥
١٣٩- ابن بطوطة. ص ٤٩٠
١٤٠- السيرافي ص ٤٥
١٤٠- المصدر نفسه ص ٥١
١٤١- المروزي ص ١١
١٤٢- المصدر نفسه ص ١٣
١٤٤- السيرافي ص ٣١-٣٢
١٤٥- ابن الوردي. خريدة العجائب وفريدة الغرائب مصدر سابق ص ٦٤
١٤٦- ابن الفقيه ص ١٤ والسيرافي ص ٣٣
١٤٧- ابن طاهر المقدسي كتاب البدء والتاريخ ج٤ مصدر سابق ص ١٩
١٤٨- السيرافي ص ٣٢
١٤٩- ابن بطوطة. ص ٤٨٦
١٥٠- المصدر نفسه ص ٤٨٧
١٥١- السيرافي. ص ٤٨
١٥٢- المسعودي. مروج الذهب ج١. ص ١٣٧ والسيرافي. ص ٧٧
١٥٣- المسعودي. المصدر نفسه ص ١٣٧، والسيرافي ص ٧٧، حيث يقول: "ولا يتزوّج أحد منهم قريباً ولا ذي نسب، ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها"
١٥٤- السيرافي. ص ٥٦ والمروزي. ص ١٣ وابن الفقيه. ص ١٤
١٥٥- المروزي. ص ١٣
١٥٦- ابن النديم الفهرست. ص ٥٠٦
١٥٧- ابن بطوطة ص ٤٨٩
١٥٨- المروزي ص ١٣
١٥٩- النويري من نهاية الأرب ج١٤. ص ٣٢٧
١٦٠- السيرافي ص ٥٧
١٦١- المصدر نفسه ص ٥٨ وابن الفقيه. ص ١٤
١٦٢- ابن النديم. الفهرست. ص ٥٠٦
١٦٣- المروزي ص ١٢
١٦٤- السيرافي. ص ٤٠
١٦٥- المروزي ص ١٢
١٦٦- بدر الدين حي صيني. ص ٩٣
١٦٧- السيرافي ص ٤٩
١٦٨- المصدر نفسه ص ٧٧
١٦٩- بدر الدين حي الصيني. ص ١٤١-١٤٢
١٧٠- المصدر نفسه ص ١٤٢-١٤٤
١٧١- السيرافي ص ٤٩
١٧٢- المصدر نفسه ص ٥٠
١٧٣- المروزي ص ٤
١٧٤- ابن طاهر المقدسي. كتاب البدء والتاريخ ج٤. ص ١٩-٢٠
١٧٥- ابن النديم. الفهرست. ص ٥٠٤ - ٥٠٥
١٧٦- المصدر نفسه ص ٥٠٧
١٧٧- اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ج١. ص ٢٠٥
١٧٨- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٣٥ والنويري ج١٤ ٣٢٦ - ٣٢٧
١٧٩- المصدر نفنسه ص ١٣٣
١٨٠- المصدر نفسه ص ١٣٥
١٨١- المصدر نفسه ص ١٣٦

١٨٢- المصدر نفسه ص ١٣٦
١٨٣- المصدر نفسه ص ١٣٦ والنويري من نهاية الأرب ج١٤. ص ٣٢٨
١٨٤- المصدر نفسه ص ١٣٧
١٨٥- المصدر نفسه ص ١٣٨

الفصل الخامس

الهند في المُتخيل والمعرفة العربيين

تمهيد

لم يخف العرب إعجابهم بالهند، حتى قبل الإسلام وتوسع إمبراطوريتهم، ويكفي للتدليل على ذلك، أنهم سمّوا الكثير من نسائهم، وهن عنوان المحبة الحميمية: (هنداً)، وأولعوا بالسيوف الهندية، وهي عنوان القوة، وحصن الحماية، وسمّوا السيف الصلب المصنوع من الحديد :(المُهند)،[١] أما بعد الإسلام، فازدادت عناصر التثاقف، والتبادل والاحتكاك، خرج العرب في حملات خفيفة من البحرين وعُمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراجي (كراتشي) الحالية وبمباي، أيام عمر بن الخطاب، ولكن الخليفة الراشدي الثاني نهى عامله بالبحرين، عثمان بن أبي العاص الثقفي عن المضي بهذا الأمر، إذ كان يخاف على جند المسلمين من البحر، فكتب إليه محذراً ومهدداً: "يا أخا ثقيف. حملت دوداً على عود. وأني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم".[٢] غير أن عامله الثقفي تغاضى قليلاً عن أوامر سيده، لما غنمه من بحر الهند من ثروات، ولرغبته في الإطلاع على أحوال تلك البلاد الساحلية البعيدة، فبعث بأخيه المغيرة إلى الديبل (وهي كراتشي الحالية) عند مصب نهر السند، في حين قصد هو بروج،،أو بروص كما سمّاها البلاذري.فلما ولّي عثمان الخلافة، كتب إلى واليه في العراق عبد الله بن عامر بن كريز، يأمره بأن يوجّه إلى ثغر الهند، "من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره" فوجه الأخير إلى هناك (حكيم بن جبلة العبدي)، فلما رجع أرسله إلى عثمان، فسأله الأخير عن حال الهند، فرد حكيم عليه قائلاً "ماؤها وشل (قليل) وثمرها دقل (رديء)، ولصها بطل إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا" فقال له عثمان: "أخابر أم ساجع قال: بل خابر، فلم يغزها أحد". [٣]لعل العرب في زمن عثمان، راودتهم فكرة التقدم نحو الهند، والإستيلاء على التخوم أو الثغور المحاذية لها، والفاصلة بينهم وبينها، لهذا فإن تقرير حكيم، يتعلق،ربما، بثغور أفغانستان والسند، وليس بالهند نفسها، فقد جاء وصف حكيم مغايراً للصورة التي رسمها العرب عن الهند تماماً.

جرى الاحتكاك البري على جبهة الهند أول ماجرى، في زمن الخليفة الراشدي الرابع، فقد ولّي على الخلافة سنة ٣٩هـ، فأذن للحارث بن مرّة العبدي بالتوجه إلى ذلك (الثغر)، فدخل أرض القيقان، من بلاد السند، مما يلي خراسان، إلاّ أنه قُتل ومن معه في تلك الأرض سنة ٤٢هـ ٦٥١م، [٤]وغزا المهلب بن أبي صفرة، في أيام معاوية سنة ٤٤هـ ٦٥٣م، بنة والأهوار، وهما بين الملتان وكابل، وأيضاً بلاد القيقان، وفتح (سنان بن سلمه الهذلي)، أيام معاوية أيضاً، مكران "وأقام فيها وضبط البلاد".[٥] في وقت كان فيه العرب ينظرون إلى افغانستان والسند، وأيضاً الجزر الهندية كامتداد للهند، وكجزء حضاري منها.

تولّى الحجاج، في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥ – ٧١٥م) أمر بلاد الشرق، فنظّم الحجاج بن يوسف حملة ناجحة قادها محمد بن القاسم، في عام ٨٩هـ – ٨٠٧م، فضمّ إقليم السند، مع جزء من البنجاب السفلي إلى الخلافة الأموية، وقد تذرع الحجاج حينها، بوجود خارجين عن طاعة الخلافة من المسلمين، عند ملك السند (داهر بن صعّه)، ثم واتته الفرصة، عندما تعرض قراصنة من (ميد) الديبل لسفن كانت قادمة من جزر الياقوت (سيلان)، وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين، كانوا يقيمون هناك، ومعهم هدية من ملك تلك الجزر للخليفة الوليد، فطلب الحجاج من (داهر ملك السند) تخليص نساء المسلمين، فاعتذر للحجاج بذريعة أنه لا يقدر على قرصان البحر، وعندها أرسل الحجاج عبد الله النبهان في قوة، فانتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل[٦]، فكانت هذه

الهزيمة بمثابة إهانة لدار الخلافة، لم يحتملها الحجاج، فأذن له الوليد بن عبد الملك بفتح السند، في وقت كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل في شمال الأندلس.

وجّه الحجاج آنئذ، حملة بقيادة ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي إلى السند في عالم ٨٩هـ – ٨٠٧م، فسار محمد إلى مكران، فأقام بها أياماً، ثم أن أتى قنزبور، وأرمائيل ففتحهما، وحاصر الديبل لفترة، ثم فتحها على إثر ضربه تمثال بوذا بالمنجنيقات، فأصابت الدقل (السارية) المرفوع على الصنم (البُد)، فتطيّر لهذا الأمر أهل الديبل واستسلموا، أو كما قال ابن الأثير "كان بالديبل بُد عظيم عليه دقل عظيمة،و على الدقل راية حمراء، وكل ما يُعبد هو عندهم بُد... فحصرها، وطال حصارها، مُزّق الدقل بحجر العروس (المنجنيق) فكسره، فتطيّر الكفار بذلك".[٧] وروى اليعقوبي أن محمد بن القاسم، لما فتح الديبل، وكانت أعظم مدائن السند، خضع له، أهل البلاد، فسار من الديبل إلى النيرون، وهي على الضفة الغربية للسند، فصالحه أهلها، "وكتب إلى الحجاج يستأذنه بالتقدم، فكتب إليه: أن سر"[٨] فمضى محمد بن القاسم في فتحه، فعبر نهر السند، نحو شط مهران، فالتقى مع جيش داهر، فقتل داهر وهزم جيشه، ومضى محمد في بلاد السند ففتحه بلداً بلداً ومدينة مدينة، حتى أتى (راوا) لعلها مدينة لاهور، ثم سار إلى برهمناباذ، وهي على فرسخين من المنصورة، التي بناها فيما بعد الفاتحون العرب، ثم وصل الرور، وهي مدينة آلولي حالياً،و هي من "أعظم مدائن السند"، ففتحها صلحاً، بعد أن حاصرها شهوراً، وتابع إلى مدينة الملتان، "أعظم مدن السند الاعلى وأقواها حصناً". فكانت آخر حصون السند الكبرى. فأصاب الفاتحون منها ذهباً كثيراً، فسمّيت الملتان: (فرج الذهب)، إذ كانت تُجمع إليها الأموال من أرجاء البلاد،في بيت طوله عشر أذرع وعرضه ثمانية، وكان القائمون على خدمة فرج ملتان يحلقون رؤوسهم، ولحاهم، ويزعمون "أن صنمه هو أيوب النبي".[٩] وانضم إلى جيش محمد بن القاسم عند الديبل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط)، الذين كانوا يعانون من سوء معاملة الحكومة البراهمية، إذ كانوا في عداد (المنبوذين) الذين يُحرم عليهم امتطاء الدواب وارتداء الغالي من الثياب، وأشار البلاذري إلى ذلك بقوله: "وانصرف محمد ومعه من الزط أربعة آلاف،"[١٠] غير أن وفاة الوليد بن عبد الملك وانتقال الخلافة إلى أخيه سليمان أوقف خطط محمد القاسم، وفتر اهتمام الخلافة في إخضاع شبه القارة الهندية، واكتفى العباسيون فيما بعد بترتيب الوضع في المناطق التي سيطر عليها العرب من قبل، وفي عهد داود بن يزيد والي العباسيين على بلاد الهند، الذي دام حكمه عشرين عاماً، أوفد لعلاج الرشيد بعض أطباء الهند، فكان لشفاء الخليفة العباسي على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبّها.[١١] وبقيت بلاد السند الإقليم الوحيد الذي حكمه العرب،واحتكوا به مباشرة، ورغم أنه كان إقليماً بعيداً عن الخلافة، فقد غدا الطريق الرئيسي الذي انتقلت من خلاله العلوم الهندية إلى بغداد، وقد زار السند،التي كان يحكمها العرب، جغرافيون مسلمون كالمسعودي وابن حوقل والاصطخري وتركوا أوصافاً طريفة لهذا الإقليم[١٢] وللهند عموماً.

وهناك وجد العرب والمسلمون أنفسهم وجهاً لوجه أمام دين من أقدم الاديان، وحضارة من أقدم الحضارات في العالم هي الهندوسية، وهناك أقام الإسلام لنفسه، بالتدريج، إمبراطورية عظيمة في شبه القارة الهندية، ولم تمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من أهله تشارك في بناء الثقافة العربية الإسلامية، وتبرز في ميادينها، فكان منها علماء في الحديث واللغة والادب، مثل أبي معشر نجيح السندي، المحدث وصاحب المغازي، وابن الإعرابي اللغوي، وابن سكيت، وأبي عطاء السندي المخضرم الشاعر.[١٣] وبقي العرب ثلاثة قرون منزوين في هذه الناحية من الهند، تمكنوا خلالها من بسط نفوذهم على بلاد السند وملتان، وعلى المدن الساحلية من السند وكجرات، واستقروا في هذه الجهات استقراراً قوياً، ومن المحتمل أن بعضهم توغل في مالوا وقنوج وشول، وأصبحت بعض المدن الساحلية مثل كمباني، وسومنات، وشول مراكزاً لجاليات عربية – إسلامية صغيرة، رحب بها، وبتجارتها، الملوك الهندوس، وسمحوا لها بممارسة شعائرها الدينية.

ما لبث الأتراك المسلمون (الغزنويون، ومن بعدهم الغوريون) أن احتلوا دور العرب في بلاد السند، وتوسعوا في الداخل الهندي، وأمسكوا زمام المبادرة، وإن ظلوا يعلنون التبعية، و الولاء لمركز الخلافة في بغداد، ويعتبر ملوك غزنـة (الغزنويـون) أهـم أولئـك وأقـدمهم، إذ أنـزل سبكتسـكين (٣٤٧ – ٣٧٨هـ / ٩٦٦ – ٩٩٧م) مؤسـس الدولـة الغزنوية، بعصبة أمراء الراجبوتين، التي كانت تضم أجمير Adjmar ودهلي، وكلنجر، وقنوج knnuwj، هزيمة ساحقة أرغمتهم على دفع الجزية، ومهدت السبيل لتوسّع ابنه محمود الغزنوي في الهند، وتوطيد سلطان المسلمين، إذ غزا محمود الهندستان سبع عشر مرة، في خلال سبعة وعشرين عاماً ما بين (٣٩١هـ – ١٠٠٠م و ٤١٧هـ – ١٠٢٦م)، حتى خضع لـه شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنـة ومن الهملايا إلى الدكن، ودان لـه إقليم البنجاب، والملتان والمنصورة، وقنوج، والكجرات Gudjarat، وكان استيلائه على (سومنات) وهو المكان المقدس للهندوس، أجلّ انتصاراته، ولعب دوراً حاسماً في تثبيت مواقع المسلمين في شمال الهند بأكمله، وأقام الحكم الإسلامي هناك على أساس ثابت ووطيد، وتحول الغزاة في هذه الحقبة إلى الاستقرار، والإقامة في بلاد الهند، وحرص محمود على إظهار ولائه لخليفة بغداد، فكان يكتب إليه إثر كل نصر يحرزه في الهند، طالباً منه التشجيع والدعاء[١٤] واصطحب في غزواته الهندية (البيروني) مما أتاح للأخير تأليف كتابه الخالد عن الهند، ويمكننا أن نعتبر حملات الغزنويين كما قال ستانلي لينبول، واتخاذهم لاهور مقراً لهم، بداية حكم المسلمين الحقيقي لهذه البلاد، ومهدت لحكم الغوريين[١٥] الذين في بداية عهدهم أصبحت لاهور قاعدة أمامية للثقافة الإسلامية في الهند، وأخذ مسلمو البنجاب الغزنويون يتكلمون لغات مشابهة للبنجابية الحديثة"[١٦]

دام سلطان الغزنويون حتى سنة ١١٨٦م، إلى أن حل الغوريون مكانهم، الذين وضعوا يدهم، من عاصمتهم دهلي (دلهي)، على الجزء الأكبر من الهند، ومارسوا منهجاً تسامحياً في علاقتهم مع الهندوس، وقد زعزع أركان دولتهم غزو تيمر لنك لبلاد الهند في عام (٨٠٦هـ / ١٣٩٨م) والذي كان من نتائجه إحداث الخراب والدمار في أرجاء الإمبراطورية الغورية، واجتياح الفوضى والاضطراب والتمزق كافة الأقاليم التي دخلها الغزاة، ما لبث أن أعلنت ولايتها الكبرى انفصالها عن دلهي: مالوه، جونيور، والدكن، والبنغال وسلطنة كجرات البحرية المسلمة، التي قاتلت،فيم بعد، البرتغاليين حين قدومهم،بالتحالف مع المماليك ثم العثمانيين،[١٧] وأص صورة شعوب الشرق الأقصى –م١٤، الغوريين ملجأ لرجال العلم والفن، ولا سيما بعد عام ١٢٥٠م[١٨] وقد زار ابن بطوطة الهند، في زمن (اسرة تغلق)، وهي أحد الأسر الغورية التي تعاقبت على حكم الهند، قبيل الغزو التيموري، وكان حاكم دلهي حينها السلطان محمد بن تغلق، الذي حصل من الخليفة العباسي في القاهرة، على شرف (الولاية) والمباركة، في عام ١٣٤٣م وقلّد ابن بطوطة مناصب عليا في الدولة، فترك لنا الأخير وصفاً هاماً عن الهند في ذاك الزمان.

وتأسست إمبراطورية مغولية مسلمة على يد (بابر) في عام ١٥٢٦م مثّلت أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وازدهار ثقافي وسياسي، ولا سيما على يد (بابر)، وحفيده (أكبر ١٥٥٦ – ١٦٠٥م)، وتوسع أكبر، من عاصمته دلهي، وضم شمال الهند، واستخدم الراجبوت والهندوس، ومارس سياسة التسامح الديني، وبسط سلطانه على كشمير، والبنغال، وعلى الجنوب صوب هضبة الدكن، وغرباً على حساب (راجبوتانا)، وكاد استيلاؤه القصير على كوجيرات (كجرات) في عام ١٥٧٢م، أن يعطي إمبراطوريته نافذة على البحر، ويجعلها على احتكاك بالبرتغاليين في صورات، ولكن طموحات أكبر كانت قارّية وحسب، فلم يفكر بمواجهة البرتغاليين الذين اخترقت أساطيلهم المحيط الهندي، وإذا بقيت صورات هامة بالنسبة له ولخلفائه، فلأنها الميناء الرئيسي لسفر المسلمين للحج[١٩] فعلى الرغم من أن (أكبر) أعاد إنشاء الإمبراطورية الهندية السابقة، من الهملايا إلى الدكن الشمالية، ومن أفغانستان إلى البنغال، غير أنه مارس سياسة سلبية تجاه ما يجري من تبدل في مواقع القوى البحرية، مما سهل على البرتغاليين النجاح في طموحاتهم.

وبرزت منذ القرن الخامس عشر دولة (فيجاياناجار) الهندوسية، التي ناصبت المسلمين والإمبراطورية

المغولية العداء، وقامت أثناء وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي عدة دول إسلامية قوية في شمال الهند ووسطها، إلى جانب حكومة دلهي المغولية، فكان في كجيرات دولة إسلامية قوية، وفي مالوا، فضلاً عن أربعة ممالك إسلامية في الدكن، عدا عن الممالك الإسلامية في شرق الهند، وجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوسية، ومن أهمها (فيجاياناجار).[٢٠] وكانت الشقة الساحلية الواقعة في النهايات القصوى لشبه جزيرة الهند، والتي يفصلها جبال الغات الغربية عن دولة الفيجاياناجار، هي المنطقة الوحيدة التي قامت عليها بعض الأمارات الصغيرة المستقلة، والتي عُرفت باسم مليبار أوكيرالا، والمشهورة بالفلفل، وكان من أهم حكامها (الزامورين) الهندوسي صاحب كاليكوت، الذي كان صديقاً للمسلمين، وتعاون معهم لصد البرتغاليين، وكانت عاصمته كاليكوت المركز الرئيسي لتجارة الأفاوية، وهو الذي وصل إلى عاصمته فاسكو دي غاما.[٢١]

كان العرب، أثناء ذلك، قد تراجع موقعهم السياسي في شبه القارة الهندية، بعد أن استلم المبادرة عنهم العنصر التركي، والمغولي، إلاّ أن أثرهم لم يختف، فبقيت جالياتهم ومستوطناتهم في السواحل الهندية، كما لم يختف دورهم التجاري في المحيط الهندي، ولا تأثيرهم الديني والثقافي، على الهند، ولم ينقطع تسفار رحالتهم وجغرافييهم إلى تلك البلاد. فقد كوّن العرب على سواحل الهند، ولا سيما الغربية، والجزر المحطية بها، مستعمرات تجارية حقيقية، رعت التجارة الدولية، كان لها دورها في نشرا لإسلام سلمياً في تلك المناطق، وقد أشار أرنولد إلى هذه الحقيقة بقوله:" إنه قبل أن تظهر قوات البرتغاليين في التجارة الهندية، كان تجار العرب سادة التجار في هذه الجزيرة بلا منازع... كما كانوا يوجدون في كل ميناء ومدينة، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة جديدة جاءت من مستعمراتها في مليبار، وهنا صنع تجار العرب ماكانوا يصنعونه في أي مكان، فتصاهروا بأهالي البلاد، ونشروا دينهم على طول الساحل".[٢٢]

ولعل المناطق الهندية التي دخلها العرب حرباً أو سلماً، في شرق الهند (السند) وعلى السواحل الجنوبية، هي المناطق التي تحول أهلها إلى الإسلام بطريقة سلمية، بينما ظل الإسلام هامشياً، وشكّل أقلية صغيرة، في المناطق الشمالية، والشرقية (هضبة الدكن) التي امتدت إليها خلال القرون سيطرة الإمبراطورية الإسلامية: التركية والمغولية، واتبع حكامها في بعض الاوقات القوة لنشر الدين الإسلامي،لذا يمكن القول :إن العدد الهائل من مسلمي الهند "لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم أو تحويل ذويهم إلى الإسلام، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليها الدعاة المسلمون، وكان تأثيره فعّال في هذا السبيل".[٢٣] فلعبت الجاليات الإسلامية أدواراً مختلفة في نشر الإسلام، فهناك جاليات أتت من الغرب والشمال: عرب وأتراك، "الذين نجدهم في إقليمي السند والبنجاب بشكل خاص"، وتشكلت الأخرى من بقايا الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية، الذين أقاموا بكثرة في أعالي الهند، وبدرجة أقل كثيراً في هضبة الدكن، وأغلبهم هنا من الأتراك والمغول، أما الثالثة، فهم " الذين استوطنوا الساحل الغربي، ولا يبعد أن يكونوا من أصل عربي، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر".[٢٤]

فعلى الرغم من سيطرة الإمبراطورية الغورية، والمغولية على الأقسام الشمالية، وعلى هضبة الدكن، وتحويلهم دهلي (دلهي) إلى عاصمة لإمبراطوريتهما، فإن سيطرتهم السياسية لم تحوّل إلى الإسلام إلاّ نسبة قليلة من الهنود، على عكس التفاعلات التي أحدثتها الجاليات العربية في السواحل الجنوبية للهند، أو في بلاد السند.أشار أرنولد إلى الحقيقة،بقوله: "يمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين، من هذه الحقيقة، وهي أنه حتى في المراكز التي ساد فيها النفوذ (السياسي) الإسلامي، في مثل دهلي وأجر، لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة بالمائة من سكان الإقليم الأول، في حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان" وبالمقابل " إننا نجد، بلا ريب أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته، وأطولها بقاءً في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن، التي كانت فيها قوته السياسية أشد ضعفاً، كما كانت الحال في

جنوب الهند وفي شرق البنغال... ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند، لأول مرة، إلى القرن الثامن الميلادي، حين قدمت جماعة من اللاجئين من العراق... واستقرت في هذه البلاد، وكان العرب والفرس يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها، بين الهند وأوروبا، وقد أدى ذلك إلى تزايد النفوذ الإسلامي على الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية، ويبدو أن علاقات ودّية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود".[٢٥] وبلغ تأثير العرب مبلغاً، جعل بعض الحكام ينتقلون إلى الإسلام، وهو ما أشار إليه المؤرخون المسلمون، إذ أكد المؤرخ الهندي (بالاكر شنابلاي Balakrishna) أن محمد (ص)، قد بعث برسالة إلى ملك مليبار Malabar غي عام ستمائة وثمانية وعشرين للميلاد،، وأن المؤرخ ابن عرب شاه (١٤٧٦م)، والمؤرخ العربي فخر الدين (١٢٧٢م) صرحا بأن الإسلام بدأ ينتشر في سواحل الهند الغربية في زمن النبي،[٢٦] وتحدثت بعض الروايات، ان أسبق الدعاة إلى الإسلام، هم جماعة من الزائرين العرب إلى سيلان بقيادة الشيخ شرف بن مالك، وابن أخيه مالك بن حبيب دينار، فلما وصلوا إلى كدنغلور Kadanglour في بلاد مليبار دعاهم الملك أو الراجا لزيارته، فوجدوا، في ذلك، فرصة سانحة، إذ شرحوا له مبادئ الإسلام، فانشرح لها قلبه، لذا فعند عودتهم من سيلان، بعد زيارتهم لآثار قدم آدم، رحل الملك معهم إلى بلاد العرب خفية، في سفينة، تاركاً مملكته، فزار النبي، وعند عودته مات في الطريق، فأوصى، مالك بن دينار ورفاقه، وهو على فراش الموت، أن يواصلوا السير إلى بلاده، ليساهموا في نشر الدعوة الإسلامية، على أن يخفوا حقيقة موته، وقد حمّلهم رسالة إلى نوابه يأمرهم فيها بمساعدتهم في مهمتهم، وحين وصول ابن دينار ورفاقه إلى بلاد الملك، استُقبلوا بحفاوة، وسهلّ نواب الملك له أمر نشر الدعوة وبناء المساجد في أرجاء مليبار، ثم رجع إلى وطنه.[٢٧] وكان العرب المسلمون قد استوطنوا السواحل الغربية، من سيمور Semour وكجيرات Guyjratta وكيمبي Cambay، واستقروا فيها، قبل حملة محمود الغزنوي، ونجد أن راجا (ملك) مقاطعات سومنات كانت قواته تضم عدداً ضخماً من الضباط المسلمين، ولقد أفاض المسعودي والرحالة العرب الآخرون في وصف هذه المستوطنات بشيء من التفصيل والإسهاب.[٢٨] في القرن العاشر الميلادي.

وقد زار المسعودي بلاد سيمور (صيمور)،في سنة ٣٠٤هجرية، وهي على الشواطئ الغربية للهند، الممتدة بين الكجيرات وجون كنباية، وكانوا يسمون المولود من العرب المسلمين في الهند (البياسرة)، "وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين (بياسرة)، وسيرافيين وعمانيين، وبصريين، وبغداديين، وغيرهم من سائر الأمصار ممن تأهل (تزوج) وقطن في تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار، ويتولاهم رجل عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه".[٢٩] كما أشاد المسعودي بالحفاوة وبالرعاية التي تلقاها الجاليات العربية الإسلامية من الملك (بلهرا)، وهو اسم أطلقه العرب على ملك البلاد الواقعة شمال ساحل مليبار ما بين كجرات وخليج كنبابه (أوكمبي)، فذكر أنه "ليس في ملوك السند والهند من يعزّ المسلمين، في ملكه، إلاّ البلهرا، فالإسلام في ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين... وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل، وإكرام الملسمين".[٣٠] وتحدث الدمشقي، في المعنى نفسه، عن السواحل الغربية للهند، واحتضانها للجاليات العربية الإسلامية، واختلاط الهنود بالمسلمين فيها، قائلاً: "فأول بلاد الساحل الهندي بعد مدينة بروص بلاد والكنونات، يحدق فيها الجبال، وهي على شرق الكنك (الغنج)... ومدينة برقلي على مصب نهر الكنك... ومدينة دون ساحلية، وأكانتي ساحلية، وسوباره (البعض أسماها صوبور)، وساهي ساحلية، وتانة ساحلية، وتانش ساحلية بها مسجد جامع للمسلمين، ثم فرضه كبيرة للتجارة والأموال... ويلي هذه البلاد،من غربها بالساحل، بلاد بلوان، وفيها من المدن ديوه ساحلية، ومدينة قرثالة وسكبيس، ومدينة سندابور وهي القصبة (المركز)، وبها بُد (صنم) للهنود وجامع للمسلمين.. ثم يلي ذلك مدينة منبار، (مليبار) وتسمى بلاد الفلفل، وفيها من المدن الأمهات، فاكنور ساحلية كبيرة أهلها هنود وعجم وعرب مسلمون".[٣١]

أما في شرق الهند (أي السند)، فبعد حملة محمد بن القاسم، استوطن الكثير من العرب الفاتحين هناك، وبنوا مدناً حديثة، كمراكز للإدارة والجند، وأيضاً كمراكز للتأثير الديني الثقافي، وكان من أهم هذه المدن (المنصورة)، وعندما زارها المسعودي في القرن العاشر الميلادي، كان للعرب وجود كثيف فيها، وكان، "الملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله، ورأيت بها وزيره رباحاً، وابنيه محمداً وعلياً، ورأيت بها رجلاً سيداً من العرب، وملكاً من ملوكهم، وهو المعروف بحمزة، وبها خلق من ولد علي بن أبي طالب، ثم من ولد عمر بن علي، وولد محمد بن علي". ويستأنف المسعودي الشرح "وأن ملوك المنصورة في وقتنا هذا من ولد هبار بن الأسود، ويُعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي".[٣٢] وأرجع المسعودي تسميتها بالمنصورة، انتساباً إلى منصور بن جمهور، عامل بني أمية، بينما ذهب البعض إلى أنها سُمّيت بهذا الإسم، نسبة إلى منصور بن جمهور الكلبي، لانه هو من بناها.[٣٣] وذهب القلقشندي استناداً على المهلي إلى أنها "سُمّيت المنصورة لأن عمر بن حفص بناها في أيام جعفر المنصور".[٣٤] وذكر ياقوت أنها عاصمة لإقليم السند، "وأهلها مسلمون... والخطبة فيها للخليفة من بني العباس".[٣٥] وردّد ياقوت بذلك قول ابن حوقل.

وفضلاً عن هذا التداخل السكاني، فالاتصالات التجارية لم تنقطع، ولم ينقطع معها تطواف الرحالة العرب في أرجاء الهند، وكان أبرزهؤلاء الرحالة، في القرن الرابع عشر، ابن بطوطة الشهير، الذي وفّر مادة بحثية مهمّة عن أحوال الهند، وعن سلوك شعبها الحضاري والثقافي، وقدّم المؤلفون العرب "صورة عن الهند" عكسوا فيها موقفهم من الآخر الهندي، ومُتخيلهم له، وحدود معرفتهم لهذا العالم الفسيح الغني بالألوان والتنوع، فلم يتشكل هذا المُتخيل الثقافي إلاّ عبر الاحتكاك المباشر، في سياق العلاقت الواسعة بين حضارتين،ومضمارين خضعا للتجاذب والتنابذ، والتعاطف والمدافعة، في سياق عملية تثاقف واسعة النطاق.

وتعامل المصنف العربي مع الهند،في كل ذلك، كبلد متمدن، يتميز بالتفوق في العديد من مجالات العمران، والحضارة، ويزخر بالتنوع القومي واللغوي، ويخضع إلى العديد من الملوك بقدر تعدد أقاليمه الشاسعة، فهو أوسع نطاقاً، ومجالاً جغرافياً قياساً إلى مساحة الصين، بقدر غناه بالعجائب، والغرائب، وأخضع المؤلفون العرب الهند للمقارنات الحضارية، مرة مع الصين، وهو ما نجده بشكل خاص مع سليمان التاجر، وصاحبه السيرافي، ومرة أخرى مع الحضارة اليونانية، عندما يجري الحديث عن الثقافة العالمة، وهو مانجده عند البيروني، وأخضعها صاعد الأندلسي، وغيره من المؤلفين إلى المقارنات الشاملة مع الأمم الحضارية الكبرى، لينتهوا من ذلك إلى إبراز ماتتميز به من تفوق في بعض مجالات العمران، وهو ماتعرض له الجاحظ، والتوحيدي، وغيرهم من المصنفين، كما أخضعوا حكوماتها،وأساليب الحكم فيا للتفحص، فكوّنوا عن هذه الأساليب نظرة إيجابية، حيث اعتبروها مثالاً للحكمة والعدل، واقتربوا من الهنود في حياتهم اليومية، داخل أُطرهم الثقافية، فقدموا لنا صورة اثنوغرافية للهنود، فعرفونا على سلوكياتهم الاجتماعية، وما يغلفها من عادات، واعتقادات أخلاقية، ودينية، ومن تقاليد الزواج، وطقوس الدفن، والتطهر الروحي والبدني، وسجلوا مواقفهم تلك، استناداً إلى مرجعياتهم الثقافية، التي لا تخلوا من احترام للتنوع الثقافي.

هيئة الهند وتقسيماتها الإدارية

بدت الهند لمؤلفينا قطراً شاسعاً حتى قياساً إلى الصين، فعند تقسيمهم الجزء المعمور من الأرض إلى أقاليم سبع كبرى، فإنهم خصّوا الهند بإقليم خاص، كحال الصين، وهو ما عبر عنه ابن الفقيه "وقالوا أيضاً إن الأقاليم سبعة، إقليم في أيدي العرب، وإقليم في أيدي الروم، وإقليم في أيدي الحبشة، وإقليم في أيدي الهند، وإقليم

في أيدي الترك، وإقليم في أيدي الصين، وإقليم في أيدي يأجوج ومأجوج".[٣٦] وأجمع المؤلفون العرب على تخيل أن بلاد الهند أكثر اتساعاً من بلاد الصين، وأكثرهم ملوكاً، وربطوا أقليماً وجغرافياً وسياسياً بين الهند والسند، بقدر ما ميزوا بينهما، ووسعوا الهند في أغلب الأحيان لتمتد إلى الجزر المقابلة للساحل الهندي، وجزر المحيط الهندي، بما فيها الأرخبيل الاندونيسي، ولعل ذلك، مردّه إلى ما لاحظوه من انتشار واسع للجاليات الهندية في هذه الجزر، وإلى امتداد تأثير الثقافة الهندية، وديانتها إلى تلك البلاد.

فإذا كانت الهند، عند السيرافي "أوسع من بلاد الصين، وهي أضعافها، وعدد ملوكها أكثر".[٣٧] فهي عند ابن فضل الله العمري، والقلقشندي والمسعودي، "مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها لاتساع أقطارها وكثرة أموالها وعساكرها، وأبهة سلطانها في ركوبه ونزوله، ودست (عاصمة) ملكه وفي صيتها وسمعتها كفاية.. وحسبُك ببلاد في بحرها الدُر، وفي برّها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس، وفي شعابها العود والكافور، ومن وحوشها الفيل والكركدن، ومن حديدها سيوف الهند، وبها معادن الحديد والزئبق والرصاص، ومن بعض منابتها الزعفران وفي بعض أوديتها البلور، خيراتها موفورة، وأسعارها رخيصة، وعساكرها لا تعد، وممالكها لا تحد، لأهلها الحكمة ووفرة العقل، أملك الأمم لشهواتهم، وأبذلهم للنفوس فيما يظن به الزلفى".[٣٨] وذهب المسعودي في وصفه لاتساع تخومها،إلى القول: " وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج، وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر... والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت، وبين هذه المماليك تباين وحروب، ولغاتهم مختلفة".[٣٩]

والهند على سعتها تمتلئ أرضها بالخيرات من شتى الأنواع، فقد أخبرنا ابن فضل الله العمري، عن مبارك بن محود الأنبائي "إن هذه المملكة متسعة غاية الإتساع، يكون طولها ثلاث سنين، وعرضها ما بين سومنات (موضع بالكجرات)، وسنرديب إلى غزنة، وطولها من العرصة المقابلة لعدن إلى الاسكندر (أي سد الصين).. متصلة المدن ذوات المنابر والأسرة والاعمال والقرى والضياع والرساتيق (القرى) والأسواق، لا يقطع بينها ولا يفصل بينها خراب".[٤٠] وان في الهند" انهاراً ممتدة، تقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منها ما يضاهي النيل عظماً، ومنها ما هو دونه، وعلى ضفاف الأنهار، القرى والمدن، وبها الأشجار الكثيفة، والمروج الفسيحة، وهي بلاد معتدلة، كل أوقاتها ربيع، وتتوالى بهاالأمطار".[٤١]

إذا وضعنا جانباً جزر المحيط الهندي، وقمار (كمبوديه) التي وضعها المؤلفون العرب في الدائرة الهندية، فقد نظر هؤلاء المؤلفون إلى (الهند) على أنها مقسمة إلى العديد من الأقاليم، وعلى كل إقليم ملك، وأبرز ملوكها (بلهرا)، بالإضافة إلى تعدد لغاتها ودياناتها، وتحتوي هذه المملكة، على إقليمين رئيسيين، أو كما يقول القلقشندي "إلى إقليمين عظيمين"، يتفرغ عنهما أقاليم أخرى. وهذان الإقليمان، هما "إقليم السند وما انخرط في سلكه من مكران، وطوران، والبدهة، وبلاد القفس والبلوص، وإقليم الهند، الذي يحيط من جهة الغرب بحر فارس، وتمامه حدود السند،ومن جهة الجنوب بحر الهند، ومن جهة الشرق المفازة المفاصلة بين الهند والسند،.. وأن حدّه من جهة الشمال بلاد الترك[٤٢] وفسّر ياقوت عمق هذه العلاقة بين الإقليمين بقوله: "إن السند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح".[٤٣] وتصوروا أن كل إقليم يتفرع إلى العديد من الولايات، أو كما سمّاها مؤلفونا: "قاعدة"، أو "قسم" ورمزوا لكل قاعدة أو قسم بمدينة عاصمة، أو ب"قصبة"، وعلى هذا فقد تفرع عن "إقليم السند"، العديد من المدن الكبرى تمثل التقسيمات الإدارية لهذا الإقليم، والحال نفسه ينطبق على "إقليم الهند".وأشار العمري، في القرن الرابع عشر، في زمن الحكم المغولي للهند، ان أمهات الأقاليم في المملكة الهندية – المغولية، هي ثلاثة وعشرون إقليماً، وقد رمز لكل إقليم بمدينة رئيسية[٤٤]

مدن وأقاليم

اعتاد مؤلفونا أثناء تعرضهم لأحوال الهند أو الصين أو الحضارات الأخرى، أن يخصّصوا محوراً رئيسياً في أبحاثهم لوصف مدن تلك الحضارات، فإلى جانب تصوراتهم العامة عن الهند: بشر وثقافة وأسلوب حياة، وحكومة وملك، وعادات وتقاليد، فقد امتلأت مصنفاتهم بوصف مدن كل إقليم من أقاليم الهند، بجوانبها المختلفة: موقعها الجغرافي، إسلوب حياة سكانها، وتجارتها وصناعتها ووظائفها التجارية، وعاداتها، وتقاليدها، دون أن ينسوا ما فيها من عجائب وغرائب، فقدموا، في أحيان كثيرة، دراسة أثنوغرافية لحال تلك المدن في العصر الوسيط، ونواة لدراسة أنثروبولوجية في أحيان اخرى.

مدن إقليم السند

أهم المدن التي لفتت انتباه مؤلفينا في السند: المنصورة وملتان والديبل، والبيرون، وسدوسان، وأزور، ومكران، والتيز، وطوران، وقزدان، والبدهة.

المنصورة: كان إسمها القديم حسب ياقوت (همناباد)[٤٥] ولعلها الآن حيدر آباد على نهر السند، يذكرها ابن حوقل، في القرن العاشر، على أن مساحتها كانت "في الطول والعرض نحو ميل في مثله"، ويحيط بها "خليج نهر مهران، وهي شبيهة بالجزيرة"، وهي مدينة حارة، ينبت فيها النخل، وقصب السكر "يعقد منه القند الغزير" وبأرضها "ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمون حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنبج، تقارب طعم الخوخ" ولاحظ خلوها من العنب والتفاح والجوز والكمثرى، وأن "أسعارها رخيصة وبها خصيب، ونقودها القندهاريات" ولهم درهم يقال له الطاطري، ويتعاملون بالدنانير أيضاً"[٤٦] ولا يكتفي ابن حوقل بتلك المعطيات عن المدينة، فهو يصف أزياء سكانها عامة وخاصة، والهوية القومية لسكانها، ولحاكميها، فأهلها "مسلمون، وملكها من قريش من ولد هبار بن الأسود، وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم، وإيثارهم على من سواهم،غير أن الخطبة لبني العباس"[٤٧] ولما زارها المسعودي في منتصف القرن الرابع الهجري، كان عليها ملك عربي، اسمه "أبو المنذر عمر بن عبد الله"، بحوزته فيلة حربية، عددها "ثمانون فيلاً رسمُ (خصص) كلّ فيل أن يكون حوله خمسمائة رجل، وأنه يحارب ألوفاً من الخيل"، وكان للملك (فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند".[٤٨] وهو تعبير عن علو مكانته، وقوته. والمنصورة مدينة غنية، يصل مجموع الضياع والقرى التابعة لها حوالي ثلاثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة".[٤٩] وذكر الإدريسي بأنها "مدينة كبيرة فيها بشر كثر، وتجار مياسير وأموال، وماشية وزرع، وحدائق وبساتين.. والتجار بها كثيرون والأسواق قائمة والأرزاق دائرة" وذكر عن مساكنها أن "بناءها باللبن والآجر والجص، وهي فرجة (واسعة) المساكن.[٥٠] أما عن لباس ساكنيها "فزيهم كزي أهل العراق، غير أن زي ملوكهم يقارب زي ملوك الهند، في الشعور والقراطق".[٥١] ونبهنا المقدسي البشاري إلى غزارة المواد التجارية الدولية التي تنتقل من المنصورة، ومنها "النعال الكنبانية النفيسة، ومنها تُحمل الفيلة والعاج، والأشياء الرفيعة، والعقاقير النافعة".[٥٢]

الملتان: كانت حتى القرن العاشر الميلادي، يقودها ملك من العرب، هو حسب رواية المسعودي "من ولد أسامة بن لؤي بن غالب"،وتقع ملتان على مجرى نهر مهران، الذي "يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند". حتى "ينتهي إلى بلاد الملتان، ومن هناك يسمى مهران الذهب".[٥٣] وهي قريبة من (المنصورة)، وتسمى (فرج بيت الذهب) لأن المسلمين لما فتحوا الملتان، كما روى مؤرخونا، "كان الأمر عليهم ضيقاً (صعباً)، فوجدوا بها من الذهب ما أغناهم"[٥٤] ،وذلك بفضل صنمها الشهير، وهو صنم أهتم مؤلفونا في وصفه بدقه، وحافظ الولاة العرب على بنائه، وسمحوا لسدنته بالإستمرار في حمايته والعناية به، والقيام بطقوسهم المعتادة فيه، واقترنت عندهم الملتان بهذا الصنم الشهير، لذا نجد، ابن حوقل يشير على أنها "مدينة نحو المنصورة في الكبر،

وتسمّى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند، التي تجتمع إليه من أقاصي بلدانها، وسائر أصقاعها، ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وسدنته، والمعتكفين عليه، وسميت الملتان بإسم الصنم".[٥٥]

ودأب هؤلاء المؤلفون، على وصف هذا الصنم، بشيء من الإستغراب، دون عدائية، ودون أن يستنكروا بقائه عامراً في ظل السيطرة الإسلامية على المدينة، فذكر المقدسي أن "هذا الصنم قصر مبني في أعمق موضع من الأسواق، وسطه قبّه حسنة حولها بيت الخدم، وهو(أي الصنم) تحت القبة على صورة رجل متربع عل كرسي من جص وآجر، وقد ألبسوه جلداً يشبه السنجاب الأحمر لا يتبين منه غير عينيه، وهما جوهرتان، وعلى رأسه إكليل الذهب، قد مدّ باعيه على ركبتيه، وقبض أصابع يديه كأنه يحسب أربعة".[٥٦] ولم ينسوا الطقوس العبادية التي تُمارس في حضرة هذا الصنم، والثروة الطائلة التي تجمع لأجله من الهنود، وأن "عامة ما يُحمل إلى هذا الصنم من المال، فإنما يأخذه أمير المولتان، وينفق على السدنة منه، ويرفع الباقي لنفسه".[٥٧] فهو صنم كما يقول الإدريسي معظّم عند الهنود "يحجون إليه من أقاصي بلدانهم، ويتصدقون عليه بأموال جمه، وحلي كثيرة، وطيب، وشيء يقصر الوصف عنه تعظيماً له وإجلالاً، إلا أنه لا يجد من يعبده في الملتان، إلا هؤلاء الذين في القصر، مع هذا الصنم، وغير ذلك من أهل الهند والسند، إنما يحجون إليه تعظيماً له".[٥٨] وقدّم ابن رسته تقريراً شاملاً عن العبادات المحيطة بالصنم، فينقل عن الهنود تصورهم "أن هذا الصنم نزل من السماء، وأُمرنا بعبادته"، ولاحظ، أن لهذا الصنم سدنة يقومون عليه، يجبون له من زواره مايكفي لنفقاته، سوى ما يجري على سدنته من طعام وشراب وكسوة، "والهند كلها ترى الحجّ إليه، وإذا مات الرجل موسراً أوصى له بشطر من ماله، أو بماله أجمع، يتقرّب إلى ذلك الصنم، ويحجون إليه من مسيرة سنة أو أكثر، ويحلقون رؤوسهم عنده، ويطوفون سبعاً على اليسار تقرباً إليه، وتضرعاً، ويتمرغون بين يديه، ويخشعون، وله أربعة أوجه، حيث ما دار استقبله وجهه، ويقولون: "هذا إله يُعبد، له إقبال ولا إدبار، حيث ما رأيته استقبلك بوجهه".[٥٩] وأشار إلى طقوس أخرى غريبة ارتبطت بعبادته، فيها استهانة بالجسد.فالهنود إذا قدموا إليه "طافوا حوله، وسجدوا له عند كل وجه يستقبله"[٦٠] فمنهم من يقلع عينه ويضعها في كمه، فيقول للصنم "إيها البُد قد تقربت إليك بها، فأطل عمري وارزقني وأفعل بي كذا وكذا"، "ويمشون إليه من أقاصي الهند، يحمل الواحد منهم قطعتي صندل أحمر على عاتقه، يضع الأولى على بعد فرسخ، أي ثلاثة أميال، من نقطة انطلاقه، ويتقدم بالأخرى فيضعها بعيدة عن الأولى بالمسافة نفسها، ثم يعود مجدّداً إلى الأول، فينقلها بعيدة عن الثانية مسافة أخرى، وهكذا يتقدم ويتراجع مسيرة سنة ليصل إلى الصنم. ومن الهنود من يحج ليستأذن الصنم بالموت، قائلاً له: "إئذن لي بالموت"، فيعمد إلى خشبة طويلة، يجعل رأسها حاداً وينصبها في الأرض، ثم يصعد إلى فوقها فيُدخل رأس الخشبة الحادة في بطنه حتى يخرج من ظهره، فيموت "بغرض التقرب من البُد" وهناك منهم من يأتي بالمال العظيم فيطرحه بين يدي الصنم قائلاً: "يا إلهه وسيده أقبل: هذا معونة من مالي".[٦١] وأشار ابن رسته إلى أن لهذا الصنم، كما لغيره من الأصنام، الكثيرة من السدنة، لا يأتون النساء ولا يأكلون اللحم ولا يذبحون الذبائح، لا يلبسون الثياب الدنسة، وعند دخولهم إلى الأصنام يتطيبون" وليس يدخلها عليهم غيرهم". وإذا دخل السادن على صنم "برك على ركبتيه وجمع كفيه وبسطها، وسأله أن ينظر إليه، ويرحمه، ويبكي ويتضرع إليه ويدعوا".[٦٢] ولهذا الصنم مطبخ يطبخون للصنم فيه الأرز الجيد، والأطعمة من السمك والحشيش، يضمخونها بالطيب، ثم يأتون بورق موز عريض مقدار ما يلف الرجل فيه، فيبسطه السادن بين يدي الصنم، ثم يصب الأرز عليه، بقدر نصف قامة رجل، ثم يغمر به وجه الصنم، معتقداً "أنه قد أكل" ويسبق تقديم الطعام للصنم، دورة حول بيت الصنم بالصنوج والزمر، والطبول "وربما دارت حوله مائة جارية... فيقلن :نحن نرقّصه ونترضاه"، ثم ينقلون ذلك الطعام، من بين يديه، معتقدين أنه "قد تصدق به" فينتفع بذلك الطعام، كل من يمرّ

بذلك الصنم، بما فيهم "الطير والكلاب"، قائلين: "هذه صدقته في كل يوم" بعدها يغسلون الصنم "باللبن، وربما غُسل بالسمن، فيُغسل به، بعد ذلك، مرضاهم يستشفون به".(٦٣)

قدّم ابن رسته بذلك وصفاً تفصيلياً للعبادات، والطقوس المتعلقة بصنم ملتان،ناقلاً بذلك ماسمعه وقرأ عنه، كل ذلك، بلغة الباحث الموضوعي، على الرغم من التباين بين هذه العبادات والاعتقاد الإسلامي.

أما عن مدينة الملتان نفسها، فقد نقل القزويني عن الرحالة أبي دلف، أنها "مدينة منيعة حصينة، جليلة عند أهل الصين والهند، وأنها بيت حجّهم ودار عبادتهم كمكّة لنا، وأهلها مسلمون وكفار، (يقصد بذلك الهندوس والبوذيين) والمدينة في دولة المسلمين، وللكفار القبة العظمى والبد الأكبر، والجامع مصاقب لهذه القبة، والإسلام بها ظاهر".(٦٤) وعندما مرّ بها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي، وجدها تابعة لسلطان دلهي المسلم، حين كان وداي السند" أول عمالة للسلطان المعظم محمد باشا، ملك الهند والسند"، وكانت الملتان "قاعدة بلاد السند، ومسكن أمير أمرائه"، وكانت عادة هذا الأمير "أن ياخذ الربع من كل ما يجلبه التجار، ويأخذ على كل فرس سبعة دنانير مغرماً".(٦٥) وتبعد عن الهند مسيرة أربعين يوماً، غير أن تنظيم البريد،كان دقيقاَومنظماً، في تلك الأيام،في ظل الامبراطورية الهندية، بطريقة سمحت لبريد السلطان، في دهلي، من الوصول إلى السند في خمسة أيام، ولاحظ ابن بطوطة حينذاك أن البريد ببلاد الهند على صنفين، فهناك (بريد الخيل)، ويسمونه الولاق (أولاق)، وهي خيل للسطان، تتخذ لها محطة في كل أربعة أميال، تسلّم فيها خيول المحطة الاولى، خيول المحطة التالية ما تحمله من بريد، ثم تنقل هذه بريدها إلى المحطة الثالثة وهكذا، بالإضافة إلى هذا النوع، هناك بريد يعتمد على الرجال، يسمى (بريد الرجال) ويقوم ترتيبه، على إقامة ثلاث قباب في كل ثلاثة أميال، مستعدين للإنطلاق، عند قدوم البريد، ويحمل هؤلاء الرجال مقرعة بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، يركض الرجل بمنتهى جهده، فإذا سمع الرجال، الذين بالقباب، صوت الجلاجل تأهبوا، فإذا وصلهم البريد، أخذ أحدهم الكتاب ومرَّ بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الاخرى، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد له. "وهذا البريد أسرع من بريد الخيل، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان.. حتى تصل إلى السلطان، وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب، يجلس الرجل على السرير، ويرفعونه فوق رؤوسهم، وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان".(٦٦)

ورأى ابن بطوطة عندما اجتاز السند، ودخل غيضة قصب على جانبي الطريق الكركدن،" صورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم، ورأسه كبير متفاوت الضخامة، وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثين ذراعاً".(٦٧) ورأى الكركدن مرة اخرى وهو بصحبة " ملك الهند"، ثم وصل إلى مدينة (جنابي) وهي "مدينة كبيرة على ساحل نهر السند، لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لها السامرة، استوطنوها قديماً واستقر بها أسلافهم" ونقل من عادات هذه الطائفة، المعرفة بالسامرة أنهم "لا يأكلون مع أحد، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم، ولا يصاهرهم أحد".(٦٨) وكان أميرهم اسمه ونار، يسكن في مدينة (سيوستان)، وهذه مدينة كبيرة، حولها صحراء ورمال، ليس فيها أشجار، "ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ، وطعامهم الذرة، والجلبان، ويسمونه المشنك، ومنه يصنعون الخبز"، وبها سمك كثير، كذلك ألبان الجاموس، وأهلها يأكلون السقنقور، وهي دويبه.. لاذنب لها، يحتفرون الرمل كي يستخرجونها، ولما رأى هذه الدويبة، وهم يأكلونها "استقذرتها فلم آكلها"(٦٩) غير أن هناك أطعمة أخرى لهم أثارت اهتمامه، إذ وجد أن "خبزهم الرقاق، وهو شبه الجرادق"، يأتون،أحياناَ، بذلك الخبز، ثم يقطعون اللحم المشوي قطعاً كبيرة، حتى أنهم يقطعون الشاة أربع قطع أو ستاً، ويضعون أمام كل رجل قطعة، ويتناولون بعد طعامهم شراب الفقاع وبعده ياتون بالتنبول والفوفل(٧٠) وتحدث ابن بطوطة أيضاً عن مدينة، سماها (كاهري)، على أنها

مدينة حسنة عل ساحل البحر الكبير (المحيط الهندي) ويصب بها نهر السند في البحر، ولها مرسى عظيم، يأتي إليه أهل اليمن، وأهل فارس وغيرهم، لهذا "عظمت جبايتها وكثرت أموالها".(٧١)

وذكروا من مدن السند (قندابيل)، ويعتقد أنها قرية جنود Gandawa الحالية، التي على شرقيها جبال الخيزران، التي في أوديتها (الساج)، الذي يحمله التجار إلى فارس والعراق عن طريق البحر.(٧٢) وهي مدينة كبيرة تخلو من النخيل، وبها رستاق (أي سهل) يعرف (بأيُل)، "وفيه مسلمون وكفار وثنيون من مدينة (البدهة)، ولهم غلات وزروع وكروم ومواشي.. وإبل وغنم وبقر وأكثر زرعهم البخوس".(٧٣) وأهل البدهة يتجرون مع قرنديل وهم على البداوة، "لهم أخصاص وآجام يأوون إليها، وبطائح مياه يعيشون بينها".(٧٤) ويعدّهم مؤلفونا مع قوم (الميد) كفار، وهي ما يعني بالنسبة لهم من لا يؤمن بكتاب سماوي، فهو ينطبق على البراهمية والبوذية، والمجوسية، وعلى الديانات الوثنية بشكل عام، أشار ابن حوقل أن "الكفار في بلد السند هم البدهة وقوم يُعرفون بالميد، وهم قبائل مفترشة ما بين حدود طوران ومكران والملتان ومدن المنصورة.. وهم أهل إبل".(٧٥)

وأشاروا إلى أن أرض (مكران) يغلب عليها "البوادي، والزروع البخوس، لانها قليلة الأنهارً"،(٧٦) ويتكلم أهل مكران بلسان مكراني وفارسي، "ولباس عامتهم القراطق، ولباس التجار والجلّة منهم (أي علية القوم) القمص والأردية، ويتعممون بالفوط والمناديل المصفحة بالذهب، مثل زي تجار أهل العراق وفارس(٧٧) أما البوادي والبطائح بين المنصورة والمكران فعليها طائفة سمّاها مؤلفونا (الزط)، وهم الذين قاتل قسم منهم مع جيوش محمد بن القاسم، كما رأينا، واعتبروا في حضيض البناء التراتبي للمجتمع الهندي، فهم "طوائف من السند يعرفون بالزط، فمن كان قريباً من الشواطئ، فهو يسكن بأخصاص (أكواخ)، كأخصاص البربر، وطعامهم السمك، وطير الماء، أما من بعد من الزط عن الشط في البوادي "فهم كالأكراد يتغذون الألبان والأجبان وخبز الذرة".(٧٨)

وأهم المدن الساحلية لإقليم السند، التي أثارت انتباه مؤلفينا، كانت مدينة (الديبل)، وهي في موقع كراتشي الحالية، على البحر الهندي، على شرقي نهر مهران، قدّم ابن حوقل صورة مركبة عنها بقوله: "والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها في وجوه كثيرة، وهي فرضة هذه البلاد وغيرها، وزرعهم الباخس، وليس لهم كثير شجر، ولا نخيل، وهو بلد قشف، وإنما مقامهم للتجارة".(٧٩) فالغالب على الديبل هو وظيفتها التجارية مع العالم الخارجي، وهو ما عبر عنه المقدسي بقوله :إن"أهلها كلهم تجار، كلامهم سندي وعربي، وهي فرضة الكورة، كثيرة الدخل".(٨٠) فكثرة وجود التجار العرب جعل للسان العربي مكانته كلغة محكية، في المدينة إلى جانب اللسان المحلي، أما عن ديانة السكان، فنعرف أنهم على الديانة الهندية، التي ينعتونها بالكفر، طالما أنها تؤمن بتعدد الآلهة، وتختلط بالوثنية، فالديبل محاطة بنحو (مائة قرية أكثرهم كفاراً)(٨١) ووصفها الإدريسي بصورة إجمالية، متحدثاَ عن ثروتها، وعمارتها،و تجارتها الدولية، "فالديبل كثيرة الناس، جدبة الأرض، قليلة الخصب، ليس بها شجرة ولا نخل، جبالها جرد، وسهولها قشفة عديمة النبات، وأكثر بنيانها بالطين والخشب، وتجارة أهلها من وجوه شتى وأساليب متفرقة... وأن مراكب العّمانيين تقصدها بأمتعتها وبضائعها وقد ترد عليها مراكب الصين والهند بالثياب والامتعة الصينية، والأفاوية العطرية الهندية".(٨٢) وعندما تحدث المقدسي، في القرن العاشر الميلادي، عن إقليم السند بمجمله، كان لا يزال أكثر سكانه على الوثنية، إذ لم يصبح الإسلام هو الدين المهيمن بعد، فهذا الإقليم (ذمته عبدة أوثان، وليس للمذّكرين به صيت، ولا لهم رسوم تذكر".(٨٣) ولكن الوضع الديني، في الإقليم قد اختلف، في زمن رحلة ابن بطوطة، حيث صارت الهيمنة للإسلام، والمسلمين، سكانياً ودينياً.

إقليم الهند

أما الإقليم الثاني، وهو الهند فيوزعه البعض على قاعدتين: القاعدة الأولى: مدينة دهلي، والقاعدة الثانية: مدينة الدواكير، وكل من هاتين القاعدتين تحاط بأقاليم متسعة، وبلدان شاسعة، وقسمه آخرون إلى ثلاثة أقسام، الأول، بلاد كجرات، به العديد من المدن، مثل نهرواله، وكنبايت، وتانه، وصومنات، وسندان، وهي أغلبها على الساحل الغربي من الهند، شمال شواطئ ماليبار، وهذا الإقليم في إقليم كجرات الحالي، أما القسم الثاني من إقليم الهند، فهو بلاد المنيبار، على حد قول القلقشندي، وهي على مليبار الحالية، ويقول عنه المؤلفون العرب "المنيبار هي بلاد الفلفل"، ومدنه: هنود، وباسرور، ومنجرور، والكولم، وهي آخر بلاد الفلفل من الشرق، والقسم الثالث من إقليم الهند: بلاد المعبر، وهي "شرقي بلاد الكولم بثلاث أيام أو أربعة، وشمالها جبال ملتصقة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند، وبلاد المعبر تشمل على عدة جزائر كبار" و من مدنه: بيرداول، وماهوره، ولوهور، وقنوج، والأخيرة" قاعدة لهاور، وهي بين ذراعين من نهر الكنج... في أقاصي الهند في جهة الشرق". وهي مدينة "حسنة، كثيرة التجارات، ومن مدنها قشمير الخارجية، وقشمير الداخلية وملكها يسمى القنوج باسمها".[٨٤] إلى جانب هذا التقسيم، فإن العمري عرض علينا تقسيماً آخر للهند، على زمن الإمبراطورية المغولية – الهندية، يتألف من ثلاثة وعشرين إقليماً، على رأس كل إقليم مدينة عاصمة،ورمزاً له، وهي: إقليم الهند، إقليم الدواكير، وإقليم الملتان، وكهران، وسامانا، وإقليم المعبر، وإقليم القنوج، وسيوستان، وروجا، وهاس، وسرستي، وتكنك، وكجرات، وبدوان، وعوض، وبهار، وكره، وملاوة ولكنوتي، ونهاور، وكلانو، وحاجنكيز، وتلنج، ودورسمند، "وهذه الأقاليم تشمل على ألف مدينة ومائتي مدينة، بجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلة... وقراها ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية".[٨٥]

لقد احتل اهتمام الباحثين العرب،حتى القرن الحادي عشر الميلادي،الأقاليم الساحلية، ومدنها، وممالكها، وإماراتها، ولاسيما ساحل مليبار، وجنوبه ساحل المعبر في الساحل الشرقي للهند،هذا بالإضافة إلى مدن إقليم السند، وكجرات ومدينته الرئيسية أحمد آباد، أما فيما بعد، خاصة إثر سيطرة الغوريين على دلهي والمناطق الشمالية، فقد ظلت للمدن الكبرى حظوتها في دراستهم الحضارية / الثقافية للهند. ولقد اختلفت علاقات العرب مع الجهات المختلفة للهند وأقاليمه، فبينما كانوا حاكمين في السند، كانت الأسرة الحاكمة (جورجاوابرتهارا) في قتوج، وأسرة (راشتركوتا) في الدكن يحميان التجار العرب الذين أقاموا في مناطقهم، وتعاملوا معهم بترحاب، واتبعوا سياسة ودّية تجاه العرب تجاراً، ومقيمين، في وقت كانوا على تنافر مع الأمراء الآخرين في شمال الهند، مثل (بالا) في البنغال، وشهدت تلك الفترة تطاحن سياسي بين الأسر الحاكمة الثلاثة القوية في شمال الهند ووسطها، وكان العرب متنبهين لهذه العلاقات الشائكة،[٨٦] وبمقدارماكانوا فيه يعرفون كثرة المدن الهندية، وكثرة ملوكها، تعاملوا مع الهند كبلد عريق بالحضارة تصل عدد مدنه إلى حدود ألف ومائتي مدينة'[٨٧] غير أننا سنكتفي – هنا – لأبرز المدن التي وصفوها، بادئين بمدن الساحل في ماليبار وكروماندل (المعبر)، متنقلين شمالاً، لنختم هذه الفقرة بالعاصمة الإمبراطورية دهلي (دلهي).

أدرك المؤلفون العرب غنى ساحل ماليبار بالفلفل والمواد التجارية الأخرى، لذا أطلقوا عليه لقب "بلاد الفلفل"، وأضاف القلقشندي إلى ذلك قوله: إن جميع بلاد المليبار "مخضرة كثيرة المياه والأشجار الملتفة".[٨٨] وذكر من مدنه هنور التي تقع غربي سندابور من بلاد النجرات (الكجرات)، وهي أول بلاد المليبار، وباسرور وهي أكبر مدنه، وملكها كافر، ووراءها بثلاثة أيام جبل عظيم داخل في البحر، يسمى رأس هيلي، ومنها تندور وهي شرق هلي، والكولم. [٨٩]

وقد زار ابن بطوطة ساحل المليبار عقب مغادرته الهند إلى الصين، وكرّر ما قاله عنها سابقوه من العرب: "هي بلاد الفلفل"، وقدّر طولها "مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق جميعها بين ظلال وأشجار".[٩٠] ويبدو من عرض ابن بطوطة، الأهمية التي يوليها أهل ماليبار لطرق التجارة، ولطرق السفر، إذ لاحظ، أنه في كل نصف ميل يوجد بيت من الخشب فيه دكاكين، يقعد عليها "كل وارد وصادر من

مسلم وكافر" فتبادل المنافع، وروح التسامح التي تتسم بها علاقة السكان هناك، بالقادمين من العرب المسلمين: تجار ورحالة، ومقيمين، تجعل من تقديم الخدمات للجميع عادة سائدة، باستثناء بعض التمييزات في التعامل، "فعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها، فمن كان كافراً سقاه في الأواني، ومن كان مسلماً سقاه في يديه، ولايزال يصب حتى يشير له أن يكف". بالإضافة إلى ذلك فإن "عادة الكفار ببلاد المليبار، أن لا يدخل المسلم دورهم، ولا يطعمهم في أوانيهم، فإن طعم فيها كسروها، وأعطوها للمسلمين، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لايكون فيه دار للمسلمين، طبخوا له الطعام، وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير".[٩١]، اختصر ابن بطوطة حال المسلمين بقوله "والمسلمون أعز الناس بها، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم، ولا يدخلون دورهم".[٩٢] غير أن ما يخفف على العرب المسلمين في تجوالهم، هو وجود جاليات مسلمة في أغلب المدن هناك، وعلى الطرق، وهو ما أشار إليه ابن بطوطة "وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين، ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه، ويطبخون لهم الطعام، ولولاهم لما سافر فيه مسلم".[٩٣]

كما لاحظ ابن بطوطة انتشار السكان والعمارة على امتداد الساحل "فهذا الطريق التي ذكرنا أنه مسيرة شهرين، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة، وكل إنسان بستانه على حدة وداره في وسطه، وعلى الجميع حائط خشب، والطريق يمر في البساتين".[٩٤] وأشار إلى أن ركوب الخيل في السفر يختص به السلطان وحده، "ولا تكون الخيل إلاّ عند السلطان، وأكثر ركوب أهلها في دوله (وهي شبه محفة يحملها الرجال)، ويمشى على قدميه كائناً من كان"، ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها أكترى رجالاً يحملون ماعنده على ظهورهم، فهناك تجار يستكرون مائة رجل، أو أقل أو أكثر، ليحملوا بضائعهم، إلاّ أن هذه الطريق يمتاز بالأمان، في هذه البلاد، التي كانت بعضها آنئذ تابعة إسمياً لسلطان دلهي (محمد شاه) تغلق، ويصف ابن بطوطة هذه الطريق بقوله : (ولم أر طريقاً أمن من هذه الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة".[٩٥] حتى إن سقطت الثمار في الطريق لا يلتقطها أحد، فمن يسرق عرّض نفسه لحكم قاس من قبل الحكام هناك، وذلك بأن يخترق بطنه عود حتى يخرج من ظهره.[٩٦]

أما عن حال توزع السلطة ففي "بلاد المليبار، فهناك "إثنا عشر سلطاناً من الكفار، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف"، وعلى الرغم من ذلك فلا "فتنة بينهم البتة، ولا يطمح القوي منهم انتزاع ما بيد الضعيف".[٩٧]

وكان هناك سلطان لإقليم المليبار اسمه جمال الدين، يعطيه أهل ماليبار "كل عام شيئاً معلوماً، خوفاً من قوته في البحر"، وهو كالحاكم الوسيط بين سلطان الهند، وسلاطين المليبار، وقد جلس ابن بطوطة على مائدته، التي كانت من نحاس، يسمونها خونجة، عليها طبق نحاس كبير يضعون فيه الطعام، الذي يقدم على أفواج، ومغرفة نحاس كبيرة،وأتت جارية حسناء ملتحفة بثوب حرير، فغرفت بالمغرفة الأرز، وصبت فوقه السمن، وصفّت عناقيد الفلفل المملح والزنجبيل الأخضر، والليمون والعنبا (ثمر المانغا)، فيأكل الرجل لقمة الأرز، ويتبعها بالموالح، ثم تضيف الجارية مرة أخرى الأرز وعليه دجاج، وبعدها قدمت لوناً آخر من الدجاج، ثم بعد الدجاج، قدمت ألوان السمك، فإذا فرغت ألوان السمك، أتت بالخضرة المطبوخة بالسمن، ليأكلوا بها الأرز، ويختمون طعامهم باللبن الرائب المسّمى عندهم بالكوشان. وبعدها يشربون الماء الساخن.[٩٨] وخلال فترة إقامته في المليبار لم يأكل ابن بطوطة الخبز، "لأن طعامهم الأرز"، لدرجة أنه طوال إقامته بجزائر المهل وسيلان، وبلاد الماليبار، لم يأكل إلاّ الأرز.[٩٩]

كمباي: (أوكنباية) أطلق عليها ابن بطوطة، وغيره من المؤلفين، اسم (كنباية) وهي ميناء على الساحل، الذي على مدخله يقع ميناء ديو أو غيو الشهير، وهي تعرف حالياً بهذا الإسم كنباية، وقد زارها المسعودي وابن

بطوطة وأبو دلف، وهي مشهورة. كما يقول ابن سعيد المغربي" فيها مسلمون، ولهم فيها مساجد، وله خور مالح تدخله السفن".(١٠٠) وهي معروفة بنسيجها المتقن، حتى أنه ينسب إليها "القماش الكنبابي".(١٠١) وهي "حسنة الشكل" ومحطة مهمة للسفن التجارية، "بها الإقلاع والحط، وبها حمل بضائع وتجارات، من كل الآفاق، ويخرج منها إلى كل الجهات".(١٠٢) وحينما وصلها ابن بطوطة وهو في طريقه إلى الصين، كانت ما تزال تعج بالنشاط التجاري كمحطة للسفن، وبدت له من "أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء، فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة".(١٠٣) وغدت تابعة لسلطان دلهي (محمد شاه)، وكان (مقبل التلنكي أميراً عليها، وفيها الهندوس، واجناس أخرى إلى جانب المسلمين.(١٠٤) وغادرها ابن بطوطة إلى بلده كاوي، الساحلية، وكانت من بلاد تابعة، لما سمّاه سلطان قندهار جالنسي (الكافر)، إلاّ أنه تابع لملك الهند المسلم، ويعطي الأخير "هدية كل عام".(١٠٥) ثم وصل بعدها إلى مدينة قوقة، "وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق"، وكان لها سلطان اسمه دُنكول، وكان يظهر الطاعة، أيضاً، لملك الهند، وبعد إقلاعه بثلاثة أيام منها نزل على جزيرة (سندابور)، وهي جزيرة "في وسطها ست وثلاثون قرية، وفي وسطها مدينتان: إحداهما قديمة من بناء الكفار (الهندوس)، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة، ومنها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد".(١٠٦) وشاهد في قرب هذه الجزيرة، السحرة الهنود (الجوكية)، إذ وجد "جوكية" مستنداً على حائط بيت أصنام، ساكناً لا يرد على من يخاطبه، ولا طعام لديه.(١٠٧) ثم وصل إلى مدينة(هنور)، وهي على خور كبير "تدخله المراكب الكبار"، فوجد سكان المدينة أكثرهم مسلمين، "لهم صلاح ودين"، وأبدى ابن بطوطة إعجابه بنساء أهل هذه المدينة وبنساء أهل الساحل جميعاً، اللائي على جمالهن، يلفّن أجسادهن بقماش غير مخيط،" تختزم (تمسك) إحداهن طرفي الثوب وتجعل باقية على رأسها وصدرها، ولهن جمال وعفاف، تجعل إحداهن قرص ذهب في أنفها".(١٠٨)، وهن يحفظن القرآن، فقد رأى ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد، ويعتمد "معاش أهلها على التجارة في البحر، ولا زرع لهم".(١٠٩) وعليهم السلطان جمال الدين محمد بن حسن، هو من "خيرة السلاطين"، إلاّ أنه كان تابعاً لسلطان كافر يسمى (هريب).

نلمس في سرد ابن بطوطة كثافة الوجود العربي الإسلامي، في بلاد ساحل المليبار، وهي حقيقة نجدها أيضاً، في وصفه للمدينة التالية في رحلته، وهي (فاكنور) cammanore، وهي مدينة كبيرة على خور، بها الكثير من قصب السكر "الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد" وكان "سلطان فاكنور كافراً، واسمه باسدو"، ولقد نزل بضيافته ابن بطوطة، ثلاثة أيام، فوجد أن من عادته "أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها، وإعطائه هدية إلى صاحب البلد "يسمونها (حق البندر)، ولهذا السلطان نحو ثلاثين مركباً،وكان قائدهم مسلماً يسمى (لولا)،" كان من المفسدين بالبحر، ويسلب التجار"(١١٠)

دخل إثرها إلى مدينة (منجرور)، فكان أكثر ما أثار اهتمامه وعجبه، السحرة "الجوكية" بغرائب أفعالهم وأطوارهم، وقد أقرّ كباقي، المؤلفين العرب، ببراعة الهنود في السحر، فطائفة الجوكية، عند ابن بطوطة "تظهر منها العجائب" فبعضهم يقيم أشهراَ لا يأكل ولا يشرب، ومنهم من يحفر له حفرة تحت الأرض وتبنى عليه، فلا يترك إلاّ موضع صغير يدخل منه الهواء، ويقيم فيها الشهور، وسمع أن بعضهم يقيم سنة، ورأى في منجرور "رجلاً من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة، وأقام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً"، وتركه ابن بطوطة وهو على هذه الحال، فلا يدري كم أقام بعده، وذكر له الناس أنهم يأكلون حبة القمح فتكفيهم أياماَ وأشهراَ، والسلطان المسلم "يعظمهم ويجالسهم"، وفيهم من يقتصر على أكل البقول،و منهم من لا ياكل اللحم وهم الأكثر، "والظاهر من حالتهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة، ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها"(١١١)

ولعل ابن بطوطة هنا يدمج، في وصفه للجوكية،بين السحرة، ورهبان الهندوس الذين يمارسون الرياضة الروحية والجسدية، ويتغلب في وصفه الإعجاب، والدهشة والتعجب، على لغة الاستهجان، وهو قد شهد على كل

حال تأثر المسلمين بهذه الرياضة الروحية العنيفة، وتعظيم سلاطينهم لها.

دخل بعدها، مدينة (منجرور)، فوجدها مدينة كبيرة، على خور يسمى خور الدُنب، وهو "أكبر خور ببلاد المليبار، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن"، ويكثر فيها الفلفل والزنجبيل، وكان سلطانها أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه (رام دو)، وإلى جانب أهلها الهندوس، يسكنها نحو أربعة آلاف من المسلمين، في ربض بناحية المدينة، وهم ضرورة لتجارة المدينة، لذا، إذا وقعت الحرب "بينهم وبين أهل المدينة، يصلح بينهم (السلطان) لحاجته للتجارة" وبها قاض مسلم.(١١٢) سافر عقبها إلى مدينة (هيلي) الساحلية، فرآها مدينة كبيرة "حسنة العمارة"، على خور عظيم "تدخله المراكب الكبار،وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين، التي تدخل إلى مرسى قالقوط ومرسى كولم، ومدينة هيلي "معظّمه عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع،... وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة"، ويقدّم المسجد الطعام للوارد والصادر، ولإطعام الفقراء من المسلمين(١١٣) أما في مدينة (ده فتّن)، القريبة من هلي، فكانت مدينة كبيرة على خور، تكثر فيها البساتين، وبها "النارجل والفلفل والفوفل، والتنبول، والقلقاص يطبخون به اللحم، أما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه، ولا أرخص ثمناً". ووصل إلى مدينة (بدفتن) الساحلية، فكانت مدينة كبيرة على خور كبير، وبخارجها مسجد على مقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين، "لأنه لا مسلم بهذه المدينة... وأكثر أهلها براهمة، وهم معظمّون عند الكفار، مبغضون للمسلمين، لذلك ليس بينهم مسلم"، ومرسى هذه المدينة من أحسن المراسي" وماؤها عذب، والفوفل بها كثير، "ومنها يُحمل للهند والصين".(١١٤)

وغادر (بدفتن) إلى مدينة (فندريا)، الساحلية، فكانت فيها ثلاث محلات،أي حواري، في كل محلة مسجد، وقاضيها وخطيبها من عُمان، وبهذه المدينة (تشتو مراكب الصين).(١١٥) وكان الإدريسي، قد أطلق عليها اسم (فندرية) وقال عنها: إنها على خور صغير ومشهورة بكثرة أرزها، وحبوبها، وينبت بجبالها شجر الفلفل، وتحط بها مراكب التجار من جزائر الهند، والسند، وأهلها ذو يسر، وأسواقها عامرة ومتاجر، ومكاسب.(١١٦)

وكانت (قالقوط) أو كاليكوت، المحطة الرئيسية لرحلة ابن بطوطة على ساحل المليبار، وهي من أهم موانئ الهند، وأقلع منها إلى جزر المالديف، وكان بها جالية إسلامية كبيرة، حتى أن أمير التجار بها عربي من البحرين، اسمه (ابراهيم شاه بندر)، "يجتمع إليه التجار، ويأكلون في سماطة، وقاضيها فخر الدين المعني عثمان "وبها أيضاً أهم التجار البحاره (الناخوذة مثقال)، صاحب أموال طائلة ومراكب كثيرة، وذلك لاتساع تجارته بالهند والصين واليمن وفارس، وعندما نزلها كان بمرساها ثلاثة عشرمركباًمن الصين، وهو ما يدل على عمق صلاتها التجارية بالعالم، فكان "مرساها من أعظم مراسي الدنيا، وكان سلطان قالقوط كافراً يُعرف بالسامري"، حليق اللحية، كطائفة الروم.(١١٧) يلبس قماشاً أبيض يستر به وسطه، حافي القدمين، وعلى رأسه عمامة صغيرة.(١١٨) انتقل ابن بطوطة، من (قالقوط) إلى أهم مرافئ ماليبار في نهاية الساحل الغربي، إلى مدينة (كولم)، والتي كان ينتقل إليها البحار العرب الذاهبين إلى الصين مباشرة من عُمان، وأطلق عليها المؤلفون العرب اسم كولام، او كولم Colm، أو (كولم ملي) وهي في ترافكور الآن،وقدّر السيرافي المسافة بينها وبين مسقط "بشهر على اعتدال الريح" وكانت، لخطورة موقعها التجاري الكبير، موضعاً للسلاح، كالمرقب الحربي للدفاع عنها، ولحماية تجارتها الدولية، أو كما قال السيرافي "وفي كولم ملي، تجيء السفن الصينية، وبها ماء عذب من آبار فيؤخذ من السفن الصينية ألفا درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى عشرين ديناراً".(١١٩) وذكرها الدمشقي على أنها (أخر بلاد الفلفل).(١٢٠) يقصد بلاد المليبار، وهي عند ابن الفقيه (أحسن بلاد المليبار،أسواقاً)(١٢١) وأضاف القلقشندي، إلى ذلك، أنها كثيرة البساتين، وبها شجر البقم، الذي يشبه شجر الرمان، وفيها حارة للمسلمين،وبها جامع.(١٢٢) ونقل القزويني عن أبي دلف مشعر بن مهلهل، الذي زارها في القرن العاشر ميلادي في رحلته إلى الصين، أنها" مدينة عظيمة بأرض الهند". ولعل علاقتهما التجارية الحميمية مع الصين جعل "أهلها يختارون

ملكاً من الصين، إذا مات ملكهم"،وأبدى أبو دلف إعجابه بطراز مساكنها قائلاً "عماراتهم عجيبة، وأساطين بيوتهم من خرز أصلاب السمك"، أما طعامهم، فإنهم (لا يأكلون السمك، ولا يذبحون الحيوان، ويأكلون الميتة" ويصنعون الخزف إذ يعملون (غضائر تباع في بلادنا على أنه صيني...لأن طين الصين أصلب من طين كولم، وأصبر على النار، وغضائر كولم لونها أدكن، وغضائر الصين أبيض".[١٢٣] كما لاحظ تنوع نباتاتها، إذ رأى فيها: منابت الساج المفرط الطول، وبها البقم، والخيزران، والقنا بها كثيرة جداً، وبها الراوند وهو قرع ينبت هناك، وأيضاً ورقة الساذج الهندي العزيز الوجود لأجل أدوية العين. كما فيها أصناف العود والكافور واللبان، والعود يُجلب إليها من جزائر خلف خط الاستواء. وبها معدن الكبريت الأصفر، ومعدن النحاس ينعقد دخانه توتياء جيداً.[١٢٤] وعندما مرّ عليها ابن بطوطة، أكد مجدداً على أنها "أحسن بلاد المالبيار، أسواقها حسان وتجّارها يُعرفون بالصوليين، ولهم أموال عريضة". وأيضاً بها "من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي... من بلاد العراق"، واطلع على صلاتها التجارية بالصين، فهي، "أول ما يوالي الصين من بلاد المالبيار، وإليها يسافر أكثرهم، والمسلمون بها أعزّة محترمون، وكان سلطان كولم كافراً يعرف بالتيروري، وهو معظّم للمسلمين، وله أحكام شديد على السراق والدعار".[١٢٥]

ومن المدن الساحلية الاخرى، التي ذكرها ياقوت، وتقع في الشمال الغربي لساحل المالبيار، في ولاية كجرات، مدينة القسُّ، وهي مشهورة بصناعة أنواع (الثياب والمآزر الملونة) التي تصدّرها إلى شتى البلدان، "وهي أفخر من كل ما يجلب من الهند من هذا الصنف". كما يجلب منها "النيل الذي يُصبغ به، وهو أيضاً أفضل أنواعه".[١٢٦] أما (سومناة)، الكجرانية، الساحلية، التي استولى عليها محمود الغزنوي عام ٤١٦هـ، ١٠٢٥م، وكان لمعبدها قداسة عظمى عند الهندوس، وهو على صورة عضوي التذكير والتأنيث مصنوعين من حجر و ذهب وغيرهما، ويرمز إلى اتحاد نوعي للإنسان،حتى أن الحكومة الهندية، جددّت بنائه بعد نيل الاستقلال، وقد وصف المؤرخ الذهبي (ت ٧٤٨هـ، ١٣٥١م)، هذا الصنم، فذكر أن الهندوس "كانوا يحجون إليه ويقربون له، بحيث أنه بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية، وله ألف رجل يخدمونه، وثلاثمائة مغن يغنون عنده للوافدين".[١٢٧] واعتبر القزويني أن من عجائب هذه المدينة "صنم اسمه سومناة"، كان الصنم "واقفاً وسط هذا البيت لابقوائم من أسفله تدعمه، ولا بعلاّقة من أعلاه تمسكه، وكان أمر هذه الصنم عظيماً عند الهند، ومن رآه واقفاً في الهواء تعجّب، مسلماً كان أم كافراً، وكانت الهنود يحجّون إليه كل ليلة خسوف، يجتمع عنده ما يزيد على مائة ألف أنسان، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه، وهو ينشأها في من شاء، كما هو مذهب أهل التناسخ، وأن المد والجزر عبادة البحر له".[١٢٨] ولعل العجب الذي أثاره هذه الصنم عند العرب المسلمين، جعلهم ينسجون حوله الأساطير، فهو معلق في الهواء دون سند، لدرجة أنهم سردوا بعض الحوادث التفصيلية ليضفوا على تخيلاتهم بعض الواقعية، منها قول بعضهم: إن القبة من حجر المغناطيس والصنم من حديد، ليفسروا وقوفه في الفضاء، وراعوا في بنائه قوة المغناطيس، وقد أذن السلطان محمود برفع حجرين من رأس القبة ليظهر حقيقة ذلك، فلما رفع الحجرين أعوج الصنم، ومال إلى أحد الجوانب، فلم يزل يرفع الأحجار والصنم ينزل حتى وقع على الأرض.[١٢٩] ولقد تصور ياقوت أن صنم سومناة من أعظم بيوت العبادات التي بالهند جميعاً "هو عندهم بمنزلة مكة عند المسلمين".[١٣٠] وتحدث ابن سعيد المغربي بطريقة أشمل على ماليبار، وعلاقة أهلها بهذا الصنم مشيراً إلى أن "أهل هذا الساحل الهندي جميعهم كفار (هندوس)، يعبدون الأبداد، ويسكن معهم المسلمون، وتسافر إليهم مراكبهم، وأكثر ما يعبدون صنم السومانات، وهو معظّم عند الهنود.. وعليه مبنى أبيض يظهر للمراكب في البحر البعيد".[١٣١]

أما (نهروان)، والتي تقع حسب القلقشندي غربي إقليم المليبار على البحر،على مسيرة ثلاثة أيام،[١٣٢] فقد وصفها الإدريسي بإعجاب على أنها قاعدة ملك بهرا الشهير عند العرب، وقريبة من مدينة (بروج) الساحلية، و"أنها مدينة كبيرة جليلة، حسناء البناء بناؤها بالأجر والجص" وأشاد بأهلها رغم أنهم (كفار) حسب زعمه،

"ولأهلها همم عالية وأحوال وافرة وأموال صامتة، وتجارات معروفة"، وأهلها تجار نذروا أنفسهم للترحال "فهم وقف على الاغتراب وكثرة الأسفار، وهي فرضة (مركز) لمن جاء من الصين ولمن جاء من السند ومنها إلى صيمور يومان، وإلى نهرواره ثمان مراحل في بر متصل لا جبل فيه".[١٣٣] فمدينة نهرواره على مسافة من بروج، وعلى تبعية، في القوت نفسه، من ملك بلهرا، ويصل إليها "كثير من تجار المسلمين، وبها تجّولهم"، وهذا البلد مضياف "للمسافرين بها إكرام من ملكها"، أما طعامهم، فيعتمد على "الأرز والحمص والباقلي، والعدس والماش، والسمك والحيوانات، التي تموت موتاً طبيعياً "فمنهم "لا يذبحون طائراً ولا حيواناً"، أما البقر "فإنها محرمة عند همالبتة، فإذا ماتت دُفنت، وهذا فعلهم في البقر خاصة، دون سائر البهائم".[١٣٤]

وقد تعرّف المؤلفون العرب على ساحل كروماندل، في خليج البنغال، وهو ساحل الهند الشرقي، أطلق عليه العرب اسم (المعبر)، وكان مركزاً رئيسياً للتجارة مع بلاد الشرق الأقصى،وقصدته سفن العرب، وإن لم تكن بالكثرة التي عرفها الساحل الغربي، وهو قد اشتهر بدقة صناعاته للمنسوجات القطنية، ذكره القلقشندي، مستعيناً بأبي الفداء، وابن سعيد المغربي، بقوله: "إنه في شرق بلاد الكولم بثلاثة أو أربعة أيام، وهو مشهور على الألسن، ومنه يجلب اللانس... وفي شماله جبال متصلة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند".[١٣٥] وقد قصد ابن بطوطة (المعبر)، عقب زيارته جزر المالديف وسيلان، فالتقى على شاطئه بـ"بعض الكفار" فادخلوه على غيضة عظيمة، وقدموا له ولأصحابه الفاكهة الشبيهة بالبطيخ، والسمك الطيب، فجاؤوا بدوله (محفة) وعشرة خيول، فركب وأصحابه، بعد أن أعلمهم أنه رسول سلطان دلهي، إلى أن وصلوا إلى سلطان المعبر المسلم، واسمه (غياث الدين)، وكان المعبرآنئذ "تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي"، وأذن له السلطان بالمثول أمامه، واكتشف ابن بطوطة أن من عادتهم هناك: "أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف". في حين أنه كان لا يملك خفاً، فكانت مفاجأة ابن بطوطة أن (الكفار) الهندوس قدموا له خفاً، بينما تقاعس عن ذلك المسلمون، فعجب "من أن الكافر كان أتم مروءة منهم".[١٣٦] وكان من عادة السلطان، في ضيافته "أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام، كما يُفعل ببلادنا". وقد أغاظت ابن بطوطة، لدرجة التقزز، القسوة التي وجدها من جنود السلطان، تجاه الأسرى التي يجدونهم في الغابة التي اخترقوها، إذ يذبحونهم مع نسائهم وأطفالهم، فعلق قائلاً "وذلك أمر شنيع، ما علمته لأحد من الملوك".[١٣٧] انتقل إلى البلاد المجاورة فكان أن وجد نفسه في بلاد سلطان "كافر يسمى بلال ديو، وهو من كبار سلاطين الكفار، يزيد عسكره على مائة ألف"، بالإضافة إلى "نحو عشرين ألفاً من المسلمين".[١٣٨]

ورحل إلى مدينة (فتن)، فوجدها، كبيرة حسنة على الساحل، "ومرساها عجيب"، ولها بناءحصين يحميها من الغزاة، صنعت فيه قبة خشبية ضخمة، يجري الصعود على القبة عن طريق خشبي مسقوف، "فإذا جاء العدو ضموا إليه الاجفان" التي بالمرسى، ثم يصعد الرماة ليتصدوا للمهاجمين، ورأى في المدينة جامع مبني بالحجارة، وفيها الكثير من العنب والرمان الطيب، وسمع أن أحد الجوكية السحره عمل خلطة للقوة على الجماع ممزوجة ببرادة الحديد، إذا أكل منها الرجل أكثر من الحاجة مرض.[١٣٩] ورجع من هناك إلى قالقوط، كما ذكر الدمشقي أن على المعبر (بلاد كرورا)، هي "آخر ما ينتهي إليه التجار" وفيه من المدن كرورا، وفيها "بُد" مقصود، يأتيه الهنود من مسيرة سنه،حيث يقومون "بأنواع العبادات"، أما طقوسهم المتبعة، فمنهم "من يلقي بنفسه زحفاً.. حتى يصل إليه"، ومنهم من "يلقي بنفسه من قامته على وجه الأرض". ومنهم من يتجه إليه "حتى يصل أو يموت في طريقه"، ومنهم من يظفّر شعره قروناً ملفوفة، ويسقيها بالسليط والسمن والدهن، ويأخذ خنجراً، ثم يقصد بيت النار ومعه أصحابه وجمع من السدنة يزحفون إلى النار، فإذا قاربها أخذ النار وأشعل بها قرونه، ثم يقطع جلد بطنه بالخنجر، ويدخل يده إلى كبده، ليخرجه ويلقي نفسه بالنار، فتحرقه النار، فإذا صار رماداً ذروه في نهر الكنك، وذلك لأن الهنود يقولون بالتناسخ.[١٤٠]

وإذا انتقلنا إلى البر الهندي، نجد أن مدينة (قنوج)، التي كانت من أبرز المدن التي اهتم بها مؤلفونا، وهي من أقدم مدن الهند، ولعلها من مهود الحضارة الهندية، ذكرها بطليموس سنة أربعين بعد الميلاد باسم قنوجيا، وكانت المملكة التي اتخذتها عاصمة لها، في زمن هيوين سانغ، تمتد من كشمير إلى أسام، ومن نيبال إلى نريدا، وأعجب بها محمود الغزنوي أي إعجاب، فرآها عندما هاجمها سنة ١٠١٦م، مدينة تناطح السحاب بحصونها، ومبانيها جديرة بأن تفتخر بأنها لا نظير لها.[١٤١] وهي من أهم إمارات الهند، إذ تمتد من السند إلى البنغال.[١٤٢]

اختلف المؤلفون العرب في تقدير موقع قنوج، فهناك من يضعها كعاصمة لمملكة بؤرة، كالمسعودي[١٤٣] وآخر يحسبها عاصمة ملك بلهرا، كابن سعيد المغربي.[١٤٤] بينما ذهب القلقشندي إلى أنها قاعدة (لهارو)، وهي بين ذراعي نهر كنك (الغانج)، ونقل عن المهلبي،أنها تبعد عن الملتان حوالي مئتان واثنين وثمانين فرسخاً، "وهي مصر الهند وفيهاأعظم الملوك، وقد بالغ الناس في تعظيمها حتى قالوا: إن بها ثلاثمائة سوق للجوهر، ولملكها ألفان وخمسمائة فيل، وفيها الكثير من معادن الذهب، وملكها يسمى قنوج.[١٤٥] ويشير المقدسي البشاري إلى أن في قنوج جالية مسلمة إلاّ أن الغلبة فيها للكفار، أما عن حالتها المعيشية، فبها لحوم كثيرة، ومياه غزيرة، وبساتين، وهي بلد فسيح، ومتاجرها مربحة، وموزها كثير ورخيص، إلا أنها قليلة الدقيق، وأهلها يأكلون الأرز، ويلبسون الأرز، بينما أكثر حكام المسلمين فيها يأكل الحنطة، وبها جامع وعلماء مسلمين أجلاء، يصطاف بها الملوك، عند شدّة الحر، وأهلها ذوو "وجوه حسنة".[١٤٦] وركّز ابن سعيد المغربي على ما يحيط بها من عبادات للبراهمه، فهي "بين ذراعين من نهر الكنك المعظم عند الهنود" لتصير على شكل جزيرة، وعلى جانبي هذا النهر، وفي انحداره حتى بحر الهند "قلاع البراهمة التي لا ترى، وهم عبّاد الهند الذين ينسبون إلى البرهمن.[١٤٧] وفي المدينة الفيلة، كثير والكركدنات، ويقال، إن الفلفل في مجاري مياهها، بحيث لا يصل إليه أحد، وتأخذه السيول، حتى يُلتقط وينشّف[١٤٨] وعندما دخلها ابن بطوطة وجدها"مدينة كبيرة حسنة العمارة، حصينة، رخيصة الأسعار كثيرة السكر، ومنها يُحمل إلى دهلي، وعليها سور عظيم[١٤٩] وبها جمع من المسلمين، وجماعة من الصلحاء الفضلاء وأولاد الأشراف من المسلمين، وكأن أميرها "فيروز البدخشاني" من ذرية بهرام صاحب كسرى، يظهر التبعية لسلطان دلهي، أقام بها ابن بطوطة ثلاثة أيام، وتابع منها،ومر بجوارها بمدينة (مره) وتُنسب إلى (مالوه)، التي هي على شرق كجرات، فأشار إلى أن أكثر سكان مره (كفار تحت الذمة) وهي حصينة، وبها القمح الطيب "الذي ليس مثله بسواها، ومنها يحمل إلى دهلي.. لم أر قمحاً مثله إلاّ بأرض الصين".[١٥٠] وأهل هذه المدينة يرجعون بنسبهم إلى (المالوه)، وهي قبيلة من قبائل الهنود". وأظهر ابن بطوطة إعجابه بأهلها، رجالاً ونساء، فرجالها كبار الأجسام، عظام الخلق، حسان الصور، ولنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفر الحظ من اللذة". [١٥١] وزار بعدها مدينة المالوه الرئيسية، فكانت أكثر عمارة في تلك البلاد، كثيرة الزراعة، خصوصاً القمح،وتُحمل من هذه المدينة أوراق التنبول إلى دهلي، التي تبعد عنها أربعة وعشرين يوماَ، وكانت تابعة حينها لسلطان دهلي وبها الكثير من المسلمين.[١٥٢]

ومرّ ابن بطوطة (بدولة آباد)، فاعجب بأهلها وبجمال نسائها، وبخيراتها الكثيرة، وغناها، وتعرّف على تنوع أشكال التسلية والطرب والغناء والسمر بين ظهرانيها، فقال بإعجاب "خص الله نساءهم بالحسن، وخصوصاً بالأنف والحواجب، ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن" واستطرد بالقول: و"كفار" هذه المدينة أصحاب تجارة، وأكثر تجارتهم في الجواهر، وأموالهم طائلة، ويثمر عندهم العنب والرمان مرتين في العام. "،[١٥٣] وهي من أعظم البلاد مجبي، وأكبرها خراجاً، لكثرة عمارتها، واتساع عمالتها... وتمتد بمسيرة ثلاثة أشهر، وبها "سوق للمغنيين والمغنيات... في أجمل الأسواق وأكبرها، فيه الدكاكين الكثيرة... والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي مزينة بأنواع الحلي، وجواريها يحركن

مهدها". ولأمير المطربين قبة عظيمة وسط السوق مفروشة يجلس عليها، وبين يديه خدّامه، فتأتي المغنيات طائفة إثر أخرى، بعد صلاة العصر من كل خميس، فيغنّين بين يديه، ويرقصن إلى المغرب، وفي السوق نفسه مساجد للصلاة، وكان بعض (سلاطين الكفار بالهند) ينزل بالقبة إذا مرّ بالسوق "وتغني المغنيات بين يديه، وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً".(١٥٤)

وأما مدينة كشمير، أو "قشمير"، فهي، كما يقول القزويني، ناحية بأرض الهند متاخمة لقوم من الترك، "اختلط نسل الهند بالترك" فيها، ولا يخفي إعجابه بأهلها فهم "أكثر الناس ملاحة وحسناً، ويُضرب بحسن نسائهم المثل، لهن قامات تامّة، وصور مستوية، وملاحة كثيرة، وشعور طوال غلاظ".(١٥٥)، وروي عن أبي دلف، أن لهم أعياد ترتبط "بروؤس الأهلة، وفي نزول النيرين شرقها"، وأنهم يعظّمون الثريا، ويتخذون من بيت معمول بالحديد (رصداً)، كما انهم لا يذبحون الحيوان، ولا يأكلون البيض(١٥٦) ويكمل الإدريسي الصورة، بالإشارة إلى أن مدينة قشمير، التي اعتبرها تابعة إلى قنوج، كبيرة حسنة على نهر كبير، كثيرة التجارات(١٥٧)، وروى بزرك في القرن العاشر، عن حسن بن عمرو، أنه رأى جماعة من قشمير الأسفل في المنصورة، التي تبعد عنها سبعين يوماً في البر، يستعملون نهر مهران للعبور إلى المنصورة. (١٥٨) فسمع منهم أن الأرماس (الألماس) الجيد النادر يجلب من نواحيها، لا يستطيع الحصول عليه إلاّ المغامرون، لأنه يوجد في واد مليء بالأفاعي.(١٥٩)

مدينة دهلي (دلهي): يصعب أن نجد شيئاً مهماً عن دلهي، في المصنفات العربية، قبل ابن سعيد المغربي في القرن الثالث عشر الميلادي. ولعل هذا يرتبط بالمعلومات المتناقلة عنها بعد دخول الغوريين إليها، واتخاذهم لها عاصمة لهم، ثم ازداد ذكرها لاحقاً، وبلغ التأليف حولها ذروته عند ابن بطوطة كشاهد مباشر على حياة تلك المدينة، وعند ابن فضل الله العمري مستعيناً بما سمعه عنها شفوياً أو مكتبياً.

اكتفى ابن سعيد بالإشارة إليها إثر ذكره لنهرواله (نهرواره) قاعدة كجرات، وجاليور قاعدة ما سمّاه (العديس) أحد ملوك الهند، والتي يمرّ بها التجار المسلمون في طريقهم من كنبابةإلى دلهي.(١٦٠) ثم أشار إلى أن (هندستان) قد فتحها الغوريون، وقاعدتها دلهي، وأن "صاحب دلهي في عصرنا، هو أحد مماليك الغوريين، وجنده أتراك والرعايا كفار هنود".(١٦١) وهو ما يظهر أن غالبية، أهل دلهي ظلت على الهندوسية، وبقي الإسلام محصوراً بالنخبة الحاكمة، وبالجيش والإ دارة، فبقي في دلهي دين الحكام.

وقدّم ابن بطوطة والعمري صورتين متكاملتين عن دلهي في القرن الرابع عشر، الأول اعتمد على المشاهدة، والثاني على عملة المكتبي، وما سمعه من المسافرين، والرحالة والزوار، وقد وصفوها في زمن السلطان محمد بن طغلق شاه، أحد سلاطين المماليك القطبية الغورية.

يتفق الإثنان على أن دلهي تتكون في اتساعها على العديد من المدن، فهي عند العمري "مدائن جمعت مدينة ولكل واحدة اسم معروف، وإنما دلهي واحدة منها، يكون دور عمرانها أربعين ميلاً، بناؤها بالحجر والآجر، وسقوفها بالأخشاب وأرضها مفروشة بحجر أبيض كالرخام، ولا يبقى بها أكثر من طبقتين... ولا يفرش بالرخام إلا السلطان... وهي إحدى وعشرين مدينة".(١٦٢) وهي عند ابن بطوطة كبيرة المساحة، كثيرة العمران "وهي الآن أربع مدن" متجاورات متصلات، إحداهما تسمى دهلي، "وهي القديمة من بناء الكفار"، أما الثانية فتسمى (سيري)، وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه، والثالثة "تمسى آباد" فبناها السلطان تغلف أبو السلطان الذي قدم عليه ابن بطوطة، والرابعة تسمى (جهان)، وهي الخاصة بسكن السلطان محمد شاه ملك الهند مضيف ابن بطوطة، فهناك المدينة القديمة التي يبدو أنه يسكنها الهندوس، هناك الاحياء الجديدة الثلاثة التي بناها سلاطين الغوريين وأسلافهم من السلاطين، ثم أن الملك محمد شاه أراد أن يجمع تلك المدن الأربع فبنى سوراً أحاطها به، والسور المحيط بمدينة دلهي لا يوجد له نظير، عرض حائطة أحد عشر ذراعاً". يسكنه حراس الأبواب، وفيه مخازن الطعام، والعدد، ومخازن المنجنيق، فيمشي داخل السور الفرسان والرجال وفيه طرق

مفتوحة.. وأسفله مبني بالحجارة، واعلاه بالآجر، وله أبراج كبيرة، وبه ثمانية وعشرون باباً.(١٦٣)

وأثار انتباه الاثنين جامع دلهي الكبير، ومئذنته التي لايوجد " على بسيط الأرض لها شبيه في سمكها وارتفاعها".(١٦٤)، والجامع هائل المساحة،" مبني بالحجارة المنحوتة في أبدع نحت، وملصقة بالرصاص أتقن إلصاق" وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، وأربعة صحون، وفي وسطه عمود هائل لا يُدرى من أي معادن هو، وفي صحنه الشمالي صومعة "لا نظير لها في بلاد الإسلام" مبنية بالحجارة الحمراء، بناها السطان معز الدين الناصر.. وهي "من عجائب الدنيا في ضخامتها، وسعة ممرها، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة".(١٦٥) ونعلم من ابن بطوطة أن هذا الجامع كان بالأصل (بيت الأصنام)، فتم البناء عليه وتجديده، كما يوجد خارج دلهي، "الحوض الاعظم" المنسوب إلى السلطان شمس الدين لمش، ومنه يشرب أهل المدينة،، وطوله نحو ميلين وعرضة ميل، ومصدر مائه ماء المطر، وجهته الغربية مبنية من الحجارة، فيها مجلس للمتنزهين، أما شراب السلطان والخاصة، فهو من حوض أكبر مبني ما بين مدينة دلهي (القديمة)، ومدينة (سيري) أو "دار الخلافة"، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين، وعلى جوانبه أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب، وموضعهم يسمى "طرب آباد"، ولدى دلهي سوق من أعظم الأسواق.(١٦٦) وفيها ألف مدرسة، ونحو سبعين مارستاناً، وتسمى (دور الشفاء)، وفيها الأسواق، والحمامات الكثيرة، والعديد من الخوانق (مكان الصوفية)(١٦٧) وأما سكن السلطان، فهو بمدينة جيهان، وبها قصوره ومنازله، ولاسيما "سكنه وسكن حريمه، ومقاصير جواريه، وحظاياه، وبيوت خدمه ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات، ولا من الأمراء، ولا يكون به أحد منهم إلاّ إذا أُحضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحد إلى بيته".(١٦٨) فالمدينة الهندية، إضافة إلى غناها، وتألق الحياة فيها، فهي مدينة منظمة منسقة، يبدو فيها كل شيء وكانه في مكانه الصحيح، هذا ما نجده في دهلي بشكل بارز، وأيضاً في قنوج، والمنصوره، وغيرهما، وناسها متألقون لا يفتقرون إلى الجمال والكياسة. فنحن هنا،وأيضاً في الصين، في مسرح الحضارة، وزخرف المدنية. ودلهي،كما صوروها، مدينة تعج بالخدم والرقيق، لخدمه الخاصة، ولكثرة ما يتجمع فيها من هؤلاء، تنزل أسعارهم، لدرجة "أن الجارية الخادمة لا يتعدى ثمنها بمدينة دهلي ثمان تنكات (تنكة الفضة ثمانية دراهم)، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش خمس عشرة تنكة، أما في غير دهلي، فإنهن أرخص من هذه الأثمان"، أما العبد فيمكن أن يصل سعره إلى أربعة دراهم.(١٦٩) فكانت وحدتهم النقدية (التنكة)، والتنكة الحمراء، ثلاثة مثاقيل، والتنكة النقرة، وهي الفضية ثمانية دراهم الشنكانة، وهو وزن الدرهم النقرة معاملة مصر والشام. ويعادل أربعة دراهم سلطانية. ويستعملون (السير) كوحدة وزن تعادل رطل، وسعر المنّ (وهو وحدة قياس وزن) من القمح نصف درهم هشتاني، ومثله من الشعير بدرهم واحد، والأرز بدرهم ونصف، والحمص كل منين بدرهم وكل ستة أسيار (أرطال) من لحم البقر والمعز بدرهم سلطاني، أما الغنم فكل أربعة (أسبار) بدرهم سلطاني، ورأس الغنم الجيد بتنكة واحدة، وكل أربعة طيور بدرهم.(١٧٠) وأظهر العمري إعجابه بأهل دلهي اعتماداً على مشاهدات (الشبلي) الذي قال له: "إن أهل دهلي أهل ذكاء وفطنة، فصحاء في اللسان الفارسي والهندي، ومنهم من ينظم الشعر العربي ويجيد فيه النظم."(١٧١)

السلطة ونظام الملك

تداخل لدى المصنفين العرب تأسيس مملكة الهند ووحدتها تحت قيادة عاهل واحد، بزمن البدايات الأسطوري الذي يمتزج فيه الخارق من الأحداث بالعادي،فغدا عندهم البراهما مؤسساً للحكمة والدين الهنديين، ومؤسساً،في الوقت نفسه، لبناء الدولة الهندية ولوحدة الهند، وربما لم تكن التجربة النبوية في بناء الدولة العربية

الإسلامية، بعيدة عن هذه الصورة، طالما أنهم لم يستبعدوا أن يكون براهما رسولاً من الله، فذكروا "وقد تُنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند، ومنهم من يقول: أنه كان ملكاً"(١٧٢)، وإذا لم يكن براهما رسولاً، فهو مؤسس العلوم، التي اقتبستها الأمم الاخرى، بما فيها اليونان والفرس عنه، فهو "أول من تكلم في النجوم، وأُخذ عنه علمها، والكتاب الأول الذي يسميه الهند "السند والهند"، منه أخذ اليونان علومهم"(١٧٣) فتقلّد الهنود،تبعاً لهذا التصور، تاج الحكمة، وأفاضوا به على الأخرين، "والهند أصحاب حكمة ونظر يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم... (السند والهند) الذي منه اشتق كل علم من العلوم، مما تكلم فيه اليونان والفرس وغيرهم.. (كما في) قولهم في الطب... وأسماء العقاقير، ولهم غير ذلك من كتب الطب، ولهم في المنطق والفلسفة، كتب كثيرة في أصول العلم".(١٧٤) ولخّص الحميري السردية التاريخية عن زمن البدايات تلك، بقوله: ومملكة الهند عند جميع ملوك الكفار، بإجماع منهم، مملكة الحكمة، والحكمة من الهند مبدؤها، وزعموا انهم أول من ضم المملكة وضموا إليها ملكاً، وأولهم البرهمن الأكبر، وهو الذي أظهر الحكمة وطبع السيوف وآلات الحرب وصور الأفلاك، وأشار إلى المبدأ الأول، وذلك هو كتاب "السند هند" أي دهر الدهور، ومنه فرّعت الكتب، المجسطي وغيره".(١٧٥)

فقد كانت الهند، كما ذهب المسعودي، "الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة"، ولكن لما تجيلت الأجيال، وتحزّبت الأحزاب، حاولت الهند "ان تضم المملكة، وتستولي على الحوزة، وتكون الرياسة فيها". فاجتمع حكماؤها فقرروا الوحدة "ونصبت لها ملكاً، وهو البرهمن الأكبر، والملك الأعظم، والإمام فيها المقدم، وظهر في أيامه الحكمة، وتقدمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت السيوف والخناجر.. وأرى بالصورة أفعال الكواكب في هذا العالم وإحداثها للأشخاص الحيوانية، من الناطقة غيرها، وبيّن حال المدبر الأعظم الذي هو الشمس، وأثبت في كتابه البراهن جميع ذلك"،(١٧٦) وتعاقبت من سلالة براهما ملوك الهند، وأولاده "يُعرفون بالبراهمة إلى وقتنا، والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر،يتقلدون بها كحمائل السيوف، فرقاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند".(١٧٧)

وحرص مؤلفونا على تتبع ما تعاقب عليهم من ملوك، التبس فيما قدموه الخيال بالواقع، فعقب سلسلة من الملوك العظام تفككت الهند، ثم أتى ملوك آخرون أعادوا وحدة الملك والسلطان، فبعد(براهمن) ملك الهند ابنه (الباهبود)، ودام ملكه مائة عام، اقتدى خلالها بأسلوب أبيه، وفي أيامه عمل (النرد)، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب، التي يجب أن تأتي بالحذق، لا بالحيل.(١٧٨) وذهب اليعقوبي، إلى أن الهند بعد موته، أصابها الاضطراب، فقامت ممالك متفرقة في البلاد،" لكل طائفة مملكة". وبما أن أهل الهند أصحاب " حكمة ومعرفة وعقول مجازون (متفوقون)، مقدار غيرهم من الأمم، فاجمعوا على تمليك رجل واحد فملكوا (زارح)، فكان عظيم الشان والقدر".(١٧٩) بينما ذهب المسعودي والنويري، أن (زامان هو من خلف (الباهبود)، فكان ملكه مائة وخمسين سنة، وأعقبه، الملك (فور)، وهو الذي واقعه الاسكندر، وقتله مبارزه، وسلم الملك من بعده،لدبشليم، الذي وضع كتاب (كليلة ودمنة)، ثم ملك بعده (بلهيت)، الذي وضع الشطرنج، فقضى بلعبها على النرد،" وبه الظفر الذي يناله الحازم، والبلبلة التي تلحق الجاهل" ورتب كتاباً للهند يعرف بطريق (جنكا)، ثم ملك بعده (كورش) فأحدث للهند آراء في الديانات".(١٨٠)

وعقب سلسلة هؤلاء الملوك العظام، الذين أسسوا ملك الهند ووحدتها، وأيضاً مذاهبها، ضرب الهند الاختلاف واستقلت المقاطعات وتمزق الملك، "فلما هلك هذا الملك (كورش) اختلفت الهند في آرائها، فتحزّبت الأحزاب، وتجيّلت الأجيال، وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك على أرض القنوج ملك، وتملك على أرض قشمير ملك، وتملك على مدينة المانكير، وهي الحوزة الكبرى، ملك يسمى البلهرا، وهذا أول ملك سمّي من ملوكهم البلهرا، فصارت سمة لمن طرأ بعده".(١٨١) وروى النويري،" أن مدة اجتماع كلمة بلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحو من ألف سنة وستة وستين سنة، وعلى قول آخر ألف سنة ومائة سنة وستة

عشر سنة... وعدة ملوكهم سبعة ملوك".(١٨٢) وأشار اليعقوبي إلى أبرز هؤلاء الملوك، قائلاً إن للهند "ممالك مختلفة، وملوك متفرقة لسعة البلاد في طوله وعرضه، وأن أول ملوكهم مما يتاخم البلاد التي هي اليوم في دار الإسلام، "دانق" وهو ملك عظيم القدر، واسع الملك كثير العدد، ثم بعده (رهمي) وهو أعظم قدراً، وأعزّ بلاداً وهو على بحر من البحور، وفي بلاده الذهب.. ثم مملكة (بلهرى ملك الكمكم)، ومن عندهم يأتي الساج، ولهم اتساع البلاد، ثم مملكة الطافن وهم قوم بيض الوجوه، ثم مملكة كنبابة، ومملكة (الطرسول)، ومملكة (الموشه)، وملكة (المايد)، وهذه الممالك تتاخم الصين، ثم مملكة سرنديب، ثم ملكة (قمار) ثم مملكة (الديبل)، ثم الفاريط، ثم مملكة الصلمان(١٨٣)، إلاّ أن هذا التمزق،لم يمنع أن يكون ملك بلهرا، هو الأبرز بين ملوك الهند،والأكثر مهابة،لدرجة أنه صار يُلقّب بملك ملوك الهند، ولم يخف العرب في كل ماكتبوه، عن الهند، إعجابهم بحكمته وبقوته.

ملك بلهرا: هكذا أصبح ملوك الهند كُثر، ولعل عددهم تساوى مع عدد الأقاليم التي تخيّلوا انقسام الهند لها، فهناك السند والبنغال، وقنوج، وسلطان مليبار، والموالين له من سلاطين الشاطئ، الذين تعرف عليهم ابن بطوطة، وفوق الجميع سلطان دلهي، وهناك كشمير، وكجرات. وعلى تعدّد هؤلاء الملوك، تظل المكانة الأولى لملك الملوك (ملك بلهرا)، قبل ان ترتفع مكانة دلهي وسلطانها في زمن الحكم الإسلامي إذ أقرّ الملوك الآخرين بالتبعية الإسمية له،.

وعلى أهمية ملك بلهرا في نظر مؤلفينا، إلاّ النصوص العربية الوسيطة لا تسمح بالتعرف على تخوم ملكه، ولا على عاصمته على وجه التحديد، رأى بعضهم أنها قنوح، وبعضهم الآخر (منكير) ولعلها (ملخد) جنوب حيدر آباد اليوم، وبلهرا هو اسم مملكة ولقب ملك في الوقت نفسه.(١٨٤) وذكر رينو أن هذا الاسم محرّف عن (مالفا – داي Malva – day) ومعناها ملك مالفا، وهو اسم يطلق على الشاطئ الممتد بين كجرات وجزر كنبابة.. ولعل علو مكانته بنظر العرب ناتجة عن الصلات العميقة التي ربطت التجار العرب ببلاده، ولرعايته الدؤوبة لهؤلاء التجار، وللجالات العربية الإسلامية على شواطئ بلاده، في مليبار.

وأشار ابن رسته، بالتوافق مع ابن خرداذبه،إلى أن "معنى بلهرا أنه ملك ملوك الهند، وهو في بلاده يُقال له الكمكم.. وبلاده بلاد الساج، ومنها يُجلب، وهو ملك واسع المملكة، كثير الجيش، ومن حوله من الملوك يصلّون (يخضعون) له، ومن ورد من رُسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلّوا له إعظاماً لصاحبه".(١٨٥) ونبهنا المسعودي إلى أن "أعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري، صاحب مدينة المانكير... وأن بين دار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية، والفرسخ ثمانية أميال، وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها وأكثر جيوشه رجّاله، لأن دار ملكه بين الجبال".(١٨٦) ولعل الملك الذي زعم (ابن عبد ربه) أنه أرسل رسولاً إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، هو ملك بلهرا هذا، والذي صوّر المؤلف العربي مكانته من خلال سرده لرسالته، والتي جاء فيها "من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والألوة والجوز والكافور".(١٨٧) وادعى ابن عبد ربه أن هذا الملك العظيم، طلب من الرشيد إرسال من يعلمه مبادئ الإسلام، فقبالة عظمة الملك، والحضارة، والقوة التي تتمتع بها الهند، يوجد في ديار الإسلام مايضاهيها، وهو الدين الإسلامي، خاتم الرسالات والوحي، وفيه اكتمل الدين الحق!

وقد أفصح ابن سعيد المغربي عن مكانة هذا الملك الراجحة على ملوك الهند كافة، "وهذه المملكة عندهم أعظم ممالك الهند، ولصاحبها يدين سائر ملوكهم، وفيها الفيلة الكثيرة، والكركدنات التي تقطع الطرق... ويقال أن الفلفل ينبت في مجاري مياهها بحيث لا يصل إليها أحد... فيلتقط وينشف".(١٨٨) وذهب الإدريسي إلى أن لملك بلهرا العظيم، " جيش، وفيلة" وأن "عبادته صنم البُد، وهو يحمل تاج الذهب على رأسه، ويلبس الحلل المنسوجة من الذهب ويركب الخيل في سائر الأيام".(١٨٩) ومن عادات هذا الملك أيضاً أنه "يركب في كل جمعة مرة، ويركب

نحو مائة امرأة ولا يمشي معه سواهن، وهن يلبسن القراطق الذهبية ويحلين بأحسن الحلي، ويحتملن الأساور من الذهب والفضة في أيديهن وأرجلهن، والملك يتقدمهن، وأما جملة وزرائه وعظماء رجاله، فلا يركبون معه إلاّ إذا خرج محارباً".(١٩٠)

ملك دهمي: أو دهم،وأطلق عليه ابن خرداذبة اسم (رهمي)، ويُعتقد أنه في البنغال' وأشادوا بقوة جيشه ووفرة ثروة بلاده، إذ "له جيش جرار تزيد عدته على ثلاثمائة ألف، ولا يخرج إلاّ في الشتاء، لئلا تقصر المياه عن حاجته" وفي بلاده "القطن الجيد الذي لا يكون في غيرها مثله، ومنه تُتخذ المناديل... وغيرها من الثياب" ولهذا الملك "بلاد كثيرة" وفيها مدينة كبيرة، فيها "سوق واسعة، وفيها من الحيوانات الكركدن والبقر"، والسكان هناك "يتعاملون بالذهب والودع، إلا أن الودع عندهم أروج".(١٩١) وأبدى السيرافي إعجابه بصناعة الثياب والنسيج في بلاد دهمي قائلاً: "وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها، يدخل الثوب منها في حلقة خاتم، دقة وحسناً، وهو من القطن".(١٩٢)

ولعل الرسالة، والتي حفظها ابن الزبير (الخامس الهجري)، من هذا الملك إلى المأمون، تعكس المُتخيل العربي عن مكانة هذا الملك، وقوته وغناه، وعدله في رعيته، والتي جاء فيها، "من دهمي ملك الهند، وعظيم أركان المشرق، وصاحب بيت الذهب وأركان الياقوت، وفرش الدر، الذي قصره مبني من العود الطب... والذي في خزانته ألف تاج من الجوهر... والذي يسجد له إمام البُد الاكبر، الذي وزنه ألف ألف مثقال من الذهب، وعليه الف حجر من الياقوت والدر، والذي يركب في يوم السعادة وعلى رأسه التاج في ألف موكب، كل موكب له دابة مكلّلة بالدر، وتحتها ألف فارس معلمين بالحرير والذهب، والذي في مربطه ألف فيل أبيض خزائمها أعنة الذهب، والذي يأكل في صحائف الجوهر على موائد الدر.. والذي يستحي من الله أن يراه خائناً له في رعيته بعد أن استكفاه الأمانة عليهم، والرئاسة على أهل مملكته".(١٩٣)

الملك داهر: وهو ملك السند، قبل أن يبسط العرب سيطرتهم عليه أيام محمد بن القاسم، وكان أول الملوك الهنود الذي اصطدم بهم العرب، وذكره يملأ الصفحات في المؤلفات التاريخية، و كان تحت سيطرته مدن هندية مقدسة لا سيما الملتان وسومنات،. وامتاز هذا الملك، بنظر العرب، بالقوة، فهو يستعمل الفيلة في الحرب، كعادة ملوك الهند، وبثروته الهائلة، وبإشرافه على المعابد المقدسة، وقال عنه اليعقوبي "كان صاحب جيش عظيم، يعتمد في زحفه على الفيلة". (١٩٤)

ملك الصيلمان: يمتاز هذا الملك بالقوة، والشجاعة نقل ابن رسته عن الرحالة محمد بن اسحاق، أن جيشه يبلغ "نحو سبعين ألفاً، وله فيلة قليلة إلاّ أن الهند يقولون أن فيلة الصيلمان أجرأ على القتال من جميع فيلة الهند"(١٩٥) وبلاده بجوار قمار (كمبودية).

ملك الرا: أو الراي، والناحية التي هو فيها، كما يقول بزرك، هي بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل، وكان يسمّى مهروك بن رائق، راسل، حسب بزرك، ملك المنصورة العربي في سنة مائتين وسبعين هجرية "ليسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية"، فأرسل له ملك المنصورة رجلاً أصله من العراق "حسن الفهم شاعراً، قد نشأ ببلاد الهند، عرف لغاتهم على اختلافها" فكتب هذا الأخير قصيدة إلى ملك الرا عرّفه فيها بالإسلام، فاستحسنها الملك، فطلب قدومه، فأتى الرجل إليه وأقام في بلاده ثلاثين سنة، ثم تركه "وقد أسلم قلبه" لكنه، أخفى إسلامه عن رعيته "خوفاً من بطلان أمره وذهاب ملكه".(١٩٦)

ملك طرسول: وأهل مملكته كثر، "ومدائنه كثيرة، وهم بيض، ولهم شعور طويلة يسدلونها، ولهم خيل كثيرة ودواب، ومملكته واسعة".(١٩٧)

ملك قنوج: وقد أشاد الإدريسي بقوته وثرائه فهو "كثير الرجال والفيلة عظيم المملكة شامخ الملك، وليس في ملوك الهند في البرية ملك عنده من الفيلة ماعنده منها، وله همّة عالية وعنده عدد، وأسلحة وأموال، وسطوته

مهابة على من يليه".[١٩٨] وأن لهذا الملك جيشاً عظيماً، يتألف من جيوش أربعة على مهاب الريح الأربعة، وكل جيش منها سبعمائة ألف، وقيل: تسعمائة ألف" ويبلغ عدد مدن بلاده وقراه "الف ألف، وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر وجبال وحروج".[١٩٩]

ولقد مرّ معنا العديد من (ملوك المدن) على ساحل مليبار، وساحل كروماندل، اشتهرت مدنهم كمحطات تجارية كبرى كان للعرب صلات تجارية مباشرة بها، ونقلوا منها التجارة الأفاوية والنسيج، وعندما مرّ ابن بطوطة بهذه المدن، لاحظ وجود مالا يقل عن تسعة ملوك على ساحل مليبار، يتبعون سلطان مليبار، المعيّن بدوره من سلطان دلهي الكبير.

ولم يخل عرض المصنفين العرب لحال هؤلاء الملوك من الإعجاب بقوتهم، وبثرائهم، وحكمتهم، وعدالتهم، بل رفعوا،أحياناً،من مستوى حكمة هؤلاء الملوك إلى درجة لم تبلغها أمة أخرى، وهو ما عبر عنه المسعودي بوضوح، "والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم، وصحة أمزجتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة نظراتهم، بخلاف سائر السودان.. وسائر الأجناس"[٢٠٠] وعلى الرغم من ذلك، فإن إعجابهم هذا لم يكن على درجة واحدة تجاه تقاليدهم، فهناك من العادات ما أثارت استغرابهم، وأحياناً استهجانهم.

لاحظ التجار العرب، ورحالتهم، أن "الهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة".[٢٠١] ولعل هذا مردّه إلى حرصهم أن يبلغ الملك سن الحكمة، وعندما تحدّث الإدريسي عن حكم ملوك الهند، وصفه بالعدل، حتى غدا "بسط العدل في أهل الهند طبيعة هؤلاء، لا يعولون على شيء سواه لفضل عدالتهم وحفظ عقودهم وحسن سيرهم، ذكروا أنهم وجملة أهل تلك البلاد في خير... وبلادهم وأحوالهم راجحة وادعة".[٢٠٢]

وهذا العدل يمتزج عند ملوكهم بالحكمة الفائقة، روى المسعودي، أن الاسكندر الكبير. "بلغه أن في أقاصي أراضي الهند ملكاً من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وإنصاف الرعية، وأن ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله، يقال له كند، وكان قاهراً لنفسه، مميتاً لصفاته الشهوية والغضبية، حاملاً لها على خلق كريم". واجتمع لهذا الملك أشياء لا تجتمع عند غيره، ومن ذلك "ابنة له، لم تطلع الشمس على أحسن صورة لها، وفيلسوف يخبرك بمرادك، وطبيب لا تخشى معه دواء".[٢٠٣] فأرسل إليه الاسكندر وفداً للتقصي، فاكتشفوا، أن في مجلسه يجتمع بالحكماء، وحضر هذا الوفد مجلساً له، "فلما أخذت الحكماء" مراتبها، واستقرت في مجالسها، أقبل عليهم مباحثاً لهم في أصول الفلسفة والكلام في الطبيعات وما فوقها من الإلهيات، ".[٢٠٤] وأن ما اكتشفه الاسكندر من حكمة هذا الملك، جعله ينظر بإجلال واحترام إلى الهند وحكمتها.

ومن قواعد الملك، التي حكمت تنصيب الملوك، هو أن الملك متوارث من سلالة ثابته لا يحيد عنها "فأهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد، لا يخرج عنهم الملك "، وهذه قاعدة مُتّبعة على كل مهنة في الصين "فأهل الكتابة والطب بيوتات لا تكون الصناعات إلاّ فيهم".[٢٠٥] وتنسحب هذه القاعدة أيضاً،على "بيوت الوزراء والقضاة،وسائر أرباب المراتب"،[٢٠٦]، وقد ترتب على ذلك "إذا غلب ملك على مملكة ولّي عليها رجلاً من أهل بيت الملك المغلوب، ويكون من تحت يديه، إذ لا يرضى أهل تلك الممكمة إلاّ بذلك".[٢٠٧] وينتج عن صفة العدل والحكمة، صفة أخرى، وهي امتناع الملوك عن شرب الخمر كي لا تذهل عقولهم، وقد أشار ابن خرداذبة، إلى ذلك بقوله: "وملوك الهند يبيحون الزنا، ويحرمون الشراب، إلا ملك قمار فإنه يحرم الزنا والشراب".[٢٠٨] وعلّل النويري الأمر بأن "ملكهم متى شرب الشراب فقد استحق الخلع".[٢٠٩] وذهب السيرافي إلى أبعد من ذلك، إذا عمّم هذه العادة على الهنود جميعاً، وليس لذلك مصدر في الدين بل في الحكمة، فأهل الهند "لا يشربون الشراب، ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب، وليس ذلك دين، ولكنه أنفه، ويقولون: أي ملك يشرب الشراب فليس يملك... ويقولون: كيف يدير أمر ملكه من هو سكران، وربما قتلوا الملك".[٢١٠]

وهناك قاعدة، شبه عامة، يتقيد بها الملوك بعلاقتهم مع الرعية، وهي التزامهم بالعزلة عنهم، وتترافق هذه العزلة بطقوس خاصة، ويرجعون ذلك إلى رغبة هؤلاء الملوك بالاحتفاظ بمهابتهم، وهي تتشابه في ذلك مع عادات ملوك الصين، "ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلاّ في برهة معلومة من الزمان، ويكون ظهور الملك للنظر في أمور الرعية".(١١١) ويعلل المسعودي ذلك الاحتجاب "لأن في نظر العوام عندها (عند الهند) إلى ملوكها خرقاً لهيبتها، واستخفافاً بحقها".(١١٢)

غير أن من ألأمور التى أثار استغراب العرب، هو دأب الهنود على حرق ملوكهم بعد الموت، ومشاركة فريق من رجاله المخلصين مصيره هذا، وهم أحياء، في طقوس محددة، ويسمون هؤلاء الخلصاء بالبلانجريه، أو البلاوجرية، "فإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه، حرَّق خلق من الناس أنفسهم لموته، يدعون هؤلاء (البلانجريه).(٢١٣) وأسهب المصنفون العرب في وصف الطقوس والآليات المرافقة لهذا التقليد، إذ تحدث أوائل الرحالة العرب: بزرك، والسيرافي على أن ملك الهند، ماأن يقعد للملك، حتى ينتدب من أصحابه ما يقارب الثلاثمائة إلى الأربعمائة،" باختيارهم لأنفسهم لا بالإكراه من الملك لهم"، فيقدم لهم أرزاً مطبوخاً "على ورق موز"، ويطعمهم الأرز بعد أن يأكل معهم، متقرباً من كل رجل منهم على حده، "فيأخذ (الرجل) منه شيئاً يسيراً فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الرز إذا مات الملك أو قتل، أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم، في اليوم الذي مات فيه".(٢١٤) فتناول الأرز جزء أساسي من هذا الطقس، وهو تعبير رمزي على المعاهدة، وأضاف بزرك إلى الرز المقدم على ورق الموز، وطقوس أخرى، فالملك "يعطيهم الأرز بيده"، ويعطيهم التنبول (طعمه كطعم القرنفل) بيده، فيقطع كل واحد منهم الخنصر من أصابعه، ويضعها بين يديه (أي بين يدي الملك)، ثم يكونون معه حيث ملك يأكلون بأكله ويشربون شربه... فإذا مات قتلوا أنفسهم، وإن أحرق نفسه أحرقوا أنفسهم، وإن مرض عذبوا أنفسهم".(٢١٥)

وأرجعوا هيمنة هذا العادة، "لقولهم بالتناسخ، وتمكنه في قلوبهم".(٢١٦) أما الإدريسي وابن رسته، فربطا هذا الطقس (أي حرق الملك الميت)، بطقس آخر، إذ أنهم قبل أن يحرقوا جثة الملك يضعوها على عجلة ويطاف بها على المدينة، يجرها عبيده ورأسه مكشوف (وشعره ينجر على تراب الأرض). وينادي مناد "هذا ملككم فلان ابن فلان... ها هو قد مات... لا يملك من مُلكه شيئاً ولا يدفع عن جسمه أذى، ففكروا فيما أنتم صائرون إليه". وبعد ذلك، يقربون الجثة إلى مكان النار، التي من عادتهم "أن يحرقوا بها موتى ملوكهم، فيلقونه في النار حتى يحترق".(٢١٧)

وروى السيرافي أنه في بلاد الهند، إذا ادعى رجل على آخر دعوى، تُوجب عل فاعلها القتل، يطلب القاضي من المدّعى عليه أن يدخل في اختبار تحمّل حماوة النار، "فتحمّى حديدة إحماءً شديداً" ثم يطلب منه أن يبسط يده، فتوضع على يده سبع وريقات من ورق الشجر، بعدها، "تُوضع على يده الحديدة فوق الورق، ثم يمشي بها مقبلاً ومدبراً" فإن لم يظهر على يده أثر، فقد تخلص من القتل ومن الدعوى المقدمة ضدّه، ويغرّم من ادعى عليه "مناً من الذهب يقبضه السلطان نفسه"، وربما تعرض لاختبار أن يتناول خاتماً من ماء مغلي، فإن تناول الخاتم دون أن تصاب يده بسوء بُرِيْ. وغرّم المدعي.(٢١٨) أما عقوبة السارق عندهم فهي قاسية للغاية، إذ يؤتى بخشبة طويلة حادة من طرفها "ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقة". (٢١٩) بينما ربط بزرك عقوبة السارق، بالمكانة الاجتماعية، فلم يكن خافياً على العرب (نظام الطبقات) التراتبي في الهند، فمنذ وقت مبكر، أشار ابن خرداذبة، إلى أن "الهند سبعة أجناس الشاكرية، وهم أشرافها، فيهم الملك، تسجد الاجناس كلها لهم ولا يسجدون لأحد، والبراهمة وهم لايشربون الخمر والأنبذة، والكسترية... لا تزوجهن البراهمة ويتزوجون فيهم، والشودرية وهم أصحاب زراعة، والبيشية وهم أصحاب صناعات ومهن، والسندالية وهم أصحاب اللهو واللحن، وفي نسائهم الجمال، والذنبية، وهم سمر أصحاب لهو ومعارف ولعب".(٢٢٠) وعلى هذا، ذكر بزرك

أنه: "إذا سرق الهند ي في بلاد الهند قتله الملك، إذا كان هندياً وضيعاً أو لا مال له، وإذا كان له مال أخذ الملك ماله بأسره".[٢٢١] إلا أن ملوك الهند تركوا للمسلمين ردّ خلافاتهم إلى قاضيهم، يسمّى هنرمن" فإن سرق مسلم ببلاد الهند رد الحكم في أمره إلى (هنرمن) المسلمين، ليعمل فيه بما يوجب حكم الإسلام... ولا يكون الهنرمن إلاّ من المسلمين".[٢٢٢] كما أن "هؤلاء الملوك جميعاً يرون الزنا مباحاً، غير أن من أحصن منهم بأمرأة، فعرض لها عارض، وزنيا قتل الرجل والمرأة".[٢٢٣] وعقوباتهم على محتسي الخمر شديدة، لدرجة أن أحد ملوكهم،يعاقب من "شرب الخمر من قواد جيشه فعقوبته أن تحمى مائة حلقة من حديد بالنار ثم توضع على يديه، فربما هلك فيه".[٢٢٤]

ومن أحكام ملوك الهند "أن من ذبح بقرة يُقتل بها".[٢٢٥] وهذا الحكم له علاقة بتقديس الهنود لها، وهو أمر عرفه العرب، واختبر ابن بطوطة هذا الأمر، ووجد أنهم لا يجيزون ذبحها "وجزاء من ذبحها عندهم، أن يُخاط في جلدها ويحرق، وذلك لأنهم "يعظّمون البقر ويشربون أبوالها للبركة، ولإستشفاء إذا مرضوا، ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأوراثها"[٢٢٦] وتعرّض البيروني، من خلال مشاهداته عن قرب، إلى طرق المقاضاة عندهم، وإلى العديد من الأحكام والعقوبات، فالقاضي الهندي يطلب من المدّعي الكتاب المكتوب على المدعي عليه، أي وثائق الاتفاق بينهما، والبينة المثبتة بوثيقة مكتوبة، فإن لم توجد "فالشهود بغير كتاب، ولا أقل في عددهم عن أربعة فما فوق، إلاّ أن تكون عدالة الشاهد مقرّرة عند القاضي، فيقطع الحكم بها بشهادة الواحد".[٢٢٧] من غير أن يترك التجسس في السّر والاستدلال بالعلامات، وقياس بعض ما يظهر له إلى بعض، والاحتيال لاستنباط الحقيقة، وهو يشبّهه ذلك بما كان يفعله في بلاد العرب (إياس بن معاوية).[٢٢٨] فإذا عجز المدعي عن إقامة البينة لزم المنكر اليمين... والإيمان أنواع كثيرة تتعلق بأهمية الدعوى، فإذا كان الشيء يسير اكتفى بالقول: إن كنت كاذباً فله من ثواب أعمالي ما يساوي ثمانية أضعاف، وإن كان مقدار الدعوى أقوى من ذلك، يشرب بعد أدائه اليمين شراب "البيش" فإن كان صادقاً، يعتقدون أنه لن يضره، وإن كان الأمر فوق ذلك ألقي في ماء شديد الجريان، يعتقدون إن كان صادقاً لن يصيبه ضرر، وإن كان فوق ذلك، قاده القاضي إلى صنم المدينة، فيصوم المنكر ذلك اليوم، ثم يلبس ثياباً جديدة، وفي الغد يقف مع خصمه، فيصب السدنة على الصنم ماء ويسقونه إياه "فإن كان كاذباً قاء الدم من ساعته". وإن كان فوق ذلك، غلوا السمن والدهن في قدر ثم القوا قصعة ذهب فيه ويقوم المنكر بإخراجها، فإن كان محقاً أخرجها سالماً.[٢٢٩]

وأشار البيروني إلى أن عقوباتهم تتأثر بموقع المتهم في الهرم الطبقي الذي يتكون بالترتيب من حيث الأهمية من :البراهمة، كشتر، إلى بيش ثم شودر، والأخيرين في أسفل السلم الاجتماعي، والبيروني يبدي إعجابه بمقاصدهم الأخلاقية من وراء الجزاء، ويشبه مقاصد العقوبة والكفارات لديهم بمقاصدها عند النصارى "فإنها مبنية على الخير وكف الشر، من ترك القتل أصلاً... وتمكين لاطم الخد من الخد الأخرى،والدعاء للعدو بالخير، وهي لعمري سيرة فاضلة، لكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم، وإنما أكثرهم جهالاً ضلاّل لا يقومون بغير السيف والسوط".[٢٣٠]

ويراعي الهنود في تطبيق العقوبات الميزان الاجتماعي، فإذا كان القاتل برهمنا من سائر الطبقات لم يلزمه القاضي سوى كفارة تكون بالصوم والصلاة والصدقةو إن كان المقتول برهمنا والقاتل من سائر الطبقات لم يجزه كفارة، اما بشأن جزاء قاتل البقرة وشارب الخمر، والزاني، فإن الولاة لا يقتصّون من برهمن أو كشتر، ويكتفون بماله ونفيه.أما جزاء القتل في الطبقات الأخرى: بيش وشودر. فإن قتل بعضهم بعضاً يكفّر بكفارة، ويقيم الولاة القصاص عليهم، وعقوبتهم في السرقة بمقدارها، أوربما اقتصرت على الفضحة والتشهير، فإن كان مقدار السرقة كبيراً فإنهم يسملون البرهمن، وقطعوا كشتر ولم يسملوه، وقتلوا غيرهما، أما عقوبة الزانية المتزوجة فتخرج من بيت الزوج وتنفى.[٢٣١]

دلهي في ظل حكم المسلمين

إن أبلغ صورة قدمها الرحالة والباحثون العرب عن دلهي، شعباً وحضارة وسياسة، هي التي قدموها، وهي تحت حكم السلاطين الغوريين، الذين يُعرفون "بالمماليك الغورية" الذين دام سلطانهم من سنة ١٢٠٦ إلى سنة١٢٩٠م،ثم أعقبتهم أسرة أفغانية دام سلطانها من ١٣٢٠ حتى ١٤١٤ م، وكان أشهر ملوكهم فيروز، وطوغلق وابنه محمد، الذي في زمنه حضر ابن بطوطة إلى دلهي، وامتاز عهدهم بالعمران والولع بفن العمارة.[٢٣٢] وابتدأ محمد تغلق في عام ١٣٢٥م، ولم يكن هذا الملك مولعاً بالعلوم والفنون وحسب،بل كان هو نفسه من طليعة المشتغلين بها.[٢٣٣]

وتكاملت الصورة التي قدمها ابن بطوطة مع أبحاث ابن فضل الله العمري، والقلقشندي، عن حاضرة الهند، في زمن هذه الأسر المالكة الأخيرة. فلم تقتصر دراستهم لها على البناء السياسي بل دخلت في مسام البناء الاجتماعي، والثقافي الهنديين، وفي طبائع السكان وعاداتهم في ظل السلطة الإسلامية والتعايش والتجاور الإسلامي – الهندوسي.

رأينا كيف فوجئ ابن بطوطة عند دخوله السند، بدقة نظام البريد، وبالطرق المنظمة التي أنشأها سلطان دلهي، لعموم البلاد الهندية التابعة له، وحضور هيبته على بلاد المليبار، وقنوج وسواحل المعبر، وكجرات، ودولة آباد، فعندما دخل دلهي كان على دراية بمكانة سلطانها الذي يبسط سلطانه على أغلب بلاد الهند، ورآه عن قرب تجتمع به خصال متباينة، فقد كان "أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء"،واشتهر عند الناس "في الكرم والشجاعة" واشتهرفي الوقت نفسه "في الفتك والبطش بذي الجنايات وهو أشد الناس تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق".[٢٣٤] وكان من عادة الملك، أن يفض على من قدم إليه تقديم هدية له، كل واحد حسب مكانته،" فالفقيه يهدي المصحف والكتاب، وشبه الفقير يهدي المصلى والسبحة والمسواك ونحوها، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح".[٢٣٥] واشتهر بعدله كباقي ملوك الهند، ففي إحدى السنين "أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة، وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم، كل يوم اثنين وخميس أمام المشور (المجلس)... ولما استولى القحط على بلاد السند والهند، واشتد الغلاء، أمر "أن يعطى لجميع أهل دلهي نفقة ستة أشهر من المخزن".[٢٣٦] وما نسي ابن بطوطة الإشارة إلى أن السلطان كان "شديد المحبة في العرب، مؤثراً لهم معترفاً بفضائلهم"، وأهل الهند يدعون العربي بالسيد "تعظيماً للعرب".[٢٣٧]

وقد استقبله السلطان بالترحاب، وعينه قاضياً في دلهي، ولماحضر إلى قصر السلطان ذي الأبواب العديدة، أدخله إلى المشور الكبير (مجلس السلطان)، فركع الجميع أمام السلطان، حتى وصلت أصابعهم على الأرض، وعند انتهاءالزيارة، صاح النقباء، "بسم الله"، وهي إشارة على ذلك،خرج ابن بطوطة بصحبة الوزير، وقاضي القضاة، بعد أن كتب كاتب "الهدايا" التقدمة لابن بطوطة، ودخلوا مع الوزير إلى مكان الطعام، فكانت القدور ومرافعها، والأقداح والطسوت والأباريق، من الذهب، فوضعوا الطعام على السماط، ومن عادتهم أن يجلس على رأس السمط "رئيس القوم"، وبعد أن أكلوا، أتوهم "بالفقاع، والتنبول" كعادة أهل الهند، وأنزلوا ابن بطوطة بعدها إلى دار، فيها كل ما يحتاجه المرء، من بسط وفرش وأوان، وسرير للنوم، وكانت أسرّة أهل الهند خفيفة الحمل، ولا بد لكل واحد منهم أن يحمل سريره عند السفر.[٢٣٨] ومن عادة مسلمي الهند، أن يدفنوا الميت، وأن يخرجوا إلى قبره للزيارة صبيحة اليوم الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير، وينثرون الأزاهير على القبر،

ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويقرأون القرآن، فإذا ختموا، أتوا بماء الجلاب فسقوا الناس منه، وصبوا عليهم ماء الورد صباً، ثم يقدمون لهم التنبول وينصرفون.[٢٣٩]

وقد أفاض العمري، والقلقشندي في وصف تقاليد البلاط الملكي لهذا السلطان (محمد بن طغلق)، ولسلاطين هذه الحقبة، فهذا السلطان (محمد)، "ترتعد الفرائص لمهابته، وتزلزل الأرض لموكبه" وهو في سلاحه دائماً، معه الوكاش (السهام)، والقوس والنشاب، "لا يفارقه سلاحه"، ويختلف مركبه باختلاف المهمة التي يقوم بها، فهناك موكب للحرب، وموكب للسفر، وموكب للصيد، وموكبه إلى قصوره في دلهي، فإذا ركب إلى الحرب، تجتمع الفيلة كالبروج، والجيش الهائل، "في الميمنة له أعلام سود، وفي الميسرة أعلام حمر، وللسلطان أعلام سود في أوساطها التنين... أما بقية الأمراء فكل واحد، يحمل ما يناسبه... ويدق للسلطان مائتي جمل نقاره (طبول)، وأربعون جملاً من الكوسات (الطبل الصغير).[٢٤٠] وتضم عساكره "تسعمائة ألف فارس: وأن عساكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الأجناس، وكلهم بالخيل، والسلاح الفائق".[٢٤١] ويخرج معه في الصيد مائة ألف فارس من الفيلة، وألف جنيب (جواد)، ملبسّه بالذهب. أما خروجه من قصره، فيكون راكباً، وعلى رأسه جتر (مظلة)، وحوله ما يقارب إثني عشر ألفاً مملوك مشاة.[٢٤٢]

أما الخانات والملوك والأسراء والتابعين له،فإنه "لا يركب أحد منهم في السفر والحضر (الإياب) إلا بأعلام، وأكثر ما يحمل الخان تسعة أعلام، والأمير ثلاثة".[٢٤٣] وتتفرع الوظائف الكبرى، لأجهزة السلطة والملك،إلى "أرباب الوظائف من أرباب السيوف، فله نائب كبير، يسمى في لغتهم (أمريت)، وأرباب نواب دونه، يسمى كل واحد منهم (شق)، وله حجّاب ومن يجري مجراهم من سائر الوظائف، وأما أرباب الأقلام فله وزير عظيم، وله أربعة كتّاب سر، يسمى كل واحد منهم بلغتم (دبيران)، وأما القضاة فله قاض قضاة عظيم الشأن، وله محتسب وشيخ شيوخ، وله ألف طبيب ومائتا طبيب"[٢٤٤].

ويتميز كل فر ع من فروع السلطة بلباس خاص، فأرباب السيوف، لباسهم مزركش بالذهب، ومنهم من يلبس مطرز الكمّين بزركش، ومن يعمل الطِّراز بين كتفيه مثل المغل، واقباعهم مربعة الانبساط، ومرصعة الجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت والماس، ويضفرون شعورهم ذوائب... بشراريب حرير، ويشدون في أوساطهم المناطق من الذهب والفضة، ويلبسون الأخفاف والمهاميز، والوزراء والكتاب زيهم مثل الجند، إلا أنهم لا يشدون المناطق،... وأما القضاة والعلماء، فلبسهم فرجيات (ثوب واسع طويل الكمين)... ودراريع".[٢٤٥]

وقد أدرك مؤلفونا سيادة نمط "الاقطاع العسكري" الدولاتي على ملكية الأرض، أنئذ، فنقل القلقشندي عن (الشيخ مبارك الأنباتي)، أن للخانات والملوك والأمراء والأصفسهلارية (قادة الجند) بلاد مقرّرة عليهم بالديوان إقطاعاً لهم، وذكر أن (إقطاع النائب الكبير يكون إقليماً كبيراً كالعراق)، ولكل خان لكّان (اللك مائة ألف) تنكة، (أي بذار ألف تنكة من الأرض)، ولكل ملك ستين ألف تنكة.. ولكل أمير أربعين ألف تنكة، وللأصفهسلارية حوالي عشرين ألف تنكة، ولكل جندي ما يقارب العشرة آلاف. كما أن "لكل مملوك من المماليك السلطانية من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة".. أما "ارباب الأقلام، فإن الوزير يكون له إقليم عظيم نحو العراق إقطاعاً له" ولكتاب السر الأربعة "مدينة من المدن.. ولأكابر كتابهم قرى وضياع.. ولقاضي القضاة.. عشر قرى... ولشيخ الشيوخ مثله، وللمحتسب قرية".[٢٤٦]

وكانت صلات سلطان دلهي مع "أمهات الأقاليم" الهندية التابعة له منتظمة عن طريق بريد منظم بشكل دقيق وهو ما لاحظه ابن بطوطة، كما أشرنا سابقاً، عند دخوله السند، ونوه إليه العمري، إذ كانت هناك "أماكن متقاربة بعضها من بعض شبيهة بمراكز البريد في مصر والشام... وفي كل مكان عشر سعاة ممن له خفة في الجري، يحمل الكتب بينه وبين تاليه".[٢٤٧] وأدرك مؤلفونا أن المسلمين في دلهي ما زالوا أقلية، وكان الإسلام ما زال دين الحكام وما يحيط بهم، بينما عامة السكان هندوس، وهو ما أشار إليه ابن سعيد بقوله إن السلطان "وجنده أتراك

مسلمون والرعايا كفار هنود".[٢٤٨] وشاهد ابن بطوطة في تجواله في بلاد الهند اتصال سكن الهندوس بسكن المسلمين، مع هيمنة الآخرين على الإدارة والحكم حيث قال "والكفار ببلاد الهند في برمتصل، وبلاد متصلة مع المسلمين، والمسلمون غالبون عليهم".[٢٤٩]

في الدين والسلوك الاجتماعي

أثنوغرافيا الثقافة

أدرك المؤلفون العرب "نسبية الثقافات" التي غدت من المفاهيم الأساسية للإنثروبولوجية المعاصرة، فلم تقتصر ملاحظاتهم على حياة الهنود والشعوب الأخرى على العادات المستهجنة والغريبة، والفروقات الثقافية الجذرية، أو على تسجيل ما وجدوه من حياة ثقافية للهنود لإرواء ظمأهم المعرفي وفضولهم، بل رافق ذلك وعيهم لتنوع المؤسسات والمعتقدات،والسلوكيات الاجتماعية، واتجهوا خطوة أخرى باتجاه المقارنة بين هذه الانماط الثقافية للشعوب، فانتقل البيروني في دراسته لدين الهنود ولثقافتهم العالمة، من التمحّص والمعاينة إلى المقارنة طويلة النفس ما بين هذه الثقافة وبين ما يماثلها عند اليونان، وأحياناً عند العرب المسلمين، وقدّم لنا السيرافي في رسالته الرائعة نصّاً أخاذاً جريئاً، يقترب لأن يكون مدخلاً انتروبولوجياً، وذلك في مقارنته بين العلائم الكبرى للسلوك الثقافي الهندي والسلوك الثقافي الصيني، وامتلأت النصوص العربية عن الهند بالمقارنات الضمنية ما بين السلوك الثقافي الهندي، والسلوك الثقافي العربي الإسلامي، فهذا السلوك الأخير كان المرجيعة التي انطلق منها المؤلف العربي للمقايسة والمقارنة، لينتهي بإعلان أحكامه المعيارية عليها.

مجالات التفوق الحضاري

أدرك البيروني أوجه التباين والاختلاف بين الثقافة العربية الإسلامية، والسلوك الاجتماعي للجماعة العربي الإسلامية، وما يقابلها في الهند من ثقافة وسلوك، ففي معرض حديثه عن العقبات المعرفية التي واجهته للتعرف على الهنود وشعبها وثقافتها، أظهر مجالات هذا التباين، بقوله: "إنالقوم يباينونا بجميع ماتشترك فيه الأمم، وأولها اللغة،وإن كانت تشابه العربية لتسميتها الشيئ الواحد بعدّة أسام مقتضبة ومشتقة، ثم هي منقسمة إلى مبتذل لاينتفع به إلاّ السوقة (يعني اللغة العامية)، وإلى مصون مصنّع يتعلق بالتصاريف والإشتقاق ودقائق النحو والبلاغة"[٢٥٠] ومنها أيضاً"أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلّية، لايقع منّا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا"، فضلاً عن ذلك، فإن الهنود منغلقين على أنفسهم حذرين من الغريب، ويتجنبون الاختلاط به، ويسمون الغريب (مليج)، و هو عندهم "القذر، لا يستجيزون مخالطته في مناكحة ومقاربة ومجالسة، ومؤاكله ومشاربه من جهة (النجاسة)، ويستقذرون ما تصرف على مائة ونارة وعليها مدار المعاش، فليس بمطلق لهم قبول مَن ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبا إلى دينهم". [٢٥١] ويضاف إلى ذلك "أنهم يباينوننافي الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزيّنا، وهيآتنا، وينسبونا إلى الشيطنة".[٢٥٢]

وقد أرجع مؤلفونا هذا الحذر الهندي من الغريب إلى عاملين إثنين، أولهما أن الغريب يأكل لحم (البقر) وهي كائن مقدس لديهم، وسنرجع إلى ذلك لاحقاً، أما العامل الثاني الذي ينبه إليه البيروني فهو شعورهم العظيم بالتفوق، إذ أنهم "يعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفي العلم أنه ما معهم، فيترفعون ويتبظرمون، ويعجبون بأنفسهم".[٢٥٣] غير أن موضوعية البيروني، وحذره العلمي، تدفعه إلى الاستدراك، فنوه إلى أن حكماءهم الأقدمين لم يكونوا بهذ الحال من العجرفة، فهذا براهمهر أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول: "إن اليونانيين، وهم أنجاس، لما تخرجوا من

العلوم، وأنافوا على غيرهم وجب تعظيمهم ". فكانوا يعترفون لليونانيين بأن" ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم".[٢٥٤] كما أن تجربته الشخصية معهم، دلّلت له، أنهم عندما رأوا سعة علمه، و"أخذت أوقفهم على العلل، أشير إلى شيء من البراهين، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات، انثالوا علي متعجبين وعلى الاستفادة منها متهافتين".[٢٥٥]

إلا أن تباين الهنود في اللغة والدين والعادات،وعجرفتهم، لم تقد المؤلف العربي إلى إنكار ما تمتاز به الهند من حضارة، ومدنية، ومميزات أخرى: الغنى والثراء، والقوة، وسعة الأرض، وعظمة الملك، والعدل، والصدق في التعامل، وحب الصدقات، والتفوق في العلوم، وغير ذلك.

لخّص الثعالبي (٤٢٩هـ - ١٠٣٣م) إعجاب العرب بالهند لا سيما بغناها وثرائها، وما تحمله طبيعتها من كنوز، وسلع لا يستغنى عنها، حين قال "بحرها در، وجبالها ياقوت وشجرها عود، وورقها عطر".[٢٥٦] كما لخص القلقشندي وهو من موسوعيي القرن الخامس عشر، تقييم العرب لموقع للهند الحضاري، بقوله: "الملك العظيم، والعدل الكثير،و النعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرضا الدائم والأمن الذي لا خوف منه في بلاد الهند، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة، والطب والهندسة والصناعات العجيبة".[٢٥٧] إلا أن الهند بالمقارنة مع الصين تبدو أقل مدينية، وأقل كثافة بالمدن، "في بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة، وأهل الصين والهند أشبه بالعرب في اللباس والدواب".[٢٥٨] إلا أن الهند عوضت عن ذلك، باتساع ملكها وبأشياء أخرى "هذه مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها، وعساكرها، وأبهة سلطانها، في برها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس وفي شعابها العود والكافور".[٢٥٩] ويكفي الهند فخراً، ما خصّه المؤلفون العرب لهم من تأثير واسبقية في العلوم، لدرجة جعلوها معلمة اليونان والشعوب الأخرى، ولم يستثنوا من تلك التلمذة أحد، فهم "أعلم الناس بالحكمة والهندسة والطب"،[٢٦٠] وهم الذين ابتدعوا العلوم، واقتبستها عنهم الأمم، كما رأينا في معرض حديثنا عن ملوكهم، ولعل اليعقوبي كثّف نظرة الإعجاب التي حملها العرب تجاه الهند وتفوقهابالعلوم والمدنية والحكمة، بقوله "والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، كتاباتهم فيه "كتاب السندهند" الذي انبثق منه كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونان والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب... فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها... ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم... ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها".[٢٦١] وتمتاز الهند أيضاً، بأنها "أمة عظيمة، كثيرة الأجناس، متباينة الآراء والديانات".[٢٦٢] إذ، أدرك العرب تعدد مذاهب الهند وأجناسهم، وأيضاً لغاتهم، "فلغة السند خلاف لغة الهند، ولغة أهل المانكير - وهي دار مملكة البلهرا - (لغة) كيرية. ولغة ساحلة مثل صيمو، وسوباره، وتانة وغير ذلك من مدن الساحل لاريه.. وهي (لغة) مضافة (أي تنسب) إلى بحر لاري".[٢٦٣]

وتفوقت الهند أيضاً بسحرتها، وسحرائها، فإن فيهم "من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء، فيخط في الأرض داره (دائرة) تحت الطيور، فلا تزال تدور في موقع الخط إلى أن تقع فيه".[٢٦٤] وفيهم من السحرة "من يمنع التمساح، فيجعل الرجل يسبح معه، دون أن يصيبه أذى".[٢٦٥] وقد أبدى البيروني تشكّكه بالسحر، وبحقيقته، وعزاه إلى اعتقاد العوام، ووصف السحر بأنه "إظهار شيء للإحساس على خلاف حقيقته، بوجه من الوجوه والتمويه، فإذا نظر إليه من هذا الوجه، وجد في الناس شائعاً، وإن اعتُقد فيه اعتقاد العوام، أنه إيجاد الممتنعات... فالكذب ظاهر في حدّه، فالسحر إذاَ غير داخل في العلم بتة".[٢٦٦] إلاّ أنه لاحظ شيوع طرائق أخرى،في الهند، شبيه بهذا الباب يسمونه (رساين)،" وهو صناعة مقصورة على تدبير معاجين، وتراكيب أدوية أكثرها نباتية، بغرض إعادة الصحة إلى السقيم من المرض، ونقل حال الفرد من الشيخوخة إلى حال المراهقين من إسوداد الشيب وذكاء الحواس والقوة على البطش، والجماع، بل نيلهم البقاء في الدنيا أزمنة طويلة".[٢٦٧]

وتختلف مساكن الهنود عن الصينين، بأن الأخيرين بناؤهم من الخشب، "وبناء الهند من حجارة وجص وآجر وطين".(٢٦٨) وأبدى العرب إعجابهم بنساء الهند وجمالهن، وأرتأوا "ان ملامح الهنديات أكثر حسناً من الترك والقفجاق، مع ما يتميزون به من التخريج العظيم (المظهر اللائق) والتفنن الفاتن، وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع مختلطاً بالحمرة، وعلى كثرة وجود الترك والقفجاق والروم وسائر الأجناس عندهم، لا يفضلن أحد سواهن، لكمال الحسن والحلاوة وأموراً أخرى تدق عنها العبارة".(٢٦٩)

وتشتهر الهند بأنواع من الحيوان والنبات والمعدن، لا يوجد نظيرها لدى غيرها، ذكر الثعالبي، أن بلاد الهند "أكثر البلاد خصائص لا تكون بغيرها، فمنها: الفيل، والكركدن والببر، والطاووس، والببغاء،و الدجاج الهندي، والطائران: بانكرك وشارك، والياقوت الأحمر، والصندل الأبيض، والعاج، والعود، والتوتياء، والقرنفل والسنبل، والجوز بوا (شجر الطيب) والثياب المخملة وغيرها.(٢٧٠)

وأجمع المؤلفون العرب على اشتمال الهند على العجائب والغرائب، أكثر من الأمم الأخرى، وقدعرّف البيروني العجيب بقوله: "إن غرابة الشيء تكون لعزة وجوده وقلة الاعتياد في مشاهدته... ثم تستند الأعجوبة مما هو خارج عن العادة الطبيعية فيكون مستحيل الكون قبل المشاهدة"،(٢٧١) وشهد بزرك وغيره من المؤلفين" أن الله خلق العجائب عشرة أجزاء، جعل تسعة منها في ركن المشرق... ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها".(٢٧٢)

السلوك والعادات والأخلاق الاجتماعية

رأينا مع ابن خرداذبة بداية الإدراك الغامض للبناء الاجتماعي ولنظام الطبقات الهنديين، فكان مؤلفونا، منذ ذلك الحين،على دراية بانغلاق تلك الطبقات على ذاتها، وتميّز الأعلى منها على الأدنى، وعدم قدرة أفرادها على تجاوز التخوم بينها، فأهل الملك في بيت واحد، وينطبق الأمر نفسه على مهنة الطب، والكتابة، وغيرهما من المهن، لكن مع البيروني انجلت صورة البناء الاجتماعي الهندي، الذي رسّخت قواعده الديانة البراهمية،التي حددت بدورها السلوك الاجتماعي الملازم لكل طبقة، وذلك بسن تشريعات تقضي بتجنب الاختلاط والتداخل بين التكوينات الاجتماعية، فحدّد البيروني بدقة التراتبية الاجتماعية، وكيفية تفضيل طبقة على أخرى، وتباين مواقعها وحقوقها وواجباتها، وأشار إلى تباين معايير التفاضل الهندية القائمة على العرق والطبقة، مع مبادئ الإسلام ومعاييرها في الحكم على الناس، والتي حصرت التفاضل بينهم بالتقوى لله، وسادت فيما عدا ذلك بين البشر، حتى ظنّ إن مبدأ المساواة الإسلامي هذا، وقف عقبة أمام دخول الهند للإسلام، فيقول "حتى أن مخالفتنا إياهم وتسويتنا (مساواتنا) بين الكافة إلاّ بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام".(٢٧٣)

وهذه الطبقات أربع علياها (البراهمة)، التي خُلقت، كما ذكرت كتبهم، من رأس (براهمه)، وهو علامة على رفعة هذه الطبقة، فالبراهمه "نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خير الإنس"، والطبقة التي تليها: "كشتر"، "خلقوا بزعمهم من مناكب براهمه ويديه"، ورتبتهم لذلك ليست متباعدة جداً "عن "رتبة البراهمة"، وتأتي دونهم الـ "بيش" الذين "خُلقوا من رجلي براهمه"، وهاتان المرتبتان كشتر وبيش على تمايزهما يعملون في المدن والقرى، ثم يأتي بعدهم أحطهم طبقة :(شودر)، يشتغلون بالمهن كالاسكاف والنساج وصياد السمك، والقناص،ويشتغلون "برذائل الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها".(٢٧٤)

وقد أُحيطت تلك التقسيمات بشبكة من التشريعات لتمنع التداخل بينها، ونسبوا هذه التشريعات إلى الإله براهمه والملوك القدماء المقدسين لديهم. "وكان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم إلى

تصنيف الناس إلى طبقات ومراتب يحفظونها من التمازج والتهارج، ويحظرون الاختلاط عليهم بسببهما، ويُلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة وحرفه ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته".(٢٧٥)

وعلى هذا، فقد لصقوا بكل واحد من أهل الطبقات "سمات والقاب بحسب فعله وطريقته". ونقل البيروني عن (باسديو) جوابه عن طباع الطبقات الأربع، وما يجب أن يتحلوا به من الأخلاق، قوله: "يجب أن يكون البرهمن وافر العقل، ساكن القلب صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال، ضابطاً للحواس، مؤثراً للعدل، بادي النظافة مقبلاً على العبادة، مصروف الهمة إلى الديانة، وأن يكون كشتر مهيباً في القلوب، شجاعاً، متعاظماً، ذلق اللسان، سمح اليد غير مبال بالشدائد.. وأن يكون بيش مشتغلاً بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة، وشودر مجتهدا في الخدمة والتملق، متحبباً إلى كل أحد فيها" وعلى كل من هؤلاء أن يثبت في وظيفته، وخصاله، "فإذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير... وإذا انتقل عمّا (هو) عليه إلى طبقة أخرى.. كان آثماً بالتعدي على الأمر".(٢٧٦)

فطبقة البراهمة وظيفتها الإشراف على الأمور الدينية، وعلى أعمال الكهانة، وتقوم طبقة كشتر بوظيفة الحرب والسياسة، وتقوم بيش بأعمال الزراعة والتجارة، وتنفرد طبقة الشودرا بخدمة الطبقات الأخرى، وطلب مرضاتها، والتذلل إليها، لهذا حُدِّد لكل طبقة أخلاقية ومناقبية خاصة بها، تنسجم مع وظيفتها ورسالتها الإجتماعية، تناظر إلى حدّ ما منشأها العضوي من جسدالبراهمه، فالحكمة التي يختص بها البراهمة تتسق مع فكرة أنها ولدت من رأس البراهما، والشجاعة التي تميز كشتر تتسق أيضاَمع فكرة ولادتها من منكبي البراهمه، وهكذا إلى بقية الطبقات.

لاحظ البيروني ومعه المؤلفون العرب تأثير هذا البناء الاجتماعي، على تسلسل الوظائف والعلائق الأخرى للمجتمع الهندي، ولاحظوا تأثير ذلك، كما رأينا سابقاً،على النظام القضائي، ورأوه أيضاً في النظام العائلي، وفي الزواج.

انطلق البيروني من فرضية أن النظام أو الزواج لا تخلو منه أمة، لأنه" مانع التهارج المستقبح في العقل، وقاطع لأسباب الفساد"، حتى أن زواج الحيوان ذاته اقتصر "كل زوج منها بزوجه" فكيف الحال بالإنسان، أما فرضيته الأخرى فتقوم على نسبية الثقافات، إذ يقول إن "لكل أمة فيها رسوم، وخاصة من ادعى منهم شريعة وأوامر له إلهية" وينطبق هذا، بنظره، على الهند التي لها قواعدها الخاصة في الزواج، ترتبط ببنائها الاجتماعي المتفاوت في المكانة والاعتبار، فمن حق الهندي الزواج من طبقته، أو من الطبقة الأدنى منها، باستثناء الشودرا، فزواجهم ينحصر بطبقتهم، ولا يتزوج منهم أي فرد من الطبقات الأخرى، وهو أمر أوضحه البيروني: "على الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها، لكن الرجل الذي يتزوج من الشودرا يصبح مفضوحاً، مهتوك الستر، ويُطرد من طائفته، ويصيبه خزي في الدنيا والآخرة، فلا تتزوج نساء الشودرا إلاّ رجال من الشودرا".(٢٧٧)

وأشار البيروني إلى اتباع الهنود الخط الأمومي في النسب، وفسّر ذلك برغبتهم في الحفاظ على نقاء النسب، "ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج في طبقته فيما دونها... ويكون الولد منسوباً إلى طبقة الأم دون الأب، فإذا كانت امرأة البرهمن مثلاً، برهمنا كان الولد كذلك، وإن كانت شودرا كان شودراً"،(٢٧٨) ومع ذلك فإن للزواج في الهند قواعد مرنة، إذ لاحظ البيروني شيوع نظام تعدد الزوجات، الذي يحق للرجل أن يتزوج بأربع نساء، "وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرّم إلا أن تموت إحدى من تحت يده".(٢٧٩) بينما أكد السيرافي على أن الرجل في الصين والهند يتزوج "ما شاء من النساء".(٢٨٠) أمام المروزي فيقصر تعدد الزوجات على العظماء، إذ "يتزوج العظيم من عظمائهم من النساء من عشرين امرأة إلى

مائة".[٢٨١] ولقد أشار البيروني في مكان آخر إلى أن "منهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات، حتى يكون لبرهمن أربعاً، ولكشتر ثلاثاً، ولبيش اثنتين، ولشودر واحدة".[٢٨٢] والزواج عندهم رابطة دائمة، لا يفرق بين الزوجين إلاّ الموت، إذ لا طلاق لهم، والمرأة إذا مات زوجها ليس لها أن تتزوج، وهي بين أمرين "إما أن تبقى أرملة طوال حياتها وإما أن تحرق نفسها، وهو أفضل حالاً لانها تبقى في عذاب مدة عمرها".[٢٨٣] وأنهم يفضلون، في زواجهم الأباعد على الأقارب، حسب البيروني،" والقانون في النكاح عندهم، أن الأجانب أفضل من الأقارب، وما كان أبعد في النسب من الأقارب هو أفضل مما قرب فيه، وأما ماجرى على الاستقامة إلى أسفل، أعني ابنة الأولاد وأولاد الأولاد، وإلى الأعلى من أم وجدة وأمهاتهن فمحرم أصلاً، وأما من انحرف عن الاستقامة وتفرّع إلى الجانبين: من أخت وبنت أخت، وعمّة وخالة وبناتها فكذلك محرم".[٢٨٤] ولعل تقدير البيروني أقرب إلى الصحة، مما ذهب إليه الإدريسي، من أن الرجل في الهند "إذا ارتضى نكاح ابنته أو اخته أو خالته أو عمته ما لم تكن متزوجة فعل ذلك، والأخ يفعل بأخته مثل ذلك".[٢٨٥] فمصدر الإدريسي هنا السماع، وتناقل الأخبار، بينما كانت التجربة والمشاهدة هما المصدران الأولان للبيروني.

والأصل في المواريث عندهم سقوط حق النساء منها، ما خلا الإبنة فإن لها ربع ما للإبن، وجهازها من ميراثها، أما الزوجة فإن آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت حية "فالأصل في الورثة هم الذكور" وأن الأسفل من الميت أحق بالإرث من الذي يعلوه "أعنى أن الإبن والأولاد أولى من الأب والأجداد، وأن الإبن أولى من ابن الإبن والأب أولى من الجد، وابن الإبنة أولى من ابن الأخت، وابن الأخ أولى من كليهما، إن لم يكن للميت وارث كانت التركة إلى بيت مال الوالي، إلا أن يكون الميت برهمن فتتحول التركة إلى صدقة".[٢٨٦]

أما عن العادات والطقوس المرافقة للزواج، فقد ذكر السيرافي أن الهنود إذا أرادوا الزواج "تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول،و هديتهم في المال قدر الإمكان".[٢٨٧] وأكمل البيروني المشهد بالإشارة إلى أن من عادات الهنود "التزويج على صغر السن"، ويقوم الأبوان بعقد الزواج، ويباركه البراهمة برسوم وقرابين، ويقدّم لهم ولغيرهم الصدقات، عندها "تظهر آلات الأفراح"، ليس عندهم مهر وإنما يكون للمرأة" صلة، ونحلة معجلة" بحسب الهمة.[٢٨٨]

اهتم الكتاب العرب بالرابطة الزوجية، وبالزنا قبل الزواج وبعده، مقارنة بالتقليد السائد عندهم، فرأى بعضهم كالسيرافي أن الزنا مباح قبل الزواج فحسب، ولاحظ أن "الزنا في جميع بلاد بلهرا مباح إلاّ في المتزوجات".[٢٨٩] وذهب الحميري بالاتجاه نفسه "والزنا عند سائر ملوكهم مباح إلاّ في المحصنين".[٢٩٠] بينما استراب البيروني في خبر إباحة الزنا قبل الزواج وبعده، واعتبره من الظنون المشكوك فيها، قائلاً "ويظن الناس أنه (الزنا) مباح عندهم... وليس الأمر كما يظن ولكنهم لا يشدّدون في العقوبة عليه".[٢٩١] ويذهب إلى أن "عقوبة الزانية أن تخرج من بيت الزواج وتُنفى".[٢٩٢] بينما أشار السيرافي إلى أنه "إذا أحضر الرجل منهم أمرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل، في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها قُتل الرجل وحده، فإن فجر بإمرأة على رضى منها قتلا جميعاً".[٢٩٣]

ولاحظ المؤلفون العرب الذين أولوا النظافة والطهارة، حسب التقليد الإسلامي، اهتمامهم، أن الهنود لا يختتنون،[٢٩٤] كما أنهم "لا يغتسلون من جنابة، ولا يأتون نساءهم في الحيض".[٢٩٥] بل أنهم "يخرجونهن من منازلهم تقززاً".[٢٩٦] أثناء حيضهن، لكنهم، وعلى الرغم من عدم اغتسالهم من الجنابة فإنهم "يغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون".[٢٩٧] وذهب البيروني إلى تقرير أن إتيان المرأة في أيام الحيض محظور عندهم، بل إن اقترابها من البيت محظور أيضاً، وما دامت المرأة نفساء لم تقرب من آنية،ولا يؤكل في دارها شيء "،[٢٩٨] والشيء الدارج عندهم أنهم "يغتسلون ثم يجامعون".[٢٩٩] والنساء يقمن بأمور الحراثة، "وأزواجهن في راحة".[٣٠٠]

وما يفرّق فتيات ونساء الهند البرهميات عن المسلمات أن"المسلمات بأرض الهند تتركن ثقب الأذن،والكافرات آذانهن مثقوبة".[٣٠١]

ومن عاداتهم، أن الرجال "يستشيرون النساء في الآراء والعوارض، ويُحسنون وقت الولادة إلى الرجال دون النساء، ويفضلون الأصغر من الأبناء لاعتقادهم أن أكبر الأولاد أتى عن "شهوة غالبة والأصغر عن قصد وفكرة وتؤدة".[٣٠٢]

لا يمكن أن يغيب عن بال مؤلفينا، إنقياد الزوجة الهندية إلى النار حرقاً، التصاقاً بزوجها الميت، فقد وصف ابن بطوطة بذعر وتعجّب أحد المشاهد تلك، عندما رأى بأم العين كيف أقدمت ثلاث نساء، وقد مات أزواجهن، إلى النار الملتهبة بثبات ليواجهن أقدارهن، فما كان منه، وهو ابن ثقافة منحت اعتباراً كبيراً للحياة، وللنفس البشرية، إلاّ أن أُغمي عليه، وكانوا أخبروه أن "كافراً" من الهنود مات، فأججوا النار لحرقه، فقامت امرأته بحرق نفسها معه، "ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنها عانقت الميت حتى احترقت معه.[٣٠٣] وصادف،في مرّة أخرى، إمرأة هندية "متزينة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها". ومعها البراهمة، وكبراء الهنود، كانوا قد استأذنوا سلطان دلهي بإحراقها، ومرة أخرى، شاهد ثلاث نساء مات أزواجهن، فتعاهدن على إحراق أنفسهن سوية، فاقمن قبل موعد الحرق بثلاثة أيام وهن في غناء وطرب وأكل وشرب". وفي اليوم الموعود أتت كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطرة، والبراهمة يحفون بهن، ومعهن الأقارب، تصاحبهن الطبول والأبواق، والناس حولهن يطلبون منهن إبلاغ التحيات لأقاربهم، وهن يقلن للطالب "نعم"، إلى ان وصلن موضع كثير المياه والأشجار بينها أربع قباب، وبجوارها صهريج ماء، فانغمسن بماء الصهريج وتجردن من ثيابهن، وزينتهن، وتصدقن بها، ولبسن ثياب قطن خشن غير مخيط، قرب النيران المضطربة المتأججة، التي حولها خمسة عشر رجلاً يوقدونها بالخشب، فتقدمن إلى النار بثبات، ونظرت إحداهن إلى الرجال قائلة: "أبالنار تخوفونني؟ " ثم "جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها" فقرعت الطبول والأزمار والأبواق، ورمى الرجال الحطب ليزيدوا النار اشتعالاً، فكاد ابن بطوطة أن يسقط من فرسه مغمياً عليه.[٣٠٤]

على قسوة هذه النهاية المروّعة، إلا أنها كما عرف ابن بطوطة، ليست من الفروض الدينية الواجبة "فإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها، أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إليها الوفاء، وإن لم تحرق نفسها، لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكن لا تكره على إحراق نفسها".[٣٠٥]

ويطيب للمراقب العربي تجنب الهنود شرب الخمر، رغم دوافعهم إلى ذلك ليست دينية، فهم يمتنعون "عن شرب الخمر المسكرة، ويعيبون شاربها لا تديناً بل سياسة،.[٣٠٦] كما أنهم يحرمون الربا، وهو ما يتوافق مع التقليد الإسلامي، "وأما الربا في المال فهو محرم، وإثمه بقدر الزيادة الموضوعة على رأس المال، وليس فيه رخصة إلاّ لشودر".[٣٠٧] والصدقة عندهم "واجبة كل يوم بما أمكن".[٣٠٨]

وفي الحديث عن عاداتهم، يتنازع المؤلفون العرب رغبة المقارنة والإحالة إلى مرجعيتهم الثقافية، ففي كلامهم عن نظافتهم، لاحظوا أنه باستثناء أصحاب الطقوس التعبدية القاسية، فإن الهنود حريصون على النظافة، فهم كما رأينا "يغتسلون كل يوم، قبل الغداء ثم يأكلون" كما أنهم "يستاكون، ولا يأكل أحدهم حتى يستاك (من السواك)، ويغتسل".[٣٠٩] غير إن عندهم "البول أنظف من الماء الذي تّغسل به اليد أو الفم".[٣١٠] ومن عادات الهنود تطويل لحاهم "ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع، ولا يأخذوا شواربهم" لكن "إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته".[٣١١] ويضفرون لحاهم ضفائر صيانة لها، ويعملون على ترك شعر العانة، لأن تركهم إياها، حسب اعتقادهم، يهيج الشهوة، ويطولون الأظافر[٣١٢] وهي علامة على التعطل من المهن.

وأشار ابن بطوطة والعمري أن "الغالب على لباسهم البياض".[٣١٣] وثيابهم "من القطن الرفيع، تعمل منه ثياب شبيهات بالمقاطع البغدادية (ثياب جيدة)..."[٣١٤] يلبسون "فوطتين، ويتحلون بأساور الذهب والجوهر :الرجال والنساء".[٣١٥] والأصل عندهم، كما يقول البيروني، هو "العري لشدة الحر"ويتسرولون بالعمائم، ثم المفرط منهم يكتفي من اللباس بخرقة قدر إصبعين بشدّها على عورته بخيطين، والمفرط يلبس سراويل محشوة بقطن"، ويضيقون الخفاف ويتزينون كالنساء "بالأسورة وخواتم الذهب في البناصر وفي أصابع الرجل".[٣١٦] وأشار ابن بطوطة إلى أن "أهل الهند يجعلون في رؤوسهم زيت السمسم... ويغسلون الشعر بعده بالطفل، فينعم الجسم، ويُصقل الشعر ويطيله".[٣١٧]

أما في طعامهم، فإنهم "لا يأكلون الحنطة إنما يأكلون الأرز".[٣١٨] ويأكلون "أحاداً فرادى... ولا يعودون إلى ما فضل من طعام، ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية، ويحمّرون الأسنان بمضغ الغوفل بعد تناول ورق التنبول والنورة".[٣١٩] ولا يعتمدون الذبح على الطريقة الإسلامية، في أكلهم للحم الحيوان، وذلك لأنهم يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت فإذا مات أكلوه... والفأر عندهم من أنظف ما يؤكل".[٣٢٠] وذكر الإدريسي، أن أهالي نهرواره الهندية يأكلون: الأرز، والباقلي واللوبياء والعدس، والماش والسمك، والحيوانات التي تموت ميتاً طبيعياً، ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً... أما البقر فمحرمة عندهم البتة، فإذا ماتت دّفنت.[٣٢١] والمباح من الطعام لديهم: الضأن والمعز والظباء، والأرانب والجواميس والسمك والطير، أما المنصوص على تحريمه عندهم فهو: البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلية، والغربان والببغاء والخمر.[٣٢٢]

واستنتج مؤلفونا أن الهنود استعاضوا عن الخمر، بالتنبول، يختمون به وجبة طعامهم، أشار العمري "أن أهل الهند لارغبة لهم في الخمر ولا في المسكرات استغناءً بالتنبول، وهو حلال طيب لا شبهة فيه... يطيب النكهة، ويصرف الأطعمة، ويبسط النفس بسطاً عظيماً، ويرثها سروراً زائداً، مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذاذة الطعم".[٣٢٣] وتقديم التنبل من العادات الملازمة لواجب الضيافة، ولختم الطعام، فإذا أراد الهندي إكرام ضيفه، كما يقول العمري، وقدّم له "شتى أنواع الأطعمة والأشربة، والرياحين والطيب، ولا يحضر معها التنبول لايعتد له بكرامة، لا يُعد أنه أكرمه، كذلك إذا أراد الرئيس إكرام أحد يناوله التنبول".[٣٢٤] ومن العادات التي أثارت عجب مصنفينا، واستهجانهم، حرق الميت، فأهل الهند "يحرقون موتاهم ولا قبور لهم"، غير أنهم لاحظوا أن في البلاد المتاخمة للمسلمين في السند" يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً" وهم "لا يبكون ميتاً، ولا يحزنون عليه كثيراً".[٣٢٥]

ونختم هذا الباب، ببعض العادات، التي لاحظها البيروني بنباهة، لاختلاطه بالهنود، فهم "يأخذون اليد في المصافحة، من جهة ظهر الكف، ولا يستأذنون للدخول في البيوت، ثم لا يخرجون من غير استئذان، ويتربعون في المجالس، ويبزقون بالنخاعة غير محتشمين الكبراء، ويقصعون القمل بين أيديهم، ويتيمنون بالضرطة، ويستنظفون الحجّام، وقاتل المستميتة منهم (وهو الذي يساعد المنتحر على انتحاره) بالأجرة: إغراقاً وإحراقا".[٣٢٦]

عقائد الهند الدينية

ترك لنا مؤلفونا رزمة من المقالات، والمقتطفات عن الديانة الهندية. في ثنايا مؤلفاتهم الجغرافية والتاريخية والأدبية، وفي مدونات رحلاتهم، بعضها مصدره السماع، وبعضها الآخر حصيلة رحلاتهم وتجاربهم في ربوع

الهند، وانفرد البيروني في تأليفه، ليس لأنه جمع بين التجربة والمعايشة المباشرة، والسماع، بل لأنه قرأ المصنفات الدينية الهندية الأساسية من مصادرها الأصلية باللغة السنسكريتية، ولا سيما كتاب "بهاغوت غيتا" أو "بهاغها فاديتا"، لذا فإننا إذا استثنينا (تحقيق) البيروني، فإن الكتابات الأخرى، بما فيها كتابات المسعودي، وابن طاهر المقدسي، وابن النديم، والشهرستاني، اقتصرت على إبراز أفكار وانطباعات عامة عن الديانة البراهمية، وشذرات غامضة عن البوذية، التي كانت عند دخول العرب إلى الهند، واحتكاكهم بأهلها، في حالة انحسار بعد أن امتصتها البراهمية، في ثنايا عقائدها المنفتحة على طرائق عدة من التعبد، والطقوس والعبادات، واقتصرت معالمها على بعض المعابد في بلخ، وباميان، وترمذ، وهي في أفغانستان اليوم.

وعلى الرغم مما يقال عن عدم اتساق معرفتهم بالعقائد البرهمية، فإنهم استطاعوا الدخول إلى التربة العامة لهذه الديانة، وإلى مناخاتها العقائدية وطقوسها الكبرى: أهمية براهما ومركزيته في هذه الديانة، وما تتضمنه من جانب "توحيدي" رغم مظاهر التعدد، والـ"شرك"، والتي تجلّت في تقديسها لبعض المظاهر الكونية، ثم انتشار قداسة الأصنام "البُد"، ومظاهر تقديس الأفعى، والبقرة، والشمس، ونهر الكنج، وطقوس إذلال الجسد، والتقشف، وتعدد المذهب وتفرعها، وعقيدة التناسخ، إلى غير ذلك من طقوس ومظاهر التعبد، أما الجانب التقييمي لهذه العقائد، فقد انطوت أحكامهم على إحالة دائمة إلى مرجعيتهم الدينية، وهم الذين نظروا إلى الإسلام كخاتم للنبوة والرسالة، والوحي، ومتممها، فإن كان هناك من مركزية ثقافية عندهم، فقد اقتصرت على "المركزية الدينية" علماً أن دينهم منفتح على البشرية جمعاء وليس ديناً مغلقاً أو ديناً للعرب حصرياً.

البحث عن الديانة البرهمية / الهندوسية

التبس لديهم الأمر بشأن "براهما"، بين أن يكون الملك المؤسس لوحدة الهند، ولحكمتها، ولدينها، وبين كونه رسولاً، وصاحب رسالة سماوية، لكنهم اتفقوا على إعلاء منزلته إلى مرتبة المؤسس للديانة الهندية ولحكمتها وملكها، وأغفلوا الجانب الإلهي فيه، ولعل مرد ذلك، أنهم عرفوا أن طبقة البراهمة، هي من الطبقات،التي تختص وحدها بدور الكهانة، وكأنها استمرار لدور حامل الرسالة الذي قام به (براهما)، وبالتالي فهي تنتسب إليه كمؤسس أول للديانة، والمنظم لقواعدها، وليس باعتباره كما تذهب الديانة البراهمية: إله الخلق وسيد الآله والمسيطر على العالم كله، والمحيط بجميع الكائنات، إلى جانب الإلهين العظيمين الآخرين، الإلهه شبو أوشيفو shivo المخرب المدمّر الموكول له قبض أرواح الناس وتخليصها من أبدانها، ووشنو Vishnu الحافظ، إله الحب الذي أحيا الموتى وأبرأ الأكمة والأبرص ثم صعد إلى السماء ليعود إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق. وإلى جانب هؤلاء الآلهة العظام، هناك الآلاف، إن لم يكن ملايين الآلهة كما يذهب البعض، بعضهم أقرب إلى الملائكة ومنهم ما هو في صورة الطير والحيوان والهوام، تجمعهم كلها شبكة واحدة لتناسخ الأرواح[٣٢٧]

وقد اكتفوا بالتأكيد على أن مؤسس الديانة الهندوسية هو "برهمن الأكبر والملك"، فهو "الإمام المقدم فيهم الذي ظهرت في أيامه الحكمة"[٣٢٨] غير أنهم أضافوا إلى ذلك احتمال أن يكون رسولاً.[٣٢٩] وأدركوا تعدّد الآلهة عند الهنود وتعدد مذاهبهم، واقتربوا من وعي أن للهندوسية، ثلاثة آلهه عظمى. فاعتقد الحميري أنهم "اثنتان وأربعون ملة، فمنهم من يثبت الخالق وينفي الرسل، ومنهم من ينفي الكل. ومنهم من يعبد النار ويحرق نفسه، ومنهم من يعبد الشمس ويسجد لها، ويعتقد أنها الخالقة المدبرة لهذا العالم، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الثعابين".[٣٣٠] بينما أشار المسعودي إلى أنهم بدأوا بسبعة فرق، ثم "اختلف أهل الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة، ثم تفرعوا بعد ذلك مذاهب... والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة"[٣٣١] وقسّم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ – ١١٥٣م) مذاهب أهل ألهند. ووضع البراهمة ما بين مذاهبهم العديدة، ومنهم البراهمة، وهم المنكرون للنبوات أصلاً، ومنهم من يميل إلى الدهر، ومنهم من يميل إلى الثنوية ويقول بملة إبراهيم عليه السلام، وأكثرهم على مذهب الصابئة

ومناهجها، فمن قائل بالروحانيات، ومن قائل بالهياكل، ومن قائل بالأصنام".(٣٣٢) وفصّل (مطهّر المقدسي) الأمر، فالهند "تسع مائة ملة مختلفة"، عُرف منها تسع وتسعون ضرباً، إلا أنه أرجعهم بالنهاية إلى "اسمين :البراهمة والسمنية" والسمنية اسم أطلقه العرب على "البوذية"، التي هي "معطلة"، أي لا تؤمن بمسألة الخلق والخالق، أما البراهمة "فهم ثلاثة أصناف".(٣٣٣) ولعل المقدسي يشير هنا بطريقة غامضة إلى المذاهب البراهمية المتمحورة حول الآلهة الثلاث: براهما، وشيفو، ووشنو، غير أنه يذهب في التفسير باتجاه آخر، فهذه الأصناف الثلاثة، "منهم من يقول بالتوحيد، والثواب والعقاب، ويبطلون الرسالة". وصنف آخر يقول "بالثواب والعقاب على التناسخ، ويبطلون التوحيد والرسالة".(٣٣٤) وزعمت الموحدية من البراهمة: أن الله عزّ وجل بعث إليهم ملكاً من الملائكة بالرسالة في صورة بشر اسمه "ناشد"، له أربع أيد... وله إثنا عشر رأساً... "قالوا: أمرنا بتعظيم النار... ونها عن القتل وشرب الخمر، وأباح لنا الزنا، وأمرنا بعبادة البقر، وأن نتخذ صنماً على مثاله".(٣٣٥)

فلقد أبرز الباحثون العرب وجود التوحيد في البرهمية، ثم ما لبثت هذه النزعة التوحيدية، أن شابها التعدّد، والتجسيد، وذلك عن طريق تعظيمهم للأصنام، والنار، والبقر، وتصورهم هذا عن المزج بين (الوحدانية)، والتعددية، لا يجانب واقع الديانة البراهمية، وإن كان ينقصه معرفة التسميات الملائمة، وإدراك النظام الشامل للعبادات البراهمية وترابطها، وعقائدها،و أسماء آلهتها الكبرى، والتراتبية الهرمية للآلهة، ووظائف كل منها، في مجمعها، وهو ما جعلهم، بعد إبراز نزعة (التوحيد)، يستطردون في تعقب اعتقاداتهم بالآلهه المجسمة من أصنام وغيرها، والإفاضة في وصف الطقوس المرافقة للعبادة.

وقد حار مؤلفونا، كيف أمكن للهندوس التوفيق بين الوحدانية والتجسيم، وهو إحدى اشتغالات "علم الكلام" لديهم، فليس من المستغرب أن يحاجج المروزي أحد الهندوس بذلك، إذ سأل أحد البراهميين، "إذا كنتم تعلمون أنه (أي الله) ليس كمثله شيء، فلم تعبدون الأصنام من دونه؟" فأجابه الباهمي: "إنه قبلتنا كما أن قبلتكم حجارة مبنية (يقصد الكعبة) فأنتم تعبدونها".(٣٣٦)

ومن مظاهر قولهم في وحدانية الله، ما أشار إليه الشهرستاني إلى أن بعض فرقها قالت: "قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبد الخالق إلاّ بما دلّ عليه عقله، وقد دلّت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً.... فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكر..."، وقالت أخرى "قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لايتعبد الخلق بما يقبّح في عقولهم".(٣٣٧) لذا فهم يستقبحون تخصيص دور للعبادات والطواف حولها، وتقبيل الأحجار، وذبح الحيوان تقرباً، كل هذه يعتبرونها "مخالفة لقضايا العقل".

وعلى الرغم مما قرّره أغلب مصنفينا، من أن البرهمية، كما عبر الشهرستاني، "إنما ينتسبون إلى رجل منهم يقال له براهم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً وقرّر استحالة ذلك في العقول" فإن بعضهم الآخر لم ينف عن البراهمة قولها بالنبوة والرسالة، فإذا كان المسعودي قد أشار مرة إلى احتمال أن يكون البراهما رسولاً، فإن المروزي وابن طاهر المقدسي أكدا، أن بعض فرقهم جمع بين القول بالخالق الواحد، والنبوة والرسالة، إذ يقول "فممن أثبت الخالق البراهمه، زعموا أن رسول الله إليهم ملك من الملائكة يقال له سديو أتاهم في صورة البشر برسالة من غير كتاب، له أربع أيد، وله إثنا عشر رأساً... أمرهم أن يتخذوا صنماً يعبدونه، ويطوفون حوله كل يوم ثلاث مرات... وأن يعبدوا البقر وأن لا يجازوا (يجتازوا) نهر الكنك".(٣٣٨)... فجمعت هذه الفرقة بين الوحدانية والخلق، والإيمان بالرسل، وعبادة الأصنام تقرباً إلى الله. وأشاروا أيضاً إلى فرقة أخرى اسمها "المهادوية"، هؤلاء زعموا: "أن رسول الله إليهم ملك من الملائكة يقال له مهادويه، أتاهم في صورة بشر وهو راكب على ثور على رأسه إكليل مكلّل بعظام الموتى... أمرهم بعبادة الله، وأن يتخذوا على مثاله صنماً يعبدونه، وهو سبيلهم إلى الخالق".(٣٣٩)

هنا تصبح عبادة الصنم وساطة للوصول إلى الله وتقرباً منه، وليس عبادة له بحد ذاته، وهذه المسألة من

الأهمية، بحيث خصّص لها المسعودي مقطعاً مهماً تفحص فيه دوافعها ومعانيها لدى البراهمية، مُخضعاً تصوره إلى نمو الروح الإيماني في التاريخ. فهو يشيرإلى أن كثيراً من أهل الهند والصين: يعتقدون أن الله عز وجل جسم، وأن الملائكة أجسام، وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلى أن يتخذوا تماثيلاً وأصناماً على صورة الباري، وعلى صورة الملائكة، يعبدونها ويقربون لها القرابين، والنذور، "لشبهها عندهم بالباري، وقربها منه"، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى نبههم بعض حكمائهم، إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث في العالم إنما على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، ومكثوا على ذلك دهراً، ثم لما رأوا غياب الكواكب في النهار، وبعض أوقات الليل، أمرهم بعض حكمائهم أن يجعلوا أصناماً، يُقرب لها نوعاً من القربان، معتقدين أنهم إذا عظموها، تحركت لهم الأجسام العلوية بكل ما يريدون، ولما طال عليهم العهد، "عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله،وألغوا عبادة الكواكب".[٣٤٠]

وعلى هذا، فقد أدرك المؤلفون العرب تعددية المذاهب، والآلهة، وأشكال الطقوس المتبعة في الديانة الهندوسية البراهمية، من تلك التي تُعلي شأن التوحيد الإلهي، إلى تلك التي يتجسد لديها الإله في الصنم، أو في أفعى، أو بقرة، أو نهرالكنج، وعرفوا ما لعقيدة "التناسخ "من أهمية في السلوك الحياتي، وفي التقوى العقيدية، وفي عقيدة الخلاص، وفي الطقوس المتعددة، ولاسيما طقس إماتة النفس، من فوق جبل مقدس، أو في نهر الغنج، أو الموت حرقاً، مع نثر رماد الجسد في النهر، أو في الأودية.

لم يوفقوا في تسمياتهم المختلفة للمذاهب، ولا في تبويب عقائدهم، إلاّ أنهم استطاعوا التعبير عن التربة الروحانية للديانة الهندوسية، ومنابعها، وخلاصاتها، وأساليبها الطقسية التعبيرية، فبالإضافة إلى ماذكرناه من مذاهب، فقد أشار بعضهم إلى العديد من المذاهب الأخرى، وغفلوا أحياناً، عن حقيقة أن هذه المذاهب، والطرق التعبدية، على كثرتها الكاثرة، تضمنتها البراهمية ذاتها، واستوعبتها داخلها، وهذه القاعدة لا تنطبق على جميع المفكرين العرب، فالدمشقي ضمّ عبدة النار إلى البراهمية، فهو يقول: "ومن طرائقهم أيضاً البراهمة عباد النار" وجعلوا "قبلة السجود النار يتوجهون إليها بالعبادة والسجود".[٣٤١] فغاب عن الدمشقي الفرق بين قداسة النار لدى الهندوس، ولدى المجوس. كما أنهم انساقوا في مقاربتهم للعقائد البرهمية إلى الإحالة إلى مرجعياتهم الدينية، وإلى ما يشبهها من ديانات خبروها في تجربتهم، هذه الإحالة نجدها أيضاً في ترتيبهم، وتبويبهم لمذاهب الهند بين الروحانيات والماديات، بين أصحاب الدهر، وأصحاب التوحيد، بين أصحاب التجسيد والتمثيل،وفي مقدمتهم أصحاب الأصنام، وأصحاب التوحيد من منكري النبوات، وانتهى الشهرستاني إلى التركيز على فرق خمس: أصحاب الروحانيات (القائلين بالتوحيد)، وأصحاب الهياكل (أصحاب التجسد) والحكماء (الموحدةاعتماداً على العقل). وعبدة الأصنام.[٣٤٢] وفرّع عن هذا التقسيم العديد من المذاهب، فهناك بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً، جماعة يثبتون الخالق وينفون الرسل، وهم أصحاب فكر، يعطلون حواسهم بطول فكرهم، ولا يأكلون الألبان واللحم وما مسّته النار، ومنهم "المصفدة" الذي يصفدون أجسادهم بالحديد، لئلا تنشق بطونهم من غلبة الفكرة، وقوة العلوم[٣٤٣] ومنهم الجلهكية، يعبدون الماء ويزعمون أن معه ملكاً، وأنه أصل كل نشوء ونماء وحياة وعمارة وطهارة، ومنهم من يعبد النار، وهي أعظم العناصر وهؤلاء لا يحرقون موتاهم.[٣٤٤] ومنهم "المهاكلية" لهم صنم يقال له (مها كال) يحجون إليه.[٣٤٥] ومنهم قوم يعبدون الشمس، واتخذوا لها صنماً يجره أربعة أفراس. وبيد الصنم جوهر، ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة ويتقربون إليها بالسجود، والطواف.[٣٤٦]

وفي سياق عرضهم للديانة الهندوسية، أفردوا مساحة مهمة لعبادة الأصنام (البُدد) والتي يرتبط كل صنم وشكله ومعبده بالمذهب المتفرع عن البراهمية كما رأينا، ومعه الكهنة، ورجال الدين، المشرفين على العقيدة والطقس، إذ لاحظ ابن سعيد المغربي "أن على جانبي نهر الكنك (الغانج)، "قلاع البراهمة التي لا ترى، وهم عباد الهند الذين ينسبون إلى البرهمن، وهو أول حكمائهم وسلاطينهم، الذي اجتمعت لهم ممالك الهند وأديانها...

والأبداد عندهم".[٣٤٧] ولفتوا النظر إلى العديد من الأصنام الكبرى (البُدد) في الهند، وأماكن عبادتها والطقوس الملازمة لهذه العبادة، فهناك صنم (الملتان) داخل بيت عبادة "كان يُلقي الذهب فيه من كوة في وسطه من أعلاه، وكان المرتب لخدمة هذا الصنم سبعة آلاف سادن".[٣٤٨] كما أشاروا إلى وجود (بُد) في بلاد كرور (وهي مدينة مالوه)، مقصود من الهند "ياتون (إليه) من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها، فمنهم من يمشي على ركبه زحفاً أبداً من مكانه حتى يصل".[٣٤٩] وفي الديبل كما يقول البلاذري. "بُد عظيم" عليه دقل طويل وعلى الدقل راية حمراء، والبُدد على شكل منارة،ويختم قوله "وكل شيء أعظموه، من طريق العبادة، فهو عندهم بُد،والصنم بُد أيضاً".[٣٥٠] وأفاضوا في وصف (بد) مدينة صومنات الذي كان "أهل الهند يعظمون هذا الصنم، ويحجون إليه في كل ليلة كسوف، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت إليه فينشئها مع من ينشيء على مذهب التناسخ".[٣٥١]، وتحدث المروزي، انه يوجد في إحدى مدن الهند "سبعمائة بيت للأصنام، ولها غلات".[٣٥٢]

طقوس ومقدسات أخرى

لا حظ مؤلفونا أيضاً تقديس الهندوس للعديد من الظواهر الطبيعية والحيوانية والنباتية، التي أسبغوا عليها مظاهر التبجيل، وأحاطوها بطقوس العبادة، وفي مقدمة تلك الظواهر، تقديسهم لنهر الكنك (الغانج)، الذي ارتبطت به الكثير من الطقوس المعبرة، وكماقال ابن سعيد المغربي "ونهر الكنك المعظم عند الهنود يمرّ في بلادهم، وهم أيضاً يعظمونه، ويغرقون فيه". ويزعمون "أن هذا النهر من الجنة، وأنه متى جعلت فيه القاذورات أظلم جوّه وامتلأت أرجاؤه من الرياح والأمطار والصواعق".[٣٥٣]

ولاحظوا باستفظاع، وتعجّب، اقتران هذا التقديس للغانج، بطقوس قاسية، مميتة، إذ روى ابن بطوطة، أن الكثير من الهنود "يغرقوا أنفسهم، في نهر الكنج، وهو الذي يحجون إليه، ويحرقون أنفسهم، وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحرّقين، إذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا، أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساي، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في النهر المذكور".[٣٥٤] وهناك طقوس أخرى أكثر دموية، فهناك إلى جانب النهر (شجر القنا) وهو في غاية الارتفاع، يرتقي عليها الرجال يقطعون رؤوسهم على طرف القناة، وآخر يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيقطع.[٣٥٥] وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيغرق نفسه فيه، يرى أن هذا الفعل ينجيه، ويبلغ إفراطهم في تعظيمه لدرجة " أن الرجل منهم إذا أراد الفوز أحرق نفسه، وألقى رماده فيه، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق".[٣٥٦]

وعلى الرغم من اعتيادهم رؤية الصوفيين في ديارهم، وطرائقهم التقشفية، وإذلالهم الجسد طريقاً للخلاص الروحي، إلا أن ما رأوه في الهند، من طقوس وطرائق، لإذلال الجسد، يصل إلى القتل، والإجهاز عليه حرقاً، أو غرقاً، كان مدار دهشة لهم، واستفظاع، فلم يستطيعوا فهم طقوس "قتل النفس" التي مارسها الهندوس، كطريق للخلاص، وكأسلوب لفك إسار الروح من قيود الجسد، وشرح المسعودي هذا الطقس، قائلاً "والهند تعذب أنفسها بأنواع من العذاب من دون الأمم، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلاً لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلاً، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق، وقد أُججت له النار العظيمة، ثم يسير بالأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده من رأسه وعليها الجمر... فيسير وهامته تحترق، وهو

يمضغ ورق التنبول، وحب الفوفل".[٣٥٧]

وروى بزرك عن محمد بن بابشار، انه رأى، في الهند، رجالاً يقعدون على ضفة النهر، بانتظار أن يجرفهم ماؤه، وعن رجال يأتي "الواحد بعد الواحد إلى الخور ليغرق نفسه، فيعطى إجرة لمن يغرقه... أو لمن يضع يده في قفاه ويغطه في الماء حتى يتلف".[٣٥٨] وسرد ابن طاهر المقدسي قائمة بالطرق التي يتبعها الهندوس لقتل أنفسهم، "منهم من يحفر أخدوداً ويجمع فيه الألوان والأدهان، والطيب، ويوقد عليه، ثم يجيء، وحوله المعازف بالصنوج والطبول، ويقولون طوبى لهذه النفس ليكن هذا القربان مقبولاً، ثم يسجد.. ويرمي نفسه في النار فيحترق... ومنهم من يُجمع له أخثاء البقر فيقف في وسطه.. وتُشعل فيه النار، ولم يزل واقفاً حتى تأتي النار عليه.. ومنهم من يوضع على رأسه إكليل من المُقل، ويوقد حتى يسيل دماغه.. ومنهم من يحمي الصخور، فلا يزال يضع على جوفه صخرة بعد صخرة حتى تخرج أمعاؤه، ومنهم من يحفر له حفرة بجنب النهر ويوقد فيها ولا يزال يثب في النار من الماء، ومن النار إلى الماء إلى ان تزهق نفسه.. ومنهم قوم يرهقون أنفسهم بالجوع.. ومنهم من يهيم في الأرض حتى يموت".[٣٥٩] أما المقاصد النهائية لهذه الطقوس المروعة، فأرجعها المقدسي،إلى أن الهنود "يزعمون أن في ذلك نجاة لها وخلاصاً إلى حياة الأبد في الجنة".[٣٦٠] أما المقصد الآخر الذي يقف وراء تلك الرغبة في إنهاء حياة الجسد، فقد ردّها السيرافي إلى عقيدة التناسخ الهندوسية، إذ "إن سائر الملوك يقولون بالتناسخ ويدينون به".[٣٦١] وأعاد هذا الاعتقاد الأخير، إلى حادث بدئي، شبه اسطوري، يتعلق بأحد ملوك الهند العظام، الذي أصابه الجدري، "فاستفزع منظره بالمرآة، فقال لابن أخيه: ليس مثلي أقام في هذا الجسم، عليّ تغييره، فالجسم إنما هو ظرف للروح متى زال عنه عاد في غيره، إني مزيل بين جسمي وروحي إلى ان انحدر في جسم غيره، فحزّ رأسه ثم أُحرق".[٣٦٢] ومن الأشياء التي أثارت استغراب العرب، تقديس الهندوس للبقرة، فقد لاحظ ابن بطوطة باستغراب، أنهم "يعظمون البقر، ويشربون أبوالها للبركة، وللإستشفاء إذا مرضوا... ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأوراثها".[٣٦٣] وحرموا قتلها لعلو مكانتها القدسية، أو ذبحها، وحكموا على من يقوم بهذا الفعل، كما رأينا، بالقتل، ونظروا إلى المسلمين لأنهم يذبحونها، ويأكلون لحمها،على أنهم أنجاس، وكما روى المروزي "ولا يقربون من المسلمين، ويقولون: إنكم أدناس، لأنكم تأكلون لحم البقر".[٣٦٤]

ويبلغ العجب ذروته، عندما يلاحظ مؤلفونا اقتران الطقس المقدس التعبدي بالعهر، ليصبح الأخير مقدساً، وهي مفارقة في المعاني لم يألفها المفكر العربي، ولم يستسغها، فسجل ابن رسته وجود مائة جارية حول صنم ملتان، وظيفتهن الطقسية الرقص أمام الصنم (البد)، واستعطافه،بحسب قولهن: "نحن نرقصه، ونترضاه".[٣٦٥] ويتطور الأمر في بعض المعابد إلى أن توهب الفتاة أمرها للمعبد في ممارستها للعهر حيث يتحول الأخير إلى طقس تعبدي، فذهب السيرافي إلى أن: "بالهند قحاب يُعرفون بقحاب البد"، فعندهم "أن المرأة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البُد، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له، ثم اتخذت لها في السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً، وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند، وغيرهم من سائر الملل.. فتمكّن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة البد".[٣٦٦]

وقد أثار انتباه البيروني هذا الطقس، ونعته بـ (الآفة)، فبعد أن نفي ما يشاع على أن الهند تبيح الزنا، ينتقل إلى تأكيد أن الهند لا يشدّدن في العقوبة عليه وحسب، وحصر (الزنا) المباح في بيوت الأصنام، محملاً الملوك وحدهم مسؤولية إباحته، قائلاً "والآفة فيه من جهة ملوكهم، فإن اللواتي تكنَّ في بيوت الأصنام هن للغناء والرقص واللعب، لا يرضى منهن برهمن ولا سادن بغير ذلك، ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحاً وتوسعه على العباد، وغرضهم فيهن بيت المال".[٣٦٧] ولفت المروزي الانتباه إلى أن هناك في إحدى المدن الهندية، سبعمائة بيت للأصنام لها غلال خاصة، "وقد رتّب لها بيوت قحاب، في كل بيت عشر أو إثنتا عشر

منهن".[٣٦٨] كما أن في أراضي لاهور مدينة يقال لها (راميان) فيها أصنام قيام، واضطجاع، وصنم من الذهب، "وهو صنمهم الأكبر، وله ثلاثون قحبة تجري عليهن الجراية من غلاته، والناس يتمتعون بهن مجاناً، ويطلبن به الثواب، ولا يبرحن من موضعه في الليل والنهار".[٣٦٩]

بحث البيروني في الديانة البرهمية / الهندوسية

أفرد لنا للبيروني باباً خاصاً، لتميّز مقاله، في الدين الهندي، عمّا سبقه ولحقه من المؤلفين العرب، لقربه من موضوعه، من جهتين معايشته التجريبية للهنود وتعرفه المباشر على حياتهم وأفكارهم ودياناتهم، وأيضاً إطلاعه المباشر على مصادره الهندية، باللغة الهندية، فهو أتقن اللغة السنسكريتية، وأجادها، وقرأ الكتب الدينية الهندوسية لا سيما (بهاغها فاديتا) واستطاع أن يعرض لهذه الديانة، بلغة (موضوعية) متراصة، من موقع الثقة بتفوق ثقافته، وعلو مقامها، وكان قد اهتم أكثر من أي مؤلف عربي – إسلامي بثقافة الهند، بعوائدها ومعارفها وعلومها وعلمائها وبدينها، وما انفك عن المقارنة بين الهند واليونان، وأحياناً بين الفكر الاسطوري الديني الهندي وبين ما يماثله عند الفرس أو اليهود، أو النصارى، إلا أن المقارنة الأساسية يخصصها بين الهند واليونان، وهو في ذلك يعطى لليونان الميزة، وذلك لأن الهند في فكرها الديني، توقفت عند مرحلة تجاوزها اليونان، وهي مرحلة العلم المختلط بالفكر الديني الأسطوري، ويقارنها بالمرحلة (الجاهلية) التي مرّ بها العرب قبل الإسلام، إذ توقفت الهند في مفاهيمها الدينية عند هذه المرحلة، بينما تجاوزها العرب بالإسلام، كما تجاوزها اليونان بالفلسفة.[٣٧٠] فأشار إلى أن قدماء اليونان قبل ظهور الحكمة فيهم، وبروز نجوم الفلسفة فيهم، "كانوا على مثال الهند"، فانتقل اليونان بذلك من الفكر الأسطوري الجاهلي إلى الفكر العلمي، والتوحيدي، وارتفعوا عن عقائد العامة الأسطورية إلى عقائد الخاصة التوحيدية، فعنده "أن اليونانيين أيام الجاهلية، قبل ظهور النصرانية، كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصّهم (من الخاصّة)،في النظر قريب من خاصّهم وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم،.. ولكن اليونان فازوا بالفلاسفة، الذين... نفحوا لهم الأصول الخاصة، دون العامة، لأن قصارى الخواص اتباع البحث والنظر، وقصارى العوام التهور واللجاج.... يدلّ على ذلك سقراط لما خالف عبادة الأوثان عامة قومه، وانحرف عن تسمية الكواكب آلهة... ولم يكن للهند أمثالهم (أي أمثال فلاسفة اليونان) ممن يهذب العلوم، فلا تكاد تجد لهم خاص كلام إلاّ في غاية الاضطراب، ومشوباً في آخره من تكثير العدد وتمديد المُدد".[٣٧١]

ونلاحظ هنا، أن البيروني يماثل بين دين الخاصة، والتوحيد الديني من جانب، والفكر العلمي من جانب آخر، ويماثل من جهة أخرى بين دين العامة ودين الجاهلية: الاختلاط والتعدد، وعلى هذا، ورغم إظهاره تفوق اليونانيين على الهند في فكرهم الديني، بارتقائهم إلى التوحيد عن طريق الحكمة الفلسفية، إلاّ أنه في عرضه للديانة البرهمية / الهندوسية، نجده يميّز داخل معتنقي هذه الدين، بين خاصة تتسم عبادتها بالتوحيد، وعامة تختلط عبادتها بالتعدد والشرك، وهذا ما يجعل هؤلاء الخاصة على قرب من دين الفلاسفة اليونان من جهة، ومن الاعتقاد الإسلامي التوحيدي من جهة أخرى. إذ ينطلق البيروني من اعتقاد بشأن الدين، وهو "اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن أطباع الخاصة ينازع المعقول، ويقصد التحقق في الأصول، وطباع العامة يقف عند المحسوس ويقنع بالفروع ولا يروم التدقيق،، وخاصة فيما افتتنت فيه الآراء ولم يتفق عليه الأهواء"، ثم ينتقل بعدها ليؤكد إيمان خاصة الهندوس بالوحدانية، بينما العامة تفردت بالتعدد والشرك،ليخلص إلى القول: "واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا إنتهاء، المختار في فعله، القادرالحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء".[٣٧٢]

وقدّم على ذلك أمثلة من كتب الهند تذكرنا بموضوعات علم الكلام الإسلامي، فينقل عن كتاب (باتنجل)، حواراً يقول السائل: من هذا المعبود الذي يُنال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه... والبريء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والانداد المحبوبة، والعالم بذاته سرمداً... "... ثم يقول السائل هل له من الصفات غير ما ذكرت؟ يقول المجيب: له العلو التام في القدر لا المكان، فإنه

يجل عن التمكن، وهو الخير المحض التام الذي يشتاقه كل موجود، وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل"، ثم قال السائل "افتصفه بالكلام أم لا؟ قال المجيب: إذا كان عالماً فهو لا مجال متكلم، قال السائل: فإن كان متكلماً لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم؟ قال المجيب: الفرق بينهم هو الزمان، فإنهم تعلموا فيه (أي في الزمان) وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين، ونقلوا علومهم إلى غيرهم، فكلامهم وإفادتهم في زمان، وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال فالله سبحانه عالم متكلم في الأزل، وهو الذي كلّم براهم وغيره من الأوئل على أنحاء شتى، فمنهم من ألقى إليه كتاباً ومنهم من فتح لواسطة إليه باباً، ومنهم من أوحى إلأيه فنال بالفكرة ما أفاض عليه". وفي مكان آخر يجيب: "وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه عقلته النفس، وأحاطته بصفاته الفكرة، وهذه عبادته الخالصة"، ونقل عن كتاب (كيتا) حوار بين الحكيمين (باسديو) و"أرجن" جاء فيه. إني أنا الكل من غير مبدأ (بدايته) بولادة أو منتهى بوفاة، لا أقصد بفعلي مكافأة، ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة، قد أعطيت كلا من خلقي حاجته في فعله" ثم يقول "ولأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه فلذلك جهلوه. فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات، ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات، ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بغير أنيتة علم أحد، وهو المحيط بكل شيء علماً".[٣٧٣] ويعلق البيروني على هذه الأقوال التي تؤكد الوحدانية وتنزه الله عن المحسوس، وتقترب من التصور الإسلامي عن الوحدانية. قائلاً "فهذا قول خواصهم في الله تعالى ويسمونه "أيشفر"، أي المستغنى الجواد الذي يعطي ولا يأخذ، لأنهم رأوا وحدته هي المحضة، ووحدة ما سواه بوجه من الوجوه متكثرة"، ثم ينقلنا إلى اعتقاد العوام التي تُدرك الله في المحسوس والمتعدد، ولاتختلف نظرته إلى عامة الهند، في ذلك، عن نظرته إلى عوام جميع أصحاب الديانات، فعوام الهند "اختلفت الأقاويل عندهم، وربما سُمجت، كما يوجد مثله في سائر الملل، بل وفي الإسلام، من التشبيه والإجبار". فهم يحرفون القول عن مواضعه. فإذا سمّى بعض خواصهم الله تعالى "نقطة". ليبرئه عن صفات الأجسام... فعامهم يظن أنه عظمه بالتصغير، "فلا يستطيع تجاوز سماجة التشبيه"، فيصوره "بطول إثني عشر إصبعاً في عرض عشر أصابع" ويحرف هذا العامي معنى "إحاطته بالكل من لا يُخفى عليه خافية، فيظن عاميهم أن الإحاطة تكون بالبصر، وبالبصر بالعين، فيصفه بألف عين، وأمثال هذه الخرافات الشنعاء عندهم موجودة".[٣٧٤]

في حال الأرواح وتردّدها بالتناسخ في العالم

قارن البيروني بين الأديان، بشان التناسخ قائلاً: "كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار المسلمين، التثليث علامة النصرانية، والإسبات (أو تقديس السبت) علامة اليهود، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يك منها".[٣٧٥] والتناسخ عندهم، حسب اعتقاد البيروني، ناتج عن الاعتقاد بأن "الأرواح تتردد في الأبدان البالية بحسب افتتان الأفعال إلى الخير أو الشر، ليكون التردّد في الثواب منبهاً على الخير، فتحرض على الإستكثار منه، وفي العقاب على الشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه".[٣٧٦] واستشهد بقول (باسديو) لأرجن يحرضه على القتال: "إذا كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً بموتى، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن ثم العود". ويتساءل "كيف يذكُرُ الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود.. هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يغصها، ولا ريح تيبسها، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر.. كما يستبدل البدن اللباس... فإذا كنت تلمح البدن دونها، وتجزع لفساده، فكل مولود ميت، وكل ميت عائد، وليس لك من كلا الأمرين شيء، إنما هما إلى الله".[٣٧٧] ولا يزال الإنسان يتصفّى في القوالب البدنية حتى ينال الخلاص على توالي التوالد، فإذا

تجردت النفس عن المادة كانت عالمه، فإذا تلبست بها كانت بدورها جاهلة، وظنّت أنها فاعلة.. لذا،" أفضل الناس هو العالم الكامل لأنه يحب الله ويحبه الله، وكلما تكرر عليه الموت والولادة وهو في مدد عمره مواظب على طلب الكمال حتى ناله".[٣٧٨]

وذهب البيروني إلى أن (ماني) عندما نُفي من (إيرانشهر) إلى أرض الهند، "نقل التناسخ منهم إلى نحلته"، كما أن اليونانيين، كانوا "موافقين الهند في هذا الاعتقاد". فالذين ماتوا "يكونون في الأحياء" منبهاً إلى انحياز سقراط إلى هذا الاعتقاد.[٣٧٩] أما بشأن اعتقادهم بالجنة وجهنم،، فالعالم الكلي أو "المجمع" يسمى عندهم (لوك)،ويسمّى الأسفل، وهو جهنم باسم (ناكلوك)، والعالم (لوك) ينقسم إلى "علو وسفل وواسطة" ويسمّى الأعلى، وهو الجنة "سفر لوك"، ويسمى أيضاً (نزلوك) و"باتال" والموضع الأخير في أسفل سافلين، والعالم الأوسط هو الذي نحن فيه ويسمى (ماتلوك) و"ماتش لوك" أي مجمع الناس وهو للإكتساب، والأعلى هو للثواب، والأسفل للعقاب. وفي هذه العوالم "يستوفى جزاء العمل"، اما القاصر عن السمو إلى الجنة أو السقوط إلى جهنم، فمآله إلى عالم "ترجكلوك" وهو عالم النبات والحيوان غير الناطق، تتردد الروح في أشخاصها إلى أن تنتقل إلى الإنس. والهنود يكثرون من عدد الجهنمات وصفاتها وأنواعها، ويفردون لكل ذنب موقعاً في إحداها، فالمدّعي بالكذب والشاهد بالزور والمعاون لهما،و المستهزئ بالناس يصيرون إلى جهنم (روردة)، وسافك الدم بغير حق، وغاصب حقوق الناس، والمغير عليهم، وقاتل البقر يصيرون إلى جهنم (رودة)، وهكذا فلكل ذنب، أو مجموعة معاصي جهنم خاصة به.[٣٨٠] والجزاء يكون بحسب المقصود، فينال على مراتب مختلفة، إما في قالبه الذي انتقل إليه بالتناسخ، وإذا اتبع طريق الخير فمآله الجنة، وينقل عن كتاب (بشن براي)، ان ميتري سأل براشر عن الغرض من جهنم والعقاب، فأجابه: "بأن ذلك لتمييز الخير من الشر والعلم من الجهل وإظهار العدل، وما كل مذنب يدخل جهنم، فإن منهم من ينجو بتقديم التوبة، والباقي "يتردد في النبات وخشخاش الطير، ومرذول الهوام، وقذرها من القمل والدود إلى مدة الاستحقاق"، أما من استحق الثواب، فقد ذكر كتاب سانك، أنه يصير كأحد الملائكة، مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب عن التصرف في السموات والكون، مع أهلها، أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية، وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام فإنه يصير حيواناً أو نباتاً".[٣٨١]

طريق الخلاص

أشار البيروني، إلى أن الهنود، بما أنهم رأوا في الجهل سبباً في انحباس النفس بالعالم وارتباطها بمشاكله وترهاته، فقد اعتقدوا أن خلاصها من أثقالها يأتي "إذن بالعلم، إذا احاطت بالأشياء إحاطة تمديد كلّي مميز مغن عن الاستقراء، ناف للشكوك، لأنها إذا فصّلت الموجودات بالحدود، عقلت ذاتها ومالها من شرف الديمومة، وللمادة من خسّة التغيير والفناء في الصور، فاستغنت عنها.. وأعرضت عن تلبس المادة".[٣٨٢] وفي كتاب "كيتا"، القول "إن من عرف عند موته أن الله هو كل شيء، ومنه كل شيء فإنه متخلص". وفيه أيضاً " "أطلب النجاة من الدنيا بترك التعلق بجهالاتها، وإخلاص النية في الأعمال واعتزال الناس... ثم حفظ النفس عن النفس، فإنها العدو إذا اشتهت، ونعم الولي إذا عفت". [٣٨٣] ويقارن البيروني ذلك بأقوال شبيهة عند سقراط وعند أمونيويس، وفيثاغورس الذي تساءل "كيف ترجون الاستغناء مع لبس الأبدان، وكيف تنالون العتق وانتم فيه محبوسون؟".[٣٨٤] فيعلق البيروني "فإنك إذا جمعت بين أقاويلهم تلك وأقاويل اليونانيين في ملتهم زال الاستغراب".[٣٨٥]

عامة الهندوس وتجسيد الآلهة

في مقابل نزوع (خاصة) الهند نحو التوحيد، فإن العامة، التي لا تستطيع الاتصال بالله إلا عن طريق المحسوس، اتجهت نحو التعدد (الشرك)، ونحو المحسوس المعبود، وهذا هو مصدر تقسيمها للأًنام، والهياكل، فيفرد البيروني فصلاً عن الأصنام، منبهاً "إنا نحكي خرافاتهم في هذا الباب بعد أن نخبر أن ذلك لعوامهم".[٣٨٦]، وعلل نزوع العامة إلى عبادة الأصنام بقوله "معلوم أن طباع العامي نازع إلى المحسوس نافر من المعقول، الذي لا يعقله إلاّ العالمون الموصوفون في كل زمان ومكان بالقلة، ولسكونه إلى المثال عدل كثير من أهل الملل إلى التصوير في الكتب والهياكل كاليهود والنصارى ثم المنانية (جماعة ماني) خاصة". [٣٨٧] ولا يستثني من ذلك العامة من المسلمين أنفسهم، قائلاً "أنك لو أبديت صورة النبي (ص) أو مكة أو الكعبة لعامي أو امرأة لوجدت من نتيجة الاستبشار فيه دواعي التقبيل وتعفير الخدين والتمرغ كأنه شاهد المصور وقضى بذلك مناسك الحج والعمرة، وهذا هو السبب الباعث على إيجاد الأصنام بأسامي الأشخاص المعظمة من الأنبياء والعلماء والملائكة مذكرة أمرهم عند الغيبة والموت مبقية آثار تعظيمهم".[٣٨٨]

لذا لم يخل قوم من عبادة الأصنام، ودلّل على ذلك بما عرفه عن أن اليونانين، كانوا "في القديم يوسّطون الأصنام بينهم وبين العلة الأولى، ويعبدونها بأسماء الكواكب... ولما نقلت العرب من الشام أصناماً إلى أرضهم عبدوها، كذلك ليقربوهم إلى الله زلفى، وهذا أفلاطون يقول في المقالة الرابعة من كتابه (النواميس): واجب على من أعطى الكرامات التامة أن ينصب... أصناماً خاصة للآلهة الأبوية، ثم الكرامات التي للآباء".[٣٨٩] لهذا فقد أظهر نقده المبطّن لتدمير السلطان محمود الغزنوي لصنم سومنات، بينما أطرى من جانب خفي، على محمد بن القاسم لتركه معبد مولتان على حاله، قائلاً "وكان محمد بن القاسم لما فتح المولتان نظر إلى سبب عمارتها والأموال المجتمعة فيها، فوجد ذلك الصنم إذ كان مقصوداً محجوجاً من كل أوب. فرأى الصلاح في تركه".[٣٩٠]

وبيّن البيروني القواعد المتبعة في بناء الأصنام، والمواد اللازمة لبنائها وأشكالها، وعدد أطرافها، والمثل على ذلك أن "برهمان فذات أربعة أوجه في الجهات الأربع، واما "كومار" فذات ستة أوجه، واما بيشنب فذات أربعة أيد، واما باراه فرأسها رأس خنزير على بدن إنسان... الخ".[٣٩١] ويستطرد قائلاً "وبالجملة لكل صنم قوم صورته" لافتاً النظر إلى "أن هذه الأصنام منصوبة للعوام الذي سفلت مراتبهم، وقصرت معارفهم، فما عمل صنم قط باسم من علا المادة فضلوا الله تعالى، وليعرف كيف يعبد السفل بالتمويهات". وأورد ما جاء في كتاب كيتا "إن كثيراً من الناس يتقربون مباغيهم إلي بغيري ويتوسلون بالصدقات والتسبيح والصلاة لسواي فأقويهم عليها، وأوقفهم لها".[٣٩٢] وتصفح البيروني أهم كتبهم الدينية، وبدأ بـ "بيد" ومعناه العلم لما ليس بمعلوم. وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم (براهم) ويتلوه البراهمة، تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره... ولا يتكلم بتفسيره إلاّ القليل منهم"، ويعلمونه طبقة "كشتر" بينما لا يحل لبيش ولا لشودر أن يسمعاه فضلاً عن أن يتلفظاه، ويتضمن بيد الأوامر والنواهي، والترغيب والترهيب بالتحديد والتعين والثواب والعقاب.[٣٩٣] وعندهم أيضاً كتاب "جزر بيذ" وفيه تعاليم عن أعمال النار والقرابين، وكتاب "سام بيذ" ففيه القرابين والأومر والنواهي ويقرأ بلحن كالغناء، واما كتاب "سُمرت فهو مستخرج من بيذ في الاوامر والنواهي، يحمله أولاد برهم العشرون، كما لهم كتب "في فقة ملتهم وفي الكلام وفي الزهد والتأله وطلب الخلاص من الدنيا، مثل كتاب عمله (كور) الزاهد وعرف باسمه، ومثل (سانك) عمله كبل في الأمور الإلهية، ومثل (باتنجل) في طلب الخلاص، واتحاد النفس بمعقولها" ولهم كتاب يعتقدون أن ما يوجد في غيره فهو موجود فيه، واسمه بهارت، عمله بباس بن براش.[٣٩٤]

الحج والصيام

وليس الحج عندهم (من المفروضات وإنما هو تطوع وفضيلة" وهو أن يقصد الحاج أحد البلاد الطاهرة أو أحد الأصنام المعظّمة أو أحد الأنهار المطهّرة، فيغتسل بها، ويخدم الصنم، ويهدي إليه، ويكثر التسبيح والدعاء، ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم، ويحلق رأسه ولحيته وينصرف[٣٩٥] فأما الحياض الطاهرة المعظمة، فإنها منتشرة في الكثير من الأماكن ولا سيما في الجبال، والانهار، والوديان، كما في المولتان فهناك حوض فيها "يعبدون فيه بالاغتسال، وان اشتهار الحياض بالفضيلة يكون إما باتفاق أمر جليل فيها، أو نص وارد في كتبهم وأخبارهم فهناك مواضع تعظّم دينياً، مثل بلد (باراشس) فإن زهادهم، يقصدونه ويلزمونه "لزوم مجاوري الكعبة مكة".[٣٩٦] هذا بالإضافة إلى الحج وطقوسه إلى نهر الكنك، فمن اعتقاد الهند في نهر الكنك (الغنج) (أن مجراه في القديم عى أرض الجنة، وقيل أيضاً، إن كنك لما حصل على الأرض انقسم سبع شعب وسطها عموده المعروف بهذا الإسم، ثلاث جرت نحو المشرق... وثلاث جرت نحو المغرب". [٣٩٧]

أما "صيام" أهل الهند، فهو عندهم "تطوع ونوافل ليس منها شيء مفروض" وطريقتهم في ذلك "إمساك عن الطعام مدة ما، يختلف بحسب مقدار المدة وبحسب صورة الفعل" فالأمر المتوسط، هو أن يعيّن اليوم المصوم، ويضمر اسم من يتقرب به إليه، ويصام لأجله من الله أو أحد الملائكة، ويبدأ صيامه قبل يوم الصيام بالطعام عند الظهيرة، ثم ينظف أسنانه بالتخليل والسواك، وينوي صوم الغد. فإذا غدا يوم ال صورة شعوب الشرق الأقصى –م١٩ ، وأخذ بيده ما ء ورمى به، وبقي على حاله إلى غد يوم الصوم، وهناك نوع آخر يسمى (كرجم)، ياكل الصائم في وقت الظهيرة، وفي اليوم التالي وقت العتمة، ثم لا يأكل في اليوم الثالث إلاّ ما دفع إليه، ثم يصوم في اليوم الرابع، ونوع آخر يسمى (براك) يجعل الصائم طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية، ويعتقدون أن من واصل صوم جميع الشهور، فلم يفطر في السنة إلا اثنتي عشر مرة مكث في الجنة عشرة آلاف سنة.[٣٩٨]

صورة العالم وقصة الخلق

درس البيروني بطريقة شاملة تفصيلية تصورات الهند عن العالم، والأبراج وعلم النجوم، والمواقيت، والأرض، وقارن ذلك كله بعلوم اليونان، وأحياناً بعلوم العرب، وسنقتصر هنا على قصة الخلق، وشكل الأرض، ففي قصة الخلق، تصوروا "إن الماء كان قبل كل شيء، وموضع العالم ممتلئ به" وقالوا "إن الماء أزبد بالتموّج فبرز منه شيء أبيض خلق البارئ منه براهم، وصار السماء من أحد نصفيه والأرض من الآخر، والأمطار من كسيرات ما بينهما" وعلّق البيروني أنهم لو قالوا بدل الكسيرات الجبال "لكانت أليق بها من الامطار". ومنهم من يرى أن الله قال لبراهم: "إني خالق بيضة أجعلها لسكناك فيه، وخلقها من زبد الماء، فلمّا نضب الماء وغاض كسر البيضة بنصفين[٣٩٩] فتشكلت من قسميها الأرض والسماء.

فذكرنا البيروني هنا أن اليونانيين في (اسقليبيوس) على ما ذكر جالينوس، كانوا قريبين من هذا التصور، إذ تصوروا بيضة تكون إشارة إلى كروية الأرض، ومثال الكل، أما في مسألة تقدم الماء في الخليقة، فيعزو ذلك إلى أنها مصدراً لكل نام، وقوام الحياة في كل روح، فهي للصانع آلة وأداة لصنع المادة، ثم يعود بنا إلى المقارنة مع التصور الإسلامي للخلق فيقول إن "بمثله نطق، التنزيل في قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء "سواء حُمل على ظاهر اللفظ... أو حمل على تأويل بالملك – فالمعنى انه لم يكن وقتئذ بعد الله غير الماء".[٤٠٠]

أما في تصورهم للأرض، رأوا الأرض "مستديرة يحيط بها بحر وعلى البحر أرض كالطوق، وعلى تلك الأراضي بحر مستدير كالطوق، وعدد البحار سبعة".[٤٠١] كما ان كتب الهند: الملية والخبرية. تنطق كلها في: أن هيئة العالم تبدو: "أن السماء والعالم مستديران والأرض كروية الشكل، نصفها الشمالي يبس، ونصفها الجنوبي مغمور بالماء، ومقدارها عندهم أعظم مما هو عند اليونانيين، وأن جبل (ميرو) تحت القطب الشمالي،

وجزيرة (بروامخ) تحت القطب الجنوبي، وأن الخط الفاصل بين نصفي الأرض اليابس والرطب يسمى (نلكش) أي الذي لا عرض له وهو خط الاستواء، والأرض مضبوطة بالقطبين والمحور يمسكهما.[٤٠٢] والأرض تمسك ما عليها لأنها من جميع الجهات سفل، والسماء في كل الجهات علو، فيعلق البيروني، "فكلام القوم في هذا الباب، كما ترى، صادر عن معرفة بالقوانين الصحيحة".[٤٠٣] ويلفت البيروني نظرنا إلى أن أصحاب (آرجهبد) يقولون إن الأرض متحركة والسماء ساكنة".[٤٠٤]

السمنية / البوذية /

لعل البيروني، قد صور حدود المعرفة العربية بالسمنية في الهند، والمشكلات التي أحاطت معرفتهم بها، فهو يشكو من أنه لم يجد "كتاباً للسمنية ولا أحد منهم استنشف من عنده ما هم عليه، فإذا حكيت عنهم فبواسطة الإيرانشهري، وإن كنت أظن أن حكايته غيرمحصلة أو عن غير محصّل".[٤٠٥] فالبيروني لم ير مرجعاً هندياً عن البوذية، وهو الذي عاش سنوات عديده هناك، وأيضاً، لم يصادف" أحداً منهم، فاضطر للاستعانة بشخص لا يثق بمعلوماته، والحال، إن المؤلفين العرب أطلقوا اسم (السمنية) أو (الشمنية)، وأصحاب (البد)، على البوذية، وكانت البوذية في حالة انحسار عن الهند، حيث استطاعت التعدية المذهبية البرهمية استيعابها داخل هذا التعدد، وامتصتها بهدوء، كما انزاح وجودها في آسيا الوسطى ما بين القرنين الخامس والسابع ميلاديين[٤٠٦] ولم يبق عملياً سوى ثلاثة معابد كبرى تستقبل ما تبقى من بوذيين من الهند وتركمانستان، وهي بلخ والباميان وترمذ، وتقع ثلاثتها في أفغانستان.[٤٠٧] ومن هنا يمكن فهم شكوى البيروني، وتبرمه من الافتقار للمصادر والشهود.

تحدث المسعودي، والسيرافي على أن أصل المذهب من الهند، وقرن المسعودي انبعاث البوذية (السمنية) في الهند، بالتطور الداخلي للديانة الهندية، وبظهور شخصية نشرت المذهب وأدعت النبوة أيضاً، واسم تلك الشخصية (بوداسف) وهي شخصية (بوذا) نفسه، ولعل المسعودي قدّم السردية التاريخية الأفضل عن البوذية، بين زملائه العرب، إذ قال "ولما طال عليهم العهد عبدو الأصنام، على أنها تقربهم إلى الله، وألغوا عبادة الكواكب، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر (بوداسف) بأرض الهند، وكان هندياً، وقد خرج من أرض الهند إلى السند، ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زبلستان، وهي بلاد فيروز بن كبك، ثم دخل السند ثم إلى كرمان، فتنبأ (أي ادعى النبوة) وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه".[٤٠٨] ويذكر أن بوداسف بعد أن أعلن نبوته، أتى فارس في عهد الملك طهمورث ملك فارس، أو في عهد الملك جمَّ الذي أظهر مذاهب الصابئة، وأول من عظّم النار، ودعا الناس إلى تعظيمها، لذا، فإن (بوداسف) اصطدم بهذه الآراء في فارس، أما عن مذهب بوداسف فيقول المسعودي: "وكان بوداسف قد أمر الناس بالزهد في هذا العالم، والاشتغال بما علا من العوالم، إذ من هنالك بدء النفوس، إليها يقع الصدور في هذا العالم".[٤٠٩]

وبالإضافة إلى هذا، اقترب المسعودي من الاتجاه الزهدي الذي بشّر به بوداسف، فقد أشار إلى أن "بوداسف جدّد عبادة الأصنام وقرّب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والجزع".[٤١٠] فإذا كان المسعودي قد عرض بطريقة متفهمة للنزعة الزهدية بالعالم، والتركيز على التعلق والاهتمام بالتعالي، فإنه تعامل بحيادية تجاه إدعاء بوداسف بالنبوة، ولعله في ذلك يصدر عن مفهوم إسلامي عميق مفاده: أن كل أمة لا تخلو من نبي أو رسول، إلا أنه يظهر موقفاًسلبياً عندما يعرض لدعوة بوداسف لعبادة الأصنام.

ولعل الشهرستاني (٥٤٨هـ - ١٥٣م) الذي جمع بين التأصيل التاريخي، والتحليل والعرض للمذهب قد

أكمل عرض المسعودي بعده بقرنين، فهو في تفريعه، للمذاهب وضع ما سمّاه (أصحاب البُدد)، ضمن تفرعات (البراهمة)، فشرح،في البداية، أن معنى(البُد) عندهم، "شخص في هذا العالم لا يولد ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم ولا يموت". وكل هذا يتضمن معنى الأبدية والخلود، ثم ينتقل إلى التاريخ، وإلى صاحب المذهب نفسه،فيشير على أن: أول (بد) ظهر في هذا العالم اسمه (شاكمين) وتفسيره: (السيد الشريف).[٤١١] وهذا الاسم الأخير يذكّرنا بالألقاب التي أطلقها البوذيين على بوذا، واعتقد الشهرستاني أن "السيد الشريف" هذا، يفصله زمنياً عن زمن الهجرة "خمسة آلاف سنة".[٤١٢] والحال أن هذا الزمن مبالغ فيه، إذا عرفنا أن بوذا عاش في القرن السادس قبل الميلاد، ومات في عام (٤٨٤ ق.م)، وأشار الشهرستاني إلى ان هناك (طريقاً) يسلكه المريد للوصول إلى مرتبة (البوديسية)، ومعناه "الطالب سبيل الحق".[٤١٣] وأن هناك درجات للوصول إلى مرتبة بوذا أي (البد)، وان المرتبة الأدنى لمرتبة (بوذا) هي مرتبة (البوديسية)، هذا التصور لمراتب الارتقاء في البوذية، الذي شخصه الشهرستاني، لمقارب المذهب البوذي، لم يكن غريباً عن مراقي الصوفية الإسلامية التي يعرفها الشهرستاني جيداً، كما أن فكرة (الطريق) نفسها، هي ذات مصدر بوذي بامتياز، هذا الطريق يمكن المرء الذي يسلكها بإيقاف جماح الرغبة،حتى الوصول إلى حالة النيرفانا، أو النيروذا Niroudha التي وصل إليها بوذا، أو من سلك طريقه للوصول إلى مرتبته.

وإذا كانت هذه (الطريق) كما بين بوذا وتلاميذه وشرّاحه، تتكون من ثلاثة شعب هي: الأخلاق، والتأمل، والحكمة، وهي شعب متداخلة تسير جنباً إلى جنب، ولكل من هذه الشعب الثلاثة قواعدها وشروطها، فقواعد الاخلاق الكبرى بالنسبة للرهبان والعامة، يمكن تلخيصها في مبادئ خمسة رئيسية، بالإضافة إلى ثلاثة ثانوية، أو لواحق لها، وهي "اتعهد بالإحجام عن إلحاق أي أذى بالكائنات الحية، وأن لا آخذ ما لم يعط لي (أي امتنع عن السرقة) وبأن امتنع ن الممارسات الجنسية اللاأخلاقية، وعن الكذب، وتناول الخمر والمخدرات التي تذهب العقل" وهناك مراعاة ثلاث مبادئ إضافية هي: "أن امتنع عن تناول الطعام بعد الظهر، وان امتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية، وأن امتنع عن استخدام أكاليل الزهور إلى مستحضرات التجميل، وأن لا أتزين بأي نوع من أنواع الزينة".[٤١٤] وهناك مبادئ أخرى تتعلق بالشعبتين الأخريين: التأمل، الحكمة.

الشهرستاني في عرضه، ينقل المناخ الفكري للبوذية، فهو ذكر،في شرحه للبوذية، أن الإنسان الطالب سبيل الحق، والسالك طريق الارتقاء، للوصول إلى مرتبة (البد)، أو (السيد الشريف) أو إلى مادونها، أو إلى مرتبة (البوديسية)، "إنما يصل إلى تلك المرتبة: بالصبر والعطية، وبالرغبة فيما يجب أن يرغب فيه وبالامتناع والتخلي عن الدنيا، والعزوف عن شهواتها ولذاتها، والعزة عن محارمها، والرحمة على جميع الخلق، وبالإجتناب عن الذنوب العشرة، قتل كل ذي روح، واستحلال أموال الناس، والزنى والكذب، والنميمة والبذاء، والشتم، وشناعة الألقاب والسفه، والجحد لجزاء الآخرة، وباستكمال عشرة خصال إحداها: الجود والكرم، والثانية: العفو عن المسيء، ودفع الغضب بالحلم، والثالثة التعفف عن الشهوات الدينية، والرابعة الفكرة في التخلص إلى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا العالم الفاني. والخامسة: رياضة العقل بالعلم والأدب، وكثرة النظر إلى عواقب الأمور، والسادسة القوة على تصريف النفس في طلب العبادات، والسابعة لين القلب وطيب الكلام مع كل أحد. والثامنة: حسن المعاشرة مع الأخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه، والتاسعة: الإعراض عن الخلق بالكلية، والتوجه إلى الحق بالكلية، والعاشرة: بذل الروح شوقاً إلى الحق، وصولاً إلى جناب الحق".[٤١٥] والملاحظ، أن في عرض الشهرستاني، تختفي اللغة التسفيهية لصالح العرض الموضوعي.

روى ابن النديم (٣٧٧هـ – ٩٨٧م)، أنه قرأ كتاب عن أخبار خراسان لرجل من أهل خراسان نفسها، قال فيه أن "نبي السمنية بوداسف" وأن نبيهم هذا "أعلمهم أن أعظم الأمور التي لا تحل، ولا يسع الإنسان أن

يعتقدها، ولا يفعلها قول: لا، في الأمور كلها... وقول (لا) عندهم من فعال الشيطان".[٤١٦]

وتعرض ابن النديم إلى السمنية أو البوذية في سياق عرضه لما سمّاه عقيدة (البد)، علماً أن البد هو تحريف لاسم (بوذا) فاستعرض المذاهب المتباينة حول عبادة (البد) أو الصنم قائلاً "فزعمت طائفة أنه صورة البادي" وأخرى أنه "صورة رسول الله"، وقالت ثالثة: أنه "عفريت من العفاريت" ولكن ما يهمنا هنا، ما اعتقده بأن طائفة رابعة قالت "هذه صورة بوداسف الحكيم الذي أتاهم من عند الله جل اسمه". [٤١٧] فنحن هنا أمام بوذا، الذي يعتقد أنه مبعوث حسب تقرير ابن النديم، "من عند الله" أي بمعنى من المعاني أنه نبي الله، وأن الصنم المجسد في معابدهم، إن هو إلّارمز له، "وصفة البد الأعظم كإنسان جالس على كرسي لا شعر بوجهه مغموس الذقن" ثم لفت نظرنا إلى بيت صنم أو بدٌّ للسمنية، في باميان..." وهذا بيت عظيم يجله الزهاد والعباد، وبه من الأصنام الذهب المرصعة ما يجاوز القدر، ولا يبلغه النعت والصفة، والهند تحجّه من أقاصي بلادها براً وبحراً". [٤١٨] والباميان تقع في أفغانستان الحالية، وفيهما التمثالان الشهيران، اللذان قضت عليهما حركة طالبان، ولعل هذان الصنمان، هما من أشار إليهما ابن النديم خطأً، على أنهما يقعان في ملتان، بينما هما في بيت باميان وقد ذكرهما بقوله "ولهم صنمان يقال لأحدهما جنكيت، والآخر زنبكت، قد استخرج صورتيهما من طرف واد عظيم، خرطا من حجارة الجبل، يكون ارتفاع واحد منهما ثمانين ذراعاً يرى من مسافة بعيدة، والهند تحج إليهما، وتحمل معها القرابين والدخن والبخورات".[٤١٩]

وكان ابن طاهر المقدسي، قد تعرض للسمنية، أو البوذية في موقعين من كتابه (البدء والتاريخ)، في الأول قدم ملاحظة خاطفة عنها، بتأكيده أن "السمنية هي المعطلة" وقصد بذلك أنهم ينفون الخالق، ويقولون بقدم العالم[٤٢٠] ثم عرض لها، في سياق تعريفه للمذاب البرهمية، تحت اسم (البهابوذية)، إذ إن الأسم ذاته، وعرضه للمذهب، يوحي بأن المقصود هو البوذية نفسها، فهو شرح الأمر قائلاً: "زعموا أن رسولهم ملك يقال له بوذا، أتاهم في صورة بشر، وهو راكب على ثور وعلى رأسه إكليل من عظام الموتى، متقلّد بقلادة من أقحاف الرؤوس، وفي إحدى يديه قحف، وفي الأخرى مزراق ذو ثلاث شعب، مستظل بظلال من ذنب الطاووس، فأمرهم بعبادة الله عز وجل، وأين يتخذوا على مثاله صنماً يعبدونه، فيكون وسيلتهم إليه، وأن لا يعافوا شيئاً من الأشياء، فإن الأشياء كلها من صنع الله عز وجل".[٤٢١] هنا، يتبدى بوذا، أو البد، عند ابن النديم، على أنه مبعوث من الله، وأن الصنم الذي يمثله، ويجسد صورته، ما هو إلاّ وسيلة للتعالي إلى الله، والتقرب منه. أما البغدادي (٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) صاحب "الفرق بين الفرق"، فإنه أثناء عرضه للمذاهب القائلة بالتناسخ، فيضع السمنية إلى جانب ما يسميه صنف الفلاسفة، وإلى جانب أصحاب التناسخ، أو المؤمنين به، مضيفاً إلى إيمانهم بالتناسخ، قولهم بقدم العالم، أي القول بالتعطيل، "فأصحاب التناسخ من السمنية قالوا بقدم العالم، وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال، وزعموا أنه لا معلوم إلاّ من جهة الحواس الخمس، وأنكر أكثرهم المعاد، والبعث بعد الموت، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح، والصور المختلفة".[٤٢٢] والحال أن البوذية لم تخض في البحث عن الخالق، بل انصرفت إلى علاج مشكلة الحياه على الأرض، فهي نظرت إلى الحياة على أنها وجود مستمر، وأن الأرواح في تناسخ مستمر، وبما أن الحياة ليست سوى (ألم) فعلى الإنسان العمل على وضع حد لها بالوصول إلى السعادة الروحية والسلام النفسي، بسلوك طريق يصل الإنسان بالنيرفانا [٤٢٣] لقد حام المؤلفون العرب حول مذهب البوذية، أنكروا بعض الجوانب التي رأوا فيها مظاهر شرك، وأظهروا موقفاً إيجابياً تجاه ما يقربه إلى مفهوم التوحيد، وكانوا ميالين إلى تصديق القول :بأن بوذا نبياً، وأن الأصنام يتخذها أتباعه (شهادة) أو "واسطة" للارتفاع إلى سرّالله، واتسم عرضهم في أغلبه بالموضوعية، دون الإغراق في عدمية نسبية لا تميز، ولا تُفاضل بين المعاني المختلفة.

الهوامش

١- أحمد أمين. ضحى الإسلام. ج١. دار الكتاب العربي. ط١. بيروت. ص ٢٢٩
٢- البلاذري. الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. حققه عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع. دار النشر. للجامعيين. ١٩٥٧. ص ٦٠٧
٣- د. احمد محمد الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم. ج١. (سلسلة ألف كتاب ١٥٨. إشراف إدارة الثقافة العامة - وزارة التربية والتعليم بمصر) مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة. ص ٥٦
٤- البلاذري. ص ٦٠٨.
٥- المصدر نفسه. ص ٦٠٨ - ٦٠٩
٦- المصدر نفسه ص ٦١١ - ٦١٢
٧- ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج٤. ص١١١- ١١٢وأيضاً، البلاذري المصدر نفسه، ص ٦١٣- ١١٤ قارن مع اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج٢ ص ٢٨٨ - ٢٨٩
٨- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج٢ ص ٢٨٩.
٩- ابن الأثير. ج٤. ص ١١١-١١٢، قارن مع اليعقوبي تاريخ اليعقوبي. ص ٢٨٨ - ٢٨٩، ومع
١٠- البلاذري ص ٦١٥ البلاذري ص ٦١٥ - ٦١٦
١١- الساداتي. ج١ ص ٧٣
١٢- عزيز أحمد. الهند (تراث الإسلام. قسم أول) مصدر سابق ص١٩٦
١٣- الساداتي. ج١. ص ٧٨، وقارن مع أحمد امين ضحى الإسلام. مصدر سابق. ص ٢٤٢/٢٤٤
١٤- الساداتي. المصدر نفسه. ص ٨٣ _ ٩٧ وقارن مع الدكتور حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي. ج٣. مكتبة النهضة المصرية ط٧ القاهرة ١٩٦٥ ص ٩٢-٩٣
١٥- عن الدكتور حسن ابراهيم حسن المصدر نفسه ص ٩٤
١٦- عزيز أحمد ص ١٩٧
١٧- الساداتي. ج١. ص ١٩٧ - ٢٠٠
١٨- غوستاف لوبون. حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. ط٢. دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى إلياس الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٣٨
١٩- د. جلال يحيى. تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف،مصر ،بدون تاريخ، ص ٢٦١ - ٢٦٢
٢٠- عبد المنعم نمر. تاريخ الإسلام في الهند. دار العهد الجديد. مصر ١٩٥٩. ص ٣٣٦
٢١- روسلان موسينية. تاريخ الحضارات العام. المجلد الرابع. إشراف موريس كروزيه. ترجمة يوسف أسعد. وفريد داغر. منشورات عويدات. بيروت. ١٩٦٦. ص ٦٠٥
٢٢- أرنولد. الدعوة إلى الإسلام. هامش (٣) في الصفحة ٢٢٧
٢٣- المصدر نفسه. ص ٢١٧
٢٤- المصدر نفسه ص ٢١٧ - ٢١٨
٢٥- المصدر نفسه. ص ٢٢٤ -٢٢٥
٢٦- محمد أبو صالح. الأسرة الملكية المسلمة الأولى في الهند. مجلة ثقافة الهند. مجلد ١١. العد الثاني في أبريل ١٩٦٠. ص ٢٠ - ٢٢
٢٧- المصدر نفسه ص ٢٠ - ٢٢، وقارن أيضاً مع أرنولد الدعوة إلى الإسلام. ص ٢٢٦ - ٢٢٧
٢٨- د. ب. راماكر شناروا. هيكل الثقافة الهندية مجلة ثقافة الهند. المجلد الجادي عشر. يوليو سنة ١٩٦٠، العدد الثالث. ص ١٤٠
٢٩- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٢١١.
٣٠- المصدر نفسه. ص ١٧٠، قارن مع (رحلة السيرافي. ص ٣٤)
٣١- الدمشقي. مصدر سابق. ص ١٧٢ - ١٧٣.
٣٢- المسعودي، مروج الذهب. ج١. ص ١٦٨
٣٣- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٥. ج١٨. دار صادر. بيروت. ١٩٥٧. ص ٢١١
٣٤- القلقشندي. ج٥. ص ٦٣.
٣٥- ياقوت الحموي المصدر نفسه. ص ٢١١ قارن مع ابن حوقل. صورة الأرض ص ٢٧٧
٣٦- ابن الفقيه. مختصر. كتاب البلدان. مصدر سابق.ص ٥

٣٧- السيرافي. ص ٥٠
٣٨- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. السفر الثالث. تحقيق د. أحمد عبد القادر الشاذلي إصدارات المجتمع الثقافي أبو ظبي. ٢٠٠٣. ص ٣٩-٤٠ قارن القلقشندي. من الصبح الاعشى في صناعة الإنشاء، ج٥ وزرة الثقافة والإرشاد القومي.المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة. بدون تاريخ. ص ٦٢-٦٣.
٣٩- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص١. ص ٨٢.
٤٠- ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار... السفر الثالث. مصدر سابق ص ٤٢. قارن مع القلقشندي الصبح الأعشى ج٥. مصدر سابق. ص ٦٢
٤١- ابن فضل الله العمري. المصدر نفسه السفر الثالث. ص ٦٢.
٤٢- القلقشندي. صبح الأعشى. ج٥. ص ٦٣ و ٦٧.
٤٣- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٣. ج١٠. ص ٢٦٧
٤٤- ابن فضل الله العمري العمري المصدر السابق نفسه السفر الثالث. ص ٤٥.
٤٥- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ١. ص ٢١١
٤٦- ابن حوقل. ص ٢٧٧ الإدريسي. نزهة المشتاق. مجلد أول. ص ١٦٨-١٦٩ وياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٥/ ج١٨. ص ٢١١
٤٧- المصدر نفسه. ص ٢٧٧ راجع أيضاً. المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٦٨
٤٨- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٦٨
٤٩- المصدر نفسه ص ١٦٨
٥٠- الإدريسي. ص ١٦٩
٥١- المصدر نفسه. ص ١٦٩. وابن حوقل. ص ٢٧٧
٥٢- المقدسي. احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مصدر سابق ص ٤٨١
٥٣- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٩٩
٥٤- المقدسي. احسن التقاسيم. ص ٤٨٣
٥٥- ابن حوقل. ص ٢٧٧
٥٦- المقدسي ص ٤٨٤٨، وياقوت الحموي معجم البلدان. مجلد٥، ج١٨. ص ١٢٢
٥٧- ياقوت الحموي. المصدر نفسه. ص ٢٢٧
٥٨- الإدريسي. تزهد المشتاق ص ١٧٦
٥٩- ابن رسته. كتاب الاخلاق النفيسة
٦٠- المصدر نفسه. ص ١٣٦
٦١- المصدر نفسه ص ١٣٦
٦٢- المصدر نفسه ص ١٣٧
٦٣- المصدر نفسه ص ١٣٧
٦٤- القزويني. آثار البلدان واخبار العباد. مصدر سابق. ص ١٢١
٦٥- ابن بطوطة. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مصدر سابق. ص ٣٠٩ وص ٣١٦
٦٦- المصدر نفسه. ص ٣٠٩ – ٣١٠
٦٧- المصدر نفسه ص ٣١١
٦٨- المصدر نفسه ص ٣١١ – ٣١٢
٦٩- المصدر نفسه ص ٣١٢
٧٠- المصدر نفسه ٣١٨
٧١- المصدر نفسه ص ٣١٥
٧٢- ابن سعيد المغربي. كتاب الجغرافية. مصدر سابق. ص ١١٩
٧٣- ابن حوقل. ص٢٨١
٧٤- المصدر نفسه ص ٢٧٩
٧٥- المصدر نفسه ص ٢٧٩
٧٦- المصدرنفسه ص ٢٨٣، والمقدسي البشاري، ص ٤٨٤
٧٧- الإدريسي. ص ١٧٤
٧٨- ابن حوقل، ص ٢٨٣، المقدسي البشاري. ص ٤٨٤
٧٩- ابن حوقل. المصدر نفسه. ص ٢٧٩
٨٠- المقدسي. ص ٤٧٩
٨١- المصدر نفسه. ص ٢٧٩

٨٢- الإدريسي. ص ١٦٧
٨٣- المقدسي. ص ٤٨١
٨٤- القلقشندي. من صبح الأعشى... الجزء الخامس، ص ٦٩ – ٧٧
٨٥- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار... السفر الثالث. ص ٤٥
٨٦- د. احمد مقبول، العلاقة التجارية بين الهند والعرب. من القرن العاشر قبل الميلاد إلى العصر الحديث، مجلد ثقافة الهند. مجلد ١١.
٨٧- القلقشندي، الجزء الخامس. مصدر سابق. ص ٧٧
٨٨- الدمشقي ص ١٧٣، وابن سعيد المغربي، ص ١٢٠، القلقشندي المصدر السابق نفسه. ص ٧٣، الحموي، معجم البلدان، مجلد أول /ج٣.
٨٩- القلقشندي. المصدر نفسه ص ٧٣ – ٧٤
٩٠- ابن بطوطة. ص ٤٣٢
٩١- المصدر نفسه. ص ٤٣٢
٩٢- المصدر نفسه ص ٤٣٣
٩٣- المصدر نفسه ص ٤٣٢
٩٤- المصدر نفسه ص ٤٣٢
٩٥- المصدر نفسه ص ٤٣٣
٩٦- المصدر نفسه ص ٤٣٣
٩٧- المصدرنفسه ص ٤٣٣
٩٨- المصدر نفسه ص ٤٣٠
٩٩- المصدر نفسه ص ٤٣١
١٠٠- ابن سعيد المغربي
١٠١- النويري. السفر الأول. ص ٢٣٧
١٠٢- الإدريسي. ص ١٨١
١٠٣- ابن بطوطة ص ٤٢٦
١٠٤- المصدر نفسه ص ٤٢٨
١٠٥- المصدر نفسه ص ٤٢٨
١٠٦- المصدر نفسه ص ٤٢٩
١٠٧- المصدر نفسه ص ٤٢٩
١٠٨- المصدر نفسه ص ٤٣٠
١٠٩- المصدر نفسه ص ٤٣٠
١١٠- المصدر نفسه ص ٤٣٤
١١١- المصدر نفسه ص ٤٢١
١١٢- المصدر نفسه ص ٤٣٤ – ٤٣٥ والقلقشندي. ج٥. ص ٧٤
١١٣- المصدر نفسه ص ٤٣٥
١١٤ المصدر نفسه ص ٤٣٥_ ٤٣٦
١١٥- المصدر نفسه ص ٤٣٧
١١٦- الإدريسي ص ١٩١ – ١٩٢
١١٧- ابن بطوطة ص ٤٣٧
١١٨- المصدر نفسه. ص ٤٣٩
١١٩- السيرافي. ص ٢٦
١٢٠- الدمشقي. ص ١٧٣
١٢١- لبن الفقيه. ص ١١
١٢٢- القلقشندي. مجلد ٥، ص ٧٥
١٢٣- القزويني آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٠٦ – ١٠٧
١٢٤- المصدر نفسه. ص ١٠٧
١٢٥- ابن بطوطة ص ٤٤٠
١٢٦- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد. ج١. ص ٣٤٦
١٢٧- الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي. دول الإسلام ج١. حققه حسن اسماعيل مروة. دار صادر بيروت ١٩٩٩. ص ٣٦٥ وابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج٧. ص ٣٢٠

١٢٨- القزويني. آثار البلاد.. ص ٩٥
١٢٩- المصدر نفسه. ص ٩٧
١٣٠- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ١. ج٣. ص ٣٤٦
١٣١- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٥
١٣٢- القلقشندي. من صبح الأعشى. ج٥. ص ٧١
١٣٣- الإدريسي. ص ١٨٧
١٣٤- المصدر نفسه. ص ١٨٩
١٣٥- القلقشندي من صبح الأعشى. ج٥. ص ٥٧.
١٣٦- ابن بطوطة. ص ٤٦٦ - ٤٦٧
١٣٧- المصدر نفسه ص ٤٦٨
١٣٨- المصدر نفسه ص ٤٦٩
١٣٩- المصدر نفسه. ص ٤٧٠
١٤٠- الدمشقي. ص١٧٤
١٤١- غوستاف لوبون. حضارة الهند. ترجمة عادل زعيتر. دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه. مصر ١٩٤٨. ص ٢١٤ - ٢١٥
١٤٢- السادات. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية. ص ٦٥
١٤٣- المسعودي. مروج الذهب ج١. ص ١٦٥
١٤٤- ابن سعيد المغربي. ص ١٣٤
١٤٥- القلقشندي. من صبح الأعشى. ج٥. ص ٧٦ - ٧٧
١٤٦- المقدسي البشاري. أحسن التقاسيم. ص ٤٨٥ - ٤٨٦
١٤٧- ابن سعيد المغربي ص ١٣٤
١٤٨- المصدر نفسه ص ١٣٥
١٤٩- ابن بطوطة ص ٤١٨ قارن مع الأدريسي. ص ١٩٤ وقارن مع القلقشندي ج٥ حيث يذكر أن فيها "أثنا عشر ألف قرية" ص ٧٨
١٥٠- المصدر نفسه ص ٤١٩
١٥١- المصدر نفسه ص ٤١٩
١٥٢- المصدر نفسه ص ٤٢٣
١٥٣- المصدر نفسه ص ٤٢٥
١٥٤- المصدر نفسه ص ٤٢٥
١٥٥- القزويني. آثار البلاد. ص ١٠٤
١٥٦- المصدر نفسه ١٠٥
١٥٧- الإدريسي ص ١٩٣
١٥٨- بزرك. ص ١٠٣ - ١٠٤
١٥٩- المصدر نفسه ص ١٢٥
١٦٠- ابن سعيد المغربي. ص ١٢٠
١٦١- المصدر نفسه ص ١٦٣
١٦٢- ابن فضل الله العمري. ص ٥٣
١٦٣- ابن بطوطة. ص ٣٢٥ - ٣٢٦
١٦٤- ابن فضل الله العمري. ص ٥٤
١٦٥- ابن بطوطة. ص ٣٢٦ - ٣٢٧
١٦٦- المصدر نفسه ص ٣٢٨
١٦٧- ابن فضل الله العمري. ص ٩٤
١٦٨- المصدر نفسه. ص ٥٥
١٦٩- ابن فضل الله العمري. ص ٧٥
١٧٠- المصدر نفسه ٨٣ - ٨٥
١٧١- المصدر نفسه ص٨٧
١٧٢- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٧٩ والنويري من نهاية الأدب. ج١٤. ص ٣٢٠

١٧٣- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج٢. ص ٩٥
١٧٤- المصدر نفسه. ص ١٠٨
١٧٥- الحميري. ٥٩٧
١٧٦- المسعودي، مروج الذهب. ج١. ص ٧٦
١٧٧- المصدر نفسه. ص ٧٨
١٧٨- المصدر نفسه. ص ٨٠ والنويري. نهاية الادب. ج٤. ص ٣٢١
١٧٩- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج٢. ص ٩٩
١٨٠- المسعودي. مروج الذهب ج١. ص ٨٠ – ٨١ والنويري. نهاية الأدب. ج١٤. ص ٣٢١ – ٣٢٢
١٨١- المسعودي. المصدر نفسه. ص ٨٢. النويري المصدر نفسه ص ٣٢٢ – ٢٢٣
١٨٢- النويري. المصدر نفسه. ص ٣٢٢
١٨٣- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ١٠٨. ج٢. ص
١٨٤- ابن حوقل.ص ٢٢٨
١٨٥- بن رسته. ص ١٣٤، وابن خرداذبة ص ٦٧. والسيرافي ص ٤٧، واليعقوبي تاريخ اليعقوبي ج٢. ص ١٠٨ والطبيب شرف الزمان طاهر المروزي. أبواب في الصين والترك والهند. ص ٣٤
١٨٦- المسعودي. مروج الذهب. ج١.. ص ٨٥
١٨٧- الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي. العقد الفريد. الجزء الثاني. تحقيق محمد سعيد عريان. مطبعة الاستقامة ط٢/١٩٥٣. ص ٦٠
١٨٨- ابن سعيد المغربيي. ص ١٢٥
١٨٩- الإدريسي. نزهة المشتاق. ص ١٨٨
١٩٠- المصدر نفسه. ص١٨٨
١٩١- المصدر الطبيب الطاهر المروزي. ص ٣٥ وابن خرداذبة. ص ٦٧
١٩٢- السيرافي. ص ٣٥
١٩٣- القاضي الرشيد بن الزبير. كتاب الذخائر والتحف. حققه الدكتور محمد حميد الله. سلسلة التراث العربي (١). دائرة المطبوعات والنشر في الكويت. ١٩٥٩. ص٢٣
١٩٤- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢. ص ٢٨٨ – ٢٨٩
١٩٥- ابن رسته. ص ١٣٣ – ١٣٤ والمروزي. ص ٣٤
١٩٦- بزرك. ص ١٩، والمسعودي مروج الذهب ج١. ص ٨٤
١٩٧- المروزي ص ٣٧
١٩٨- الإدريسي ص ١٩٤
١٩٩- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٦٧
٢٠٠- المصدر نفسه. ص ٨٢
٢٠١- المصدر نفسه. ص ٨٣، والنويري نهاية الأدب. ج١٤. ص ٣٢٣.
٢٠٢- الإدريسي ص ١٨٩
٢٠٣- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٢٩٤ – ٢٩٥
٢٠٤- المصدر نفسه ص ٢٩٥
٢٠٥- السيرافي. ص٤٧
٢٠٦- النويري. نهاية الأدب. ج١٤. ص ٢٢٣
٢٠٧- المصدر نفسه. ص٤٨
٢٠٨- ابن خرداذبة. ص ٦٦- ٦٧
٢٠٩- النويري. نهاية الأدب.ج١٤. ص٣٢٣
٢١٠- السيرافي. ص٤٧ – ٤٨
٢١١- النويري. نهاية الادب. ج١٤. ص ٣٢٣
٢١٢- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٨٣
٢١٣- المصدر نفسه. ص ٢١١
٢١٤- السيرافي. ص ٧٨
٢١٥- بزرك. ص ١١٣ - ١١٤
٢١٦- السيرافي. ص ٤٥ - ٤٦

٢١٧- الإدريسي ص ١٩٠
٢١٨- السيرافي. ص ٤٥ - ٤٦
٢١٩- المصدر نفسه. ص ٤٨
٢٢٠- ابن خرداذبة. ص ٧١
٢٢١- بزرك. ص ١٥٢
٢٢٢- المصدر نفسه ص ١٥٢
٢٢٣- ابن رسته. ص ١٣٤
٢٢٤- المروزي. ص ٣٨
٢٢٥- المصدر نفسه. ص ٣٨
٢٢٦- ابن بطوطة. ص ٣٤١
٢٢٧- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة صُححت بالمكتبة الأهلية باريس، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن والهند، ١٩٥٨، ص٤٧٢.
٢٢٧- المصدر نفسه ص٤٧٢
٢٢٩- المصدر نفسه. ص ٤٧٣
٢٣٠- المصدر نفسه ص ٤٧٤
٢٣١- المصدر نفسه. ص٤٧٥
٢٣٢- غوستاف لوبون. حضارة الهند. ص ٢٢١ - ٢٢٢
٢٣٣- الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية. ص ١٧١ - ١٧٢
٢٣٤- ابن بطوطة. ص ٣٤٥
٢٣٥- المصدر نفسه ص ٣٤٦
٢٣٦- المصدر نفسه ص ٣٦٦
٢٣٧- المصدر نفسه ص ٣٦١ و ٣٩٧
٢٣٨- المصدر نفسه ص ٣٩١
٢٣٩- المصدر نفسه. ص ٣٩٢
٢٤٠- ابن فضل الله العمري ج٣. ص ٦٤
٢٤١- القلقشندي. من صبح الاعشى. ج٥. ص٩١
٢٤٢- ابن فضل الله العربي، ص ٦٥
٢٤٣- المصدر نفسه. ص٦٦
٢٤٤- القلقشندي. من صبح الاعشى. ج٥. ص ٩٢
٢٤٥- المصدر نفسه ص ٩٣
٢٤٦- المصدر نفسه ص ٩٤
٢٤٧- ابن فضل الله العمري ص ٨١
٢٤٨- ابن سعيد المغربي. ص ١٦٣
٢٤٩- ابن بطوطة. ص ٣٩٤
٢٥٠- اليروني. أبو الريحان محمد بن احمد، ص١٣.
٢٥١- المصدر نفسه، ص ١٥
٢٥٢- المصدر نفسه ص ١٥
٢٥٣- المصدر نفسه ص ١٧
٢٥٤- المصدر نفسه ص ١٧
٢٥٥- المصدر نفسه ١٧ - ١٨
٢٥٦- الثعالبي. أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل. لطائف المعارف تحقيق ابراهيم الابياري. حسن كامل الصيرفي. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة، بدون تاريخ. ص ٢١٤
٢٥٧- القلقشندي. من صبح الاعشى. ج٥. ص ٦٢
٢٥٨- السيرافي. ص ٥١
٢٥٩- ابن فضل الله العمري. ج٣. ص ٣٩
٢٦٠- المروزي. ص ٢٦
٢٦١- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج١. ص ٩٤

٢٦٢- المسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٦٩
٢٦٣- المصدر نفسه،ص١٥٨
٢٦٤- برزك. ص١٠٤.
٢٦٥- المصدر نفسه. ص ١٥٠
٢٦٦- البيروني. ص ١٥٠
٢٦٧- المصدر نفسه. ص ١٥١
٢٦٨- السيرافي. ص ٢٦٧-٢٦٨
٢٦٩- ابن فضل الله العمري ج٣. ص٤٦
٢٧٠- الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٢١٤ - ٢١٥
٢٧١- البيروني ص ٤٤
٢٧٢- بزرك ص ١٨
٢٧٣- البيروني ص ٧٦
٢٧٤- المصدر نفسه. ص ٧٦ - ٧٧
٢٧٥- المصدر نفسه. ٧٥ - ٧٦
٢٧٦- المصدر نفسه٧٨
٢٧٧- المصدر نفسه ص ٤٦٩-٤٧٠
٢٧٨- المصدر نفسه، ص٤٧٠
٢٧٩- المصدر نفسه،ص٤٧٠
٢٨٠- السيرافي ص ٤٩
٢٨١- المروزي ص ٤٠
٢٨٢- البيروني ص ٤٧٠
٢٨٣- المصدر نفسه ص ٢٧٠
٢٨٤- المصدر نفسه ص ٢٧٠
٢٨٥- الإدريسي ص ١٩٠
٢٨٦- البيروني ص ٤٧٥ - ٤٧٦
٢٨٧- السيرافي ص ٤٨
٢٨٨- البيروني ص ٤٦٩
٢٨٩- السيرافي ص١٩٠
٢٩٠- الحميري ص ٤٧١
٢٩١- البيروني ص ٤٧١
٢٩٢- المصدر نفسه ص ٤٧٥
٢٩٣- السيرافي. ص ٤٨
٢٩٤- المصدر نفسه ص ٤٩
٢٩٥- ابن الفقيه ص ١٥
٢٩٦- السيرافي ص ٥٠
٢٩٧- المصدر نفسه ص ٥٠
٢٩٨- البيروني ص ٤٧١
٢٩٩- المصدر نفسه ص ٤٧١
٣٠٠- المصدر نفسه ص ١٤٥
٣٠١- ابن بطوطة ص ٢٩٨
٣٠٢- البيروني ص ١٤٥
٣٠٣- ابن بطوطة ص ٣٢٢
٣٠٤- المصدر نفسه ص ٣٢٣ - ٣٢٤
٣٠٥- المصدر نفسه ص ٣٢٣
٣٠٦- الحميري ص ٤٧١
٣٠٧- البيروني ص ٢٦٧
٣٠٨- المصدرنفسه ص ٢٦٦

٣٠٩- السيرافي ص ٥٠
٣١٠- بزرك ص ١١٦ - ١١٧
٣١١- السيرافي ص ٤٩
٣١٢- البيروني ص ١٤٤
٣١٣- ابن فصل الله العمري. ج٣. ص ٧٦ وابن بطوطة. ص ٣٣١
٣١٤- ابن فضل الله العمري. المصدر نفسه. ص ٧٦
٣١٥- السيرافي. ص٥١
٣١٦- البيروني. ص ١٤٤ – ١٤٥
٣١٧- ابن بطوطة. ص ٢٩٤
٣١٨- ابن الفقيه ص ١٤ - والسيرافي. ص ٤٩
٣١٩- البيروني. ص ١٤٤ - ١٤٥
٣٢٠- ابن بطوطة. ص ٢٩٤
٣٢١- ابن الفقيه ص ١٤ - والسيرافي. ص ٤٩
٣٢٢- البيروني ص ٤٦٧ - ٤٦٨
٣٢٣- ابن فضل الله العمري ج٣. ص ٨٠
٣٢٤- المصدر نفسه ص ٨١
٣٢٥- الإدريسي. ص ١٨٩ - ١٩٠
٣٢٦- البيروني ص ١٤٥ - ١٤٦
٣٢٧- راجع في هذا أحمد محمد الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ج١. مصدر سابق. ص ٢٣، وغوساف لوبون. حضارة الهند. ص ٦٠٠- ٦٠٥ ومحمد حافظ سيد. الحياة في رأي الآراميين القدماء مجلة ثقافة الهند. ١٩٥٠ سبتمبر. ص ١٢٣ - ١٢٥
٣٢٨- اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج١. والمسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٧٦
٣٢٩- المسعودي المصدر نفسه. ص ٧٩
٣٣٠- الحميري. ص ٥٩٧
٣٣١- المسعودي مروج الذهب. ج١. ص ٧٩
٣٣٢- الإمام أبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني. الملل والنحل. ج٢. اعتنى به أبو عبد الله السعيد المندوه. مؤسسة الكتب الثقافية بيروت. ١٩٩٤. ص ٢١٨
٣٣٣- مطهر بن طاهر المقدسي (ومنسوب إلى أبي زيد بن أحمد بن سهل البلخي)، كتاب البدء والتاريخ. ج٤. باريس. ١٩٠٧ص ٩
٣٣٤- المصدر نفسه. ص ٩-١٠
٣٣٥- المصدر نفسه. ص ١٢ - ١٣
٣٣٦- المروزي. ص ٣٩
٣٣٧- الشهرستاني ج٢. ص ٢١٩-٢٢٠
٣٣٨- المروزي ص ٢٨ وابن طاهر المقدسي. ص ١٢-١٣
٣٣٩- المصدر نفسه ص ٢٨ وابن طاهر المقدسي ص ١٣
٣٤٠- المسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٤.
٣٤١- الدمشقي. ص ١٧٢
٣٤٢- ابن طاهر المقدسي ج٤. ص ١٤
٣٤٣- المصدر نفسه ص ١٥والمروزي ص ٣٠
٣٤٤- ابن طاهر المقدسي. المصدر نفسه ص ١٥-١٦والمروزي.ص ٣٢
٣٤٥- ابن طاهر المقدسي. المصدر السايق. ص ١٥. المروزي ص ٣١
٣٤٦- المروزي المصدر السابق ص ٣٣
٣٤٧- ابنم سعيد المغربي ص ١٣٤
٣٤٨- الدمشقي. ص ١٧٤
٣٤٩- المصدر نفسه. ص ١٧٥
٣٥٠- البلاذري ص ٦١٣
٣٥١- الدمشقي. ص ٤٥
٣٥٢- المروزي. ص ٤٠

٣٥٣- ابن سعيد المغربي. ص ١٦٤، النويري. السفر الأول. ص ٢٧٢
٣٥٤- ابن بطوطة. ص ٣٢٤
٣٥٥- ابن سعيد المغربي. ص ١٣٤ والمسعودي. مروج الذهب ج١. ص ٢٠٨
٣٥٦- النويري السفر الأول ص ٢٧٢
٣٥٧- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٢٠٩ والسيرافي. ص ٨٠/٧٩
٣٥٨- بزرك. ص ١٢٠
٣٥٩- ابن طاهر المقدسي. ص ١٧ والمروزي. ص ٣٣
٣٦٠- المصدر نفسه ص ١٦
٣٦١- السيرافي ص ٧١. والمسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٨٢ والدمشقي. ص ١٧٤
٣٦٢- السيرافي المصدر نفسه. ص ٧١ - ٧٢
٣٦٣- ابن بطوطة. ص ٣٤١
٣٦٤- المروزي. ص ٣٩
٣٦٥- ابن رسته. ص ١٣٧
٣٦٦- السيرافي. ص ٨٤ - ٨٥
٣٦٧- البيروني ص ٤٧١ - ٤٧٢
٣٦٨- المروزي. ص ٤٠
٣٦٩- المصدر نفسه. ص ٣٩
٣٧٠- علي أومليل. في شرعة الاختلاف. دار الأمان. الرباط. ١٩٩١ ص ٣٥ - ٣٦
٣٧١- البيروني. ص ١٩
٣٧٢- المصدر نفسه. ص ٢٠-٢١
٣٧٣- المصدر نفسه ص ٢١-٢٢
٣٧٤- المصدر نفسه ص ٢٣-٢٤
٣٧٥- المصدر نفسه ص٣٨
٣٧٦- المصدر نفسه ص٣٨
٣٧٧- المصدر نفسه ص ٣٩-٤٠
٣٧٨- المصدر نفسه ص ٤٠-٤١
٣٧٩- المصدر نفسه ص ٤٢-٤٣
٣٨٠- المصدر نفسه ص ٤٤-٤٥
٣٨١- المصدر نفسه ص ٤٤-٤٩
٣٨٢- المصدر نفسه ص ٥٢
٣٨٣- المصدر نفسه ص ٥٧
٣٨٤- المصدر نفسه ص ٦٣-٦٤
٣٨٥- المصدر نفسه ص ٧٢
٣٨٦- المصدر نفسه ص ٨٥
٣٨٧- المصدر نفسه ص ٨٤
٣٨٨- المصدر نفسه ص ٨٤
٣٨٩- المصدر نفسه ص ٩٤-٩٥
٣٩٠- المصدر نفسه ص ٨٨
٣٩١- المصدر نفسه ص ٩١-٩٢
٣٩٢- المصدر نفسه ص ٩٤
٣٩٣- المصدر نفسه ص ٩٦
٣٩٤- المصدر نفسه ص ١٠١-١٠٢
٣٩٥- المصدر نفسه ص ٤٦٣
٣٩٦- المصدر نفسه ص ٤٦٤-٤٦٥
٣٩٧- المصدر نفسه ص ٢١٧
٣٩٨- المصدر نفسه ص ٤٨٢-٤٨٣
٣٩٩- المصدر نفسه ص ١٨٠

٤٠٠- المصدر نفسه ص ١٨١
٤٠١- المصدر نفسه ص ١٩١
٤٠٢- المصدر نفسه ص ٢٢١-٢٢٢
٤٠٣- المصدر نفسه ص ٢٢٧
٤٠٤- المصدر نفسه ص ٢٣١
٤٠٥- البيروني ص ٢٠٦
٤٠٦- جفري بارند معتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة عالم المعرفة ١٧٣. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٩٣ ص٢٤٣ وحسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي، الصين. دار المعارف بمصر بدون تاريخ. ص ٨٦ - ٩٢
٤٠٧- د. رضوان السيد البوذية والإسلام وغربة الأديان. جملة التسامح. صيف سنة ٢٠٠٤ عدد ٧. ص ٢٧٦
٤٠٨- المسعودي. مروج الذهب ج٢ص ٢٣٧
٤٠٩- المصدر نفسه ص ٢٣٧
٤١٠- المصدر نفسه ص ٢٣٧
٤١١- الشهرستاني الإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحلمصدر سابق، ص٢٢٠
٤١٢- المصدر نفسه ص ٢٢٠
٤١٣- جفري باوند المعتقدات الدينية لدى الشعوب. مصدر سابق. ص ٢٢٦
٤١٤- المصدر نفسه،ص٢٢٦-٢٣٠
٤١٥- الشهرستاني ص ٢٢٠-٢٢١
٤١٦- ابن النديم. الفهرست. مصدر سابق. ص ٤٩٨
٤١٧- المصدر نفسه ص ٥٠١
٤١٨- المصدر نفسه ص ٥٠٠
٤١٩- المصدر نفسه ص ٤٩٩
٤٢٠- ابن طاهر المقدسي. كتاب البدو والتاريخ. ج٤. ص ٩
٤٢١- المصدر نفسه ص ١٣-١٤
٤٢٢- البغدادي. الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمدكتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ضبطه محمد بدر. مطبعة المعارف بمصر بدون تاريخ. ص ٢٥٤
٤٢٣- جوهر. وبيومي. الصين. مصدر سابق. ص ٩١-٩٢

الفصل السادس

جيران الهند والصين في البر والبحر

جيران البحر في الجنوب

عالم البحر الشرقي وجزره

لعل معرفة العرب وتصوراتهم عن البحار الشرقية المتصلة في نهاياتها الغربية بحافة أفريقيا الشرقية، وبجنوب الجزيرة العربية، كانت أكثر دراية وانفتاحاً، من مثيلاتها اليونانية والرومانية، وأكثر دقة بتلك البحار، المتفرعة – كما يعتقدون – عن البحر الصيني، فإذا كانت معلومات الإغريق والرومان عن الجهات الشرقية الأفريقية لا تتجاوز الأطراف الجنوبية للساحل الصومالي، فمعلومات الجغرافيين العرب توغلت جنوباً لغاية خط عرض عشرين درجة جنوباً، فشملت ساحل موزمبيق، الذي سموه بـ "سفالة الزنج"، وانتشرت مراكز استيطانهم على أطراف مدن الساحل الشرقي لأفريقية كمبسة وزنجبار وملنده وكلوه، حتى أنهم وصلوا إلى جزيرة مدغشقر التي سموها جزيرة قمار أو قمر[1]، والحال نفسه ينطبق على انتشارهم على سواحل الهند والصين، وعلى جزر المحيط الهندي، كما نوهنا سابقاً، لكن، وعلى الرغم من اتساع مشاهداتهم ومعارفهم المباشرة، ورحلاتهم الكثيفة وإبحارهم فيها، إلاّ أن صورتهم العامة للبحارة الشرقية، تأثرت، إلى حد كبير، بالصور النمطية التي ورثها أغلب الجغرافيين العرب، عن اليونان والرومان، التي افترضت أن الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقية يمتد عميقاً باتجاه الشرق، بمحاذاة شواطئ الهند والصين، بدلاً من امتداده جنوباً، ليشكل المحيط الهندي – الصيني، تبعاً لهذا التصور، خليجاً طويلاً شبه مغلق، محصور بين شواطئ آسيا وشواطئ أفريقيا

وكان لهذه النظرية البطليموسية من السطوة، إلى درجة، أن وقع تحت تأثيرها الكثير من الجغرافيين العرب، وفي مقدمتهم الإدريسي، بينما عارضتها القلة القليلة منهم، ولا سيما البتاني (٣١٧هـ – ٩٢٩م) والبيروني وابن سعيد المغربي، وأبو الفداء، واتخذ الأخيرون وجهة نظر تتفق إلى حد كبير مع التصورات الحديثة.

فالفريق الأول وقع تحت سطوة نظريات بطليموس، رغم المعطيات الكثيرة، ووفرة المعلومات، التي بات يمتلكها العرب عن المحيط الهندي، وعن الساحل الأفريقي الشرقي، قياساً إلى ضآلة معلومات بطليموس والعلماء اليونان، فمدوا السواحل الأفريقية الجنوبية شرقاً، حتى محاذاة الصين، لتشكل بهذا الامتداد، خليجاً مستطيلاً كبيراً أطلقوا عليه اسم البحر الهندي تارة، والبحر الصيني تارة أخرى، وهو يمتد من أطراف الصين الجنوبية حتى شواطئ أفريقية الشرقية، ووضعوا على أطراف هذا البحر الكبير الجنوبية جزر: الواق واق، وجزر غامضة أخرى: جزيرة النساء وجزيرة القرود، وغيرها من الجزر، التي تحاذي العالم المغمور، بأشيائه وكائناته الغريبة، وهذا ما نراه جلياً في خارطتي الاصطخري وابن حوقل، بتمديدهما الساحل الشرقي لأفريقية باتجاه الشرق حتى يوازي شواطئ الصين والهند الجنوبية، ليتكون في تقابلهما وتوازيهما شبه جزيرة مائية مغلقة في جوانبها الثلاثة، ومنفتحة إلى الشرق، وجاراهما في ذلك البلخي، والجيهاني، وينطبق الأمر نفسه على خرائط الإدريسي، وتصوراته لبحر الشرق الكبير. الذي احتذا ببطليموس في مد الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقية باتجاه الشرق حتى يحاذي السواحل الجنوبية للصين، بطريقة يصبح المحيط الهندي شبه جزيرة مقفلة تنتشر فيها الجزر الكبيرة والصغيرة، وتصب فيها مياه الأنهار من الصين والهند، ومن السواحل العربية، ومن أرض بربرة وسفالة

الزنج[٢]

ولقد تعذر على أصحاب وجهة النظر هذه، أن يتصوروا أن هناك اتصالاً مباشراً بين المحيط الأطلسي (الأوقيانوس)، و"بحر الهند"، أما بسبب امتداد اللسان الأفريقي شرقاً، أو لانتهاء العمران في الجنوب، بعيداً عن خط الاستواء، بطريقة لا تسمح بالإبحار، لاسيما أن حرارة تلك المنطقة تصل إلى ما يقارب درجة الغليان، ويكتنفها الظلام، وتتعاظم أموج المحيط هناك وتتعاظم أهواله، فما ينطبق على النهايات الجنوبية للبحر الأخضر، أوقيانوس (الأطلسي) ينطبق على بحر الهند، كما ينطبق على بحر المحيط في شرق الصين، وهو ما نجده في وصف الإدريسي لجنوب الأطلسي "ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلامة أنوائه، وتعاظم موجه وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه، وبه جزائر كثيرة منها معمور ومغمور، وليس أحد من الربانيين يركبه"،[٣] وشرح أبو الفداء الأمر بقوله: "إن ماء البحر المحيط بجهة الجنوب غليظ... لأن الشمس بسبب مسامتتها له وقربها منه حلّلت الأجزاء اللطيفة من الماء، فغلظ ماؤه واشتدت ملوحته وسخونته، ولذلك لا يعيش فيه حيوان ولا يسلك فيه مركب".[٤]

قبالة هذا الفريق من الجغرافيين، بتصوراتهم تلك عن امتداد الطرف الجنوبي الشرقي لأفريقية بموازاة الصين، وقف فريق آخر عارض رأي بطليموس ذاك، فتحدث عن امتداد القارة الأفريقية جنوباً، وعن اتصال بحر الهند، بالمحيط الأطلسي، عبر بحر "سفالة الزنج" وقد أشار (رينو) في تعليقه على كتاب أبي الفداء إلى أن جابر بن سنان البتاني كان من أوائل المؤلفين العرب الذين نبّهوا على اتصال المحيط المظلم (الأطلسي) بالمحيط الهندي، وعلى امتداد بلاد سفالة الزنج جنوباً، وليس شرقاً، فيلتقي المحيطان في نهاية ذلك الامتداد، وهذه إشارة إلى رأس الرجاء الصالح، وقد شاركه هذا الاعتقاد كلّ من المسعودي والبيروني، وابن سعيد المغربي، فقد عدّل الأخير من خريطة بطليموس، مستفيداً من مشاهدات رحلة ابن فاطمة إلى جزيرة القمر (مدغشقر)، والتي كانت كفيلة بقلب تصورات بطليموس عن الجنوب الشرقي للقارة الأفريقية، حيث دفع بطرف القارة الأفريقية الشرقي نحو الجنوب، بدلاً من امتداده شرقاً، ووصل بحر الزنج ببحر المحيط المظلم (الأطلسي) استناداً على معطيات كثيفة كانت بمتناول يديه، والتي أتت من معطيات رحلة ابن فاطمة، ومن مشاهدات الرحالة والملاحين والتجار العرب الذين كانوا على معرفة وطيدة بساحل أفريقية الشرقي، ولكنه ظلّ محافظاً على الاعتقاد السائد، بأن البرزخ الواصل بين المحيطين الأطلسي والهندي، يصعب الإبحار فيه، وهو ما يتضح في قوله: "والبحر الذي يمر مع طوله (جزيرة القمر – مدغشقر) الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط،ويقال إنه لا يدخله أحد من أهل البر الشمالي، وبحر الجهتين الشرقية والغربية".[٥]

وتبعه أبو الفداء في تصوره هذا، إذ ذكر أن المحيط المظلم (الأطلسي)، بعد أن يتجاوز خط الاستواء جنوباً "ينعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التي فيها منابع نيل مصر، فيصير البحر المذكور جنوباً عن الأرض، ثم يمتد مشرقاً إلى أراض خراب وراء بلاد الزنج، ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند، ثم يأخذ مشرقاً حتى يسامت نهاية الأرض".[٦] وذهب أبو ريحان البيروني إلى التعبير عن ذلك بوضوح في كتابه "القانون المسعودي" "فليس يمنعه (أي بحر الزنج كامتداد لبحر الهند) من الاتصال ببحر أوقيانوس من تلك المضايق، ومن جهة الجنوب وراء تلك الجبال، وقد وجدت علامات اتصالهما وإن لم يُشاهد".[٧]

على الرغم من وجود هذين الرأيين، فإن الهيمنة كانت للرأي المتأثر بنظرية بطليموس، ولقد تخيل كلا الفريقين، أن هناك في أقصى البحر المحيط جنوباً جزائر غامضة، أطلقوا عليها اسم: جزائر الواق واق. ونظراً إلى أن أغلب الجغرافيين العرب قد تخيلوا أن الجزر الجنوبيه من أفريقية توازي في امتدادها شواطئ الهند والصين، اعتقدوا تبعاً لذلك، أن جزر الواق واق هذه، والتي تقع أساساً في أقصى البحار الجنوبية للقارة السوداء، تمتد قبالة السواحل الصينية والهندية، والتي تخيلها القزويني على "أنها ألف وستمائة جزيرة، وإنما سميت بهذا

الاسم لأن لها شجرة لها ثمرة على صورة نساء معلقات من الشجر بشعورها، وإذا أدركت (أي وصلت سن البلوغ) يسمع منها صوت واق واق".(٨)

وانطلاقا من هذا التصور، نظر الدمشقي إلى التخوم الجنوبية لبحر الهندي، فجعله يمتد (جنوباً من وراء خط الاستواء ثلاث عشرة درجة) ويحدها في الجنوب جزيرة القمر، أي جزيرة مدغشقر وما يسميه جبل اصطفون. وبما أن جزيرة القمر امتداد لأفريقيا، فقد افترض الدمشقي، تبعاً للتصور السائد، أنها تمتد عميقاً باتجاه الشرق حتى تحاذي سواحل الصين، فأعطاها لذلك أبعاداً هائلة، فبعد أن يقول أن ساحل البحر او المحيط الهندي الذي يحده في الجنوب "جزيرة القمر الكبرى"، يقول إن "طول هذه الجزيرة أربعة أشهر ولا عمارة في جنوبها ولا فيما ورائها". وأن "لا مسلك في البحر إلاّ من جبال اصطفون... وهذه الجبال كصورة جبل واحد دخل في البحر عن نحو مائتي ميل، وهو جبل شاهق متصل ممتد سحابي، من أقصى المشرق إلى أوائل جبال القمر".(٩) أما جزائر الواق واق "الداخلة في المحيط، فإنها خلف جبل اصطفون" (١٠)

ولقد نظروا إلى البحار الممتدة من السواحل الشرقية الأفريقية إلى البحار المحاذية لسواحل الصين الجنوبية، مروراً، بالمحيط الهندي، والفارسي، والعربي، على أنه بحر واحد، أطلقوا عليه اسم البحر الهندي أو البحر الصيني، أو البحر الحبشي عند المسعودي، أو البحر الشرقي الكبير كما عند ابن خرداذبة، وتفاوتت تقديراتهم لمساحاته، وأطلقوا على أجزائه أسماء مختلفة تبعاً للبلاد التي يحاذيها، فعند ابن رسته "البحر الهندي فإنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبشي إلى أقصى الهند يكون ذلك مقدرا ثمانية آلاف ميل في الفين وسبعمائة ميل".(١١)

ونقرأ عند النويري ٦٧٧ – ٧٣٣هـ " أما بحر الهند وجزائره، فمبدؤه من شرق الصين فوق خط الاستواء، ويجري إلى جهة الغرب، فيجتاز بلاد الواق، وبلاد سفالة الزنج، ثم بلاد الزنج، حتى يصل إلى بلاد بربره وهناك حجزه" ثم رجع ويقول: "ويسمى البحر الصيني، والهندي، والفارسي، واليمني، والحبشي، بحسب ما يمر عليه من البلاد"(١٢) وقال المسعودي، "البحر الحبشي هو بحر الصين والهند والسند والزنج والبصرة والأبلة وفارس وكيرمان وعمان والبحرين والشحر واليمن وأبله والقلزم، من بلاد مصر، والحبشة، وليس في المعموره بحر أعظم منه، وهو مساو في الطول لخط الاستواء، آخذاً من أقصى بلاد الحبشه... إلى أقصى بلاد الهند، والصين في المشرق، وطوله على هذا السمت فيما ذكر من عُنى بمساحة الأرض، ثمانية آلاف ميل، وعرضه في الشمال ألفان وسبعمائة ميل، وقيل ألف وتسعمائة ميل".(١٣) وكتب الإدريسي: أن الأقاليم السبعة المعمورة، يحيط بها ويخترقها، البحر المحيط، الذي يتفرع إلى "سبعة أبحر تسمى خلجاناً، ستة منها متصلة، وبحر واحد منفصل (يقصد بحر الخزر أو قزوين)، وأحد البحور التي في الأرض المعمورة هو بحر الصين والهند والسند واليمن، ومبدؤه من جهة الشرق فوق خط الاستواء، بثلاث عشرة درجة، ممتد مع خط الاستواء إلى جهة المغرب، وبلغ طوله على هذه المسافات فيما حكاه الثقات من المسافرين.. من مبدأ بحر القلزم (الأحمر) إلى الواق واق، أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ (الفرسخ ثلاثة أميال)،وفيه من الجزائر نحو ثلاث مائة جزيرة عامرة وخالية".(١٤) ولعل الإدريسي قد استقى من ابن خرداذبه تصوره عن مساحة البحر الهندي، حيث يستعمل الأخير العبارة نفسها "وطول هذا البحر من القلزم إلى الواق واق أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ".(١٥)

ولخّص أبو الفداء، تصورات المؤلفين العرب، لامتداد البحر الشرقي الكبير، وقدر مساحته بألفين وسبعمائة فرسخ تقريباً، إذ كتب "هو بحر ينبعث من البحر المحيط من عند أقصى الصين الشرقية التي ليس شرقيها غير البحر المحيط، ويأخذ مغرباً إلى القلزم نحوماية وأربع وعشرين درجة.. وطول هذا البحر بالفراسخ هو ألفان وسبع ماية وثمانية وأربعون فرسخاً بالتقريب. ويسمى هذا البحر بأسماء البلاد التي يسامتها، فطرفه الشرقي يسمى بحر الصين لأن بلاد الصين على ساحله، ثم القطعة الغربية من بحر الصين تسمى بحر الهند

لمسامتها بلاد الهند، ثم يصير منه بحر فارس، ثم بحر بربره وهو المعروف بالخليج البربري، ثم بحر القلزم، وأن أطراف بلاد الصين الشرقية الجنوبية، وفيه جزائر بها مدن كثيرة بعضها على خط الاستواء، وبعضها جنوبي خط الاستواء". (١٦)

فهكذا، فإن البحر الشرقي الكبير، الذي ركبه الملاحون العرب منذ أقدم العصور، وتعرفوا عليه، وعلى أنوائه، وجزره، وغرائبه، أطلقوا عليه مرة البحر الصيني، ومرة أخرى البحر الهندي، وثالثة البحر الشرقي الكبير، وأطلقوا على أجزائه أسماء الأراضي المحاذية أو المسامتة له، فهو بحر الصين لمحاذاته لساحل الصين، وبحر الهند لمسامتته أراضي الهند، وبحر فارس لمحاذاة أراضي فارس، ثم بحر عمان،و بحر اليمن، إلى أن يتفرع إلى بحر القلزم، وبحر الزنج. إلاّ أن ما يهمنا هنا، هو بحر الصين وبحر الهند، وتفرعاتهما الكثيرة، وجزرهما، وما يختزنان من جزائر وظواهر فيها الواقعي وفيها الغريب، وإذا وضعنا جانباً البحر الفارسي، وبحر عمان، وبحر اليمن، وبحري القلزم والزنج، وركزنا على بحري الهند، والصين، أي إلى المحيطين الهندي والهادي، فإن المؤلفين العرب فرَّعوا عن هذين البحرين الكبيرين العديد من البحار، تمتد من بحر عُمان إلى الحافة الشرقية للصين، ويحتوي كل منها على جزر عديدة، تعرَّف عليها البحارة العرب، وتجارهم ورحالتهم، في طريهم البحري إلى الهند والصين، وإلى الجزر المتناثرة فيهما، أو سمعوا عنها في ترحالهم، أو تخيلوها كما وردت في القصص المتداولة بين البحارة والتجار، و بين أهالي الجزر. وقد دوّن سليمان التاجر في عام ٨٥١م، مذكراته عن الرحلات الكبيرة التي قام بها في (البحر الشرقي الكبير)، وأضاف إليها السيرافي من تجاربه، وتجارب الآخرين من التجار والبحارة،في عوالم الطريق الملاحي إلى الهند والصين، وعلى سواحل البحر الشرقي الكبير، فإذا رأينا فيما بعد أن ابن خردازبة وابن الفقيه، والاصطخري، وابن حوقل، والمسعودي يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع من ذلك البحر الكبير، فإنهم نقلوا الكثير عن ذلك الأثر العربي التجاري الأول، ثم دون الكثير من الجغرافيين والرحالة العرب، وفي مقدمتهم، المسعودي وابن رسته، وابن الفقيه، وابن حوقل، وابن بطوطة، والأدريسي، والعديد غيرهم، معلومات هائلة عن تلك البحار، وعن أسمائها وأوصافها.

فإذا بدأنا من الشرق، من حدود الصين الشرقية منتقلين إلى بحر عمان، فعندنا نص الدمشقي الذي بدأ بتعداد الأبحر مرتبة من الشرق إلى الغرب منطلقاً من الساحل الصيني، ومبتدءاً بذكر بحر هركند، إلا أنه يضعه في محاذاة هذا الساحل، بينما هو في محاذاة الساحل الهندي، بين جزيرة سرنديب (سيلان) وخليج البنغال، إذ يقول "يمر (أي البحر الشرقي الكبير) بأرض الصين ويسمى بحر الهركند، وبحر الغيض وبحر الصنف (= بحر الهند الصينية أو خليج سيام وكوشين الصينية، والصنف هي فيتنام، وفيه جزيرة سرنديب) نسبة إلى مدينة على ساحله من بلاد الصين، وهو بحر كثير الموج خبيث شديد الهول، ويلي هذه القطعة من البحر قطعة تسمى بحر الصنجي (عند البعض الصنخي هو بحر الصين يقع بين فرموزا أو بر الصين ويقع عليه مرفأ خانفو التجاري – كانتون) وفيه ملكة المهراج (وهي امبراطورية أندونيسيا – مملكة سريفيجانيا) وتدخل المراكب إليها من ستة طرق بين جبال سبعة تسمى جبال الكافور، وأكثر شجر الكافور بها، ولا بد للمراكب من العبور بها وهي شديدة الأهوال... ثم يليها قطعة تسمى بحر كله منسوبة إلى جزيرة كله، (وهي ميناء بالملايو، أو شبه جزيرة ملقا، محط تجار بين الصين والهند، وهي جزء من جزيرة سومطرة الأندونيسية)، وكلّه مدينتها الكبرى إذ بها أربع مدن، ثم يلي هذه القطعة قطعة رابعة تسمى بحر صندا بولات، وصندا بولات أوائل بحر الصين، وهذا البحر لا يدرك قعره، ثم يليها قطعة تسمى بحر الهند، وهو أسلم هذه القطع وأصغرها موجاً وهولاً، ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروي (أو بحر باربان شرق الهند وجنوب إيران) وقطعة تليها تسمى بحر المعبر وسيلان، وسيلان مدينة بحرية بها تعرف، ويلي هذه القطعة، قطعة من جنوب البحر الهندي تسمى بحر سرنديب (سيلان – سيرلانكا) وبحر الراهون وهو الجبل الذي هبط عليه آدم... ويلي هذه القطعة من شرقها

قطعة تسمى بحر القمر وبحر لقمرانه (وهو بحر مدغشقر الأفريقية، وهذا الانزياح شرقاً نتج عن تصور أن جنوب أفريقيا – وتحديداً جزيرة مدغشقر – جزيرة القمر ممتدة حتى قبالة الهند والصين) ويلي ذلك شمال البحر قطعة تسمى بحر كنبابة منسوبة إلى مدينة بساحل البحر الشمالي، ويليها قطعة أخرى تسمى بحر المنيبار وسواحل الخيزران، والفلفل وهذه قطعة ساحلية شمالية، ثم يليها قطعة تسمى بحر السند، ثم تلي هذه قطعة تسمى بحر فارس... ".(١٧)

أما إذا أخذنا البحر الشرقي الكبير من الغرب لنعدّد أجزاءه متجهين شرقاً، وهو ما فعله سليمان التاجر، والسيرافي، والمسعودي، والكثير من الجغرافيين العرب، فإننا نجدهم يضعون بحر لاري في أول أجزاء هذا البحر، وهو بحر لاروي عند البعض أو لارفي Larvey عند البعض الآخر، يمتد حسب تصور العرب من دلتانهر الهندوس Indus إلى رأس كومرين comrene وكانت الأراضي التي تمتد حتى ساحل كامبي تسمى لار، يقول المسعودي عن بحر لاري "لا يُدرك عمقه ولا يُحصر طوله وعرضه عند البحريين ربما يقطع في الشهرين والثلاثة أشهر، على قدر مهاب الريح والسلامة، وليس في هذه البحار – أعنى ما احتوى عليه البحر الحبشي – أكثر من هذا البحر".(١٨) ويقع على هذا البحر (بلاد صيمور، وسوباره، وتابه وسندان، وكنبابه، وهي على ساحل مليبار وكانت السفن العربية، بعد مسقط ترسوا في خليج كمبي، الذي سماه العرب كولم ملي،وهو كويلون حالياٌ، وتدخل بعدها بحر لاري.

أما البحر الذي يليه فهو بحر هركند، ويعنون به خليج البنغال، يقع بينه وبين بحر لاروي جزائر كثيرة يقدرها المسعودي بـ "ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس، وملكة هذه الجزائر كلها امرأة، وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان، لا يملكهم رجل، والعنبر يوجد في هذه الجزائر أيضاً، يقذفه البحر، اخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين... وغيرهم من التجار... أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر"،(١٩) فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره، والجزائر عامرة بالناس، والنارجيل (شجر جوز الهند) ونقودهم الودع. وبيوت مال ملكتهم من الودع،وهم يحصلون عليه بأن يطرحوا سعف النارجيل على وجه ماء البحر فيتعلق الودع فيها، وهم يدعونه (الكبتج)، و يدعون هذه الجزائر الكثيرة، بجزائر (الديبجات) التي يحمل منها أكثر النارجيل،ويُقصد بها جزر المالديف، وآخر جزر الدبجيات جزيرة سرنديب، (أي سيلان أو سيرلانكا حالياً)، الشهيرة باللؤلؤ.(٢٠) وهو من البحار الخبيثة الصعبة، الشديدة، التي يقل السلامة فيها (وهو ثلاثمائة فرسخ، وبه من التماسيح أمر عظيم، وفي ساحل هذا البحر البخور، والبوارج (أي قراصنة البحر واللصوص) الذين يقطعون في هذا البحر، إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله، وهم أشر قوم... وإن غرق لم يمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح وإن انكسر بقرب البر، وصعد أهله إلى الساحل قطعتهم النمور في ساعة واحدة".(٢١)

أما سليمان التاجر فيصفه، بأن (له ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش فيغلي لها البحر كغليان القدور، ويقذف العنبر الكثير، وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعر كان العنبر أجود، وهذا البحر – أعني هركند – إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد وفي هذا البحر سمك يدعى اللخم، وهو سبع يبتلع الناس".(٢٢) ويحيط هذا البحر جهات من رامني (أي سومطره) ويحيط بحر شلاهط أجزاء أخرى منها، يليه بحر (كله بار)، وهو مضيق ملقا، ما بين الجزر الاندونيسية، يسمونه أيضا بحر شلاهط، وهو يشمل الحوض الذي يتكون من شبه جزيرة ملكه، او ملقه، وجزيرة سومطرة وجزيرة أندمان، وجزر النيكوبار، ذكره المسعودي بالقول " وهو بحر قليل الماء، وإذا قلّ ماء البحر كان أكثر آفاتاَ وأشد خبثاً، وهو كثير الجزائر"(٢٣) وكله بار هي كما يقول ابن الفقيه من مملكة الزنج".(٢٤) أي جزء من جزيرة سومطرة، وهذا البحر منسوب إلى جزيرة كله.(٢٥)، وتقع كله في الملايو، وعرفت في القرن العاشر الميلادي، بـ ملقا وهي سنغافورة الآن وكانت إحدى المحطات الكبرى للتجارة

العربية – الصينية والهندية، ويقال عن هذا المضيق أحياناً بحر شلاهط.

ثم هناك ما سمّوه "بحر كردنج" المحاذي لشبه جزيرة (ملقة) من الشرق، جنوب خليج سيام، فإنه "كثير الجبال والجزائر"، وفيه الكافور، وهو قليل الماء، كثير المطر، لا يكاد يخلو منه، وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له الفنجب"(٢٦)، ويعنون به البحر المحاذي لساحل سيام "الفيتنامي" أي أول بحر الصين، وهو يمتد غرب ملايو، ويقدّر سليمان التاجر أن الرحلة ما بين كله بار إلى بحر كردنج تستغرق عشرين يوماً.(٢٧)

ويأتي بعدها، ما سموه (بحر الصنف) وهو مماس للهند الصينية، ومن المرجح أن ذلك البحر هو خليج سيام وكوشين، ويحدد سليمان موضع، هذه البحر، على بعد أيام من كدرنج، وينسبه إلى ما سموه (جزيرة الصنف)(٢٨) وذكره المسعودي إن "فيه ملكة المهراج ملك الجزائر" وكانوا قد شملوا بمملكة المهراج سومطرة وجاوة على الأقل، ثم يكمل شرحه "ولا يعرف منتهاه مما يلي بحر الصين"(٢٩) ويصفه النويري بأنه "بحر خبيث، كثير الأمطار، والرياح الشديدة، وفي جباله معادن الذهب والرصاص، وفيه مغاص اللؤلؤ، وفي غياضه الخيزران، وفيه مملكة المهراج ويشتمل على جزائر لا تحصى، ولا يمكن للمراكب أن تطوف به في سنة، وفيه أنواع الطيب والكافور، والقرنفل والعود، والصندل، والجوزبوي، والبسباسة والكبابة".(٣٠)

ثم يليه إلى الشرق "بحر صنخي" (عند المسعودي الصنجي) ويذكر عنه: أنه بحر خبيث كثير الموج والخب، ويعني بالخب: الشدة العظيمة في البحر... وفيه جبال كثيرة، وفيه نوع من السراطين يخرج من البحر، كالذراع والشبر، ولبحر الصين – ومعروف بصنجي _ أخبار عجيبة، "وليس بعد بلاد الصين ما يلي البحر ممالك تعرف، ولا توصف إلاّ بلاد السيلي وجزائرها".(٣١)

وهكذا فبعد بحر الصنف كما أشار السيرافي تتخطف المراكب إلى بحر يقال له صنجي ثم إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجه تمر فيها المراكب (لعله مضيق فرموزا)، ثم إلى الصين... فإذا جاوزت السفينة الأبواب ودخلت الخور صارت إلى ماء عذب إلى الموضع الذي ترسو إليه من بلاد الصين، وهو ما يسمى خانفو (كانتون).."(٣٢) واعتبره ابن الفقيه أن أول " البحار التي تسلك إلى بلاد الصين بحر صنجي، وأول جبل فيه يدعى صند فولات، فيه حيات ربما ابتلعت البقر والرجل، فهو أشد البحار كلها... إذا هاج فيه الريح فقليل من يسلم"(٣٣)

وأخبرتنا مذكرات سليمان التاجر، والتي حفظها السيرافي، عن البحر الشرقي الكبير، أن الرحلة فيه تستغرق ذهاباً من سيراف، أو البصرة حتى بلاد الصين نحو خمسة أشهر، وخلال هذه الرحلة الطويلة، تمتع الرحالة العرب، وتجارهم بجمال هذا البحر المبهر، وبسحره، وبغموضه واتساعه، فاهتموا بتدوين ما رأوه وما سمعوا عنه أيضاً وما تخيلوه عنه وعن جزره،في ذلك الاتساع المائي الهائل. أثار هذا البحر الكبير في نفوس البحارة العرب، في العصر الوسيط، العجب والروعة والرهبة أيضاً، فشطآنه وجزره تخرجان لهم الدر والجوهر، والحرير والقرمز، والكيمخا والمسك، والعود والسروج والسمور، والدار الصيني، والخليخ والأواني، والذهب والأبانوس، والصندل والكافور، وجوز الهند، والقرنفل، والنارجيل، وسن الفيل، وقرون الكركدن، وجلود الأفاعي، والفضة، والرصاص القلعي والياقوت، والماس والدر والبلور، والسنباذج، والفلفل والخيزران والساج، والقسط والقنا، والعاج والعنبر واللبان، إلى جانب ذلك، رأى البحار العرب وتجارهم، او تخيلوا ظواهر من الغرابة بمكان، أشار ابن خرداذبة إلى أن: "هذا البحر هو البحر الشرقي الكبير الذي يخرج منه العنبر الجيد وفيه سمك طول السمكة مائة باع، ومائتا باع، يخاف منها على السفن فتنقره بضرب الخشب على الخشب، وفيه سمك مقدار الذراع يطير، وجوهه كوجوه البوم، وفيه سمك طول السمكة عشرون ذراعاً.. وفيه سلاحف استدارة السلحفاة عشرون ذراعاً... وفيه سمك على خلقة البقر، تلد وترضع وتعمل من جلودها الدرق (الدروع) وسمك على خلقة الجمل،

وفيه طير تجمع من قذى البحر عند سكونه، وتفرّخ على وجه الماء لا تخرج إلى الأرض".[٣٤] فإلى جانب الظواهر الواقعية، يورد المؤلفون العرب عن البحر (الهندي) جملة من المعطيات عن ظواهره، تبدو للقارئ على أنها من الغرائب، والعجائب، ويذهب الغرناطي إلى أن (في بحر الهند والصين، آلاف من الجزائر الكبار، بعضها مسكونة، وبعضها غير مسكونة،و فيها أنواع من النعم والنبات والحيوان ما لا يُعد ولا يحصى".[٣٥]

لم يقتصر دور المؤلفين العرب على إبراز الظواهر الطبيعية والحيوانية، والبشرية الواقعية، التي لا تشوبها الظنون، أو على إخضاعها لدراستهم الجغرافية، ولتصوراتهم الكبرى، وعلى رسم الخطوط العامة لخط التجارة البحرية بين بلادهم وجزائر البحر الشرقي الكبير، ومرافئه على سواحل الصين والهند، ومواد تلك التجارة واتجاهاتها المختلفة، أو انكبابهم على الدراسة الاثنوغرافية لشعوب جزره المشاهدة والمتخيلة التي عرفوها، فأبزوا فيها وجهة نظرهم تجاه الآخر في الشرق الأقصى، بل أيضاً أغوتهم الظواهر (الغريبة) في هذا البحر، والظواهر العجيبة التي ترتفع تدريجياً إلى مصاف الظواهر الأسطورية، استجابة لرغبتهم في ملء الفراغات المعرفية التي اصطدموا بها، وتفسيراً منهم للظواهر الغامضة الكثيرة التي واجهتهم في ذلك البحر المهيب، مستلهمين في ذلك، أحياناً، الصور النمطية التي اختزنتها ثقافتهم وتداولتها، تلك المتأثرة بالتصور الإقليمي – الفلكي عن العالم، ويزداد عندهم هذا التحليق التخيلي طرداً، وكلما ابتعدوا عن الشواطئ واقتربوا إلى قلب المحيط. وأطرافه الجنوبية القصية الغامضة.

بين عجائب البحر الشرقي الكبير وغرائبه

فلقد تخلّل وصفهم لعوالم البحر الشرقي الكبير، ذكر الكثير من الظواهر الغريبة التي لم يألفوها في بحارهم، ونظروا إليها كشهادة على عظمة الخالق وحكمته، من هنا قول القزويني "كل موجود، سوى الواحد سبحانه، مخلوق، وكل ذره من جوهر وعرض موصوف فيها غرائب وعجائب يظهر فيها حكمة الله تعالى وقدرته."[٣٦] وعرّف الغريب بقوله: "كل أمر عجيب قليل الوقوع مُخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك أما من تأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكية أو أجرام عنصرية كل ذلك بقدر لله تعالى وقدرته فمن ذلك معجزات الأنبياء كانشقاق القمر، وانفلاق البحر وانقلاب العصا ثعباناً".[٣٧] أو ظهور المذنبات وانقضاض شهب. وسقوط ثلج في غير أوانه، أو سقوط نحاس وحديد وسط الصواعق وظهور نبت في أرض لا عهد للناس بها، وذكر في شرح العجيب :"العجيب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه، مثال أن الإنسان إذا رأى خلية النحل، ولم يكن شاهدها قبل.. فلو علم أنه من عمل النحل لتحيّر" فإذا رأى الإنسان بغتة حيواناً غريباً أو فعلاً خارقاً للعادات انطلق لسانه بالتسبيح".[٣٨] فالعجائب موجودة في السموات والأرض، مستشهداً بالآية "قل: انظروا ماذا في السموات والأرض".

وعلى هذا صار تسجيل (العجيب) من المخلوقات وغريبها، أحد المحاور التي أثارت انتباه الباحث والرحالة، والتاجر، والنوتي، والأديب العربي، فامتزجت في كتب الجغرافيين الظواهر العجيبة، بالواقعي والمشاهد، من الظواهر الطبيعية والإنسانية، وهو ما ينطبق، أيضاً على أبحاثهم، عن عوالم الشرق الأقصى، بحراً وبراً، إلى أن ظهر "أدب العجائب" بطريقة مستقلة، الذي تناسل فيما بعد أدباً شعبياً زاخراً بالعجيب والغريب، وفي مقدمته "ألف ليلة وليلة" ولا سيما قصة السندباد وجولاته في بحار وجزر المحيط الشرقي الكبير.

ولعل المدونات التي مصدرها البحارة، هي التي غلبت عليها العناية بالعجيب، بالمقارنة مع مدونات الرحالة أو التي مصدرها التجار، وإن كان كلا الفريقين اعتمد على المشاهدة، إذ تغلب عند التاجر الحس العملي الواقعي على العنصر الخيالي، مقارنة بزميله البحار الذي انجذب أكثر إلى ظواهر البحار الصاخبة، ومخاطر البحر، ومشاهده الغنية بالتنوع والغرابة، فتوارى لديه البر وراء البحر، والإنسان أمام الحيوان، ونضارة

المشاهد الواقعية أمام الغامض والخفي من عوالم البحر وجزره، فإذا كانت رواية التاجر، كما نجدها عند سليمان التاجر تزخر بالمشاهد الواقعية وبحياة التجارة والمدن الساحلية، وبغنى التصوير الاثنوغرافي لحياة أهل الجزر والشواطئ، فإن مذكرات بزرك بن شهريار، التي دوّن فيها ماسمعه من أفواه زملائه النوتية، تمتلئ، كنموذج لرواية البحارة، بقصص الخيال، دون أن يخفي ذلك النواة الواقعية لسرده ووصفه الأخاذ لعالم البحار الشرقية، إلاّ أن الواقعي لديه يوضع على مستوى واحد مع المتخيل أو الممكن، فيضع جزيرة الرامشي، أو الزابج، وهما من الجزائر الاندونيسية، على مستوى واحد وجزائر الواق واق المفترضة، وسيطر لديه عالم البحر بدون منازع، وامتزج الهواء الذي يتنفسه أبطاله بالعالم الأسطوري الذي تنشره السفن والبحارة وراءها في جميع بلدان العالم، "فعالم البحر، هنا القائم بحد ذاته، والبعيد جداً عن عالمنا، يطبع بطابعه في جميع الأماكن، كل من يكتشفه من بحارة وتجار، تتم قصصهم عن التبجح، والعنف، وحب الخداع والمال، فهم يتحدثون بأعلى صوتهم عن أخطار تحف بمهنتهم، ويبالغون في سرد مآثرهم".[٣٩] وعلى هذا الأساس، فإن برزك وهو البحار الجواب الأفاق، والذي دون ما شاهده فعلاً و ما تخيله، وما سمعه عن غيره، أو تخيله هذا الغير يشهد بكثرة عجائب الشرق الأقصى "أن الله تبارك اسمه، وجلّ ثناؤه، خلف العجائب عشرة أجزاء، فجعل تسعة منها في ركن المشرق، وجزءاً في ثلاثة أركان الأرض".[٤٠] وهو ما يوضح مدى اهتمامه بـ (العجيب) من ظواهر البحر الهندي، ولقد رأى كراتشكوفسكي، في هذا الكتاب، مصنفاً أدبياً ممتازاً لا يقل قيمة عن أفضل ما جاء في أسفار السندباد، بل يفوقه أحياناً،[٤١] ولقد تسللت "العجائب" واتبعت طريقاً معاكساً أحياناً أخرى، إذ اهتموا بها للتذكير بعظمة الخالق، وأحيانا للتسلية والتشويق دون أن يأخذوها في اغلب الأحيان مأخذ الجد، فتجمعت في النهاية مادة قصصية اندرجت في ألطف مجموعة قصص أخرجتها العصور الوسطى، وهو "ألف ليلة وليلة"، وبالمقابل لا يمكن إغفال حجم المادة العلمية التي احتوتها أيضاً "كتب العجائب" التي أحصى حاجي خليفة ما عرفه منها في "كشف الظنون" المؤلف في القرن السابع عشر، فكان عددها أربعة وعشرين كتاباً، وهي كتب تعالج موضوعات الجغرافية والتاريخ الطبيعي، مما لا يخرجها عن مجموعة كتب الجغرافية الوصفية العربية التي ألفها ابن خرداذبة، وقدامة، وابن حوقل، والاصطخري، وابن رسته، وابن الفقيه، لكنها تحمل أيضاً طابع كتب الأدب التي ألفت لجمهور القراء، قصدوا بها بالأساس التحدث عن غرائب الموجودات، تبعاً لطريقة كلّ منهم في النظر إلى هذه الغرائب، وفهمهم لها، ولمقدار ما يملكونه من العلم بها، فكلما كان المؤلف قليل الحظ من العلم، سيطرت الطريقة الذاتية على تأليفه، وإذا كان رواها عن غير تجربة ومشاهدة، أصبح أكثر استعداداً للمغالاة، أو للعبث بالأحداث رغبة منه في خلق التشويق المناسب، فهناك تدرجاً بين كتب العجائب يجعل بعضها في مصاف الكتب ذات الصبغة العلمية، والأخرى تقترب من الأساطير، دون أن تفتقر إلى الحقائق العلمية، بل أن كتب الجغرافية ذاتها ضمّنها أصحابها الكثير من "العجائب" ولا تقل غرابة عما أورده ابن الوردي في "خريدة العجائب، أو ابراهيم بن وصيف شاه في "مختصر العجائب"، بينما نجد في بعض كتب العجائب ككتاب الدمشقي (نخبة الدهر)، والقزويني "عجائب المخلوقات"، من المعارف الإيجابية، والأوصاف الموضوعية ما يرفعها إلى أعلى مراتب المؤلفات العلمية في المكتبة العربية.[٤٢]

وسواء كان الكاتب العربي عالماً جغرافياً، أو هاوياً للعجائب، فإنه كلما اقترب بوصفه من أطراف الربع المعمور، سيطر الخيال عليه فتصور أشكالاً من الحياة، ومن النبات والحيوان، والبشر لم يألفه في حياته الواقعية، فتخيل جزراً ليست كالجزر، وأناساً مختلفين، وظواهر من الطبيعة يلفّها العجب، وهو ما ينطبق على تخيلات أصحاب المصنفات من العرب لعوالم البحر الشرقي الكبير البعيدة في أقصى الجنوب.

ولقد جمع بزرك في مؤلفه (عجائب الهند) حكايات البحريين والرحالة إلى الهند والزابج، والصنف والصين، فقدم صورة من الحياة على ظهر البحر الشرقي وفوق شطآنه وجزائره، تساعدنا على فهم الكثير مما ورد في كتب الجغرافية العربية، ولكن المطالع المنصف، كما يقول حسين فوزي: "لا يتمالك الاّ أن يحس بالنفحة

البحرية تهب على صفحاته، والقوة المحركة تسري في أعطافه، هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحاً مباشراً عن تجاربه الشخصية(٤٣)

ولعل ما دفعه، ودفع غيره من المؤلفين العرب، إلى جمع العجائب عن البحر الشرقي الكبير، هو الأمانة لما سمعه ولما شاهده، وأيضاً التذكير بقدرة الخالق، جاء في مقدمة كتابه "شهد آياته المختلفة في الأقطار، وعجائب مصنوعاته في البراري والبحار، وبدائع محكماته في الآفاق والديار... فاعتبروا يا أولي الأبصار".(٤٤) وكما قال الغرناطي "وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحب التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى في عظم مخلوقاته".(٤٥) وروى أنه شاهد ريشه طائر (الرخ) طولها نحو ذراعين، قدر أنها تسع قربة ماء، وسمع أن هناك في إحدى شطآن المحيط الهندي، حيه هائلة تعبر الخور إلى الشاطئ الآخر في سرعة البرق، وتعود بعد العصر، حيث كانت تأكل الفيلة وتُبقي أنيابها تحت أجمة في الخور، وكما أن هناك تماسيح أمرها عظيم في بحر سرنديب، إذ ظفرت بمركب أكلت أهله، وبجزيرة البنّان قوم يأكلون الناس، كما أن في بحر الصنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة، وهو خبر أورده سليمان التاجر، وابن الوردي والمسعودي عن بحر الصنخي، حيث قال الأخير "في هذا البحر نوع من السراطين بخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك واكبر، فإذا بان عن الماء بسرعة وحركة، وصار على البر، صار حجارة، وتدخل هذه الحجارة في إكحال العين وأدويتها".(٤٦) ولعل ظنهم بتحجر السرطان آت، من اعتياد البحار العرب على رؤية مجموعة من الأكسية الفارغة متحجرة، تجري السرطانات إليها من البحر، فظنوا تحولها إلى حجارة، بينما هي كساء أو قشريات من مادة ظلفية متحجرة لا يسع السرطانات النمو دون ان تطرح عنها ذلك الكساء القشري، فيبدو عند طرحه وكان السرطان تحول إلى حجر، بينما هو كساء فارغ. وأورد سليمان التاجر خبر سمكة تخرج من البحر وتتسلق شجرة النارجيل فتشرب ماء الثمرة، أي ماء جوز الهند، ثم تعود إلى البحر(٤٧) لعله في ذلك يشير إلى السمكة الهندية المعروفة باسم (اناباس) Anabas، أو إلى السرطان المسمى فيرجو سيرلاتوس virgoserlatos، وهو الذي يفرغ جوز الهند من الشراب.(٤٨)

وهناك سمكة تسمى سيلان تقعد على البر يومين حتى تموت، فإذا وضعت في قدر مغلق على النار نضجت، وإذا كان القدر مفتوحاً طارت منه واختفت، وهناك سمكة تسمى الأطم وجهها كوجه الخنزير، ولها فرج كفرج المرأة، ولها مكان الفلوس (القشرة) شعر.(٤٩)، كما وفي بحر هوكند سمك يدعى الخم، وهو سبع يبتلع الناس.(٥٠) وروى السيرافي أن في بحر (لاري) سمك كبير يدعى الوال، وسماه القزويني البال، طولها عند الأخير أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع.(٥١)، وعند المسعودي طولها أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع، ويظهر في بعض الأوقات طرف من جناحها يكون كالشراع العظيم".(٥٢) فإذا بغت هذه السمكة، "بعث الله سمكة نحو ذراع تدعى اللشك تلتصق بأذنابها، ولا خلاص للبال... فتضرب الأرض بنفسها حتى تموت(٥٣) وهناك "سمكة تزيد على خمسمائة ذراع توجد في جزيرة واق واق، إذا رفعت جناحها كانت كالجبل العظيم"،(٥٤) ويوجد في هذا البحر "سلاحف كبار استدارة كل سلحفاة أربعون ذراعاً بذراعهم، تبيض كل واحدة ألف بيضة وظهر الدبل الفاخر، وأهل اليمن يتخذون من ظهورها قصعاً كباراً، وجفاناً هائلة لغسلهم ومأكلهم"(٥٥)

وتحدث بزرك عن مشاهدة السلحفاة راسية في البحر، حسبوها جزيرة صغيرة، وهي في الحقيقة سلحفاة راقدة، فصعدوا عليها، وجمعوا خشباً وأوقدوا النار، فتحركت الجزيرة، فرموا أنفسهم بالبحر، وإذ بها سلحفاة على وجه الماء، تحرّكت لما أحست بحرارة النار الموقدة".(٥٦)

وترك لنا مؤلفونا ذكرى مشاهداتهم للنيران المشتعلة في عرض البحر الشرقي الكبير، فهذا بزرك روي عن الناخذاه أبو زهير، الذي أبحر في (بحر ميلانو) على قرب أطراف الصين، فرأى في منتصف الليل "ناراً عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفاً شديداً، وفزعوا إلى ربانهم" فهدأ روعهم شيخ أندلسي حكيم بقوله، إن هذه جزيرة

تحيطها جبال تتكسر عليها الأمواج، فترى في الليل ناراً هائلة، "فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد الماء".[٥٧] ولعل حكاية النيران البحرية هذه، التي تردد ذكرها في مذكرات الرحالة والجغرافيين العرب، ما هي إلاّ ظاهرة فوسفورية يعرفها سكان السواحل.

كما دوّنوا في كتابات مشاهداتهم لطائر أسطوري أطلقوا عليه اسم طائر الرخ، ففي بحر الصين، رأى ابن بطوطة عند طلوع الفجر "جبل في البحر" وعند اقترابهم منه "رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك، فقالوا: إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ، وإن رآنا أهلكنا".[٥٨] ويتحدث ابن الوردي عن هذا الطائر بقوله: "وهذا الرخ طير عظيم مهول الهيئة، حتى قيل أن طول جناحه الواحد نحو عشرة آلاف ذراع".[٥٩] وروى القزويني عن رجل من أصفهان تركه أصحابه على جزيرة في البحر الهندي "فإذا بطائر لم أر حيواناً أعظم منه جاء ووقع على سطح الشجرة، فاختفيت منه خوف أن يصطادني"... فتحايل على الطائر الكبير، وامسك خلسه برجله فطار أسرع طيران إلى أن ارتفع النهار... فدنا على الأرض وتركني على صرة تبن".[٦٠] وذكر الغرناطي، انه "في جزائر بحر الصين الرُّخ، يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع".[٦١]

وخلط القزويني كما هو واضح، ما بين الرخ والعنقاء، ومهد بوصف العنقاء بالحديث عن النسر باعتباره "سيد الطيور" وجثته عظيمة "حتى قيل أنه يحمل أولاد الأفيلة"[٦٢]، أما العنقاء التي ذاع ذكرهم لها في هذا البحر، فهي طائر ذاع صيته في العالم القديم، وهي عند القزويني "أعظم الطيور جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة"، وعند طيرانها "يسمع من ريشه صوت كهجوم السيل" فإذا كبر فرخ العنقاء الأنثى "تجمع مطباً كثيراً، ويوقد الذكر بمنقاره ناراً، والأنثى تدخل النار وتحترق، وإذا كان الفرخ ذكر فالعنقاء الذكر يفعل ذلك".[٦٣]

هذا لم يمنع بعض المؤلفين العرب كالمسعودي من التشكك بهذه الروايات، إذ علق على أحاديث العنقاء، "وليس في خلقها ما يصعب على قدرة الخالق عز وجل، ولكنا نأبى أن نصدقها ما دامت لم تتكشف لأعيننا، ولم نسمع بها ممن نعتد بكلامه".[٦٤] والحال أننا مازلنا في العصر الحديث، نجد من يتذكر هذه الطيور، فالعالم جوفروا سانتلير سمع أن أهل مدغشقر يقطعون بوجود الطائر الكبير، وعثر الجيولوجيون على بيضه المتحجر وأطلقوا عليه اسم Apetomis باعتباره طائر منقرض، وتذهب أحدث الآراء إلى أن الـ Apetomis طائر بدائي الأجنحة، وعثروا في الحفريات على بيضة لا يتعدى ثلاثين سنتيمتر في الطول وأربعة وعشرين سنتيمتر في العرض.[٦٥]

روى المسعودي أنه قد ذكر له جماعة من النواخذه، أنهم ربما رأوا في بحر هركند (سحاباً أبيض، قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل يتصل بماء البحر، فإذا اتصل به غلا البحر لذلك، وارتفعت منه زوابع عظيمة، لا تمر زوبعة منها بشيء إلا أتلفته، ويُمطرون عقيب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر".[٦٦] وأثار سليمان التاجر موضوع هذا "السحاب الأبيض"، الذي "يظلّ المراكب، فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيغلي له ماء البحر مثل الزوبعة، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر، فلا أدري أيستسقي السحاب من البحر أم كيف هذا".[٦٧] ولعل هذه الظاهرة التي وصفها المسعودي وسليمان التاجر، لم تكن سوى ما يسمى الآن (النافورة البحرية)، التي يغلب حدوثها في البحار في الموسم الحار، وعلامتها انخفاض في الضغط الجوي من السرعة والشدّة، بحيث تولد حركة التخلخل الفجائي انفجاراً داخلياً في الأجسام، فهي إعصار فوق البحر ينشأ عن تفاعل ريحين متضادتين تدوران حول نطاق جوي منخفض الضغط، منخفض الحرارة، ويتكاثف بخارا لماء في هذا النطاق، فيبدو في صورة عمود يصل بين البحر والسحاب، على شكل دوامة، أودردور هوائي، تبلغ سرعة الرياح الدائرة فيها درجة شديدة جداً.[٦٨]

وكان من الطبيعي، ان يعتمد المصنفون العرب على الخيال من جهة، وعلى بعض "الصور النمطية" عن أقصى جنوب البحر الهندي الواقع خلف خط الاستواء، على حافة العالم المعمور، استناداً على مفهوم الأقاليم – البيئة، فأخبرونا عن أشكال من الحياة الحيوانية، والنباتية، وحتى الإنسانية، اتسمت بالغرابة، والتعقيد، تلامس الوسط الجغرافي، وتتوافق مع غرابته، وإمعانه في القفر، وعلى هذا تصور الكثير من المؤلفين العرب أساليب حياة تختلف عما ألفوه في الإقليمين الثالث والرابع، ولآدميين أقرب إلى حياة التوحش، وأشكال من الحيوانات والنباتات تلفها الغرابة، فكان أن افترضوا جزر الواق واق، وجزر النساء والقرود، في تلك العوالم القصية من البحر، أشار إلى ذلك ابن رسته "وقد تجد في نهاية العمارة في جهة الجنوب خلف معدل النهار... حيوانات مختلفة الخلق، واختلافاً لسكانه من الناس وكذلك في نبتها فإننا نجد الحيوانات العجيبة الخلق كالفيلة وذات القرون في انفها، والطير العظام التي لا يظهر طير أعظم منها".(٦٩) فعندما نتجاوز حدود العالم المعمور نصل إلى درجة من الحرارة في الجنوب، ومن البرودة في الشمال تنعدم من ورائها الحياة وكما يقول ابن رسته نفسه "لأن المواضع التي يفرط فيها البرد لبعد الشمس عنها، ويفرط فيها الحر لقربها منها لا يتركب فيها حيوان كما في المواضع التي لا تبعد عن مدارها ولا نقرب منه جداً...فالمواضع الجنوبية المحترقة من شدة الحر، و عرضه عن خط الاستواء تسع عشرة درجة لا يتركب حيوان ولا نبات لشدة حرارة الشمس فيه".(٧٠)

تجارة وسفن

كانوا على دراية بخطوط التجارة التي تتبعها السفن التجارة العربية في طريقها بين جزر المحيط الهندي حتى الوصول إلى مرافئ الهند، أو الصين، وعلى معرفة بالسلع التي استقطبت باهتمام التجارة العرب، وبمتطلبات التجارة العالمية، مع شطآن البحر المتوسط الأوروبية، التي نهض بها الوسطاء العرب، فعرَّفنا المؤلفون العرب على طريقين بحريين تجاريين عبرتهما السفن العربية إلى شطآن الهند والصين، وإلى الجزر المتناثرة في (البحر الهندي الصيني)، الطريق الأول كما لخص ذلك القلقشندي (٨٢١هـ – ١٤١٨م) هو الطريق الموصلة إلى اليمن، والممتدة (من سواحل مصر: من السويس، والطور، والقصير، وعيذاب إلى عدن من اليمن في هذا البحر،، ومن عدن إلى أن يركب في بحر الهند المتصل ببحر القلزم، إلى سواحل السند والهند، وتخرج إلى أي البلاد أراد"،(٧١) ولاحظ الإدريسي أن "مدينة عدن.... مرسى البحرين، ومنها تسافر مراكب السند والهند، وإليها يجلب متاع الصين".(٧٢)

فنقطة انطلاق هذه الطريق البحرية تبدأ من البحر الأحمر، حيث تتقاطع هناك مع التجارة المتوسطية عبر البر المصري، وتمر في عدن باتجاه بحر الهند، بعد إبحارها من سواحل البحر الأحمر، أو من السواحل الجنوبية قاصدة مصب نهر السند، أو خليج كمباني، متخذة طريق الساحل، أو تتجه إلى ساحل مليبار، وكانت الريح تسهل مجراها إلى كولم، أو الموانئ الأخرى مباشرة، أما الطريق الأخرى التي كانت تبحر من بحر فارس، متخذة لها الطريق نفسه، وبمساعدة الرياح فتصل كولم، وشبه جزيرة ملايو، والأرخبيل الشرقي والصين".(٧٣)

ونبه المقدسي إلى دور عدن الكبير في هذه التجارة، كمحطة كبرى أولى لها، فحكى لنا عن "رجل – من عدن – ذهب إلى الصين بألف درهم فرجع بألف دينار، وآخر رحل بمائة فرجع بخمسمائة، وآخر بكندر فرجع بمثله كافوراً".(٧٤)

و أشار المؤلفون العرب إلى الطريق الثالثة، واهتموا في بيان محطاتها وسبلها، وكانت أبلة القريبة من البصرة، هي الميناء الأكبر على البحر الفارسي للتجارة الهندية قبل الفتح الإسلامي، ثم تكاثرت السفن القادمة من الصين والهند، إلى أبله والذاهبة منها إليهما لدرجة صارت تبدو للعرب، وكأنها بقعة هندية، كما أشار إلى ذلك الدينوري، وياقوت(٧٥) ثم انتقل مركز الثقل، بعد ثورة الزنج عام٢٠٦هـ – ٨٦٥م، إلى البصرة وسيراف، وقيس أوكيش حسب تسمية المسعودي، التي على مقربة من عُمان، والتي زاحمت ثغر سيراف، وقد توقف

عندها تجار الصين والهند، ولما قدم ياقوت إليها في القرن الثاني عشر الميلادي، وجدها "عامرة فخمة، نضرة خضراء، بسبب التجارة الهندية، وكانت ترسو إليها جميع المراكب القادمة من الهند فـ "عظمت منزلة حاكم الجزيرة العربي في أعين ملوك الهند، لانه كان يملك سفناً كثيرة".(٧٦)

يصف ابن حوقل سيراف، بأنها "مدينة جليلة.. كان بها عدد من التجار ذوي اليسار، ومن جملتهم رجل يعرف بحسن بن العباس، له مراكب تسافر إلى أقصى بلاد الهند والصين".(٧٧) ويشير إلى قوة حركة التجارة المنطلقة من سيراف والسواحل العربية إلى الهند والصين، بقوله "فأهل سيراف، والسواحل، ربما غاب أحدهم عمره في البحر، وقد بلغني أن رجلاً من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحو أربعين سنة".(٧٨) ووصفها المقدسي البشاري، في زمنه، بقوله "كانت حينئذ دهليز الصين".(٧٩) ولفت نظرنا في سياق ذلك إلى الدور الذي تلعبه (صحار) في بحر عمان كمحطة في هذه التجارة مع البحر الهندي، الصيني "صحار هي قصبة عمان، ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامرة".(٨٠)

فإذا استندنا على أقوال سليمان التاجر، والمسعودي وغيرهما، فإن التجار العرب كانوا يغادرون سيراف Siraf بالقوارب التي تحمل حوالي مائتي راكب، فيصلون إلى مسقط حيث يأخذون منها الماء العذب لرحلتهم، ثم يبحرون منها مباشرة إلى ميناء "كويلون" ويستغرق، هذا السفر، شهرين، ومن كويلون، تتجه تلك القوارب عبر مضيق بلكا palk إلى ميناء بلين ballin ومن هناك تتشعب الطرق في منتصف الطريق، فالقوارب التي تتجه إلى الصين تغادر إلى جزيرة اندمان ونيكوبار ثم إلى كله Kalah في شبه جزيرة (الملايو) ومنها تقصد إلى كانتون Cantun عن طريق الهند الصينية،وتبحر القوارب الأخرى إلى الشمال عبر الخليج البنغالي، قاصدة إلى كنجه Kenjah وسمندر Samandar، وغيرهما من موانئ مصب جيمس (الغانج).(٨١) وهذا ما فصله القلقشندي، استناداً على ابن خرداذبه، بقوله: إن "الطريق الثاني – طريق بحر فارس – فمن أراد طريق البرالى السند والهند، جاز هذا البحر إلى هرمز :مدينة كرمان ومنها يتوصل إلى السند ثم الهند ثم الصين.... ومن أراد الطريق في البحر: فقد ذكر ابن خرداذبه أن من أبلة البصرة، في نهر الأبله، إلى جزيرة خارك في نخيل فارس سبعين فرسخاً (الفرسخ ثلاثة أميال)، ثم إلى جزيرة منين سبعين فرسخاً، ثم إلى جزيرة كيش سبعة فراسخ، ثم إلى جزيرة (أبر كاوان) ثمانية عشر فرسخاً، ثم إلى جزيرة (أرموز) سبعة فراسخ، ثم إلى بار سبعة أيام، وهي الحد بين فارس والسند، ثم إلى الديبل ثمانية أيام، ثم إلى مصب مهران في البحر فرسخان، ثم إلى كول فرسخان، ثم إلى سندان ثمانية عشر فرسخاً، ثم إلى ملى خمسة أيام، ثم إلى بلين يومان". (٨٢)

ثم أشار إلى أن الطريق يفترق هنا، في نهاية خليج البنغال، إلى طريقين أولهما يحاذي الساحل، الثاني يشق طريقه على يمين سرنديب إذا أراد الصين، "فمن أخذعلى الساحل_ فمنبلين إلى باس يومان، ثم إلى سنجلي وكيشان يومان،ثم إلى كودا مصب نهر فريد ثلاثة فراسخ، ثم إلى كيلكان يومان، ثم منها إلى سمندر، ومن سمندر إلى أورسير إثنا عشر فرسخاً، ثم إلى أبينة أربعة أيام ثم إلى سرنديب يومان ومن أراد جهة الصين عدل من بُلين وجعل سرنديب عن يساره، فمن جزيرة سرنديب إلى جزيرة لنكبالوس عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً، ثم إلى جزيرة كله، ستة أيام، عن يسارها جزيرة بالوس على يومين، ثم على خمسة عشر يوماً بلاد تنبت العطر".(٨٣)

فهذا المسلك أو الطريق الثالث الذي يتجه إلى الصين، والذي أشار إليه القلقشندي، وذكره من قبل ابن خرداذبه،والسيرافي، وابن حوقل والمقدسي، كانت السفن التي تعبره، تؤدي رسوماًفي كولم ملى، وبعدها تسير حول الجزء الجنوبي، سرنديب (سيلان) وتقصد شرقاً مباشرة إلى جزيرة نيكو بار Nicobar ليتزود رجالها بالماء، ويتبادلون السلع مع السكان، ثم تقصد بعد ذلك ميناء كله بار الذي في موقع سنغافورة الآن، وكانت بعض السفن تبحر منها إلى سومطرة وجاوة، وتتدفع الرحلات منها إلى الصين، إذ كانت تعبر مضيق ملقا، الذي تعرفه

العرب باسمه في لغة الملايو salaht (مضيق)، ثم تعرج على جزيرة تيومان tioman ثم تقصد إلى الهند الصينية، فتمر بموانئ الصنف، وهي مملكة تشامبا chamba في السهل الساحلي الشرقي، ثم إلى جزيرة باتجاه الساحل عرفها العرب باسم صنف فولات أو صندل فولات حسب بزرك وسليمان التاجر، وابن الفقيه، ومن هناك تسير السفن على طول ساحل خليج تنج كنج إلى هانوي، التي كانوا يطلقون عليها اسم (لوقين) ثم تتجه في نهاية المطاف إلى (خانفوه) كانتون، مارة أحياناً خلال شعاب باراكل، التي كانوا يسمونها "أبواب الصين".[٨٤]

ونجد عند ابن الفقيه شرحاً لهذا الخط التجاري الكبير، المتجه إلى الصين، وخاصة بعد تجاوز السفن لسرنديب، ومضيق ملقا – كله، قائلاً "وأول البحار التي تسلك إلى بلاد الصين بحر صنجي، وأول جبل فيه يدعى صندوفولات وفيه حيات ربما ابتلعت البقر والرجل، فهو أشد البحار كلها، فأهل المراكب إذا رأوا بلاد الصين سألوا الصيادين (في صندرفولات) عن الريح فيخبرونهم بهيجان البحر وسكونه، لأنه إذا هاج فيه الريح فقليل من يسلم، وإنما يقطع في عشرة أو ثمانية أيام إلى بلاد الصين، إلى الأبواب خاصة أبواب الصين".[٨٥]

وكانوا على دراية بكثافة وغنى التبادلات التجارية بين (دار الإسلام) وبلدان وجزر البحر الهندي – الصيني، فأحصوا السلع التي تضمنتها تجارة ذلك البحر الكبير عموماً، كما وصفوا الروابط التجارية وما شملته من سلع بين كل جزيرة على حدة و(دار الإسلام) بالإضافة إلى العلاقات التجارية مع الهند ومع الصين لذا سنذكر هنا تصوراتهم العامة عن تجارة البحر الشرقي الكبير تاركين تفصيل تجارة الجزائر، لحين تطرقنا لمعارفهم، وتصوراتهم عنا، ذهب المسعودي إلى أن "بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ، وفي جباله الجوهر، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الأبنوس والخيزران، والقنا والصندل، والأفاوية، والطيب والعنبر، وطيور الببغي البيض والخضر، ثم الطواويس وأنواعها في صورها واختلافها في الصغر والكبر، ومنها ما يكون كالنعامة كبيراً"،[٨٦] وذكر المقدسي البشاري، في سياق حديثه عن تجارة البحر، ومحطاته في بحر العرب وبحر عمان، "فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة، والعطر كله حتى المسك والزعفران، والبقم والساج والساسم، لعله (السمسم)،و العاج واللؤلؤ، والصبر والحديد والرصاص والخيزران، والخضار والصندل والبلور والفلف وغير ذلك،... بتجارة الصين تضرب الأمثال".[٨٧]

وتحدث ابن خرداذبه بطريقة أكثر تخصيصاً وتحديداً عن مصادر تلك التجارة، وتنوع سلعها، يقول "والذي يجيء في هذا البحر الشرقي من الصين الحديد والفرند، والكيمخاء والمسك والعود والسروج والغضار والسمور والصليبنج والدارصيني، والخولنجان، ومن الواقواق، (ولعلها اليابان أو كوريا)، الذهب والأبنوس، ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماكافور والجوزبوّا، والقرنفل والقاقلة، والكبابة والنارجيل، والثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة والفيلة، ومن سرنديب الياقوت ألوانه كلها وأشباهه، والماس والدر والبلور.

والسنبادج الذي يعالج به الجوهر، من ملى وسندان الفلفل، ومن كله الرصاص القلعي، ومن ناحية الجنوب، البقم والدارذي، ومن السند القسط والخيزران".[٨٨] وأكد ابن الفقيه على تلك المعطيات التجارية، وأضاف إليها بقوله "والعنبر يؤتى به من جزيرة شلاهط، والفلفل من ملى وسندان، والبقم من ناحية الجنوب، من شلاهط، والقرنفل والصندل والكافور وجوزبوا من الزانج... وماء الكافور والنيل من ناحية السند،و الخيزران من بلد يقال له لنكبالوس... والياقوت والألماس من سرنديب، وكذلك الكركدن، والطاووس والببغاء والدجاج السندي، وجميع أنواع العطر الصيادلة". [٨٩]

الرياح والتجارة

كان للرياح الموسمية دورها الحاسم في توجيه سبل التجارة ومواقيتها في البحر الشرقي الكبير، في وقت لم يكن العالم قد عرف الآلات اللازمة للمساعدة على تجاوز السفن لاندفاعات الرياح، وكان تغيير اتجاه الرياح من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، في الفترة من نوفمبر إلى مارس، ثم بالاتجاه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي في الفترة من إبريل إلى أكتوبر، قد تحكّم في تحديد مواعيد إبحار السفن في الموانئ العربية، وموانئ جزر المحيط الهندي وسواحله الشمالية في الهند والصين، كما ساهم في تشكيل حركة الإبحار ونشاطه.(٩٠) إذ كانت السفن تبحر من مرافئ دار الخلافة صيفاً باتجاه الموانئ الهندية والصين، لتعود في الشتاء بعد أن تغيرت حركة الرياح إلى الاتجاه المعاكس، محملة بالبضائع من الهند والجزر، ومن منتجات الصين وبلاد الشرق الأقصى، وسجلت مذكرات سليمان التاجر، والمسعودي، بدقة أوقات الرحلات إلى الشرق الأقصى وعودتها، إذ تنطلق الرحلة من الشواطىء العربية إلى المحيط الهندي، عندما تكون الشمس في القوس Sagillarius، أي في النصف الثاني من نوفمبر، وفي النصف الأول من ديسمبر من مسقط إلى كولم ملى شهر، ومن كولم (كولن Quilan) إلى كله بار شهر، ومن (كله بار) إلى الصنف فولاو شهر، ومن صنف فولاو إلى خانفو (كانتون) شهر آخر، فالرحلة من مسقط إلى كانتون تستغرق مائة وعشرين يوماً، عدا فترات الوقوف في الموانيء، لهذا يجب حساب ستة أشهر أو أكثر لرحلة السفن القاصدة إلى الصين، تنطلق من الخليج في سبتمبر (أيلول)، أو أكتوبر (تشرين الأول)، وتعبر إلى مسقط ثم إلى ساحل مليبار، مستغلة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية مستغرقة شهري نوفمبر (تشرين الثاني)، وديسمبر (كانون الأول)، حسب ما ذهب إليه المسعودي، فترقد في مليبار حتى تهدأ العواصف الدوارة في الجنوب من خليج البنغال في نهاية ديسمبر، ثم تتابع رحلتها فتستغرق شهراً حتى تصل (كله بار)، وربما حتى شهر يناير (كانون الثاني)، فتستريح في كله عدة أسابيع، حتى تهدأ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، فتعبر السفن مضيق ملقا معتمدة على الرياح الموسمية الجنوبية، التي تكون قد آن أوانها، فتدخل السفن في بحر الصين مستغلة هبوبها، وفي إبريل ومايو تكون العواصف الهوجاء على أقلّها، وإذا وصلت السفن إلى خانفو (كانتون) ترقد في الصيف فيها، وتعود مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية متبعة الطريق المعاكس، فتصل ملقا في أكتوبر وديسمبر، ثم تعبر خليج البنغال في يناير، ثم إلى كولم في فبراير أو مارس، مستعينة أيضاً بالرياح الشمالية الشرقية، ثم تصل في إبريل نيسان إلى عمان حيث تكون الرياح الموسمية الجنوبية الغربية قد هبّت، إلى أن تصل إلى الخليج صيفاً، فتستغرق هذه الرحلة ما يقارب السنة والنصف، ذهاباً وإياباً(٩١)

وقد عرف العرب أهمية الرياح، ومواسمها، في الملاحة في البحر الهندي، فذكر المسعودي. "ولكل من يركب هذه البحار من الناس أرباح يعرفونها في أوقات تكون فيها مهابتها، وقد علموا ذلك بالعادات، وطول التجارب، يتوارثون ذلك قولاً وعملاً، ودلائل وعلامات يعملون بها إبّان هيجانه وأحوال ركوبه وثورانه".(٩٢) وحددّوا بدقة، مواعيدها، فتحدث عن ذلك ابن الفقيه والمسعودي وغيرهما، وعرفوا ما يكتنف كلا البحرين الهندي والفارسي، من اختلاف في مواعيد الرياح، واتجاهاتها ومواسمها وما يفرضه هذا على حركة السفن من ضرورات، ومواعيد، ولقد لخص المسعودي اختلاف الرياح، والأنواء في البحار المختلفة، وما يترتب عليها من مواقيت للسفر، وردد أقواله ابن الفقيه، وغيره من الجغرافيين العرب المتأخرين، إذ قال في نص طويل نسبياً، نثبته هنا لأهميته: "إن بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة، على ما ذكرنا، إلا أن هيجانها وركودها مختلف، لاختلاف مهبها وركودها مختلف لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها، فبحر فارس تكثر أمواجه، ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه، عند ارتجاج بحر الهند، واضطراب أمواجه وظلمته، وصعوبة مركبه فأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي، ولا يزال في كل يوم تكثر أمواجه إلى أن تصير الشمس إلى برج الحوت، فأشد ما يكون ذلك في الخريف عند كون الشمس في القوس، ثم يلين إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة، وآخر ما يكون ذلك في آخر الربيع عند كون

الشمس في الجوزاء، وبحر الهند لا يزال كذلك إلى أن تصير الشمس إلى السنبلة فيركب حينئذ، وأهدأ ما يكون عند كون الشمس في القوس".[٩٣]

ونوه المؤلفون العرب، بانفراد سفن البحر الهندي وبحر الصين، والقلزم، باعتماد الخياطة بليف النارجيل في صناعة السفن، أي لتثبيت الألواح الخشبية على بعضها، وهي طريقة صعبة ومكلفة، مقارنة باستخدام المسامير في تصنيع السفن، إذ تحتاج السفينة المخيطة إلى أضعاف الزمن الذي تحتاجه السفينة التي تعتمد على المسامير في تثبيت ألواحها الخشبية، فالمسعودي نبه، في القرن العاشر الميلادي، على هذه الواقعة، إذ لاحظ أن السفن والمراكب المصنّعة من الخشب، في البحر الحبشي، الهندي، تخاط بخيوط الليف، معللاً ذلك بأن ماء البحر الحبشي يذيب الحديد، أو كما يقول: "لأن مراكب البحر الرومي والعرب (يقصد البحر المتوسط) كلها ذوات مسامير، ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها، وطليت بالشحوم والنورة".[٩٤]

ولعل السبب الحاسم في بناء السفن العربية في البحر الشرقي الكبير، هو أن استعمال خيوط الليف يؤمن للسفن قدرة على تحمل الأمواج الهائلة الصخب في هذا البحر الكبير، ويكسبها مرونه لامتصاص صدمات الموج أفضل من مثيلاتها التي تستعمل المسامير في تصنيعها، وهو سبب شدّد عليه ابن بطوطة مخالفاً بذلك المسعودي "وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند، واليمن لأن ذل البحر كثير الحجارة، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد، وصدم الحجارة فانكسر/ وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر"[٩٥] لهذا فوجئ الناس بوصول السفن الشراعية البرتقالية ذات الصواري الأربعة، في مياه المحيط الهندي، ويذكر الشيخ نور الدين، انهم وصلوا الهند عام ١٤٩٨، في ثلاث مسماريات (مثبتة ألواحها بالمسامير وليس بالخيوط) في الوقت الذي كانت فيه السفن الإسلامية، حتى القرن السادس عشر، في البحار الشرقية تُثبت بالخيوط، التي يغرزونها خلال ثقوب على الأطراف المتجاورة لألواح الخشب.[٩٦]

أثنوغرافيا شعوب جزر البحر الشرقي الكبير بجزائره وشطآنه

كان البحر الشرقي الكبير، مسرحاً مفتوحاً لتنقلات السفن العربية ومرساة لها، فخبر العرب حياة هذا البحر، وتعرفوا على شعوب جزره المتناثرة في فضائه الرحب، فحفظوا لنا انطباعاتهم ومعارفهم عنها في مدوناتهما الأدبية والجغرافية، وفي مذكرات رحالتهم وبحارتهم الذين جابوا تلك الجزر وتعرفوا على أهلها، أو سمعوا منهم عن أخبارهم، واخبار القريب والبعيد من الجزر، فامتزجت في مدوناتهم الحقائق والوقائع الراسخة التي شاهدوها أو سمعوها عن تلك الجزر وشعوبها، بأحكامهم المعيارية على سلوك تلك الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، ودياناتهم، وبالصور المتخيلة عن العوالم التي تحيط بها، وقد زاد اعتمادهم على الخيال على حساب الوقائع، كلما ضاقت معرفتهم المباشرة، ولاسيما بجزائر أقصى الجنوب، وعوالمه البعيدة، كجزائر الواق واق.

إلا أنهم خلّفوا وراءهم، رغم كل ما يعتري الصورة التي حفظوها لنا من شوائب، معطيات لا غنى عنها لأي باحث جدّي، يريد أن يستعرض حياة تلك الشعوب، في العصر الوسيط وأيضاً أن يسترجع الصورة التي تخيلها العرب، وحكموا بها عليهم، وما تختزنه دراساتهم الأثنوغرافية من طرائق معرفية، وأحكام وتخيلات، ومدى اقترابها من الحياة الحقيقية لتلك الشعوب،و الحدود الجغرافية التي استطاعوا الاقتراب منها معرفياً وتجريبياً، فضلاً عن اختيار الطريقة التي نظهر بها العرب إلى الآخر، في الشرق الأقصى، فإن اقترابهم من الثقافات الأخرى تحكمت فيها دوماً، مرجعيات وجّهت نظرهم إلى اختيار مواضيع دراساتهم، وسلم أولوياتهم، ومعها المعايير الحضارية التي حملوها معهم في تجوالهم، والتي أطرت نظرتهم إلى ثقافة، وسلوكيات شعوب الجزر، التي كان بعضها قريب أليف إلى الباحث العربي، على مقربة من سواحل المحيط الهندي، ومن طرق التجارة العربية، وبعضها الآخر بعيد متوار في محيطات

غامضة، وأطراف نائية خلف ضباب خط الاستواء، على أطراف العالم المعمور المبهمة، فأتت أخبار هذه الجزر ممتزجة بالغريب، والعجيب إلى جانب الواقعي القريب من المشاهدة والاختبار.

وهذه الجزر كثيرة متناثرة على شساعة المحيط، وهي بالآلاف، لا يتردد المؤلفون العرب بالإدلاء بمعلومات سريعة خاطفة عن مئات من الجزر، هنا وهناك، والتي لا يعرف الباحث ما يقابل بعضها الآن من مسميات حقيقية، وفي مقابل ذلك هناك جزر كبيرة، أو مجموعات جزر، يتكرر الحديث عنها، في المؤلفات العربية، وهي معروفة لدينا الآن، كانت لها شهرتها في العالم الوسيط، ولا تزال تفرض حضورها إلى الآن، وإن تغيرت أسماء بعضها وأخذت لها عناوين جديدة، فأول مجموعات هذه الجزر،هي تلك المحاذية للشواطئ الغربية للهند، أي ما يعرف بسواحل مليبار وهي:

جزر ذيبة المهل (جزر المالديف Maldives) فعندما تبحر السفن في بحر لاري مبتعدة عن مسقط تصل إليها: وهي تبتعد عشرة أيام من الإبحار عن مدينة كاليكتا (كالقوط) على ساحل المليبار،غرب الهند، على نحو ما يذهب ابن بطوطة في القرن الرابع عشر، والتي قال عنها: "إحدى عجائب الدنيا، وهي نحو ألفي جزيرة، يكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة، لها مدخل كالباب، لا تدخل المراكب إلا منه[٩٧] ووجدها منقسمة إلى عدة أقاليم وهي: بالبور، التيم، تلدمي، هلد متي، ومنها أيضاً: إقليم برويدو، وكندكل، ومُلوك، والسويد. وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل لإحداها عند الخروج من الأخرى.[٩٨]

أطلق السيرافي والمسعودي، على هذه الجزر اسم "جزائر الدبيجان" وحددا موقعها ما بين بحر هركند، وبحر لاروى، تتصل بها جزيرة سرنديب (سيلان)، وانها نحو ألف وتسعمائة جزيرة، غنية بالعنبر، الذي ينبت فيها في قعر البحر نباتاً، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة، وهذه الجزائر عامرة بنخل النارجيل (جزر الهند).[٩٩] وجوز النارجيل يشبه رأس ابن آدم وعليها شبه الشعر، هم يصنعون منه حبالاً يخيطون بها المراكب، وينقل إلى البلدان الأخرى. أو كما يقول ابن بطوطة "ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل"،[١٠٠] وهو من أقواتهم مع السمك، وأشجار النارجيل شأنها عجيب". وتثمر النخل منها إثني عشر عذقاً في السنة، يخرج في كل شهر عذق... ويصنعون منها الحليب، والزيت والعسل. ويصنعون من عسله الحلواء، فيأكلونها مع الجوز اليابس كما أن السمك الذي يغتذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها". ومن أشجار هذه الجزر الجموح والأترج (الكباد) والليمون والقلقاس، وهم يصنعون من أصوله دقيقاً يعملون منه شبه الأطرية، ويطبخونها بحليب النارجيل، وهي من أطايب الطعام".[١٠١]

وروى ابن بطوطة أن مساكنهم من الخشب، سطوحها مرتفعة عن الأرض. توخّياً من الرطوبة، لأن أرضهم ندية... ثم يصنعون الحيطان من الخشب، ويبنون في إسطوانة الدار بيتاً يستقبل فيه الرجل أصحابه، وله بابان، أحدهما يدخل منه الرجال إلى الأسطوانة، والآخر إلى داخل الدار،[١٠٢] وتتصف أزقتهم بالنظافة فهي مكنسة نقية" والناس هناك جميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع، ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه من الماء، كذلك يفعل كل من يدخل المسجد". [١٠٣]

كما أن لباسهم فوط، يشدون الفوط على أوساطهم عوض السراويل، وعلى ظورهم ثياب كالمحرمين، وعلى رأسهم عمامة،ومن عاداتهم الحسنة التي أثارت إعجاب ابن بطوطة أن (أكثرهم يغتسل مرتين في اليوم تنظيفاً لشدة الحر بها، وكثرة العرق، ويكثرن الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها، ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو، ومن عاداتهم الحميدة أيضاً "أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية، فتصقل بشرته".[١٠٤]

الصناعة والتجارة

على الرغم مما جرى من تبدلات على حياة شعوب هذه الجزر ما بين مشاهدات سليمان التاجر والمسعودي في القرنين الثالث والرابع الهجري، وما شاهده ابن بطوطة في القرن الرابع عشر، ولا سيما أنهم كانوا على الديانة الوثنية أيام سليمان التاجر والمسعودي، وصارالكثير منهم على الإسلام، في زمن ابن بطوطة، فالنظرة كانت إيجابية، في المرحلتين نحو حياتهم العمرانية، ولبعض مظاهر سلوكهم الاجتماعي، وطرائق معاشهم، وصناعتهم، فالسيرافي أطرى اتقانهم للصناعة في مجال المسكن والملبس،" ويقال أن أهل هذه الجزيرة لا يكون أصنع منهم، حتى أنهم يعملون القميص مفروغاً منه نسجاً بالكمين والرخرصين (الوصلات) والجيب، ويبنون السفن والبيوت، ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة".(١٠٥) وذهب المسعودي إلى حد القول: "وليس يوجد في جزائر البحر ألطف مصبغة من أهل هذه الجزائر في سائر المهن والصنائع، في الثياب والآلات"(١٠٦)، وأضاف الإدريسي شهادة أخرى على إتقانهم في الصناعة الحرفية "وينشؤون السفن من العيدان الصغار، ويبنون البيوت المتقنة، وسائر المباني العجيبة من الحجر الجان، ويتخذون أيضاًُ بيوتاً من الخشب تسير على الماء".(١٠٧)

أما عن الثروة والسلطة، فنقرأ عند السيرافي والمسعودي، أن هذه الجزر تتخذ من "الودع" عملة نقدية لها، وتحكمهم ملكة، وبيوت أموال هذه الملكة الودع، وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان، فيجمع ويطرح على رمل الساحل، فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان، ويبقى الودع خالياً مما كان فيه، فتملأ من ذلك بيوت الأموال".(١٠٨) ولخص الإدريسي، هذه الواقعة، بالقول "وتجارتهم بالودع.. وملكهم يذخر الودع في خزائنه".(١٠٩)

وعندما دخل ابن بطوطة، جزر المالديف، أي جزيرة ذيبة المهل، وجد أهلها يستعملون "الودع" نقداً في تعاملاتهم التجارية، والتبادلية، إذ يقول: " وصرف أهل الجزائر الودع، وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر.. فيذهب لحمه، ويبقى عظمه أبيض، يسمون المائة منه بستو، ويباع أربع بساتي بدينار من الذهب"(١١٠) وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج، ويباع قدر الفخار عندهم بخمس دجاجات أو ست، وتحمل السفن من هذه الجزر السمك وجوز النارجل والفوط، والوليان والعمائم المصنوعة من القطن، كما يحملون منها اواني النحاس والقنبر وهو ليف جوز الهند يدبغونه على الساحل بالضرب بالعصي، ثم تغزل النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب، وتصدره إلى الصين والهند واليمن(١١١) وأضاف الإدريسي إلى مصنوعاتهم "الذبل" وهو قشرة السلحفاة "يتخذون منه حلي أمشاط لأنه غليظ".(١١٢)

سلوك المرأة وموقعها

ومن عادات أهل الجزر الطيبة، التي لفتت نظر ابن بطوطة، أنهم يرحبون بالضيف، وبالغرباء، فإذا قدم عليهم مركب خرجوا إليه بقوارب صغيرة اسمها (الكندر) ومعهم التنبول، وهو نبات قريب من قات اليمن، أو الكرنبة" "وهي جوز النارجيل الأخضر، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المراكب، ويكون نزيله". أي ضيفه، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج، فإذا حان سفره، طلق المرأة لأنهن لا يخرجن من بلادهن، ومن لم يتزوج، فالمرأة التي ينزل بدارها، تطبخ له وتخدمه وترضى منه في مقابل ذلك بأيسر شيء من الإحسان".(١١٣)

وذكر الإدريسي قبل ابن بطوطه بقرنين، وقبل أن يتحول معظم سكان جزر المالديف إلى الإسلام، أن (نساء هذه الجزيرة يمشين مكشوفات الرؤوس مضفورات الشعور ،و المرأة الواحدة تمسك في رأسها عشرة أمشاط وأقل وأكثر، وهي حليتهن".(١١٤) لكن، حتى في زمن ابن بطوطة، حافظ النساء على هذا التقليد، رغم دخول أكثرهن الإسلام، فبقيت النساء "لا يغطين رؤوسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن، ويجمعنها إلى جهة

واحدة، ولا يلبس أكثرهن إلاّ فوطة واحدة تسترها من السرة إلى الأسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها".(١١٥) ولم يخف ابن بطوطة ضيقه بهذا التقليد الذي يتعارض مع مرجعياته، وتقاليده الإسلامية، فبذل جهده عندما (تولى القضاء) هناك: "أن أقطع هذه العادة وأمرهن باللباس، فلم استطع ذلك، وكانت لا تدخل منهن امرأة في خصومه إلا مسترة الجسد"(١١٦) وكان لباس بعضهن فوطة وقميص قصير الأكمام وعريضه، وكان حليهن الأساور، تملأ المرأة به ذراعيها، ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة، ولا تحمل أساور الذهب إلا لنساء السلطان وأقاربه، ويسمونها البايل، وقلائد ذهب على صدورهن، يسمونها البسدر(١١٧) وأثارت بعض العادات المتعلقة بسلوك المرأة تجاه الرجل، وتخففها من القيود التي يفترضها التقليد الإسلامي استياء ابن بطوطة، أو استغرابه فأشار إلى أن "من عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن لخدمة بالدينار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها، وعلى مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين ذلك عيباً، ويفعله أكثر بناتهم... وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته... وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر".(١١٨) وهو ليف جوز الهند الذي تخاط به المراكب بدلاً من المسامير.

أما الزواج في هذه الجزر، فهو "سهل، لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء". وإذا قدمت المراكب، تزوج ركابها الغرباء من نساء الجزر، فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً".(١١٩) ومن عاداتهم أيضاً، فيما يتعلق بالزواج، أنه إذا أراد الرجل الزواج، مضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وتقف هي عند باب البيت تنتظره، فإذا وصل إليها "رمت على رجليه ثوباً يأخذه أحد خدامه"، وإذا كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسط داره، وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه".(١٢٠)

إلاّ أن هذه الدراسة الاثنوغرافية لابن بطوطة، ما منعته من إظهار إعجابه ببعض صفات المرأة في جزر المالديف، وأفصح عن هذا الإعجاب بصراحة بقوله. "لم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن، ولا تكل المرأة عندهم (عن) خدمة زوجها لسواها، بل هي تأتي بالطعام، وترفعه بين يديه، وتغسل يديه، وتاتيه بالماء للوضوء، وتعم رجليه عند النوم، ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ماتأكله المرأة".(١٢١) ولا يخفي إعجابه أيضاً بجمال نساء ذيبة المهل الفائق وبشهرتهن "بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة".(١٢٢) التي تمنحها لزوجها.

الدولة والدين

وكان الباحثون العرب يعتقدون حتى زمن الإدريسي، أن هذه الجزيرة تحكمها امرأة، وهو أمر أشار إليه المسعودي والسيرافي، في القرن العاشر ميلادي، كما أشار إليه الإدريسي في القرن الثاني عشر، الذي لخص الصورة العربية النمطية عن الحكم، في جزر المالديف، بقوله: "ولجميع هذه الجزائر رئيس يجمعهم وينوب عنهم، ويحامي عليهم، ويهادن على قدر طاقته، وزوجته تحكم بين الناس، وتكلمهم، ولا تستتر عنهم، والرئيس زوجها حاضر لا يتكلم فيما تأمر به... واسم هذه الملكة دمهرة، وهي تلبس حلة الذهب المنسوج، وتحمل على رأسها تاج الذهب". ليصل إلى تقرير، أن "تحكم النساء عندهم سيرة دائمة لا ينتقلون عنها".(١٢٣)

عندما نصل إلى ابن بطوطه، بعد قرنين من الإدريسي، ينقل لنا دهشتة لإمساك المرأة بالملك، إذ يقول "ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي، وكان الملك لجدها ثم لأبيها، فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين وكان يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه في الليل، فخلعوه... فقدموا خديجة سلطانة، وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين، فصار وزيراً".(١٢٤)

وكانت الملكة في زمن الإدريسي، تبعاً لشهادته. "تلبس حلة من الذهب المنسوج، وتحمل على رأسها تاج الذهب، وليس يمشي أحد في هذه الجزيرة بنعل إلا الملكة وحدها، ومتى عثر على أحد أنه لبس النعال قطعت رجلاه". واعتادت في تقاليدها الملكية أثناء مراكب الأعياد، وفصول الاحتفالات، أن "تركب ويركب خلفها جواريها بالزي بالكامل (بصحبة) الفيلة والرايات والأبواق، والملك زوجها وجملة الوزراء يتبعونها على بعد منها".(١٢٥)

وشهد ابن بطوطه، أن من عاداتهم إذا قدم الغريب عليهم، أن يمضي إلى المشور (أي مجلس الملك)، فلا بد أن يصطحب ثوبين، فيخدم هذه السلطانة ويرمي بأحدهما إليها، ثم يرمي بالثانية إلى وزيرها فلا بد للزائر إلى السلطانة، أكان غريباً أو من الأهالي من أن يرمي ثوباً إلى السلطانة ويأتي إلى دار السلطانة، كل يوم القاضي وأرباب الخطط وهم الوزراء، فيخدمون إلى أن ينصرفوا. (١٢٦) وللسلطانة وزير أكبر يسمى النائب (كلكي)، ويسمون القاضي (فنديار)، "وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين، وأمره كأمر السلطان وأشد". وهو تعبير عن حرصهم على العدالة، ويسمون صاحب الديوان (الغاملداري) والخطيب (هند يجري) وصاحب الأشغال مافاكلو، واسم الحاكم (فتنايك)، واسم قائد البحر (مانايك)، وكل من هؤلاء يسمى وزيراً، ولا يوجد سجن بتلك الجزائر، "إنما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشبه، كما يفعل عندنا بأسرى الروم" وعدد جنود السلطانه، الذين يقومون على خدمتها اليومية، نحو ألف نفر جلّهم من الغرباء، وبعضهم بلديون، ومرتبهم الأرز بعطى لهم في كل شهر.(١٢٧) وأخبرنا ابن بطوطة، أنه وجدهم "يكتبون الأوامر (أي الأوامر الحكومية)، في سعف النخل بحديد معوجة شبه السكين، ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم".(١٢٨)

ويبدو أن ما كان معروفاً عن دياناتهم حتى القرن الحادي عشر ميلادي، كما ذهب الإدريسي، هو أن "أهلها مجوس" (١٢٩) وهو: اسم يطلقه العرب المسلمون على عبدة النار، ثم وسعوا هذا المفهوم ليشمل أيضاً أصحاب المذهب البوذي، والبراهمي، ما يلبث ابن بطوطة أن يعلمنا، "أن أهل هذه الجزائر كانوا كفاراً".(١٣٠) وصفة الكفر اعتاد الباحثون العرب المسلمون على إطلاقها، على الجماعات الدينية التي لم يعترف القرآن الكريم بهم، على أنهم من أهل الكتاب،فأطلقوا اسم (الكفر) على أصحاب الديانات الوثنية، أو تلك التي ليس مصدرها السماء، أو الوحي، ولا يؤمنون بوحدانية الله.

إلا أن ابن بطوطة لاحظ أن أهل هذه الجزر في أغلبهم مسلمون، ويروى ما يشبه الحكايا الأسطورية الإعجازية عن إسلامهم، عندما خلّصهم شيخ مغربي من عفريت اعتادوا مجبرين على تقديم إحدى فتياتهم كل شهر له، لفداء بلدهم من تهديده، فقضى عليه الشيخ أبو البركات البربري المغربي بقراءة القرآن، وعلى إثرها «كسروا الأصنام وهدموا بدخانة، وأسلم أهل الجزيرة».(١٣١) في عهد سلطانهم أحمد شنورازة.

وهكذا تبدو صورة شعوب هذه الجزائر في محيط الشرق الأقصى مقبولة في عيون العرب وخالية من الأحكام التبخيسية الجارحة، ولا تفتقر إلى الإعجاب والتقدير لبعض العادات، والسلوكيات الاجتماعية، والحضارية، من جانب، وإلى نقد بعض الجوانب الأخرى، وهو أمر طبقوه في دراساتهم على شعوب وأقطار دار الخلافة، أو دار الإسلام". إلا أن أغلب الباحثين العرب، وضعوا جزر المالديف بقرب، أو على اتصال بجزيرة مدغشقر، او جزيرة القمر،كما كانوا يسمونها تبعاً لتخيلهم لانزياح الطرف الجنوبي الشرقي لأفريقية نحو الشرق الأقصى، فيذكر الإدريسي أيضاً أن جزائر الدبيجان "تتصل بهم جزيرة القمر"(١٣٢) كما أن ابن سعيدالمغربي، ورغم أنه خلص جزر المحيط الهندي من الغموض التي وصفها فيه الإدريسي، ورتبها ترتيباً حسناً يتفق مع أوضاعها على الخرائط الحديثة، إلا أنه أيضاً ظل أسير التخيل السائد عن اتصالها بجزيرة القمر.

جزيرة سرنديب /سيلان/ سيريلانكا حالياً /

اعتبرها المسعودي الإدريسي و السيرافي، آخر جزر مالديف.[١٣٣] في بحر هركند، وحدّدها الدمشقي بطريقة أفضل، عندما وضعها "بجنوب البحر يحيط بها ألف ومائة ميل، يشقها جبل الراهون الذي هبط عليه آدم".[١٣٤] وهي جزيرة "كبيرة شهيرة" حسب الإدريسي، وياقوت الحموي،ومساحتها، ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً، وفيها الجبل الذي هبط عليه آدم... واسم هذا الجبل جبل الراهون"، [١٣٥]بينما يذهب ابن سعيد المغربي، استناداً إلى ابن فاطمة، أنها جزيرة طويلة عريضة، طولها ستمائة ميل وعرضها يقارب ذلك، فيكون دورها (أي استدارتها ومساحتها) على ألفي ميل"[١٣٦]و وصفها بزرك قائلاً "ومن الجزائر الموصوفة، التي ليس مثلها في البحر. جزيرة سرنديب، وتسمى سهيلان، وطولها نحو مائة فرسخ ودورها ثلاثمائة فرسخ"[١٣٧]

الثروة

ولقد اشتهرت سرنديب عند المصنفين العرب بثروتها المادية، فهي غنية بالجواهر ولا سيما الياقوت، وبثروتها الروحية، لأنهم يعتقدون أن آدم نزل على جبلها (الراهون) وترك آثاراً قدمه هناك، فتحول هذا الجبل إلى ما يشبه المزار، للعابدين منهم من التجار والرحالة والبحارة، يقصدونه، ويتجهون إليه، وعبر القزويني عن ذلك بقوله: إن الجزيرة غنية بالصندل والسنبل والدارصيني والقرنفل والبقم، وسائر العقاقير، ويوجد من العقاقير مالا يوجد في غيرها، وبها معادن الجوهر، وهي جزيرة كثيرة الخير.[١٣٨] وأشاروا إلى أن في سرنديب "مغاص اللؤلؤ النقي وجبلها حصين هو جبل الياقوت والألماس".[١٣٩] وفي هذا الجبل وما حوله "أنواع الياقوت كلها، وأنواع من الأحجار وغيرها، وفي واديه الألماس، وعلى رأس هذا الجبل أنواع الطيب، وضروب وصنوف العطر، مثل العود والأفاوية، ودابة المسك، ودابة الزباد، وبها الأرز والنارجيل وقصب السكر، وفي أنهارها يوجد البلور ويجمع من سواحلها مغاص اللؤلؤ النفيس الثمن".[١٤٠]

وتحدث ابن بطوطة عن مدينة (بطالة الساحلية، حين زارها،وهي مدينة صغيرة، عليها سور خشب، وأبراج خشب، وأن جميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة، تأتي بها السيول فتجمع الساحل، كأنها الروابي، ويحملها أهل المعبر (أي أهل كروماندل في الساحل الشرقي للهند) والمليبار دون ثمن، إلا أنهم يهدون للسلطان في مقابله الثوب أو نحوه، وبها أيضاً خشب البقم كثير، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي".[١٤١] ورأى في مرسى سلطان سرنديب "ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن" [١٤٢]. تنقل البضائع التجارية.

هذا الغنى الباهر، دفع بالإدريسي كي يعتقد أنه "ليس يملك لأحد من ملوك الهند مثل ما يملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس والياقوت الجليل، وأنواع الأحجار لأن أكثر ذلك موجود وفي جبال جزيرته، وفي أوديتها وبحرها، إليها تقصد مراكب أهل الصين، وسائر بلاد الملوك المجاورين له... ويُحمل إليه الخمر من العراق ومن فارس، فيشتريها بماله، وهو يشربها".[١٤٣] فضلاً عن أن أهل سرنديب لهم حسن نظر "في زراعة النارجيل... وأهل عُمان، ربما قصدوا إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل فيقطعون خشب النارجيل.. ويصنعون من ليفه حبالاً يحرزون به ذلك الخشب وينشؤون منه مراكب، ويفتلون من خوصه حبالاً ثم يوسقون تلك المراكب بخشب النارجيل، ويمضون به إلى بلادهم يبيعونه هناك"[١٤٤] ولا ينسواذكر حيوانات الجزيرة المتميزة، إذ أن "دوابها في غاية الحسن، لا تشبه دوابنا إلاّ بالنوم، وبها كبش له عشرة قرون"[١٤٥] كما أن القرود بجبالها كثيرة جداً، وهي سود الألوان، ولها أذناب طوال ولذكورها لحى كما لحى الآدميين، ولها مقدم تتبعه كأنه سلطان وبها أيضاً جواميس، وفيلة كثر [١٤٦] وبها "الزرافة" طويلة العنق إلى جانب شجر القرنفل وهو كشجر الياسمين وزهره غليظ أسود، وفيها قصب الذريرة.[١٤٧] ولعل ابن سعيد المغربي يقصد نبتة الشاي عندما يشير إلى أنه "ينسب إليها العود السيلاني"[١٤٨].

واشتهرت سرنديب إلى جانب ثرائها، بجبلها الذي عليه آثار قدم أدم عليه السلام، فلا يأتي ذكر سرنديب دون أن يقترن بذكره، فيزعمون أن هذا الجبل الذي هبط عليه آدم اسمه الراهون، يراه البحارة "من مسافة أيام كثيرة، وفيه أثر قدم أدم عليه السلام، و هي قدم واحدة مغموسة في الحجر طولها نحو سبعين ذراعاً"[١٤٩] وروى ابن بطوطة، بأنه لما وصل سرنديب كان مراده زيارة القدم الكريمة، قدم آدم، فصعد جبل سرنديب، "أعلى جبال الدنيا" ورأى من على السحاب أسفله، وفيه كثير من الأشجار التي لا تتساقط أوراقها، والأزهار الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف، وفي الجبل طريقان إلى قدم آدم، أحدهما طريق ماما ويعنون حواء، وهو طريق سهل، وطريق بابا ويعنون به آدم، وهو طريق صعب، وعر المرتقى، فنحت الأولون في الجبل شبه درج، وغرزوا فيها أوتاد الحديد، وعلقوا فيه السلاسل، ليتمسك بها من يصعد، وفي نهاية السلسلة توجد "مغارة الخضر" يصعد الزوار منها ميلين إلى أعلى الجبل، حيث آثار القدم، فرآها وقد "غاصت القدم الكريمة في الصخرة، حتى عاد موضعها منخفضاً، وطولها أحد عشر شبراً".[١٥٠] وذكر أن أهل الصين قديماً، أتوا إليها، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما عليه، وجعلوه بمدينة الزيتون، فغدت مزاراً يقصدونه من أقصى البلاد.

ولا تخلوا بعض رواياتهم من ذكر عجائب سرنديب، ولا سيما الغرناطي، الذي حكى له الشيخ أبو بكر العتري، الذي أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة،، مقدماً حكاياته بالقول: "إن ذكر بعض عجائب خلق الله تعالى يستحب التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى في عجائب مخلوقاته" فيروي أن هناك بين شجر الغياض التي حول جبل الراهون، حيّات كجذوع النخل تبتلع الآدمي والبقر والغنم". كما أن في الجزيرة دهن إذا دهن به الإنسان جسده "لا يعمل الحديد فيه"[١٥١]حتى لو كان سيفاً حاداً.

وأطلق بعض الباحثين العرب، مثل ابن بطوطة، والقزويني وابن سعيد المغربي، اسم سيلان على هذه الجزيرة إلى جانب اسم (سرنديب)، ولم يقتصروا على تلك الموضوعات المتعلقة بالثروة، وآثار قدم آدم، بل التفتوا إلى ديانة أهل الجزيرة، وطبيعة ملكها، وبعض مظاهر سلوك أهلها الاجتماعي، ووصف حال بعض مدنها،. فمثلما أطروا ثراء هذه الجزيرة، وغنى كنوزها، وما لحق أرضها من بركة بآثار قدم آدم، فإنهم لم يبخلوا على أهل هذه الجزيرة، بالإطراء أيضاً على بعض جوانب حياة أهلها، في مجال العمران وفي السلوك الأخلاقي، وفي عاداتهم، على الرغم من نعتهم لهم (بالكفر) تبخيساً منهم لموقعهم الإيماني، الذي لم يرق إلى مستوى الإيمان الذي مصدره الوحي.

السلطة والدين وأنماط السلوك والعادات

نسمع من ابن الفقيه، وياقوت، والقزويني، على أن لهذه الجزيرة "ثلاثة ملوك كل واحد عاص على الآخر".[١٥٢] إلا أننا نفهم من الإدريسي ان هناك ملكاً واحداً للجزيرة يحكم من العاصمة التي يسميها (اغنا)، والتي هي مدينة القصر وبها دار الملك". [١٥٣] وعندما قدم ابن بطوطة إليها وجد "سلطان سيلان يدعى (أيدي شكروتي) وهو سلطان قوي في البحر، رأيت مرة وأنا في المعبر (لعله معبر مضيق بلك، أو ساحل كروماندال قبالة سيلان) مائة من مراكبه بين صغار وكبار، وكان يفهم اللسان الفارسي".[١٥٤] وحدثنا أنه في طريقه إلى زيارة آثار قدم آدم، على جبل الراهون، دخل مدينة (منار مندلي)، وجدها "مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان" وبقربها دخل إلى مدينة (كنكار)، وهي "حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد، وبناؤها بين جبلين".[١٥٥] وعلمنا أيضاً أن كلنبو "وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها، وبها يسكن الوزير حاكم البحر".[١٥٦]

ومن تقاليدهم الملكية الراسخة، أنه "إذا مات الملك يجعل في صندوق من العود والصندل ويحرق بالنار، وترافقه زوجته حتى يحترقا معاً.[١٥٧] ومن عادة ملوك سرنديب أن يحملوا في الهندول وهو محفة على أعناق الرجال ومعه كرندة (أي طبق) من ذهب فيه ورق التنبول، وحوائجه يحملها غلام، ويطوف البلد ومعه الصحاب والغلمان "ويبصق في المبصقة، فربما جاءه البول، فيخرج من الهندول ويبول في الطريق، أو السوق، أو حيث اتفق له فإذا

فرغ من بوله رد إلى ثيابه ولم يمسحه".(١٥٨)

لا يخفي بزرك، وهو يسرد عادة الملك في موكبه، ولا سيما ما يتعلق بالنظافة، امتعاضه من تساهلهم تجاهها. وهو الذي اعتاد الحرص عليها في مجتمعه، وتقليد حرق الجثة نابع من أن ملوك سرنديب ليسوا مسلمين، فهم كما يقرر مصنفونا العرب "كفار"، وهو تعبير عن تبخيسهم للديانة الوثنية، قياساً إلى ديانة الوحي، أما في ما عدا ذلك، فإن هذا الحكم لا يقلل من تقديرهم لمكانة الملك أو شعبه في مجال العمران، أو في مجال الحكم الصالح، وكما يتصور القزويني "فإن أكثر أهل سرنديب مجوس وبها مسلمون".(١٥٩) وشمل مؤلفنا بهذا المفهوم الديني، أصحاب الديانة البوذية والبراهيمية، وقرَّبنا بزرك أكثر من صورة عبادتهم التي توحي أنهم على البوذية، لانتشار (البد) في ربوعهم ولعل هذا الاسم تحريف لاسم "بوذا"، وهو ما يشير عندهم أيضاً إلى الصنم، ففي مدينة (أبريد) وهو بلد عظيم فيه نيف وثلاثون سوقاً، طول السوق نصف ميل، لاحظ أن "لأهل هذا البلد نحو من ستمائة (بدّ) جليلة (كبيرة) سوى الصغار". كما أن هناك بظاهر المدينة جبل، يوجد في جانبه شجر نحاس... وبإزائها صنم عظيم في صورة زنجي عيناه من زبرجد". ولأهل المدينة "عيد في كل سنة، عند ذلك الصنم، فيخرجون إليه ويصعدون فوق الجبل فمن أحب التقريب إلى ربه شرب وغنى وسجد للصنم مراراً، ورمى بنفسه من فوق الجبل على تلك الشجرة فينقطع قطعاً، ومنهم من يرمي بنفسه على دماغه، فوق حجر عظيم تحت الصنم فيطحن فوق الحجر".(١٦٠)

وملوك سرنديب يشتهرون بغناهم، وبوفرة ثروتهم، وقد أشار إلى ذلك الإدريسي، كما رأينا سابقاً، عندما نوّه إلى أنه ليس يملك أحد من ملوك الهند مثل ما يملكونه، وأن تجارتهم ومراكبهم تتصل بجميع البلدان بما فيها الصين والهند، وكان لسلطان مدينة كنكار فيل أبيض يركبه في الأعياد، ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة".(١٦١) وإذا كان ابن رسته ومن بعده الإدريسي يشكوان من أن ملوك سرنديب يبيحون شرب الخمر، ويأتون به من بلاد فارس والعراق، وهي بلاد إسلامية على كل حال، إلا أنهما لا ينسيان أن هؤلاء الملوك يحرمون الزنا على عكس ملوك الهند الذين "يبيحون الزنا ويحرمون الشراب المسكر"(١٦٢) غير أن السيرافي يذكر أن في أحد مواضع الجزر (الفساد فاش)، في النساء والرجال، وغير محظور، حتى أن تجار البحر، ربما دعا الواحد منهم ابنة ملكهم فتأتيه إلى غياضهم بعلم أبيها،"(١٦٣) ومن عاداتهم أيضاً أنه عندما يبلغ ثمن أحد "أحجار الياقوت إلى مائة فنم (تعادل مائة فنم ستة دنانير ذهب)، فهو للسلطان، يعطي ثمنه ويأخذه، وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه".(١٦٤)

وأقرّ المصنفون العرب بعدالة الملك هناك، وعلى تسامحه الديني، وتشجيعه للحوار بين الأديان، فتحدث الإدريسي عن ملكها بقوله "وهو ملك عادل كثير السياسة، (عنده حنكة سياسية) يقظان الحراسة، ناظر في أمور رعيته، حائط لهم، وذاب عنهم، وله ستة عشر وزيراً، أربعة منهم من أهل ملته، وأربعة نصارى، وأربعة مسلمون، وأربعة يهود، وقد رتب لهم موضع يجتمع فيه أهل الملل ويتكلمون في أديانهم، ويقيم كل واحد منهم حجة ويأتي برهان في دينه،و الملك يبيح ذلك، ويكتب حججهم وأخبارهم، ويجتمع إلى علماء كل ملة منهم، أعني الرومية والهندية والإسلامية واليهودية، جمل من الناس، فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وقصص ملوكهم في سالف الأزمان ويعلمون شرائعهم ويُفهمونهم ما لا يعلمون".(١٦٥) وفي السياق نفسه، لاحظ الدمشقي والنويري وغيرهم، أن مدينة سرنديب العظمى، "يسكنها مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وكفرة لا ينقادون لملة، ولكل طائفة حاكم لا يبغي بعضهم على بعض".(١٦٦) وهو شهادة على تسامحهم الديني وعدلهم.

وأشار ابن بطوطة موضحاً دياناتهم، إلى أن مدينة (دينور)، وهي مدينة عظيمة على البحر، بها صنم وكنيسة عظيمة، يوجد فيها "نحو ألف من البراهمة والجوكية، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود. ويغنين كل ليلة عند الصنم، ويرقصن، والمدينة ومجابيها وقف على الصنم، والصنم من ذهب على قدر الآدمي، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان في الليل كالقنديل".(١٦٧) ولاحظ ابن بطوطة تقديس

السيلانيين للبقر، مثلهم في ذلك مثل الهنود البراهمة، إذ عرف أنهم قطعوا يد ورجل أحدهم وذلك لـ " أنه ذبح بقرة، وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة، ذبح كمثلها، أو جعل في جلدها وحرق".[١٦٨]

وعدّد القزويني بعض عقوباتهم القضائية، إذ" إن من عاداتهم أن يأخذوا من الجاني سبعة دراهم على جناية، والمديون إذا تقاعس عن أداء الدين بعث الملك إليه من يخط حوله خطاً فلا يجسر أن يخرج من الخط حتى يقضي الدين أو يحصل رضاء الغريم، فإذا خرج من الخط بغير إذن، أخذ الملك منه ثلاثة أضعاف الدين، ويسلم ثلثه إلى المستحق ويأخذ الملك ثلثيه".[١٦٩]

وإذا كان الطقس المتبع حيال جثة الملك، هو حرقها، وأن تندفع زوجته وراءه لتشاركه المصير نفسه، فإن السيرافي، يسهب في تتبع هذا الطقس، بوصف ما يتقدمه من فصل تراجيدي مرّوع، يرمز إلى تذكير الإنسان بمصيره المشترك وبتقلبات الزمان، وبنهايته المحتومة التي تعبث بكل المقامات الدينوية وتفاهاتها، فإذا مات الملك ببلاد سرنديب وضع على عجلة واطئة معلقاً في مؤخرتها مستلقياً على قفاه، ويجر وشعر رأسه على التراب، وتتولى إمرأة مكنسة وتحثو التراب على رأسه، وتنادي "أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذاً فيكم، وقد صار إلى ما ترونه من ترك الدنيا، وأخذ روحه ملك الموت، فلا تغتروا بالحياة بعده". ويدوم الوضع هكذا ثلاثة أيام، ثم" يُهيأ له الصندل والكافوروالزعفران فيحرق به، ثم يرمى برماده في الريح".[١٧٠]

وفي مجال العمران والتحضر ،أورد الإدريسي ذكر مايقارب عشرة مدن في سرنديب مكتظة بسكانها، واعترف بالتعايش الديني، والحوار السلمي السائد، في داخلها،بين أصحاب الديانات، وهو ما صوره ابن بطوطة في وصفه لمدن سرنديب أيضاً، فضلاً عن الغنى والثروة اللتين تتمتع بهما الجزيرة، أم بزرك فيذهب إلى أنه "قيل أن بجزيرة سرنديب نحو مائة ألف قرية".[١٧١]

وأشار أيضاَ إلى ميل عبّاد سرنديب إلى المسلمين، وذلك بقوله "وعباد الهند وزهادهم، عدة أصناف منهم البيكور، وأصلهم من سرنديب، وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلاً شديداً"[١٧٢] وهؤلاء العباد البيكور، ولعلهم أحد الفرق البوذية، لهم أزياؤهم الخاصة، يصفها بزرك في أنهم "في الصيف عراة حفاة لا يستترون، وربما جعل الواحد منهم على سوءته خرقة أربعة أصابع في مثل ذلك، مشدودة بخ [illegible]
صورة شعوب الشرق الأقصى —م٢٣
يتشحون بالحصر الحشيشة، (هو حشيش يابس)، ومنهم من يلبس الإزار مرقعاً من كل لون.... ويلونون أبدانهم برماد عظام الموتى...، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم، ولم يحلقوا شعر العانة ولا الإبطين، وفي الأكثر لا يقصون أظافرهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت فيه يأكل ويشرب على سبيل الإتعاظ".[١٧٣]

هذا الميل إلى المسلمين فسره بزرك، على أنه أتى حصيلة أخبار بعثة أرسلها أهل الجزيرة إلى النبي، إذ لما بلغهم ظهور (النبي)، أرسلوا رجلاً ليعرف أمره، وما يدعو إليه، فوصل الرجل إلى المدينة بعد وفاة النبي (ص)، ووفاة أبي بكر، فوجد الرجل الخليفة عمر فسأله عن أمر النبي، فشرح له وبين، ورجع الرجل بصحبة غلام هندي، إلا أن الرجل مات ببلاد مكران، ورجع الغلام إلى سرنديب، وشرح لهم الأمر، وما وقف عليه من أمر النبي، وأخبار أبي بكر، ثم أخبار عمر بن الخطاب، ووصف لهم تواضع الأخير، وأنه كان يلبس ثياب مرقعة ويبيت في المسجد، فتواضعهم لأجل ما حكى لهم ذلك الغلام، ولبس الثياب المرقعة لما ذكره من لباس عمر، ومحبتهم للمسلمين، وميلهم إليه لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر".[١٧٤]

وبصرف النظر عن حقيقة هذه (الحكاية)، فإن ما يهم هنا، هو ما تؤكده في مضمونها، على تواضع أهالي سرنديب، وعلى أزيائهم وثيابهم المرقعة، المزركشة، وأخيراً حبهم للمسلمين، وبالمقابل مشاعر المؤلف العربي المتعاطفة معهم، وقد أكد ابن بطوطة، على ميل أهل سرنديب نحو المسلمين، وإن لأسباب أخرى، تعود إلى أن أحد شيوخ المسلمين قد فتح الطريق لزيارة آثار قدم آدم، وذلك لأنه منع (ببركته) أذى الفيلة المنتشرين هناك عن الزوار، صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين، ويدخلونهم دورهم، ويطعمون معهم ويطمئنون

لهم بأهلهم وأولادهم".(١٧٥)

ومن العادات التي أثارت انتباه المصنفين العرب، هي طرق الضيافة المتبعه لديهم، فوجدوها حسنه،فهم يقدمون لضيوفهم " عجول الجواميس يصطادونها بغابة هناك، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن".(١٧٦) ويشير الإدريسي إلى أن من عاداتهم، "لعب أهل سرنديب الشطرنج والنرد، والقمار بأنواعه".(١٧٧) وبالإضافة إلى ذلك، فإن "جميع النساء في جزيرة سيلان لهن قلائد من الياقوت الملون، ويجعلنه في أيديهن عوضاً عن الأسورة والخلاخيل،وجواري السلطان يصنعن منه (من الياقوت) شبكة يجعلنها على رؤوسهن ".(١٧٨) وتشتهر سرنديب بأفاعيها العظيمة، وهي خطرة على بني البشر، فيقاومون لدغ تلك الأفاعي بالرقي، أو بدفع الملدوغ على مركب في النهر باتجاه البحر، فحكى بزرك قصة صراعهم ذلك، فإذا نهشت أحدهم أفعى" ولم تنفع معه الرقى، جعلوه على سرير من خشب، وتركوه على وجه الماء، في نهر يجري إلى البحر، ولا يوضع على هذا السرير إلا الملسوع، فمن كان منهم على مجرى النهر يُحسن الرقي "أخذ السرير ورقى من فيه، فإذا نفعت رقيته قام الملسوع، ورجع إلى منزله.. وإذا لم تنفع سرحه.. وحمله الماء حتى يرمي به في البحر فيغرق أو ينفق".(١٧٩)

في الطريق إلى الأرخبيل الأندونيسي

قبل أن نصل إلى جزيرة الرامنى (سومطره) الأندونيسية، يعترض طريق البحارة جزيرة سمّوها جزائر (أندمان)، أو أندامان، وهي في عرض خليج البنغال، وجزيرة أخرى عرفوها باسم (لنجبالوس) وعند بعضهم مثل ابن الفقيه (لنكبالوس)، وهي جزر النكبوبار Nicobar التي تقع في فم خليج البنغال، في عرض البحر، واعتقدوا أن هاتين الجزيرتين تقعان بقرب خط الاستواء، ويتعرضان بالتالي لتأثيراته البيئية، وينطبق على ناسها، أحياناً، المعاني المرتبطة بالإقليم الأول المحاذي لخط الاستواء. لم تطأ أرضهم الحضارة والعمران،ولا نلمح سلطة أو سلطان، أو ملك بين ظهرانيهم، ولا يذكرون أنهم شاهدوا فيها المدن، أو أشكال التنظيم العمراني.

ذكر النويري مثله في ذلك مثل ابن سعيد المغربي وغيرهم، أن جزائر لنجبالوس (نكوبار) "كثيرة، وأهلها سود، مشوهو الصورة لقربها من خط الاستواء"(١٨٠) وأهلها "عراة يقطعون على المسافرين وفيهم من يأكل الناس، وهم مجاورون لخط الاستواء".(١٨١) ومن المظاهر الأخرى لافتقار تلك الجزائر لمظاهر الحضارة والعمران، أنهم لا يتبادلون بالنقود، يخرجون في قواربهم عند مرور مراكب التجار الغرباء بينهم، يحملون (العنبر والنرجيل فيتعارضون (يتقايضون) بالحرير وشيء من الثياب، ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير".(١٨٢) وقد فصّل سليمان التاجر، أسلوب عريهم،إذ فيهم "عراة الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب... بايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون من كسوة".(١٨٣) إلا أن السيرافي، يقول عنهم متوافقاً مع رأي بزرك "أنهم بيض"، ولا يفهمون لغة العرب وما يعرفه التجار من اللغات، عندهم النارجيل، وقصب السكر والموز، وشراب النارجيل، يبيعون ذلك بالحديد.(١٨٤) وفي هذه الجزيرة المتسعة معدن الحديد الشبيه بالفضة في لونها، وبها أشجار الكافور، إذا نقر ساق الشجرة من أعلاه سال منها ماء الكافور، ولا ينسى بزرك فضائل هذه الجزيرة، فإذا وقع إليهم رجل أو امرأة، لانكسار مراكبهم، لا يأخذون منهم شيئاً ويدعونهم إلى منازلهم، فيطعمونهم مما يأكلون "ولا يأكل الواحد حتى يُطعم ضيفه، فإذا أكل الضيف أكل ما يفضل منه"(١٨٥)

طبقوا على جزيرة أندمان، المقاييس الأقاليمية والعمرانية نفسها، باعتبارها قرب خط الاستواء، فتختفي فيها مظاهر الحضارة والعمران، بل تذهب حياتها أكثر بعداً عن معايير الحضارة، بتصورهم أنهم يأكلون البشر، ولا يرعون

أحياناً حرمة من يقع في جزيرتهم ضائعاً من الغرباء، على النقيض من جيرانهم في جزائر لنجباوس، الذين يحترمون حق الضيافة.ولخص الدمشقي معارف وأحكام المؤلفين العرب عن هذه الجزيرة، وعن شعبها، بقوله "وجزيرة أنداميان وجزائرها، يقال أن عدتها سبع مائة جزيرة، متقاربات صغار وكبار، معمورات لقوم من الهنود والزنج، قباع الوجوه، صغار الجثث، لا مراكب لهم، وإذا وقع إلى أطرافهم غريق أكلوه".[١٨٦] وهي تصورات نقلها الدمشقي عن السيرافي والمسعودي، اللذين أتيا بتقرير متطابق، فأهل أندمان عند الأثنين يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعر، مناكير الوجوه، والأعين، طوال الأرجل، طول قضيب واحدهم مثل الذراع، عراة ليس لهم قوارب، وفي هذه الجزيرة جبال، يقال أن فيها معادن فضة وليست بمسكونه.[١٨٧] ويضيف ابن سعيد المغربي، أنه توجد "فيها جميعاً الفيلة ويجهز منها العاج".[١٨٨]

جزائر الأرخبيل الأندونيسي

كانت السفن العربية التي تحمل التجار والرحالة والبحارة العرب، تقلع من الخليج العربي حتى تصل كولم أو كلوم ملي Quilom في جنوب شواطئ ماليبار، ومنه تصل إلى سرنديب (سيلان)، وبعده إلى الأرخبيل الأندونيسي، عبر مضايق ماليزيه أو ما يسميه العرب مضيق كله (أو ملقا) وهي أيضاً مرساة من جملة ما يسيمه العرب جزيرة المهراج (وهي مملكة سريفيجايا Sviwigywe وتشمل سومطرة وجاوه أو على الأقل سومطرة، وعلى أطراف المضيق كله، أو ما سموه بحر شلاهط وكانت تتناثر مئات الجزر الأندونيسية بما فيها ما يسيمه العرب جزيرة الزابج، (وهي سومطرة) وجزيرة جاوة، وأيضاً تقع الرامثي (وهي تقع في الطرف الشمالي لجزيرة الزانج، كما يذكرون جزيرة برطايل، التي يُسمع منها دق الطبول من بعيد. وكل هذه الجزر وغيرها تؤلف الأرخبيل الأندونيسي، الذي عرف العرب أجزاء مهمة منه، تبادلوا التجارة والمعارف مع أهله، واستقرت جاليات منهم في جزره، ونشروا الإسلام في ربوعه، ونقلوا لنا صورة اثنوغرافية، عن حياة شعوبه، وتنوع ثرواته، وحياته الثقافية والإدارية، وبيئة العوالم الغامضة المحيطة به.

ولا بد هنا من الإشارة هنا، إلى أن اسم أندونيسيا، قبل الاستعمار الأوروبي، لم يكن اسماً مألوفاً، وإنما كانت هذه الجزر المترامية الأطراف، المحاطة بقارتي آسيا واسترالية، يُعبر عنها باسم (نوسوسنتارا Nusantara)، ولا زال هذا الاسم إلى اليوم مألوفاً ومتداولاً بينهم.[١٨٩]

ولقد تأثرت شعوب هذه الجزر بثقافة الهند، وأدخل إليهم التجار الهنود الديانة الهندوسية والبوذية، فنمتا وتوسعتا على حساب الديانات الوثنية، وأقاموا فيها ممالك متعددة ذات صبغة هندوسية أو بوذية، كمملكة كوتاي Kutai في جزيرة كلمنتان (بورينو) وهي أول مملكة هندوسية بوذية، في أندونيسيا، ومملكة سريويجايا Sriwajawa بين القرن السابع والثالث عشر ميلاديين) في سومطرة، ومملكة ما جاهيت (١٤٧٨ – ١٢٩٣م) في جاوه، حيث امتدت رقعة سلطانها إلى سنغافورة، وماليزيا، وبعض المناطق في تايلندا.[١٩٠]

فيما بعد لعب التجار العرب والمسلمون، وجالياتهم التي استقرت هناك،دوراً حاسماً في نقل الإسلام إلى هذه الجزر، ولعل القرن الثالث عشر ميلادي شكل مفترقاً تاريخياً لإنتشار الإسلام، ولقد اختلف الباحثون المعاصرون على من كان له الأسبقية في نقل الإسلام إلى هذه الجزر أكانت للتجار العرب وللجاليات العربية، أم للمسلمين الهنود، إذ قال بعضهم "إن الذين أدخلوا الإسلام إلى تلك الجزر هم العرب، وذلك بواسطة التجار والملاحة، فإنهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية، والمراسي الشهيرة، واخذوا ينشرونه فيها، شيئاً فشيئاً إلى الداخل"[١٩١] غير أن الإسلام دخل أندونيسية منذ القرن السابع الميلادي بواسطة التجار العرب، ويستدل على ذلك بوجود جماعات عربية في سومطرة الغربية في هذا القرن السابع الميلادي، وأيد هذه النظرية ج.س.فإن، لوير

Lewr.1.C.V، إذ ظهرت التجمعات، التي لا تملك سلطة بعد، في بعض مناطق جزيرة سومطرة، قبل القرن الخامس عشر، ثم تعزّز وجود الإسلام، وازداد نفوذاًَ، على أثر التصدع في مملكة (ماجابهيت)، وسقوط سلطتها البراهمة Brahmama الهندوسية سنة ١٥٢٦، وأيضاً انهيار ممكلة فاجانات Vaganat البوذية سنة ١٥٥٦، في الهند، فأتاح هذا للمسلمين في جاوه نشر دينهم ونفوذهم، إلى أن وصل الأمر إلى قيام مملكة اسلامية كبرى إثرتغلبهم على مملكة ماجابهيت في مدينة ديماك Demak.(١٩٢) ويتضح من ذلك – تبعاً لهذا الرأي، أن جزيرة سومطرة، كانت البوابة التي دخل بها الإسلام إلى بقية الجزر الأندونيسية، وقامت في هذه الجزيرة العديدة من الممالك، فهناك مملكة بورلاك Porlak وهي أول مملكة إسلامية في أندونيسية، وقامت في سنة ٢٢٥ أو ٢٢٧هـ أي في القرن التاسع الميلادي، على أنقاض مملكة هندية بوذية، إسمها سريويجايا Sviwjaywa، ثم مملكة ياساي Pasay، التي دامت بين عامي ١٢٦١ – ١٤٩٦م، وكان أشهر ملوكها الملك الصالح (١٢٨٩م) والسلطان أحمد بهيان شاه ملك الزاهر (١٣٢٦ – ١٣٤٥م)، وأثناء حكم الأخير قام ابن بطوطة برحلته، وكانت هذه المملكة آنذاك مركزاً إسلامياً مهماً في نشر الإسلام في الجزر الإندونيسية مثل :كلمنتان، وسولاويس، وجاوه. أما الثالثة فكانت مملكة سياك Siak التي كانت على الوثنية عندما دخلها الإسلام في القرن الثاني عشر الميلادي، وساعد على ذلك دخول ملكها الإسلام، ودخل الإسلام في جزيرة جاوة في أوائل القرن العاشر الميلادي، إلا أن انتشاره الواسع كان في القرن الثالث عشر، بتأثير ما يسمى في الحوليات الاندونيسية (الدعاة التسعة) 90 Walison ثم قامت على أنقاض مملكة ماجافات سنة ١٤٧٨م مملكة داماك الإسلامية Demak، ثم تفرقت إلى ثلاث ممالك صغيرة.(١٩٣)

وذهب أندريه ميكيل، إلى أن المحاولة الكبرى لدخول الإسلام في جاوه ابتداءً من الشواطئ، كانت في القرن الخامس عشر، نتيجة انحلال ثم اختفاء الامبراطورية الهندية في مجاباهت(١٩٤) ولقد كانت ملقه (كله) الوثيقة الصلة بجزيرة جاوه، مركزاً رئيسياً للإشعاع الإسلامي منذ القرن الخامس عشر فصاعداً، وفي نهاية القرن السادس عشر استقر الإسلام في سلبيس، في القرن التالي امتد إلى بورنيو وفي الجنوب من سومطره. (١٩٥) ويذهب الدكتور نينار أن الإسلام قد وصل إلى آتشيه Ache، شمال سومطره، جامعاً في تأثيره بين العنصر الهندي والعربي، وهو أقدم شكل عرفه شمال سموطرة، حتى دخلت إليها التقاليد من مصر في شمال أفريقيا بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨م، وهذه التقاليد الجديده دخلت إليها عن طريق جنوب الهند، وأخذت تزداد انتشاراً في الهند وسومطره، وفي الجزر الأندونيسية، وفي الأنحاء الأخرى من أندونيسيا، في رعاية الإسلام، وفي العمل على انتشاره(١٩٦)

دوّن المؤلفون العرب معلوماتهم، وتصوراتهم عن هذه الجزيرة، وعن شعوبها، منذ القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، واستمر تطواف الجغرافيين العرب، في سواحل الهند والصين، والجزر الماليزية، في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادي. (١٩٧) فكان انطباعهم العام عن تلك الجزر، أنها بلاد غنية للغاية زاخرة بالسلع العزيزة الثمن، وصاحبة ملك راسخ وسلطان مهاب الجانب، يقف في مصاف ملوك الأمم العظمى، ويتجلى ذلك في حديثهم عن ملك (المهراج)، ولا يغرب عن بالنا ما للحكم، واستقرار السلطان من دلالة لدى العرب، على مظاهر الحضارة والعمران، وتداخلت في سردهم المعلومات التجارية، بالجغرافية، بالأثنوغرافية بالنظرة السياحية، تلك النظرة التي تنتقل بين أبرز الظواهر وأكثرها إبهاراً، بما فيها من غريب وعجيب، فضلاً عن الحكايات والنوادر، فكثيراً ما تتخلّل كتب الجغرافية، والرحلات، والتاريخ قصص الغرائب، كلما تعلق الأمر بالجزر التي تقترب من حدود العالم غير المعمور.

ولعل اسم (المهراج)، الذي أطلقه العرب على ملك الجزائر الأندونيسية وفي مقدمتها سومطرة وجاوة، قد تم نقله تدريجياً ليصبح في موقع ينسبون إليه الجزائر اندونيسية ولا سيما جزيرتها الأكبر سومطرة، وصاروا

يستخدمون اسم "جزائر المهراج" للدلالة عليها، وهذا ما نجده واضحاً عند الكثير من الجغرافيين العرب، وبالأخص عند ابن سعيد المغربي، الذي وضع الجزائر الأندونيسية شرق وجنوب جزائر أندمان والنجباليوس، إذ يقول: بأن "جزائر المهراج، كثيرة مذكورة في الكتب، ويوجد فيها الذهب الطيب، وصاحبها أغنى ملوك الهند وأكثرهم فيلة، وجزيرته الكبيرة التي فيها مدينة المهراج، طولها مئتي ميل ووسعها قريب من مائة ميل. "ثم يشير إلى أنه "في جنوبي جزيرة المهراج جزيرة الجاوة الكبيرة، المشهورة التي تقصدها المراكب، وفي جنوبها، مدينة فنصو التي ينسب إليها الكافور الفنصي، وجبال الكافور ممتدة من المدينة إلى قرب آخر الجزيرة. وفي وسط الجزيرة جبال الكافور"، ثم يتابع شرح مشهد المدن والجزر، فيذكر أن عاصمة الجزيرة أو قاعدتها، هي مدينة جاوة، وبها صاحب الجزيرة، وإلى هذه المدينة ينسب العود الجاوي الأسود الرصين.. وفي الركن الشرقي الجنوبي مدينة كلة، وهي مشهورة على ألسن المسافرين، وإليها ينسب الكلهي المفضل في عوده ودهانه. ويقال أنهم يصنعون مراكبهم من ذلك، فلا يكون في بحر الهند مثلها... وفي الجانب الشرقي الشمالي مدينة ملايو". وهي كما نعرف اليوم جزيرة من جزر الملايو، ويصفها بأنها" مشهورة مقصودة للحط والإقلاع، وكل مدينة من المدن التي ذكرت في هذه الجزيرة على خور (أي شاطئ مرفأ) ويكون طول هذه الجزيرة ثمانمائة ميل من الغرب إلى الشرق".[١٩٨]

ولقد استخدم المؤلفون العرب أحياناً اسم جزائر الزابج، وأحياناً أخرى جزاء الزانج، وعنوا به سومطرة وجاوة، واللتان تؤلفان مملكة الزانج الشاسعة المساحة أو قسمها الأهم،و التي يحكمها المهراج.[١٩٩] وربما ضموا إليها جزيرة سريرة وهي مرفأ في سومطرة، والرامثي وهي الجزء الشمالي من سومطره. مذكرين دائماً باتساع مملكته، وتراميها، وهو ما نجده عند المسعودي، بقوله "وفي مملكة المهراج جزيرة سريرة، ومساحتها في البحر نحو أربعمائة فرسخ (الفرسخ يعادل ثلاثة أميال)، عمائر متصلة، وبه جزيرة الزانج والرامني، وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائر ومملكة".[٢٠٠] وزاد سليمان التاجرإلى تلك الحقائق التي تشهد على ثراء مملكة المهراج، وجزر الزابج، فضلاً عن سعتها الضاربة في البحار، وكثرة الضرائب، أو (التكسيرات) تبعاً للغته، فملك المهراج صاحب الزابج "هو ملك على جزائر كثيرة، يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر، وفي مملكته جزيرة تعرف بسريرة تكسيرها (أي خراجها أو محيطها) على ما يذكرون أربعمائة، وجزيرة الرامي تكسيرها ثمانمائة فرسخ، منها منابت البقم في الكافور وغيره، وفي مملكته جزيرة كله، وهي المنصف بين أراضي الصين وأرض العرب".[٢٠١] عندما نصل إلى القرن الرابع عشر، نجد ابن بطوطة يستخدم اسمي "سومطرة"، و"وجاوة" على الجزيرتين الرئيسيتين في الأرخبيل الأندونيسي، وكانوا يطلقون على جاوه اسم جايه، وهو ما نجده عند الإدريسي، وابن خرداذبه، وأبو الفداء، وغيرهم، ولعل ابن سعيد المغربي هو أول من أطلق اسم جاوه بدلاً من جابه على هذه الجزيرة.

لم يكتف المصنفون العرب بهذا المشهد العام، وبذكر المواقع الكبرى لجزر ومدن الأرخبيل الأندونيسي، بل ذهبوا أكثر في تكثيف هذا المشهد وبإغنائه بمزيد من المعطيات والاحكام والمتخيلات، واتخذ بعضهم موقف الاثنوغرافي في تناوله لحياة مجتمعات تلك الجزر.

الزابج /سومطرة/

روى بزرك أن يونس بن مهران السيرافي، الذي دخل الزابج ورأى مظاهر الثراء والغنى فيها، حدثه أنه قد رأى في الزابج "من الأسواق العظيمة ما لا يحصى، وعددت في سوق الصيارفة بهذا البلد ثمان مائة صيرفي' سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق". كما حكى له عن فخامة "عمارتها وكثرة البلدان والقرى فيها ما لا يقع عليه وصف"[٢٠٢] وحدثه أيضاً عن بلد في الزابج اسمه (فروفاويد)، "فيه عنبر كثير جداً، وأنه ما

حمل أحد قط ذلك العنبر، في مركبه، وخرج عن البلد إلاّ ورجع إليه".[٢٠٣] وأشاد المسعودي، في معرض حديثه عن ملك المهراج، بثراء وغنى جزائر الزابج ولا سيما بالأفاوية والطيب، التي يصدرها إلى البلاد الأخرى، فقد "حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاوية، وليس لأحد من الملوك ما له، ومما يحمل من بلاده، ويجهز من أرضه الكافور، والعود والقرنفل والصندل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة، وغير ذلك مما لم نذكره".[٢٠٤] ويذهب ابن خرداذبه أن في جبال الزابج أيضاً "شجر الكافور تظلّ الشجرة مائة إنسان أو أكثر وأقل، ينقب أعلى الشجرة فيسيل منها من ماء الكافور عدة جرار، وفي هذه الجزيرة عجائب كثيرة لا تحصى".[٢٠٥]

وذهب الإدريسي، بعد أن ذكّرنا بتصوره المقتبس عن بطليموس عن اتصال جنوب أفريقية بالسواحل القابلة للصين والهند وبالتالي اتصاله بالجزر المحيط الهندي، إلى القول "يقابل بلاد الزنج الساحلية جزائر تسمى جزائر الرانج" ليقر بعدها أن جزائر الرانج، "كثيرة وأرضها واسعة، وأهلها سمر جداً، وكل ما يزرع بها من الذرة، وقصب السكر وشجر الكافور، ومن جزائر الرانج جزيرة شربوه، وتسكيرها (خراجها) على ما يذكر ألف ميل ومائتا ميل، وبها مغائص للجوهر، وبها أفاويه الطيب والتجار يدخلون إليها"[٢٠٦] ثم تحدث عن إحدى جزر الرانج، يسمّيها "جزيرة الأنجية"، وان مدينة هذه الجزيرة الرئيسية (انقوحة) "أهلها أخلاط والغالب عليهم أنهم مسلمون في هذا الوقت". وأكثر عيش هذه الجزيرة من الموز، "ولها عمارات متصلة، وقرى فيها مواشيهم، ويزرعون بها الأرز".[٢٠٧] ولفت نظرنا الإدريسي، إلى تحول هذه الجزيرة، وهي جزء من جزائر الرابج، إلى محطة رئيسية للتجارة الصينية، والهندية، بعد الاضطرابات التي أصابت هذين البلدين، ولا ينسى أن يُظهر إعجابه بأخلاق سكانها، فهو يطري سلوك أهل هذه الجزر، وحسن معاشرتهم، وسماحتهم، فيقول: في نص معبر "وتجاراتهم كثيرة والداخل في كل سنة كثير بضروب من الأمتعة، وجمل من البضائع، التي يتصرفون إليها ومنها، ويقال إنه لمّا أضطرب أمر الصين بالخوارج، وكثر الظلم، والتخليط بالهند، صيّر أهل الصين تجاراتهم إلى الرانج وغيرها من جزائرها، وعاملوا أهلها وأنسوا إليهم لعدلهم وحسن معاشرتهم، ومعاملتهم، وسماحة تجارهم، فهي لذلك عامرة، والمسافر إليها كثير".[٢٠٨] ولعل هذا التقرير يذكرنا بالدور الذي اتخذته (كله) في تجارة المحيط الهندي الدولية، في القرن التاسع الميلادي، كما سنرى لاحقاً.

أما الجزء الشمالي من الزابج (سومطرة)، فقد أطلق عليه باحثونا اسم (الرامي)، وأفردوا لها الكثير من الاهتمام، فتناولوا حياة الناس في حينها، وبيئتها، وحيواناتها، ونباتها، فأطنب سليمان التاجر بسعة مساحتها وثرائها، إذ "فيها عدة ملوك، وسعتها ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ، وفيها معادن الذهب، وفيها معادن تدعى فنصور، ويكون الكافور الجيد فيها". وفيها أيضاً "فيلة كثيرة وخيزران".[٢٠٩] كما يصف ابن خرداذبة والحميري، أن بها أيضاً "الكركدن، وهو دابة تكون دون الجمل وفوق الجاموس.. ولها قرن في وسط جبهتها طويل، وهذا القرن.. تُصنع منه مناطق تساوي قيمة كبيرة، وفيها ينبت البقم، وهو يشبه نبت الدفلى، وخشبه أحمر وعروقه دواء من سم الأفاعي والحيات... وفي هذه الجزيرة جواميس لا أذناب لها" فضلاً تصديرها"ضروب الأفاوية واللؤلؤ الفائق الجودة"[٢١٠]، ولها أيضاً "شجر الكافور والفلفل والقرنفل، والدار صيني وبها الببغات الحمر والخضر والبيض، والببغاء طائر هندي حبشي نوبي غاني صيني".[٢١١] ويعتمد أهل هذه الجزيرة في طعامهم على "النارجيل، ورجالهم أقوياء يصيدون الفيلة".[٢١٢] ويتبين من أقوال مصنفينا، أن الناس اعتمدوا هناك على الزراعة، والصيد، والتبادلات التجارية، والذين يسكنون منهم الساحل يشتغلون بالتجارة"يلحقون المراكب...ويبيعون العنبر لأصحاب المراكب بالحديد، ويبيعون الكافور الطيب".[٢١٣] بينما يسكن في غياض هذه الجزيرة ناس عراة لا يُفهم كلامهم وهم مستوحشون".[٢١٤] يرقدون في الغابات، ويبدون لمؤلفينا وكأنهم لم يدخلوا طور الحضارة بعد، وصفهم القزويني معتمداً على ابن الفقيه بأنهم "ناس عراة رجال ونساء على أبدانهم شعور تغطي سوأتهم، وهم أمة لا يحصى عددها، مأكولها ثمار الأشجار، وإذا اجتاز بهم شيء من المراكب يأتون بالسباحة... وفي أفواههم عنبر يبيعونه بالحديد".[٢١٥] أما "جزيرة سريرة" وهي جزء من سومطرة فتفاوتت مساحتها لديه، فهي عند الدمشقي "يحيط بها ألف ميل ومايتا ميل، وفيها مدائن كثيرة، وأجلّها التي

تنسب إليها" [٢١٦] ذكرها أبو الفداء مقتدياً بابن سعيد المغربي ضمن جزائر الزابج،" مشهورة على ألسن التجار والمسافرين"، وطولها "من الشمال إلى الجنوب أربع مائة ميل وعرضها في كل طرف من الجنوب والشمال نحو مائة وستين ميلاً"[٢١٧] ومدينتها الرئيسية (سريرة) مرفأ على البحر، ولعلها تطل على معبر كله، أو شلاهط، على الطريق التجاري إلى الصين، فقد ذكر بزرك، أن أحد التجار اليهود، خرج إلى الصين فلما وصل سريرة "التمس منه صاحبها عشرين ألف دينار ليتركه يجوز إلى الصين".[٢١٨] وفي هذه الجزيرة التماسيح، وأن دور سريرة "بعضها في البر، وأعظمها في الماء، مبنى على خشب" وجعلوا هذه الدور على الماء خوفاً من الحريق، فإذا ضربهم الحريق، أمكن لصاحب المنزل أن يحوّل منزله إلى وجهة أخرى.[٢١٩]

ولفت مصنفونا النظر إلى وجود جزيرة إلى الجنوب من جزيرة الزابج، اسمها جزيرة (برطايل) "يُسمع منها على دوام الأوقات أصوات الطبول، والسرنايات والعيدان، وسائر أنواع الملاهي المطربة المستلذة، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق".[٢٢٠] وبما أنهم وضعوها على الأطراف الجنوبية للبحر الهندي، على قرب خط الاستواء، وإلى جوار الجزء غير المعمور من الأرض، فهذا القرع للطبول، ومعه الرقص، الصاخبين يرمزان إلى ناس لم يدخلوا آفاق الحضارة بعد، وأضافوا إلى ذلك، ان أهل هذه الجزيرة يبيعون القرنفل، التي تشتهر جزيرتهم بزراعته، فيأتي التجار ليشتروه منهم،" وقيل أن التجار يتركون البضائع على الساحل، ويعودون إلى مراكبهم، فإذا أصبح غد ذلك اليوم، جاؤوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوماً من القرنفل، فإذا رضيه التاجر أخذه وترك البضاعة، إلا أخذ بضاعته وترك القرنفل".[٢٢١] وهذا يذكرنا بـ (التجارة الصامتة) التي تحدث عنها مؤلفونا العرب في أقصى الجنوب الأفريقي، وفي أقصى الشمال الأوروبي، عند الأقوام التي تجاور الجزء المغمور من الأرض، لذا فإن أهل هذه الجزيرة، بدوا لهم على شيء من الغرابة، فالحميري روى، أن بعض الناس الذين دخلوا الجزيرة "رأوا أقواماً في زي النساء مرداً بغير لحى ذوي شعور مرسلة" [٢٢٢]

جاوة

أمام الجزيرة الكبرى الأخرى، التي أثارت انتباه مصنفينا، في الأرخبيل الأندونيسي، فهي (جاوه)، أو (جابه) كما سمّاها بعضهم، إلا أن المسافات بين الجزر، ومواقعها تبدو غائمة لديهم، ويبدو هذا الأمر مفهوماً، إذا علمنا أن الجزر الأندونيسية يقترب عددها من الثلاثة آلاف جزيرة، فابن خرداذبة يضع جابه، أو جاوه، على جوار كله، وشلاهط، وهما اللتان تقعان على مضيق ملقا أو شلاهط،الذي يفصل بين جزيرة سومطرة (الزابج)، وشبه جزيرة الملايو، على جانب هذه الجزيرة الأخيرة، بينما جاوه هي في الواقع على الجنوب الشرقي لجزيرة سومطرة (الزابج)، غير أن هذا لا يمنع أن تكون تلك الجزر والمدن الشاطئية ضمن الأرخبيل الأندونيسي. والمثال الأسطع على هذا الغموض في تحديد المواقع والمسافات، أن ابن خرداذبه يضم كله (إلى جابه)، وقرّب المسافات من جاوه وجزيرة (بالوس) التي لعلها موضع على الغرب من سومطرة اسمه باروس، وأيضاً جزيرة شلاهط، وهرلج، إذ يشير إلى أن "من جزيرة النكبالوس إلى جزيرة كله مسيرة ستة أيام، وهي مملكة جابة الهندية، وفيها معدن الرصاص القلعي (النحاس) ومنابت الخيزران، وعن يسارها جزيرة بالوس، على مسيرة يومين" وهي غنية بالكافور الجيد، والموز والنارجيل وقصب السكر والأرز، "ومنها إلى جزيرة جابه وشلاهط وهرلج فرسخان".[٢٢٣] ويقتبس الإدريسي من ابن خرداذبه تلك التحديدات الغامضة، ويذهب أبعد، إذ جمع بين جزائر جابه، وشلاهط، وهزلج، وذلك بضمّهم تحت سلطة ملك واحد سماه جابه: "بين كل واحدة منها وأختها فرسخان وأكثر، أو أقل، وهذه الجزائر كلها لملك واحد اسمه جابه"[٢٢٤] غير أن أول من أطلق اسم جاوة ابن سعيد المغربي، في القرن الثاني عشر، ثم القزويني، إلى أن نصل إلى ابن بطوطة، الذي مكث بين ظهرانيها، وسجّل

وقائعها المتغيرة.

أشاد مصنفونا بوفرة الثروات التي تزخر بها جاوه، وبالمواد التجارية التصديرية التي يجلبها التجار العرب منها: العود الجاوي، والكافور، والقرنفل، والعود الهندي، والنارجيل، والموز والمسك، فأورد ابن خرداذبه،" أن فيها، معدن الرصاص القلعي ومنابت الخيزران".[٢٢٥] وذهب القزويني إلى أنه في زمانه، لا يصل "التجار من أرض الصين إلاّ إلى هذه البلاد، والوصول إلى ما سواها متعذر لبعد المسافات واختلاف الأديان، والتجار يجلبون من هذه البلاد العود الجاوي، والكافور والسنبل والقرنفل والبسباسة والغضار الصيني (الخزف)، منها يجلب إلى سائر البلاد"،[٢٢٦] وأشار أبو الفداء إلى أنها (كبيرة مشهورة بكثر الفقاقم) وفي جنوبها مدينة فنصورة، التي ينسب إليها الكافور الفنصي.[٢٢٧]

وقد انتقل ابن بطوطة من البنغال على مركب (جنك)، إلى شواطئ جاوه فمرّ على بلاد اسمها (البرهنكار) يسكنها أناس لم يدخلوا بعد دائرة الحضارة والعمران، ذو أشكال غريبة اتخذ في وصفه لهم موقف الاثنوغرافي فهم "طائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكنهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر، وعندهم من أشجار الموز والقرنفل والتنبول كثير". أما عن لباسهم وأشكالهم، فرجالهم وإن كانوا على مثل صورنا " إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب"، على النقيض من نسائهم، فهن ذات "جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون، إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وانثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر".[٢٢٨] ولقد صادف جماعة من المسلمين من أهل بنجالة، أي من البحر الهندي، ومن مدينة جاوة،" ساكنون في حارة إلى حدة"، فأخبره هؤلاء المسلمون،، أن تلك الطائفة يتناكحون كالبهائم، لا يستترون بذلك". أي لا يخفون أنفسهم أثناء الجماع، ويتزوج الرجل منهم ما يقارب الثلاثين إمرأة وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لايزنون رجالاً كانوا أم نساءً، وإذا زنا أي منهم فعقوبته صارمة للغاية، فحد الرجل الزاني أن "يصلب حتى الموت" أما حدّ المرأة الزانية، "أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت، ويرمون بها في البحر".[٢٢٩] لهذا فإنهم لا يتركون أحداً من أهل المراكب ينزل إليهم، وإنما يفضلون أن يبايعوا الناس ويشاوروهم على الساحل، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة التي تكثر عندهم "خوفاً على نسائهم، لأنهم يطمحن إلى الرجال الحسان".[٢٣٠] ولهم قوارب صغار، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة، استقبلوا ابن بطوطة ورفاقه، على سبيل الضيافة، بالموز والأرز والتنبول والقوقل والسمك.[٢٣١] واستقبله سلطانهم راكباً على فيل ويرتدي "ثوب من جلود المعزى" وبره مكشوف إلى الخارج، وعلى رأسه ثلاث عصائب من الحرير الملون وفي يده حربه من القصب، وفي حاشيته عشرون من أقاربه ممتطين ظهور الفيلة، ويفرض السلطان ضريبة على كل مركب ينزل ببلاده: "جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعلها زوجته في محزمها وأصابع رجليها".[٢٣٢]

ثم غادر ابن بطوطة أراضي (البر هنكار)، فوصل بعد خمسة وعشرين يوماً إلى جزيرة جاوة، وهي "خضرة نضرة، وأكثر أشجارها النارجيل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي، والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور..."[٢٣٣]

أفرد ابن بطوطة مساحة مهمة في مذكراته الاثنوغرافية لرحلته إلى جاوه، عن عادات الناس، واعتقاداتهم، وتوزعهم السكاني، وعن ثروات البلاد وطعام موائدهم ومطبخهم، وفوق ذلك طبيعة الملك والدين، وهو الذي حضر في زمن كان فيه المسلمون قد تبؤوا مواقع السطان في بعض ممالك جاوة، في عهد الملك المسلم الذي يسميه ابن بطوطة السلطان الظاهر، فلاحظ انقسام الجزيرة دينياً إلى شطرين، الأول يهيمن عليه الإسلام ويرأسه سلطان مسلم، الذي نزل ابن بطوطة في ضيافته خمسة عشر يوماً، وسافر في طول بلاده إحدى وعشرين ليلة، التي قال عنها "بلاد الكفار بمُل جاوه"، إذ اعتاد المؤلفون إطلاق مفهوم (الكفر) على أصحاب الديانات

الوثنية، المتعددة الآلهة، أي التي لم ينزل عليهم كتاب أو وحي، وخصّوا أصحاب الرسالات السماوية بمفهوم "أصحاب الكتاب"، إذ قلما وصفوا هؤلاء بالكفر، وبلاد الكفار هذه "طولها مسيرة شهرين"، ولاحظ أن المنطقتين لا تتقاسمان الأفاوية، المطلوبة في البلاد العربية، بالتساوي، فهناك رجحان لبلاد الكفر، التي تنبت بها "الأفاوية العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري،.. وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلاّ اللبّان والكافور، وشيء من القرنفل، وشيء من العود الهندي، وإنما معظم ذلك بمّل جاوة". [٢٣٤]ويزيد شرحه تفصيلاً، بالحديث عن كل شجره على حدة، ونسبة توزعها بين المنطقتين، فشجرة اللبان بقامتها التي تقارب قامة الإنسان وبأوراقها الصغار الرقاق، "هي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار"، وشجر الكافور وهي قصب تشبه قصب ديار ابن بطوطة، إلاّ أن انبوبها أو ساقها أطول وأغلظ، ويكون الكافور داخل الأنبوب، أما العود الهندي فيشبه شجرة البلوط، لكن قشره رقيق، وأوراقه كأوراق البلوط، وهو إذا نما صار (قاقلة)، وهو أطيب العود، وكذلك القماري... وأما أشجار القرنفل الضخمة فهي "ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد المسلمين، والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان،... وهو الذي يسقط من زهرة – وهو شبيه بزهر النارنج، وثمر القرنفل هو جوربوا المعروف في بلادنا بجوز الطيب". ورآهم كيف يوقدون العود الهندي " في بيوتهم، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمناً، وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير". والفيلة كثيرة جداً، لدرجة أن "كل صاحب حانوت يربط فيله عنده، يركبه إلى داره وكذلك جميع أهل الصين، والخطا (مقاطعة شرق شمال الصين) على مثل هذا الترتيب".[٢٣٥]

وباختصار، أن مصدر الكثير من أفاوية الطيب التي ببلاد الكفار إنما يأتي منها، بينما هو في بلاد المسلمين أقل من ذلك، هذه من جهة، أما من جهة اخرى فإن "بيع أهلها (أهل جاوه) وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك".[٢٣٦] فهم يتخذون من قطع القصدير، والذهب الصيني نقداً في تعاملاتهم التجارية، وعاصمة القسم الإسلامي يدعوها "سمطرة" ويصفها بأنها "مدينة حسنة كبيرة، عليها سور خشب وأبراج خشب" ومن عادات أهل جاوه اللافتة، أنهم يستقبلون الضيف في مراكب صغار، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبه والسمك، يقدمونها هدية للتجار القادمين، فيقابلهم "كل إنسان على قدره".[٢٣٧]

وقدّم ابن بطوطة وصفاً تفصيلاً للسلطان، ومظاهر سطوته وحكمه، فهو قريب من الناس، لم تفصله السلطة، بعد، داخل أسوار الحكم وتعقيدات الآلية البيروقراطية عن رعيته، فقد أتى السلطان "راكباً على فيل" يستقبل ضيوف مدينته، برفقة حاشيتة، وتبادل الهدايا، والعطايا مع الضيوف، وكان سلطان جاوه آنئذ "الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرامهم"، وهو مسلم "شافعي المذهب محب للفقهاء، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة، وهو كثير الجهاد والغزو، ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه"، أما أهل البلاد والتابعين لسلطانه "شافعيه محبّون للجهاد، يخرجون معه طوعاً، وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح".[٢٣٨]

وعند زيارته لدار السلطان، نزل من فرسه، عند رماح مركوزه على جانبي الطريق قبل الوصول إلى الدار، وهي علامة لا يجوز للراكب أن يتجاوزها، فاكمل ابن بطوطة طريقه إلى دار السلطان ماشياً، فقابل أولاً في "المشور"، أي المجلس، نائب السلطان "وهو يسمّى عمدة الملك"، فصافحهم، إذ أن "سلامهم بالمصافحة"، فكتب بطاقة للسلطان يُعلمه بقدوم ابن بطوطة ورفاقه، "فأتاه الجواب على ظهرها" فدخلوا على قاعة، سماها "دويره ويسمونها قردخانة"، وهي "موضع راحة السلطان بالنهار"، وأن من العادات التي تحيط نظام دار السلطان، هي أن يأتي نائب من الصباح ولا ينصرّف إلاّ بعد العشاء، وهذا ينطبق ذلك على وزرائه الأربعة والأمراء الكبار، وهم يلبسون الفوط بدلاً من السراويل.[٢٣٩]

وكان طعامهم المفضل، وهو الذي قدمه السلطان لهم، "أكثره الأرز، ثم أتوا بنوع من الفقاع، ثم أتوا

بالتنبول" وتقديم هذا الأخير، الذي يشبه قات اليمن هو "علامة الإنصراف".[٢٤٠] ومن عاداتهم تقديم الطعام ثلاث مرات في اليوم كما أن من عادات دار السلطنة، أن لا يستقبل السلطان الضيف إلاّبعد مضي ثلاثة أيام من ضيافته له"، وذلك "ليذهب عنه تعب السفر، ويثوب إليه ذهنه".[٢٤١] بعد عناء السفر في البحار، ثم في اليوم الرابع، يكون السلام على السلطان "بمقصورة الجامع بعد الصلاة"، ويأتي السلطان الجامع لابساً ثياب الفقهاء، وبعد أن يصلي يدخل بيتاً في الجامع، ليلبس ثياب الملك "وهي أقبية من الحرير والقطن" ثم يركب على فيله أو فرسه، مغادراً، ومن عاداتهم، إذا ركب السلطان الفيل، ركب من معه الخيل، وإذا ركب الفرس، ركبوا الفيلة"، ويركب أهل العلم من على يمينه، وأهل السلطان والسلطة من على شماله، يقفون في صفوف، أولها صفوف الوزراء والكتاب، عند باب داره لاستقباله، فيقف في قبّة على يمينه مائة فرس، وعلى شماله خمسون فيلاً، ثم يأتي أهل الطرب ليغنّوا ويرقصوا، وتأتي الخيل المجلّلة بالحرير، وفي أرجلها الخلاخيل، والأرسان المزركشة لترقص بين يديه "وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند".[٢٤٢]

ومن الأحكام النافذة لدى السلطان هناك، بالإضافة إلى الضريبة المعمول بها، على المراكب التجارية، هو أن أي رجل له "بنت قد بلغت مبلغ النكاح، فلا بد أن يستأمر السلطان في شأنها ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها، فإن أعجبته تزوجها، وإلاّ تركها يزوجها أولياؤها من شاءوا، والناس هناك يرغبون في تزوّج السلطان بناتهم، لما يحوزون به من الجاه والشرف".[٢٤٣] أما أحكام الزاني والزانية عندهم، فإن السلطان يأمر بمجامعة الناس للمرأة حتى الموت... ويأمر للرجل بالصلب.[٢٤٤] أما بيوتهم فمصنوعة من الخشب. فقد استضاف السلطان ابن بطوطة، في دار بناؤه بالخشب، ومفروشة بقطائف قطن يسمّونها المخملات، فيها المصبوغ وغير المصبوغ، وفي البيت أسرّة من الخيزران، فوقها مضربات من الحرير، ولحف خفاف، ومخاد، يسمونها البوالشت.[٢٤٥]

على الرغم من الاختلاف في المرجعيات، وأنماط السلوك، فإن ابن بطوطة لا يُخفي إعجابه بالكثير من الجوانب الحياتية للمجتمع الجاوي، وهذا ينطبق أيضاً على موقفه من جاوه "الكفار"، فإذا استثنينا الجانب الديني، فإن هذا لم يمنع ابن بطوطة من إطراء كل الجوانب التي يجدها تستحق الإطراء، الثراء، الكرم، الجمال، بساطة السلوك، العدل، فنزل من مركبه الجنك، أي المركب، إلى مل جاوه، فعرف،أن مدينتها الرئيسية "مدينة قاقلة". وجدها "حسنة، عليها سور من حجارة منحوتة "يمكن أن تسير عليه ثلاثة من الفيلة، فكان أول ما صادفه فيها "الفيلة وعليها الأحمال من العود الهندي" الذي يوقدونه في بيوتهم، ويبيعونه بثمن غال، وأعجبته بساطة "سلطان جاوه الكافر"، إذ رآه جالساً خارج قصره مع أرباب دولته، دون أن تكون الأرض مفروشة تحته بالبسط، وقد رحب السلطان به وأصر أن يفرش له ثوب يقعد عليه، فتردّد ابن بطوطة بالجلوس، متسائلاً "كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟" فأتاه الجواب من حاشيته "هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً، وأنت ضيف، وجئت من سلطان كبير، فيجب إكرامك"، وقال له السلطان "تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام، وحينئذ يكون انصرافك".[٢٤٦] ولقد ذكر الإدريسي، قبل ثلاثة قرون من رحلة ابن بطوطة، أن أهل جابه وشلاهط وهزلج يتبعون لملك واحد (اسمه جابه) وهو يلبس حلة الذهب، وقلنسوة الذهب، مكلّلة بالدر والياقوت، ودراهمه مطبوعة على صورته"[٢٤٧] وعبادته مع رعيته "البد والبدود"، ويعني بذلك الأصنام، أو لعل هذه الكلمة مشتقة من كلمة (بوذا)، ثم صورت لتكون رمزاً لعبادة الأصنام، وهي بالأساس أصنام بوذا الرمزية، يقول عنها الأدريسي "البد والبدود، هي الكنائس بلغة أهل الهند، وبدُّ الملك حسن البناء وحسن الصنعة، وقد كلفت جميع جوانبه بالرخام الأبيض، وعلى رؤوسها التيجان المكلّلة، وعليها الحلل وسائر الثياب المنسوجة من الذهب، ونحوه، وصلاتهم في هذه الكنائس، إنما تكون غناء وتلحيناً، وتصفيقاً لطيفاً بالأكف"، وأضاف الإدريسي،إلى تلك الطقوس، وصفه لطقوس التخلّع لفتيات المعبد الحسان اللاتي ينذرن أنفسهن للبدّ وعبادته، حيث يقمن فيه "ويلعبهن بأنواع من

الخف والتخلع، وكل ذلك يكون بين أيدي المصلين، والمجتمعين في البدّ، ولكل بدّ من تلك الجواري عدّة، ياكلن ويلبسن من مال البدّ، وذلك أن المرأة إذا ولدت بنتاً حسنة الصورة جميلة القد، تصدقت بها على البدّ... فإذا صارت الطفلة بيد خدّام البدّ دفعوها إلى نساء عارفات بالزفن والتخلع، وجمل اللعب، بما يحتاج إليه، فإذا قبلت التعلّم، لبست أفضل الثياب، وحلّيت بأرفع الحلي، ولزمت البد، كذلك سنّة الهنديين الذين يعبدون البد".[٢٤٨]

كله بار ومضيقها

ذكرها ابن سعيد، كما مرّ سابقاً،على أنها مشهورة على ألسنة المسافرين، يُنسب إليها العود الكلهي، الذين يصنعون منه مراكبهم، فهي من أهم المدن التجارية على الطريق التجاري الكبير ما بين بلاد العرب، والهند وخاصة الصين، وأشار اليها ابن الفقيه بقوله، "وهي من مملكة الزانج متيامنة عن بلاد الهند، يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط"[٢٤٩] كما وصفها الدمشقي بأنها، "يُنسب إليها البحر" ولعله يقصد بذلك مضيق ملقا /أو مضيق كله، الفاصل بين سومطرة والملايو، و "هي جزيرة خطرة طولها ثمانمائة ميل، وعرضها خمسون ميلاً".[٢٥٠] وأشار الإدريسي إلى أن "لباس أهلها الفوط، يلبس الرجل والمرأة فوطة واحدة".[٢٥١] وقد أتى بأخطر المعطيات عن الجزيرة، كلّ من سليمان التاجر والمسعودي، والحميري في معجمه، إذ أكد وا على أن (كله) هي في منتصف الطريق "بين أراضي الصين وأراضي العرب"، "وبكله مجتمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعي والأبنوس والبقم الأفاوية كلها".[٢٥٢] ويضيف الحميري، أن "بها كثير صافي الجوهر، والتجار يغشونه بعد خروجه منها، ومنها يتّجر به إلى جميع البلدان، وبهذه الجزيرة منابت الخيزران، وبها الكافور الجيد"، ثم ينوه بدورها الكبير في التجارة الدولية بين بلاد العرب والصين، "يقال لجزيرة (كله) المنصف، وهي بين أرض الصين وأرض العرب، وبها يجتمع التجار من الصينيين والمسلمين، وإليها يتجهّز من عُمان فتُجلب منها أصناف الصين كله والرصاص القلعي والأبنوس والبقم وغير ذلك".[٢٥٣] وأكمل أبو الفداء الصورة بقوله،إن فيها " مدينة عامرة يسكنها المسلمون والهند والفرس".[٢٥٤]

فقد تحولت كله في منتصف القرن العاشر، إلى مركز، ومحطة للتجار العرب والصينيين والهنود، يتبادلون على أرضها سلعهم، وتجارتهم، وذلك حينما انقطع التبادل التجاري المباشر مع الصين، على أثر الاضطرابات التي أصابت خانفو (كانتون)، وهي التي كانت المرفأالصيني الرئيسي للتجار العرب، أثناء ماكانوا على اتصال مباشر، وقد أشار المؤلفون العرب إلى وصول السفن الصينية إلى المرافئ العربية مقابل وصول التجار العرب إلى شواطئ المحيط الهندي وجزره، وإلى وصولهم إلى مرافئ الصين، منذ زمن بعيد، وهو ما أكده عليه المسعودي: "وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك (بخلاف ما هم عليه في القرن الرابع هجري) وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبله والبصرة، وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع التي ذكرناها إلى ما هناك".[٢٥٥] ثمّ نبّه إلى أن هذا الاتصال المباشر قد انقطع في القرن الرابع عشر الميلادي، بسبب الاضطراب الكبير في خانفو،،الذي أعاده المسعودي إلى اضطراب الحكم، وانتفاء العدل في الصين "ولما عدم العدل. وفسدت النيّات، وكان أمر الصين ما وصفناه التقى الفريقان جميعاً في هذا النصف".[٢٥٦]

وعلى هذا، روى لنا المسعودي حكاية تاجر عبر الطريق إلى أن وصل كلّه، فيقول، أن هذا التاجر من بلاد خراسان، خرج من بلاده ومعه تجارة، انتهى إلى العراق، وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى بلاد عُمان "وركب إلى بلاد كله، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم".[٢٥٧] وأعاد السيرافي إلى الاضطرابات الكبرى الصينية في

خانفو/ السبب في انقطاع التجارة المباشرة مع العرب، وفي الاستعاضه عن ذلك بالتواصل عن طريق محطة (كله) الكبرى التي تقع في منتصف الطريق، وهو شرح سنعود له في حديثنا عن الصين، وقد ربط بعض الباحثين المعاصرين، بين واقعة هذا الانقطاع للصلة المباشرة، وبين حوادث الصين العنيفة في عام ٨٧٨م، عندما حاصر الثائر (هوانج تساو) Huang chao مدينة كانتون /خانفو وأعمل فيها النهب والسلب، وقتل عدداً ضخماً من التجار الأجانب والصينيين[٢٥٨] وهو وصف يقترب من وصف السيرافي لحوادث خانفوالمدمرة. ونستطيع أن نستدل أيضاً من كتاب (عجائب الهند) لبزرك على أن أقصى ما كانت تبلغه مراكب العرب المسلمين،في القرن الرابع هجري، مدينة كله، أو ملقا، ويبدو أن هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم، وذكر أبو دلف أن كله هي أول بلاد الهند، وآخر منتهى مسيرة المراكب، لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلاّ غرقت.

ملك المهراج

هذه الجزر كلها، الداخلة في الأرخبيل الأندونيسي، ربطها مؤلفونا بخيوط متشعبة بسلطان ملك المهراج، الذي رفعوا من شأن سلطانه ومكانته، بين ملوك الأرض، فابن رسته يشتق تسمية المهراج ليزيد من مقامه غنى، وقوة، واتساع ملك "وتفسير المهراج ملك الملوك، وليس يُعدُّ، في ملوك الهند، أعظم منه، ولا يُعلم ملك أكثر خيراً منه، ولا أقوى، وأكثر دخلاً".[٢٥٩]

وذهب بهم الخيال، إلى حد أن تصورابن الفقيه ثراء المهراج، بأن " في جزائره عجائب، وأنواع العطر، وينبت في بلاده الذهب نباتاً، ويقال إن غلته في كل يوم مائتا من ذهب[٢٦٠] واشتهر ملكهم عند ابن سعيد المغربي، بأن قصره "على جدول متسع، فرش قاعه بالفضة"، وأن من سُنَّة، أو عادة ملوك الجزر، الذين تحت سلطته "أن يرمي أجره من ذهب في كل سنة" وعنده "من فصوص الياقوت والزمرد وحب اللؤلؤ الكبير بما يتنافس فيه مع الملوك ويفخر به عليهم".[٢٦١]

وقيل عن هذا الملك، إنه في "كل يوم يدخل قهرمان الملك ومعه لبنة قد سكبها من ذهب... فيطرحها بين يدي الملك في ذلك الغدير". ويثابر على طرح لبنة ذهب كل يوم في الغدير أمام القصر، طوال حياة الملك، فإذا مات الملك أخرجها القائم، وأحصاها ثم أذابها "وفرقت على أهل بيت الملك ورجالهم ونسائهم وأولادهم وقوادهم وخدمهم على قدر منازلهم.. وما فضل، بعد ذلك، فض (وزع) على أهل المسكنة والضعف" فالفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد اللبن الذهب في تركته". [٢٢]

وعرض ابن رسته علينا احتكامهم على (النار) في محاكمتهم أمام سلطانهم، وأشار ابن رسته إلى أن السلطان له قائد للجيش، يسمّى هرلج، وله جزيرة تسمّى باسمه، وجزيرة أخرى تسمّى خوران، وأن أهل مملكته يحتكمون بالنار، ويحلفون بها، فإذا خاصم رجل رجلاً عند السلطان، بسبب اعتدائه على الدين/أو للزنا بالمحصنة أو السرقة، أمر السلطان المدعى عليه، أخذ قطعة حديد محماة بالنار، ليضعها على كفه فوق سبع ورقات مرتبة بعضها فوق بعضها، فيمضي الرجل ذهاباً وإياباً مائة خطوة، سبع مرات "فإن أحرق يده، والورق جميعاً، أُلزم الذنب، فإن كان عليها لقتل قتل، إن كان عليه الغرم غرم، وإن لم يكن له مال، كان عبداً للسلطان، يبيعه، وإن لم تحرقه النار قيل للمدعي عليه: إنك مبطل فيلزم ما كان يدّعى عليه".[٢٦٣]

وهكذا، تبدت لهم مملكة المهراج على تعدد جزرها، وناسها، أديانها،و طبيعتها، غنية، ثرية، تضاهي في ثروتها أعظم بلاد العالم، ويتجلى في ملكها السلطان والعظمة، والقوة، والسؤدد، فضلاً عن الثراء الذي لا يدانيه ثراء، وإذا كان مؤلفونا لم ينكروا وجود بعض الطوائف في مملكة المهراج، وفي أطراف جزره لم تدخل مجال تنتظيم الحضارة والعمران بعد، فإنهم رأوا فيها بعض المظاهر الإيجابية، كحسن استقبالهم للضيف، فضلاَعما

لاحظوه، في هذه المملكة،من شعوب دخلت مجال العمران، وتذوقت طعم الثراء، والكرم، والتنظيم الحكومي العادل. وعلى الرغم من حكمهم على قسم من سكانها بـ (الكفر)، إلا أن هذا لم يؤثر على تقديرهم لأي صورة من صور العمران، وأي مكرمة تتعلق بمكارم الأخلاق لديهم،أو عند سلطان بلاد الكفار في جزيرة جاوة، وهو ما تجلّى في شهادة ابن بطوطة على تواضع هذا السلطان وبساطته وكرمه،و حسن استقباله للضيف، فقد رسم لنا شخصية تقارب في تواضعها وبساطتها الشخصية الأعظم في تاريخ الخلافة الراشدية، وهي شخصية عمر بن الخطاب.

وعلى الرغم من مظاهر عظمة المهراج، وثرائه وقوته، إلا أن مؤلفينا العرب حرصوا على إبراز تقدير هذا المهراج لزواره العرب، وفي تبجيله لدور ملوكهم، وتمييزه لهم عن باقي الزوار والرسل، وهو تأكيد لا بد منه لإظهار هؤلاء المؤلفين ثقتهم بهويتهم الحضارية، وبمكانة بلادهم في العالم، فقد كان من رسم ملوك الزابج، أو تقليدهم الملكي، كما يقول بزرك، أن لا يجلس أحد بين أيديهم، كائناً من كان إلاّ مربعاً، فمن قعد، ومدَّ رجليه، أو قعد غير تلك القعدة، فعليه غرامة ثقيلة تتناسب ومكانته. غير أنه استثنى،من ذلك التقليد، المسلمين، وهذا يذكرنا بما رووه عن رفض رسل الخلفاء العرب المسلمين الخضوع لتقاليد البلاط البيزنطي بالركوع أمام الإمبراطور البيزنطي، وقد أورد بزرك أمراً لملك الزابج يقول فيه: "الصواب أن نرفع هذا الإسم عن المسلمين الغرباء، فرُفع عنهم، فهو إلى اليوم رسم، أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون، ويجلس غيرهم على الرسم".[٢٦٤]

جزيرة قمار /مملكة كمبوديا/

ذكّرنا السيرافي، بوضوح، عن طريق روايته، بمحاولة ملك قمار (كمبوديا)، التطاول على ملك المهراج، فكانت النتيجة أن تبين رجحان كفة المهراج الراسخة، إذ قيل أن أحد ملوك قمار، بينما كان جالساً في قصره مع وزيره، وهو يطل على واد يجري منه الماء العذب إلى البحر، قال لوزيره: "وقد جرى ذكر مملكة المهراج، وجلالتها وكثرة عمارتها، وما تحت يده من الجزائر" فراودت ملك قمار رغبة أن يرى "رأس المهراج في طست بين يديه"، فعلم الوزير "أن الحسد أثار هذا الفكر في نفسه" فنصح الملك أن لا يذيع رغبته، فغضب الملك، "ولم يسمع من الناصح، وأذاع ذلك لقواده.... فتناقلته الألسن، حتى شاع واتصل بالمهراج"، فأعد الأخير ألف مركب، قد ندب لها "جملة من السلاح وشجعان الرجال" وكتب إلى "الملوك الذين في هذه الجزائر وهم في طاعته"، فانخرطوا في جيشه، فعبر به إلى مملكة القمار، وكان ملك الزابج وأصحابه يستعملون (السواك) دائماً، ينظف الرجل به أسنانه "مرات في اليوم" لا يفارقهم، فما إن وصل جيشه إلى ملك قمار، حتى هجم على دار ملك قمار، واستولى عليه، وجلس على كرسي ملكه، أخذ ملك قمار أسيراً، قائلاً له معنفاً "ما حملك على تمني ما ليس في وسعك ولا لك فيه حظ.. ولا أوجبه سبب يسهل السبيل إليه، فلم يجد جواباً" ثم أردف ملك المهراج قائلاً "لكنك تمنيت شيئاً بعينه، فأنا فاعله بك، وراجع إلى بلدي من غير أن أمد يداً على شيء من بلادك... لتكون عظة لمن بعدك".[٢٦٥]

وهكذا، انقلب الأمر على ملك قمار، فدق ملك الزابج عنقه، ووضع رأسه في طست بين يديه، ثم رده إلى الملك الذي خلفه على عرش قمار، وجازى الوزير الناصح خيراً، بأن فوضه لينصّب لقمار الملك الذي يرضاه، وهذه البلاد عند السيرافي "مسامتة لمملكة المهراج والجزيرة المعروفة بالزابج، وبينهما مسافة عشرة أيام إلى عشرين يوماً عرضاً في البحر إذا كانت الرياح متوسطة".[٢٦٦] ولا يقلل من أهمية هذه البلاد، بنظر المصنفين العرب، أرجحية جزر المهراج عليها، إذ قدروا طول مملكة قمار "مسير أربعة أشهر".[٢٦٧] وليس في شيء من الممالك أكثر عدداً من أهل القمار" [٢٦٨] . وأيضاً لملك قمار حاشية كبيرة للغاية، يكفي أن يقدّر ابن الفقيه أنه "يفترش أربعة آلاف جارية"،[٢٦٩] وفي طاعة ملك قامرون، أيضاً جزيرتان تنتسبان إلى بلاده، إسم إحداهما جزيرة يوحنا،

واسم الثانية جزيرة لاسيه.[٢٧٠] وذهب ابن سعيد إلى أن العديد من الجزر تتبع سلطان ملك قامرون، فله "جزائر صغار كثيرة، في غربه، وطول الكبرى أربعمائة ميل، وعرضها دائر على مائة ميل، وفي غربي جزائره الصغار جزائر مضافة لجاوة فيها العقاقير الهندية والرصاص الكلهي"[٢٧١] وينفرد ابن سعيد عن غيره من المؤلفين بتأكيده على الصلة السكانية بين أهل جزيرة القمر (مدغشقر)، وبين قامرون إذا افترض أن سكان جزيرة القمر كان أصلها من بلاد الصين "ثم تفاتنوا وأخرجهم ملك الصين إلى جزائر" كان اسم ملكها (قامرون)، ويقطن في هذه الجزر جزء من شعب القمرون،ثمّ اتجهوا واستوطنوا جزيرة القمر (مدغشقر).[٢٧٢] وقمار، أو قامرون "هي الأرض التي يجلب منها العود القماري".[٢٧٣] ذو المواصفات الجيدة، "لكن العود الصنفي أجود منه، وبها الصندل والأرز، وأهلها يجالسون التجار".[٢٧٤]

زار هذه المملكة، في القرن الثالث الهجري الرحالة أبو عبد الله محمد بن اسحاق، وترك وراءه تقريراً اثنوغرافياً مقتضباً عنها، حفظه ابن رسته في كتابه (الأعلاق النفيسة)، ثم نقله عنه الحميري، أول ما لفت نظره كمسلم محافظ على التقليد الإسلامي، من سلوك ملك القامرون وزاد من اعتباره لذلك الملك، هو تحريمه شرب الخمر والزنا، فيقول: "إن عامة ملوك الهند يرون أن الزنا مباح، ما خلا ملك قمار، فإني دخلت مدينته، أقمت عنده بها سنتين، فلم أر ملكاً أغير ولا أشد في الأشربة منه، فإنه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل".[٢٧٥] إذ سنّ العقوبات الشديدة على الشارب، حتى الأقربين إليه، فإذا "شرب (أحد) من قواده وجيشه يحمى مائة حلقة من حديد بالنار، ثم يوضع ذلك كله على يد ذلك الرجل الشارب"، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الملك شديد الغيرة على ضبط القانون، والعرف، وهو ما يظهر في العقوبات القاسية التي يفرضها على الجناة "ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين، والأذنين".[٢٧٦] فهو لا يكترث للغرامات التي يتبعها سائر ملوك الهند، وهو عادل في أحكامه، عنده ثمانون قاضياً، لو ورد عليهم ولد الملك لأنصفوا منه، وأقعدوه مقعد الخصم".[٢٧٧] وعلى هذا شدّد، الحميري على أن "فيه عدالة ظاهرة، وجودة مشهورة، إنصاف كامل".[٢٧٨] ورغم جبروت السلطة، وقسوة أحكامه على المخالف،و شدة عقوباته، فإنه كان لين مع العرب والضيف الداخلين إلى بلاده فهو "لا يكلّف العرب، ومن دخل بلاده" وكل من أهدى له شيئاً من هؤلاء "كافأه بأضعاف ما أهدى له، يكافئ الجزء مائة جزء".[٢٧٩]

ويذهب ابن اسحاق، ويؤيده ابن الفقيه، أن أصل كتب ديانات الهند من بلاد قامرون، وهذا باعتراف الهند نفسها: "والهند يقولون أن أصل كتب الهند من قمار".[٢٨٠] أما ديانتهم فإنهم يعبدون الأصنام البدود[٢٨١] يكثر في بلادهم المتعبدون، لدرجة يقول عنهم أبو اسحاق "وأصل العباد من بلاد قمار، يقال أن فيها مائة ألف عابد".[٢٨٢] ومن عاداتهم أنهم كباقي أهل الهند "يحرقون موتاهم بالنار"[٢٨٣] ولقد أظهر مؤلفونا إعجابهم بجمال أهل قامرون وبشجاعتهم ووقارهم أيضاً، فهذا ابن اسحاق يصفهم بأن "لهم جمال وهيئة يصلحون للملك".[٢٨٤] وفي جزيرة لاسيا التابعة لملك قامرون "قوم ألوانهم إلى البياض، وفي نسائهم جمال بارع، وفيهم نجدة وبأس شديد".[٢٨٥]

جزيرة سلا /كوريا أو اليابان/

يحار الباحثون المعاصرين، إزاء جزيرة سلا، التي ورد ذكرها في المصنفات العربية، بين نسبتها إلى الجزر اليابانية أو إلى شبه الجزيرة الكورية، إلا أن ما هو واضح لدى مصنفينا العرب، هو اعتبارها آخر حدود البر في الشرق الأقصى، وبعدها يأتي المحيط المظلم، أو البحر الزفتي بمائه الراكد، وريحه العاصفة، يصفها ابن سعيد المغربي بأنها تقع في البحر المحيط، في أقصى الإقليم الأول في الشرق، "وهي مثل جزائر الخالدات في البحر

المحيط ليس خلفها عمارة، ولكن هذه معمورة فيها خصب وخيرات".[٢٨٦] وأشار الإدريسي بنظرة إجمالية لها، فهي جزر "كثيرة متقاربة... وفيها مدينة تسمى الكيوة، ومن دخلها من المسافرين استوطنها، ولم يرد الخروج عنها لطيب ثراها، وكثرة خيرها، والذهب بها كثير جداً، حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم، وأطواق قرودهم، من الذهب".[٢٨٧] وذهب النويري بالاتجاه نفسه، فيقول "إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء ومطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف".[٢٨٨] وقدّر بعضهم طولها ستمائة ميل وعرضها مائتا ميل". [٢٨٩] وينفرد سليمان التاجر بالقول بإن" أهلها يتبادلون الهدايا مع الصين". وهم بيض. "ولم يبلغها أحد من أصحابنا".[٢٩٠] فتبقى السيلا يلفها الغموض، وتحيطها التقديرات التخمينية، وكيف لا يكون ذلك وهي آخر حدود العالم المعمور شرقاً.

جزر الواق واق

تأثر المؤلفون العرب في تخيُّلهم لعوالم الجزر في أقصى جنوب المحيط الهندي، أو في مشرقه الأقصى، وهي التي تقترب من حافة القسم غير المعمور من الأرض، بهيمنة الفكرة القائلة بتعذر الحياة فيهما لشدة الحرارة في ما وراء خط الاستواء، ومما عزّز هذه الفكرة لديهم اقتباسهم النظرة الفلكية – الإقليمية الموروثة عن بطليموس، وعن تلاميذه من الجغرافيين الفلكيين العرب، رغم تقدم معرفتهم المباشرة لهذا المناطق، وكما قال كراتشكوفسكي: "وبالرغم من أن العرب قد كشفوا في القرون التالية للخوارزمي عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقي لأفريقيا، وفي الهند، وجنوب شرق آسيا، فإن النظرة القائلة باستحالة السكن في الأقاليم الحارة قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة".[٢٩١] كما اعترض عليها ابن رشد، ومعاصره الرحالة والجغرافي الكبير ابن سعيد المغربي، الذي شدّد على احتمال اتصال الأقاليم الشمالية بالأقاليم الجنوبية على الكرة الأرضية.[٢٩٢]

وكانت حصيلة هيمنة تلك النظرية، أنهم تصوروا أن أشكال الحياة التي يمكن أن تقوم في أعماق الجنوب، خلف خط الاستواء، لا بد أن تخضع لتشوهات تلك البيئة، حتّى تتلاءم مع قسوة ذلك المحيط وغرابته، فتبدو البحار والجبال والنباتات، والحيوان والإنسان، مغايرة لما هي عليه في عالمنا، فكل ما يحيط بهذه البلاد الموغلة في اقترابها من حدود القفر اليبابي، يجعلها تقع في عوالم العجيب والغريب والخارق.

وهكذا خضعت الجزر الجنوبية في المحيط الهندي، الموغلة في انحدارها وراء خط الاستواء للصورة النمطية، الملتصقة عند المصنفين العرب بعوالم أقصى الجنوب، فتجاور لديهم الغريب بالعجيب بالشاذ، ببعض النقاط الواقعية المأخوذة من تجارب البحار والتجارة التي تراكم فوقها الكثير من الحكايات الخرافية مع الزمن، إذ أخذت المخيلة بدور كبير في ملء الفجوات المعرفية عن عوالم عرض البحر خلف خط الاستواء، وعن تخوم عالم القفر، وذلك بإسباغ نوع من المعقولية السردية على عجيبها وغريبها، فكان أبرز الجزر التي تمخضت عنه المعرفة العربية التخيّلية للعالم الجنوبي، أو لأقصى الشرق من البحر المحيط هي "جزائر النساء"، "وجزر الواقواق". فبدت تلك الجزائر على نوعيها متلازمتين في السردية العربية. وما يمكن ملاحظته أن جميع الروايات المتعلقة بتلك الجزر لا تتفق على سردية واحدة، لا سيما فيما يتعلق بالتفاصيل، إذ حرص الرواة من أصحاب المصنفات على التذكير بأنهم لم يشاهدوا وقائع رواياتهم، بل أنهم سمعوها من رواة آخرين، فلم يحمّلوا أنفسهم مسؤولية إذاعة الخبر، وقد أعطى هؤلاء المؤلفون تعليلاً موضوعياً بيئياً لنشأة الغريب والخارج في أقصى جنوب البحار، كقول الدمشقي "أن الجهة الجنوبية خراب لا يحدث فيها نبات معهود لنا، وأن المعمور فيها خلف خط الاستواء، كما قال بطليموس، إحدى عشر درجة ونصف وربع درجة،... وأفرط الحر على النبات والحيوان فلم يتكون فيها إلاّ ما فيه صبر واحتمال وجلد لذلك الجزء المحرقّ".[٢٩٣]

وهكذا، تراءت لنا في المؤلفات العربية فيما وراء العامر، على أطراف جبل قاف، وفيما وراء البحر المحيط، أرضاً من سندس، وأرضاً من كافور، وأشجاراً غريبة تصدح من على أغصانها الأطيار، وأخرى تطرح ثمراً كرؤوس الآدميين، تتمايل عند طلوع الشمس وهبوب الريح، وهي تصيح: واق واق، تبارك الخلاق، ثم تعود إلى سكونها بعد خبو الريح، وغروب الشمس. فمنذ القرن التاسع الميلادي نجد صدى (لأخبار) جزيرة الواقواق عند ابن خرداذبة، دون أن يدخل في وصفها، إذ يقول "إن طول البحر الشرقي الكبير من القلزم إلى الواقواق أربعة آلاف وخمس مائة فرسخ".[٢٩٤] فقد تصور مصنفونا موقع جزائر الواقواق في البحار الجنوبية الغامضة، فيها امتزج الإنساني بالحيواني بالنباتي، وذهب المسعودي إلى أن "ومما يشبه خلق الإنسان أمة يقال لها الواقواق، وهي حمل شجر عظام لشعورها، ولها أيدي وفروج مثل فروج النساء... ولا يزلن يصحن: واق واق، فإذا قطعت إحداهن سقطت ميتة لا تنطق".[٢٩٥] هنا عند المسعودي لايبدو ثمر الشجر ثمراً نباتياً عادياً، بل هو إنسان – امرأة – على شكل ثمرة معلقة من شعرها. وليس ثمرة على صورة إنسان، وهذا الإنسان الثمرة يموت بمجرد سقوطه من الشجرة، ولقد تحدث الحميري بطريقة توافق رواية المسعودي، حيث يسرد "وأمة الواق واق حمل شجر عظام معلقة بشعورها، ولها ثدي وفروج كفروج إنسان، وأبدان حسان، لا يزلن يصحن واق واق، وإذا قطعت من الأشجار التي تحملها أقامت يوماً وبعض يوم ثم تهلك"[٢٩٦] وحدّد موقعها على اتصال بأرض سفالة الأفريقية، لا يعرف ما بعدها" وهي بلاد لا يسكنها بشر، لكنها "أكثر الأرض طيباً، وبها تمر وفواكه لا تُعرف في غيرها ولا يعلم ما هي، ويليهم أمة بحرية على شبه النساء الحسان، سبط الشعور، نواهد الصدور".[٢٩٧]

فدخلت أسطورة الواق واق في التداول الثقافي العربي، منذ القرن العاشر الميلادي، وما بعده، إلا أن هناك فريقاً من المؤلفين، حاول أن يعطيها تفسيراً موضوعياً وعلمياً، وذلك بأن جعل ثمرة شجرة الواق واق، ثمرة نباتية تأخذ شكل وصورة أنسان، وعلى الأقل شكل رأس إنسان، وليس إنسان على شكل ثمرة، فحدثنا بزرك، عن محد بن بابشار، عمّن دخل الواق واق وحدثه عنها، "أن هناك أشجاراً كباراً له ورق مدور، ومنه ما هو إلى الطول يحمل حملاً على مثال القرع إلا أنه أكبر منه، وصورته صورة الناس تحركه الرياح فيخرج منه صوت، وأن داخله منفوج... فإذا قُطع عن الشجر خرج الريح منه...، وصار مثل الجلد".[٢٩٨] وحمل الدمشقي الرواية ذاتها، والتفسير الموضوعي ذاته، فبعد أن وضع جزر الواق واق في المحيط الكبير، خلف جبل أسماه (اصطفون)، و"يوصل إليها من بحر الصين"، أشار إلى أن "الواق شجر صيني، شبيه بشجر الجوز، وخيار الشنبر، ويحمل حملاً كصورة، فإذا انتهت الثمرة منه سمع السامع منه واقواق مرات، ثم يسكت".[٢٩٩] هنا يصبح الواق واق عبارة عن ثمرة شجرة تبعث صوت خاص، ينتهي بسقوط الثمرة، ومكان هذه الجزر في نهاية البحر المحيط، ووضع ابن سعيد المغربي هذه الجزر في الشرق الأقصى في الجزء العاشر،"والبحر في هذا المكان من الجزء العاشر كأنه منفرد عن البحر الهندي، والبحر المحيط، يقال له بحر الواق واق. فيه جزائر أولها جزيرة السحاب... وفي جنوبها جزيرة الدجال.. جزيرة الواق واق في آخر عمارة هذه الجزيرة مع المشرق" ثم استرجع رواية المسعودي قائلاً "حكى المسعودي إلى أن فيها شجراً يخرج منه نبات... ويولد منه جوار (جمع جارية) يتعلقن بشعورهن، وتصيح الواحدة منهن واق واق، فإن قطعن شعورهن وفصلن عن الشجرة متن".[٣٠٠] ولعل ابن سعيد قد تأثر بالإدريسي الذي وضع هذه الجزر قبالة السواحل الصينية، بعد جزيرة قامرون وجزيرة السحاب" لا يعرف ما بعدها، وربما وصل أهل الصين إليها في الندرة، وهي جزائر عدة، لا عامر فيها، إلا الفيلة، وخيرها كثير جداً". إلا أن الإدريسي ذكر رواية المسعودي عن شجر الواق واق، بتشكك إذ يقول: "وبها شجر حكى المسعودي عنها أموراً لا تقبلها العقول، من جهة الأخبار عنها، ولكن الله على ما يشاء قدير".[٣٠١]

ولم يتوقف الأمر، عند شك الإدريسي، بالخرافات التي أحاطت بشجر الواق واق، وجزرها، فلقد رجع إلى هذه الموضوع نفسه أبو ريحان البيروني في القرن الحادي عشر، فأبعدها عن الحكايات الخرافية، وقربها من

الوقائع حين جعلها من جزيرة قامرون، فأرجع السرد الخرافي الذي أحاط بها إلى معتقدات العوام، إذ قال "وجزيرة الواق واق من جملة قمير، وهو اسم مكان لا كما تظنه العوام من شجر حملها كرؤوس الناس تصيح، ولكن قمير قوم ألوانهم إلى البياض، قصار القدود على صور الأتراك، ودين الهنود"(٣٠٢) وبعد مضي قرن على كتاب البيروني هذا، كانت قد توطدت رواية (العوام) حسب تعبير البيروني – فاكتفى ياقوت الحموي في معجمه، أن أبدى الريبة بها، حين نسبها إلى الخرافات، إذ قال: "الواق واق هي بلاد فوق الصين، يجيء ذكرها في الخرافات".(٣٠٣)

لكن تكرار التشكّك من قبل مفكرين كبار ،لم يمنع مصنفين كبار بعد القرن الثاني عشر من الترويج للجوانب الأسطورية للرواية (العامية) عن جزائر الواق واق، إذ قدّم كل من القزويني (ت٦٨٢هـ) عالم التاريخ الطبيعي، والكوزموغرافية العربية، في كتابيه "عجائب المخلوقات" و"آثار البلاد"، وابن الوردي، الكوزموغرافي، والحميري صاحب المعجم الشهير، تصوراتهم الخاصة المليئة بالعجيب والغريب عن جزر الواق واق، فذكر القزويني "أنها في بحر الصين وتتصل ببحر زابج" ويصل عددها إلى "ألف وستمائة جزيرة"، وأنها سميت بهذا الإسم "لان بها شجرة، لها ثمرة على صورة نساء معلقات من الشجر بشعورها، وإذا أدركت (بلغت) يسمع منها صوت واق واق".(٣٠٤) وبها كثير من الذهب، حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب، وعندهم قمصان منسوجة بالذهب، وتندمج عند القزويني رواية جزر الواق واق، بحكاية جزيرة النساء، فيروى عن موسى بن المبارك السيرافي، أنه دخل هذه البلاد، وقد ملكتها امرأة، وأنه رآها على سرير عريانه، وعلى رأسها تاج، وعندها أربعة آلاف وصيفة عراة أبكار،(٣٠٥) كما ذكر أنه (في بحر الصين نساء، لا رجل معهن أصلاً، وأنهن يلقحن من الريح، ويلدن النساء مثلهن"، ودعم روايته بما سمعه على لسان تجار ذهبوا إلى هذا البحر، فرأوا "نساء لا رجال معهن ورأيت الذهب في هذه الجزيرة مثل التراب".(٣٠٦) وقد استرجع ابن الوردي أقوال القزويني تلك، بما فيها قرنه جزائر الوق واق بجزيرة النساء، ويزيد عليها تفصيلات، حيث ذكر أن ملكة جزائر البنات "إمرأة تسمى دمهرة، وتلبس حلة منسوجة بالذهب، ولها نعلان من ذهب، وليس يمشي في هذا الجزائر أحد بنعل غيرها، ومتى لبس غيرها نعلاً قُطعت رجليه، وتركب في عبيدها وجيوشها بالفيلة والرايات والطبول والأبواق والجواري الحسان، ومسكنها جزيرة تسمى أبنوتة". وأضاف إلى ذلك، نسبة بعض مظاهر العمران والحضارة إلى أهل هذه الجزيرة، فـ "أهل هذه الجزيرة حُذاق بالصنائع حتى أنهم ينسجون القمصان قطعة واحدة بأكمامها، وأبدانها، ويعملون السفن الكبار من العيدان الصغار، ويعملون بيتاً من الخشب تسير على وجه الماء".(٣٠٧)

على الرغم من أن بعض المؤلفين العرب قد تمثّل وجود هذه الجزر قبالة سفالة الزنج، أي ناحية الجنوب الشرقي من الساحل الأفريقي، وبعضهم الآخر وضعها في الأعماق البعيدة لسواحل الهند الصينية، إلاّ أن هذا لم يغير كثيراً من موقعها الجغرافي، طالما أن أكثر المؤلفين العرب قد تصوروا، بتأثير بطليموس، أن السواحل الجنوبية الشرقية لأفريقيا تمتد شرقاً لتقابل سواحل الهند والصين، لهذا فإن جزر الواق واق تقع، في كلا التصورين، قبالة السواحل الهندية الصينية.

أما الباحثون المعاصرون فقد حاروا في تحديد الجزائر التي ذكرها باحثونا باسم واقواق، بعضهم رجّح أن تكون جزيرة مدغشقر، وذهب فريق آخر إلى أنها شبه الجزيرة الكورية، وقال ثالث إلى أنها اليابان،مستنداً على أن ابن خرداذبة وابن حوقل وابن سعيد وابن الفقيه وياقوت والبيروني الذين أجمعوا على أن الواقواق في شرق الصين،كما اتفقوا على أن الأبنوس الجيد ينبت في أرضها، وقد أكدت" دائرة المعارف اليابانية "حكاية الأبنوس هذه،وتوقع المستشرق (دي خويه)أن يكون الرحالة العرب سمعوا بهذا الاسم الوقواق على أفواه الصينيين في (خانفو)، ميناء الصين الكبير، فقد عرف الصينيون بلاد اليابان منذ القديم، ودرجوا على تسميتها في لهجتهم "ووقوق"، أما الاسم الحديث، الذي تعرف به تلك البلاد، فهو مشتق من (يبين)، ويعني مشرق الشمس، وقد أُطلق عليها هذا الاسم منذ

القرن السابع الميلادي، واستغرق اختفاء الاسم القديم بعض الوقت، وبحث دي خويه عن أشجار يابانية أوحى شكلها لبعض الرحالة العرب إلى تشبيهها برؤوس الآدميين، كحال ابن بطوطة عندما شبه جوز الهند برأس الآدميين، إلاّ أن خويه لم يجد شجرة يابانية مماثلة، ولكنه عرف أن اسطورة الواق واق ذائعة بين اليابانيين، وقد ذكرت "دائرة المعارف اليابانية" التي ألفت في القرن الثامن عشر، حكاية شجرة تنبت ببلاد "الخلفاء المسلمين" تحمل ثمرة شبيه برؤوس الآدميين.[٣٠٨]

الهوامش

١- د. شاكر خصباك. مقدمة علم الجغرافية عند العرب. موسوعة الحضارة العربية والإسلامية. مؤسسة الدراسات العربية بيروت. ودار فارس مؤسسة الدراسات العربية بيروت، دار فارس. عمان. ١٩٩٥. ص ٤٧٦.
٢- الإدريسي.نزهة المشتاق.ص٤٠٥
٣- المصدر نفسه. ص ٢٦هـ
٤- أبو الفداء.ص٢١
٥- أبو سعيد المغربي. أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا تحقيق اسماعل العربي. المكتبة التجارية للطباعة والنسر. بيروت. ص٨. ياقوت الحموي. مجلد١ ص ٢١.
٦- أبو الفداء ص ٢٠.
٧- خصباك.ص٥٢٩
٨- القزويني زكريا بن محمد محمود آثار للبلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٦٠. ص ٣٣.
٩- الدمشقي. مصدر سابق ص ١٤٨.
١٠- الدمشقي. ص ١٤٩
١١- ابن رسته. أبو علي أحمد عمر. كتاب الأعلاف النفيسة. طبع مدينة ليدن المحروسة. مطبعة بريل.
١٢- النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول وزارة الثقافة والإرشاد القومي.بدون تاريخ.ص٢٣٠و٢٣٧
١٣- المسعودي. أبو الحسن. التنبيه والإشراف. قسم أول ص ١٠٣
١٤- الإدريسي. ص٩.
١٥- ابن خرداذبه. ص ١٠٧
١٦- أبو الفداء. ص ٢١.
١٧- الدمشقي. ص ١٥٢-١٥٣.
١٨- المسعودي. مروج الذهب. ج١. مصدر سابق. ص ١٤٩-١٥١، المقدسي مصدر سابق. ص١٢
١٩- المسعودي.امصدر نفسه ص ١٥١ - المقدسي. ص ١٣.
٢٠- المسعودي. المصدر نفسه، ص ١٥٢ والسيرافي. أبو الحسن. رحلة السيرافي.تحقيق عبد الله الحبشي المجمع الثقافي. أبو ظبي. ١٩٩٩. ص ١٧-١٩.
٢١- بزرك بن شهريار والناخذة الرامهر مزي. تحقيق عبدالله محمد الحبشي. المجمع الثقافي. أبو ظبي /٢٠٠٠ ص ١١٣.
٢٢- السيرافي. ص ٢٣.
٢٣- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٣٥.
٢٤- ابن الفقيه. مصدر سابق ص ١٢.
٢٥- الدمشقي. ص ١٥٢.
٢٦- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٣.
٢٧- السيرافي. ص ٢٨.
٢٨- المصدر نفسه ص ٢٩.
٢٩- المسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٥٤
٣٠- النويري. سفر أول. ص ٢٣٩.
٣١- المسعودي. مروج الذهب. ج١ - ص ١٥٥.
٣٢- السيرافي ص ٢٩-٣٠.
٣٣- ابن الفقيه. ص ١٦.
٣٤- ابن خرداذبة. ص ٦١.
٣٥- الغرناطي. عبد الرحيم بن سليمان بين ربيع القيسي الأندلسي. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تحقيق اسماعيل العربي. دار الجيل بيروت. دار الآفاف الجديدة. المغرب ط٢. ١٩٩٣. ص ١٢٩.
٣٦- القزويني. زكريا بن محمد بن محمود. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. دار الشرق العربي. حلب. بدون تاريخ. ص١٨.
٣٧- المصدر نفسه. ص ٦٥
٣٨- المصدر نفسه. ص١١.

٣٩- اندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية. ج١. ق١. ترجمة ابراهيم الخوري. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٣. ص٢٢٣
٤٠- بزرك. ص ٨
٤١- د. حسين مؤنس. تاريخ الجغرافيين الأندلسيين. مدبولي. القاهرة. ط٢. ١٩٨٦. ص١١
٤٢- حسين فوزي. حديث السندباد القديم. مكتبة الأنجلو مصرية. مصر ١٩٤٣. ص ٣٤-٣٧.
٤٣- المصدر نفسه. ص٤٥
٤٤- بزرك. ص ٨
٤٥- الغرناطي. ص ١٢٩.
٤٦- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٥، وابن الوردي. سراج الدين. أبو حفص عمر بن الوردي. خريدة العجائب وفريدة الغرائب. إعداد محمود فاخوري. دار الشرق العربي حلب. بدون تاريخ. ص١٢٢.
٤٧- السيرافي ص ٣١.
٤٨- فوزي. ص ٦٠.
٤٩- ابن الوردي. ص ١٢٢. والدمشقي. ص ١٥٨
٥٠- السيرافي ص ٢٣.
٥١- القزويني عجائب المخلوقات. ص ١٧٤.
٥٢- المسعودي. موج الذهب. ج١. ص ١٠٨.
٥٣- القزويني عجائب المخلوقات. ص ١٧٥.
٥٤- ابن الوردي. ص ١٢٢.
٥٥- المصدر نفسه. ص٢٢ والقزويني عجائب المخلوقات. ص ١٠٨
٥٦- بزرك ص ٤٨.
٥٧- المصدر نفسه. ص ٣٥-٣٨.
٥٨- ابن بطوطة. مصدر سابق. ص ١٠٥
٥٩- ابن الوردي ص ١١٥
٦٠- القزويني عجائب المخلوقات ص ١١٧-١١٨.
٦١- الغرناطي. ص ١٣١
٦٢- القزويني عجائب المخلوقات ص ٣٧٩
٦٣- المصدر نفسه. ص ٣٧٤.
٦٤- عن / فوزي ص ٧٢
٦٥- المصدر نفسه. ص ٧٣
٦٦- المسعودي مروج الذهب. ج١. ص ١٥٣
٦٧- السيرافي. ص٢٢.
٦٨- فوزي ص ٨٣-٨٤.
٦٩- ابن رسته مصدر سابق ص ١٠٠
٧٠- المصدر نفسه. ص١٠٠
٧١- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. الجزء الخامس، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، بدون تاريخ. ص ٦٣.
٧٢- الإدريسي ص ٥٤
٧٣- د. نارا سند. وصول المسلمين الى الهند. مجلة الثقافة الهندية. عدد أول. مجلد أول. ص ٢٢
٧٤- المقدسي. ص ٩٨
٧٥- الدينوري مصدر سابق. ص ١٣٣. ياقوت الحموي. مجلد أول. ص ٨٨ ومجلد ٢ ص ١٩٦
٧٦- ياقوت الحموي. المصدر نفسه. مجلد ص ١٩٣. ومجلد ٧ ص ١٢٦
٧٧- ابن حوقل. مصدر سابق. ص ٥٤-٥٥
٧٨- المصدر نفسه. ص ٢٥٤
٧٩- المقدسي. ص ٤٢٦
٨٠- المصدر نفسه. ص ٩٢.
٨١- د. مقبول احمد. العلاقات التجارية بين الهند والعرب. مجلة ثقافة الهند يوليو ١٩٦٠ العدد الثالث. المجلد الحادي عشر ص ١١١
٨٢- قلقشندي. صبح الأعشى. ج٥. ص ٨٦-٨٧
٨٣- المصدر نفسه. ص٨٧-٨٨. وابن خرداذبة ص ٦٦ وابن الفقيه. ص ١٦

٨٤- جورج فضلو حوراني. العرب والملاحة في المحيط الهندي. في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر. مكتبة الانجلو مصرية بدون تاريخ. ص ٢١٤.
٨٥- ابن الفقيه. ص ١٦.
٨٦- المسعودي. مروج الذهب. ج٢. ص ٢٩
٨٧- المقدسي. ص
٨٨- ابن خرداذبة. ص ٧٠-٧١
٨٩- ابن الفقيه. ص ١٦
٩٠- د. شوقي عبد القومي عثمان. تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية. سلسلة كتب ثقافية. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ١٩٩٠.ص٨
٩١- حوراني. مصدر سابق. ص ٢٢٠ – ٢٢١. ود شوقي عبد القوي عثمان. المصدر السابق. ص ٩١-٩٢.
٩٢- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ٦٨
٩٣- المصدر نفسه ج١ ص ١٤٧، وابن الفقيه. ص ٨
٩٤- المسعودي ج١ المصدر نفسه ص١٦٣
٩٥- ابن بطوطة. ص ٤٣٨ وص ٤٤٦
٩٦- جورج فضلو حوراني. العرب والملاحة في المحيط الهندي. مصدر سابق. ص ٢٤٨.
٩٧- ابن بطوطة. ص ٤٤٣، ويذهب بزرك انها "نحو من ثلاثين ألف جزيرة، والتجار يقولون إن العامر منها إثنا عشر فرسخ، وطول الجزيرة من فرسخ إلى عشرة فراسخ". بزرك بن شهريار. عجائب الهند ص ١٥٤
٩٨- المصدر نفسه ص ٤٤٣-٤٤٤
٩٩- السيرافي. ص ١٧. المسعودي، مروج الذهب ج١، ص ١٥١ بينما يذهب ياقوت الحموي إلى انها ألف جزيرة. ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٢. ص ٤٩٥.
١٠٠- المسعودي المصدر نفسه.ص ١٥٢
١٠١- ابن بطوطة. ص ٤٤٤.
١٠٢- المصدر نفسه ص ٤٤٥.
١٠٣- المصدر نفسه ص ٤٤٥-٤٤٦
١٠٤- المصدر نفسه صص ٤٤٥
١٠٥- السيرافي. ص ١٨.
١٠٦- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٢.
١٠٧- الإدريسي. ص ٧٠
١٠٨- المسعودي. ج١. ص ١٥٢
١٠٩- الإدريسي. ص ٧٠
١١٠- ابن بطوطة. ص ٤٤٦-٤٤٧
١١١- المصدر نفسه ص٤٤٦.
١١٢- الإدريسي. ص ٧٠.
١١٣- ابن بطوطة. ص ٤٤٦.
١١٤- الإدريسي. ص ٧٠.
١١٥- ابن بطوطة ص ٤٤٦.
١١٦- المصدر نفسه ص٤٤٧
١١٧- المصدر نفسه ص٤٤٧
١١٨- المصدر نفسه ص٤٤٧
١١٩- المصدر نفسه ص٤٤٧
١٢٠- المصدر نفسه ص٤٤٥
١٢١- المصدر نفسه ص٤٤٨
١٢٢- المصدر نفسه ص٤١٩
١٢٣- الإدريسي ص ٦٩، والمسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥١، والسيرافي. ص ١٥١
١٢٤- ابن بطوطة ص ٤٤٩
١٢٥- الإدريسي. ص ٦٩

١٢٦- ابن بطوطة ٤٤٩-٤٥٠
١٢٧- المصدر نفسه ص٤٥٠
١٢٨- المصدر نفسه ص ٤٤٩.
١٢٩- الإدريسي ص ٧٠.
١٣٠- ابن بطوطة ص ٤٤٨.
١٣١- المصدر نفسه ص ٤٤٩.
١٣٢- الإدريسي. ص ٦٩
١٣٣- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٢ والإدريسي. ص ٧١. والسيرافي ص ١٩
١٣٤- الدمشقي. ص ١٦٠
١٣٥- الإدريسي. ص ٧٣. الحموي معجم البلدان مجلد ٢ - ص ٢١٦.
١٣٦- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٦.
١٣٧- بزرك بن شهريار ص ١٦٩.
١٣٨- القزويني. آثار البلاد وأطباع العباد. ص ٨٣.
١٣٩- بزرك. ص ١٦٩
١٤٠- الإدريسي. ص ٧٣. راجع أيضاً ياقوت الحموي مجلد ٣/ ج١٠. ص ٢١٦
١٤١- ابن بطوطة. ص ٤٦٠
١٤٢- المصدر نفسه ص٤٦٠.
١٤٣- الإدريسي. ص ٧٤، راجع أيضاً ابن الوردي خريدة العجائب وفريدة الغرائب. ص ١٢٠-١٢١ حيث يقول: "والملك هذه الجزائر صنم من الذهب مكلل بالجواهر وليس عند احد من الملوك ماعنده من الدر والجواهر النفيسة لأن أصنافها كلها في بلاده وجباله".
١٤٤- المصدر نفسه ص٧٥
١٤٥- القزويني آثار البلاد. ص ٤٣
١٤٦- ابن بطوطة. ص ٤٦٣
١٤٧- الدمشقي. ص١٦٠
١٤٨- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٦
١٤٩- ياقوت الحموي. مجلد ٣/ ج١. ص ٢١٦ والإدريسي ص ٧٣ والدمشقي ص ١٦٠ والقزويني آثار البلاد ص ٤٣ وبزرك ص ١٦٩.
١٥٠- ابن بطوطة. ص ٤٦٤
١٥١- الغرناطي ص ١٢٩- ١٣٠
١٥٢- القزويني آثار البلاد ص ٤٢ وياقوت الحموي مجلد ٣/ ج١٠ ص ٢١٦ وابن الفقيه. ص ١٠
١٥٣- الإدريسي. ص ٧٣
١٥٤- ابن بطوطة. ص ٤٦٠
١٥٥- المصدر نفسه ص٤٦١-٤٦٢
١٥٦- المصدر نفسه ص٤٦٤
١٥٧- القزويني آثار البلاد. ص ٤٢، والدمشقي ص ١٠، إذ يقول "في هذه الجزيرة ثلاث ملوك، فالملك الأكبر منهم إذا مات قُطع بأربع قطع وأحرق بالنار ورجاله يتهافتون خلفه في النار". وياقوت الحموي مجلد ٣/ج١ يقول" إذا مات ملكهم الأكبر قطع أربع قطع وجعل كل قطعة في صندوق من الصندل فيحرقونه بالنار، وامرأته تهافت بنفسها على النار حتى تحترق معه". وراجع ابن الفقيه. ص ١٠ يقرر الحقيقة نفسها
١٥٨- بزرك. ص ١١٦
١٥٩- القزويني آثار البلاد ص ٤٣
١٦٠- بزرك ص ٢٢
١٦١- ابن بطوطة ص ٤٦٢
١٦٢- الإدريسي. ص ٧٤ وابن رسته كتاب الأعلان النفيسه. مصدر سابق. ص ١٣٢
١٦٣- السيرافي ص ٨٣
١٦٤- ابن بطوطة ص ٤٦٢
١٦٥- الإدريسي. ص ٧٤
١٦٦- الدمشقي. ص ١٦٠ النويري. نهاية الأدب. جزء أول. ص ٢٤١
١٦٧- ابن بطوطة ص ٤٦٥
١٦٨- المصدر نفسه ص ٤٦٢

١٦٩- القزويني. آثار البلاد ص ٤٢
١٧٠- السيرافي ص ٤٦
١٧١- بزرك ص ١٦٩
١٧٢- المصدر نفسه صص ١٤٧
١٧٣- المصدر نفسه ص١٤٨
١٧٤- المصدر نفسه ص١٤٩
١٧٥- ابن بطوطة ٤٦١
١٧٦- المصدر نفسه ص٤٦١
١٧٧- الإدريسي ص ٧٥
١٧٨- ابن بطوطة ص ٤٦٢
١٧٩- بزرك ص ١١٩
١٨٠- النويري. نهاية الأدب سفر أول. ص ٢٣٩
١٨١- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٦
١٨٢- المسعودي. مروج الذهب. ج١. ص ١٥٢
١٨٣- السيرافي ص ٢١
١٨٤- المصدر نفسه ص. ص ٢٧ بزرك ص ١٢٤
١٨٥- بزرك. ص ١٢٤
١٨٦- الدمشقي. ص ١٥٩
١٨٧- السيرافي. ص ٢١-٢٢ والمسعودي. مروج الذهب. ج١ ص ١٥٣
١٨٨- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٧
١٨٩- حسن محمد الكاشف. كتاب الإسلام في الأندونيسيا المعاصرة ص ١٥
١٩٠- المصدر نفسه ص ١٣-١٤
١٩١- الأمير سكيب أرسلان. في حاضر العالم الإسلامي تأليف لوثروب ستودوارد. نقله على العربية عجاج نويهض. مطبعة عيس البابي الحلبي. القاهرة. ١٩٥٢. ص ٣٤٥
١٩٢- المصدر نفسه ص ١٩
١٩٣- المصدر نفسه ص ٢٨-٣٢٥
١٩٤- أندريه ميكيل. الإسلام وحضارته. ترجمة الدكتوره زينب عبد العزيز المكتبة العصرية. بيروت. بدون تاريخ ص ٣٦٩-٣٧٠
١٩٥- س.ا. أو فان بيووينهوريجز. اندونيسيا. في تراث الإسلام. قسم أول. تصنيف شاخت وبوزوث. ترجمة محمد زهير السمهوري. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت. ص ٣٧١. وميكيل، الإسلام وحضارته مصدر سابق. ص ٣٧١
١٩٦- د. محمد حسن نيبار. التأثير الهندي والعربي على أندونيسيه. مجلة ثقافة الهند. مجلد الثالث عشر ١٩٦٢. إبريل عدد الثاني ص ٦٩
١٩٧- أرسلان ص ٣٤٥
١٩٨- ابن سعيد المغربي ص ١٠٨
١٩٩- ابن رسته ص ١٣٧-١٣٨ والسيرافي ص ٦٦
٢٠٠- المسعودي مروج الذهب. ج١ص ١٥٤، ويذكر السعودي أيضاً في :التنبيه والإشراف. قسم أول ص ١٢٠ "وملكه لا يضبط كثيره، ولا يحصى جنوده، ولا يستطيع أحد من الناس أن يطوف في أسرع ما يكون بين المراكب بجزائره في سنتين. جميعها عامر، قد حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاوية، فليس لأحد من الملوك ما له. وما يجهز من أرضه من الكافور. والعود والقرنفل والصندل، والجوز والقاقلة،و الكبابة، وغير ذلك.
٢٠١- السيرافي ص ٦٦
٢٠٢- بزرك ص ١٣٢
٢٠٣- المصدر نفسه ص١٤٣
٢٠٤- المسعودي مروج الذهب ج١ ص ١٥٤
٢٠٥- ابن خرداذبة ص ٦٥
٢٠٦- الإدريسي ص ٦١
٢٠٧- المصدر نفسه ص٦٢

٢٠٨- المصدر نفسه ص٦٢
٢٠٩- السيرافي ص ٢٠
٢١٠- الحميري ص ٢٦٤ وابن خرداذبة. ص ٦٥
٢١١- الدمشقي. ص ١٥٤
٢١٢- ابن الفقيه ص ١٠
٢١٣- الحميري ص ٢٦٤
٢١٤- المصدر نفسه صص ٢٦٤
٢١٥- القزويني آثار البلاد ص ٣٠
٢١٦- الدمشقي ص ١٥٣
٢١٧- أبو الفداء كتاب تقويم البلدان. ص ٣٦٨
٢١٨- بزرك. ص ١٠٩
٢١٩- المصدر نفسه ص ١٦٧ والمسعودي مروج الذهب ج١ ص ١٥٤
٢٢٠- المسعودي مروج الذهب ج١ ص ١٥٤
٢٢١- الحميري. ص ٩٠
٢٢٢- المصدر نفسه ص ٩٠
٢٢٣- ابن خرداذبة ص ٦٦
٢٢٤- الإدريسي ص ٨٠-٨١
٢٢٥- ابن خرداذبة ص ٦٦
٢٢٦- القزويني آثار البلاد ص ٢٩
٢٢٧- أبو الفداء. ص ٢٦٨-٢٦٩
٢٢٨- ابن بطوطة. ص ٤٧٧
٢٢٩- المصدر نفسه ص٤٧٧
٢٣٠- المصدر نفسه ص٤٧٧
٢٣١- المصدر نفسه ص٤٧٨
٢٣٢- المصدر نفسه ص٤٧٨
٢٣٣- المصدر نفسه ص٤٧٨
٢٣٤- المصدر نفسه ص٤٨١
٢٣٥- المصدر نفسه ص٤٨٢ – ٤٨٣
٢٣٦- المصدر نفسه ص٤٧٨
٢٣٧- المصدر نفسه ص٤٧٨-٤٧٩
٢٣٨- المصدر نفسه ص٤٧٩
٢٣٩- المصدر نفسه ص٤٧٩
٢٤٠- المصدر نفسه ص٤٧٩
٢٤١- المصدر نفسه ص٤٨٠
٢٤٢- المصدر نفسه ص٤٨١
٢٤٣- المصدر نفسه ص٤٨١
٢٤٤- المصدر نفسه ص٤٧٨
٢٤٥- المصدر نفسه ص٢٨٠
٢٤٦- المصدر نفسه ص٢٨٣
٢٤٧- الإدريسي ص ٨١
٢٤٨- المصدر نفسه ص٨٢
٢٤٩- ابن الفقيه ص ١٢
٢٥٠- الدمشقي ص١٥٥ والنويري. السفر الأول. ص ٢٤٠
٢٥١- الإدريسي ص ٨٠
٢٥٢- السيرافي ص ٦٦
٢٥٣- الحميري ص ٤٩٤
٢٥٤- أبو الفداء ص ٣٧٥
٢٥٥- المسعودي مروج الذهب ج١ ص ١٤٠

٢٥٦- المصدر نفسه ص ١٤٠
٢٥٧- المصدر نفسه ص١٤٠
٢٥٨- حوراني. العرب والملاحة في المحيط الهندي - مصدر سابق ص ٢٥٠ ونقولا زيادة الرحلات. هامش ص ٤٥
٢٥٩- ابن رسته. ص ١٣٧ - ١٣٨
٢٦٠- ابن الفقيه. ص ١٦
٢٦١- ابن سعيد المغربي ص ١٠٧
٢٦٢- السيرافي ص ٦٨
٢٦٣- ابن رسته. ص ١٣٨ - ١٣٩
٢٦٤- بزرك. ص ١٤٧
٢٦٥- السيرافي ص ٦٩ والحميري. ص ٤٧١
٢٦٦- المصدر نفسه. ص ٦٨
٢٦٧- ابن الفقيه ص ١٦
٢٦٨- السيرافي ص ٦٨
٢٦٩- ابن الفقيه. ص ١٦
٢٧٠- الإدريسي. ص ٩٠
٢٧١- ابن سعيد المغربي. ص ١٠٩
٢٧٢- المصدر نفسه ص٨٧
٢٧٣- السيرافي ص ٦٨
٢٧٤- الحميري ص ٤٧١
٢٧٥- ابن رسته ص ١٣٢ والسيرافي ص ٦٨، حيث يقول "اهل القمار وهم رحالة، كلهم يحرمون الزنا والأنبذة كلها" والحميري ص ٧١
٢٧٦- ابن رسته. ص ١٣٣
٢٧٧- المصدر نفسه ص١٣٣
٢٧٨- الحميري ص ٤٧١
٢٧٩- ابن رسته ص ١٣٣
٢٨٠- المصدر نفسه ص١٣٣
٢٨١- ابن الفقيه.ص ١٦ والحميري ٤٧١
٢٨٢- ابن رسته ص ١٣٣ والدمشقي. ص ١٥٥ يقول "وهي جزيرة عباد اهل الصين والهند وعلمائهم"
٢٨٣- الحميري ص ٤٧١
٢٨٤- ابن رسته ص ١٧٣
٢٨٥- الإدريسي ص ٩٠
٢٨٦- ابن سعيد المغربي ص ١١٠
٢٨٧- الإدريسي ص ٩٢
٢٨٨- النويري. السفر الأول. ٢٣٠
٢٨٩- الدمشقي ص ١٥٩
٢٩٠- السيرافي ص ٥٢
٢٩١- كراتشكوفسكي ج١. ص ١٠١
٢٩٢- ابن سعيد المغربي ص ٩٨
٢٩٣- الدمشقي ص ١٦ - ١٧
٢٩٤- ابن خرداذبة ص ٧١
٢٩٥- المسعودي أخبار الزمان ج١ ص ٣٩
٢٩٦- الحميري. ص ٦٠٢
٢٩٧- المصدر نفسه ص ٦٠٢
٢٩٨- بزرك ص ٧٢
٢٩٩- الدمشقي ص ١٤٩
٣٠٠- ابن سعيد المغربي ص ٨٩
٣٠١- الإدريسي ص ٩١

٣٠٢- أبو ريحان البيروني. محمد بن احمد. في تحقيق ما للهند من مقوله مقبوله في العقل أو مرذوله. مطبعة مجلس إدارة المعارف العثمانية بحيدر آباد الركن. الهند. ١٣٧٧هـ- ص ١٦٩

٣٠٣- ياقوت الحموي. معجم البلدان. مجلد ٥ ج٢. ص ٣٨١

٣٠٤- القزويني آثار البلاد. ص ٣٣ وعجائب المخلوقات. ص ١٠٦

٣٠٥- المصدر نفسه ص ٣٣

٣٠٦- المصدر نفسه ص٣٣

٣٠٧- ابن الوردي خريدة العجائب ص ١١٧

٣٠٨- فوزي. ص ١٠٤ - ١٠٥

جيران البر في الشمال

بقيت الشعوب المجاورة للصين في أقصى الشمال، وفي الشمال الشرقي، غامضة للعرب، سوى أنها تقع على حدود الربع المعمور من الأرض، ضائعة بين القفار، والثلوج، والبرد القارس، وأول ما يبرز في ملمح المشهد الشمالي، هو ما نسجه الكتاب العرب عن "السد" وشعوب يأجوج ومأجوج التي ترقد وراءه، وأخضعوا هذا المشهد الكبير لدراساتهم المكثفة من ناحية ولمحاولات الاستكشاف المباشر من ناحية أخرى، وأبرزها رحلة سلام الترجمان إلى الشمال، للتعرف على حقيقة السد، وعلى الشعوب القابعة خلفه، وكانت الرحلة الثانية المبكرة الاستكشافية، هي رحلة تميم بن بحر، ما بين ٧٦٠م – ٨٠٠، إلى أقاصي الشمال التي اختبر فيها حياة الشعوب البدوية التركية، في بلاد التغزغز. حول حوض أورخون جنوب بحيرة بايكال، وحفظ لنا شذوات من مطالعاته تلك ابن خرداذبة وابن الفقيه، وياقوت، أو شعب أورغور (الغز) وتتصف رواية تميم بالرزانة، ولا تهتم بذكر العجائب وزار (قره بلاساغون) على نهر أورخون في مونغوليا الخارجة، ومن بين الأمور التي ذكرها اعتناق الأويغوريون للمانوية وعلاقتهم مع أباطرة الصين[(١)]، ثم تعاقبت رحلات الجغرافيين إلى الصين والهند، والتخوم الشمالية الشرقية لدارا لإسلام، وتراكمت المصنفات الجغرافية والتاريخي والأدبية التي زخرت بالحديث عن الشعوب المجاورة للصين في الشمال والشرق، والتبت التي تقف على التخوم البعيدة لدار الإسلام، وقد أقر بارتولد أنه من الصعب أن يجد المرء مصنفات تاريخية تهتم بمناطق آسيا الوسطى قبل الوجود الإسلامي.[(٢)] واحتلت بنظرهم شعوب يأجوج ومأجوج مقدمة مسرح الحدود الشمالية للصين والهند، وشيئاً فشيئاً، مع تنامي معرفتهم بالشعوب التركية، ضمّوا يأجوج وماجوج إلى الأرومة التركية، باعتباره الفرع الأكثر استغراقاً في البداوة، ثم ضمّوا الشعوب المغولية إلى تلك الأرومة ذاتها، وقد نظر العرب منذ البداية إلى بلاد الكاشغرد، وما إلى شرقيها على أنها أصناف تركية خالصة، تضرب بحدودها إلى ما يسموه ما وراء النهر، وعنوا بذلك البلاد القابعة خلف نهري جيحون (موريداريا) وسيحون (سرداريا)، ونظروا، حتى القرن العاشر الميلادي، إلى مناطق ما وراء النهر هذه على أنها برزخ، أو على الأصح (تخم) يفصلهم عن لصين في الشرق، وعن الشعوب التركية الغامضة لديهم، والتي أطلقوا عليها اسم يأجوج وماجوج، في الشمال، وكما نوّه إلى ذلك (قدامه) بقوله: (من الثغور الكبار، ثغر الترك،... مما يلي جرجان... وكان أهلها بنوا حائطاً من آجر تحصناً من غاراتهم".[(٣)] كما مددوا التخوم التي تفصلهم عن الأتراك، إلى البرزخ الممتد في ما بين الخزر (قزوين)، والبحر الأسود، والتي تشهق في مقدمته جبال القوقاز Caucaz فتصوروا حدوداً طبيعية ثابتة تقف عند (باب الأبواب) وهو تسميتهم لمدية دربند، وسدّها العظيم، الذي رسموا له، وللجبل الذي يقف عليه صورة مضخمة للغاية[(٤)] فغدت أسوار دربند في متخيلهم، بمثابة حاجز يدفع خطر الاتراك بعيداً عن ديارهم.

وهكذا، تخيل العرب، على ضوء معارفهم، أن الشعوب التركية تقع في الذروة القصوى لبلاد الشمال، على تخوم الجزء غير المعمور من الأرض، وتمتد شرقاً من (البحر المحيط) إلى الحدود الشمالية للصين، وهناك تحتل شعوب يأجوج ومأجوج موقعاً فريداً خلف السد الصيني، كقوى بدئية، خارج المجال الحضاري، ثم تختلط بها أو تجاورها شعوب تركية – مغولية أخرى، وتنساح حركية هذه الشعوب لتغرق خلف التخوم البعيدة لدار الإسلام، في سقف العالم، قبل أن تتداخل تلك الشعوب، وتصبح جزءاً من دار الإسلام.

شدّد الدمشقي على حقيقة أن يأجوج ومأجوج من تفرعات شعوب الترك "ومن الترك أيضاً يأجوج وماجوج، يقال أنهم أربعون صنفاً، طوال جداً، ومنهم قصار جداً ومنهم ذوو وجوه مستديرة كالتراس والمجان المطرقة".[(٥)] وكما ضموّا شعوب يأجوج ماجوج إلى الأرومة التركية، فإنهم وسّعوا هذه الأرومة لتضمم التتر المغول، في

حديثه عن جنكيزخان، ذكر النسوي، أن قبيلة جنكيز خان تسمّى (التمرجي)، وهم سكان البراري، ومشتاهم يسمى أرغون "وهم المشهورون من طوائف الترك بالشر والغدر، ولم تر ملوك إرخاء عنانهم لطغيانهم".[٦] وذكر العمري في حديثه عن حاكم الصين المغولي، "أنه ملك عظيم جليل القدر، ضخم الملك، وهو معظم توران، ولم يزل لملك الترك (ويقصد هنا ملك المغول) فانهم الآن لقانهم (من خان)، من أبناء جنكيز خان".[٧]

ترك المصنفون العرب ورحالتهم، إرثاً بحثياً ضخماً، أضاء، رغم ما شابه من تخمينات، ومن سرد عجائبي، حياة تلك الشعوب في العصر الوسيط، لا غنى عنها لأي بحث جدي تاريخي أو أنثروبولوجي يتناول تاريخها ونمط ثقافتها، وهو ما اعترف به، بارتولد، بوضوح بقوله "وقد أخذنا جلَّ معارفنا عن الشعوب التركية، في ذلك الحين من المصادر الإسلامية".[٨] ويتابع شارحاً "وجغرافيو العرب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وفي القرن الرابع خاصة، هم وحدهم الذين أمدونا بتفصيلات أوفى عن الشعوب التركية المتفرقة وطباعها، ولا تستعمل كلمة "ترك" في هذه المصنفات الجغرافية إلاّ علماً على طائفة من الشعوب، وفرع من اللغات"[٩]

الصورة العامة

هيمن على المتخيل العربي تصوراً مفاده أن الشمال الشرقي للعالم المعمور محاط بعوالم غامضة، تطلّ في مقدمتها شعوب غريبة الأطوار أسموها "يأجوج وماجوج"، إذ رسموا حدوداً للعمران والحضارة، ينتهي بالحدود الشمالية الصينية، التي يأتي بعدها السد الذي يقف وراءه يأجوج ومأجوج، طالما أن "أقصى العمران في المشرق الأقصى حدود بلاد الصين والسيلي إلى أن ينتهي إلى ردم يأجوج ومأجوج".[١٠] ويتلازم وجود هؤلاء القوم، مع تخيلهم وجود أرض منتنة إلى جوارهم، أما لأنها علامة على نهاية العمران، أو لأنها حدثت بفعل تخريب يأجوج وماجوج لها، أو للأمرين معاً، ويتراصف إلى جوارهم شعوب تركية أخرى، يمتد وجودها من شمال الصين مروراً بتخوم خوارزم، وصولاً إلى جوار بلغار الفولغا، شمال بحر الخزر (قزوين)، وتتراصف الشعوب في الذروة الشمالي للعالم المعمور، وراء الصين، إلى الشمال الشرقي لبلاد الإسلام، التي تنحرف أحوالها عن حال الشعوب التي تنعم بالحضارة، مثلها في ذلك مثل شعوب الإقليم السابع الممعن في البرودة، والتي هي إلى جانب الترك، الصقالبة والفرنجة، هذان الشعبان الأخيران، يقعان في الشمال الأقصى لأوروبا.

وضع الإدريسي يأجوج ومأجوج، وبقية الشعوب التركية، ومعها الأرض المنتنة شمال الصين، في الإقليمين السادس والسابع، وإذا عرفنا أنه قسّم كل إقليم إلى عشرة أجزاء يبتدأ الأول من الغرب وينتهي بالجزء العاشر في نهاية المشرق، فإنه وضع الأتراك في الأجزاء الثامن والتاسع والعاشر من الإقليم السادس، وفي الجزء الثامن من الإقليم السابع، أما الجزءان التاسع والعاشر من الإقليم السابع، فهما في نهاية العمران تماماً، ويضم الجزء التاسع منهما "قطعة من أرض يأجوج وماجوج الداخلة وقطعة من البحر الزفتي، وهو آخر البحر الشرقي وهو أيضاً مظلم" أما حال الجزء العاشر ذاك "فكله مظلم لا عمارة فيه البتّة ولا يعلم ما خلفه"،[١١] وتقع في الجزء الثامن من الإقليم السادس، "الأرض المنتنة وأرض سمريقي، وهي أرض الترك الخرلخ (القرلق) وأرض سيسيان والبلاد الخراب التي أتت على فسادها يأجوج وماجوج، وهي بلاد وحشة متباعدة الأقطار، بعيدة الأسفار، قليلاً ما يدخل إليها التجار المتجولون".[١٢] وفي الجزء الذي يليه من الإقليم السادس، توجد "قطعة من أرض خفشاخ وأرض التركش، وسد يأجوج ومأجوج، فأما بلاد التركش فهي بلاد تتاخم الردم (السد) وهي بلاد باردة كثيرة الثلوج والأمطار".[١٣] وبعدها في الجزء العاشر من الإقليم الثالث، توجد "قطعة من بلاد ياجوج وماجوج "[١٤]، وتمتد بقية الشعوب التركية لتلامس حدود دار الإسلام في ماوراء النهر لتفصل وتصل بين بلاد الصين وبلاد

الإسلام.وتبعاً لرأي الإدريسي وغيره من الكتاب العرب، أن "جميع بلاد الأتراك تكون خلف النهر، وفي أقصى بلاد فرغانة والشاش والطران، وهم أمم لا يحصى لهم عدد لكثرتهم ولهم رؤوس (قادة) يرجعون إليهم، والنظر في مشكلات أمورهم... والترك أصناف عدة فمنهم التبة، والتغزغزية والخرخيزية، والكيماكية والخرلجية، والجقر والبجناك وذكش والتركش وخفشاخ والخلج والغزية وبلغارية، وكلها خلف النهر إلى جانب البحر الشرقي المظلم".(١٥) وذكر أن الصين تجاورهم من الجهة الأخرى، لذا، فإن "الأتراك يهابون سطوتهم ويخافون شوكتهم، فيمسكون عن أذية بلادهم (أي لكي يتجنبوا مخاطر الصين) يحملون إلى الصين كثير ما عندهم من الصناعات والصوف والسمن والعسل، كثير من السلاح، والشكة، وأهل الصين يهادونهم بسبب ذلك، ويرفعون عن غزوهم، لكنهم غير متغافلين في جانبهم".(١٦) ولا ينسى الأدريسي إلقاء نظرة عامة عن حياة شعوب الأتراك عامة فيقول". وهم ظواعن رحالة متنقلون من مكان إلى مكان، يطلبون الخصب حيث عرفوا به، وهم أصحاب إبل واغنام وأبقار كثيرة وبيوتهم شعر مثل بيوت العرب (البدو) لا يقيمون في مكان، بل هم مع الدهر متنقلون متحولون من موضع إلى موضع آخر، ولهم حرث وحصاد وزرع وعندهم السمن والزبد،والألبان كثيرة وينتجون الخيل كثير، ويأكلون لحومهم، ولا يفضلون على طعامها شيئاً من اللحم... وملوكهم أهل عدة وشكه واحتفال ونظر وحزم وعدالة قائمة وسير حسنة ولهم قلوب جافية وطباع غليظة غشيمة... وأهلهم متذهبون بمذاهب شتى، وهم يغزون المسلمين،و الأتراك المسلمون.. يغزونهم ويسبونهم".(١٧)

حمل العرب في متخيلهم عن الشعوب التركية الشمالية، صورة غامضة، تجافي حياتها وسلوكها معايير الحياة الحضارية المألوفة لديهم، وتزداد هذه الصورة تصلباً كلما ابتعدنا في الترحال شمالاً، لنصل إلى يأجوج ومأجوج، المتاخمة لشمال الصين، حيث اكسبتها حياة الترحال وشظف العيش في بيئة الشمال القاسية، القوة والصلابة والشجاعة، ونظر إليهم العرب، قبل أن يتقاسموا معها العيش، كقوة تهديد غامضة، وضعوا لها التخوم على بلادهم لمقاومتهم، كما رصدوا وجود سد على حدود الصين يدرأ أخطارهم.

ولقد تنكب العديد من الرحالة العرب المخاطر، وتنقلوا في بلاد الترك، في أزمان مختلفة، وسجلوا انطباعاتهم عنها، وقدموا صورة أثنوغرافية عن حياتها، ولعل أبرز تلك الرحلات المبكرة، هي رحلة سلام الترجمان (ت. ٢٣٠هـ – ٨٤٤م) إلى بلاد الشمال الأقصى، والتعرف على ما سمّاه (يأجوج ومأجوج) وعلى السد الذي يحميهم، في عهد الخليفة الواثق بالله (ت٢٢٤هـ – ٢٣٢م)، وأيضاً رحلة ابن فضلان في زمن المقتدر بالله (ت٣٢٠هـ – ٩٢١م)، إلى بلغار الفولغا جنوب الصين، وقد تعرف الأخير، في طريقه الطويل، على الكثير من الشعوب التركية الرعوية، وثالث تلك الرحلات المبكرة هي رحلة، تميم بن بحرالمطوعي، إلى بلاد التغزغز، وتتكامل وقائع تلك الرحلات، مع ما نقله بعض الجغرافيين الرحالة، الذين زاروا بعضاً من أطراف تلك الشعوب، أمثال المسعودي، والمقدسي، وابن حوقل، ومن بعدهم ابن سعيد المغربي والعمري و المروزي، وفضلاً عن انطباعات الكوسموغرافيين أمثال القزويني، والدمشقي وابن الوردي، لتقدم بالنهاية صورة غنية مركبة متعدّدة الوجوه عن حياة الشعوب التركية في العصر الوسيط.

كان الحذر، في القرون الأولى للإسلام هو العنصر الغالب على مشاعر العرب تجاه الشعوب التركية الشمالية، الغامضة يقابلها تفضيلهم تجنب الاحتكاك بها، لهذا، جرى تداول أحاديث، مشكوك في صحتها، عن حقيقة الأتراك، مثل الزعم أن النبي (ص) نبه المسلمين "أتركوا الترك ما تركوكم"، وعن معاوية بن أبي سفيان، قول الرسول "لا تبعثوا الرابضين ارتكوهم ما تركوكم". والقول أيضاً " لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه، صغار الأعين، فطس الأنوف، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة"(١٨) ولعل هذا الحديث الأخير، يشير إلى جيوش هولاكو التترية، وتدميرها بغداد.

وتناقلوا حكاية بعثة الخليفة هشام بن عبد الملك إلى ملك الترك، يدعوه فيها إلى الإسلام، فما كان من

ملك الترك بعد أن استمع إلى رسول الخليفة يشرح له مبادئ الإسلام، و"شرائطه، وحظره وإباحته، وفروضة وعبادته" إلى أن تركه أياماً يفكر في أمره، ثم بادر ذات يوم، فأتى بعشرة فرسان يحمل كل منهم لواءه، فوقف الملك على التل، وأمر كل واحد منهم على التوالي، ليقف ملوحاً بلوائه فيلبي نداءه عشرة آلاف فارس، وهكذا مع كل واحد حتى الفارس العاشر، فاجتمع تحت التل مائة ألف فارس مدجّج بالسلاح، والتفت الملك إلى الترجمان ليقول له "قل لهذا الرسول، يعرّف صاحبه، أن ليس في هؤلاء حجّام ولا إسكاف، ولا خياط، فإذا أسلموا، والتزموا شروط الإسلام من أين يأكلون؟".(١٩)

لقد أرادوا بهذه الحكاية، التدليل على أن حياة الأتراك المعتمدة على مبدأ الغزوة والغلبة، والانقضاض على حقوق الآخرين، لا تستقيم مع متطلبات الإسلام، القائمة على الحرام والحلال، والأطر القانونية والشرائع، والتي تفترض الحضارة، ونمطاً خاصاً من العمران. وظلت هذه الصورة، التي تحصر أغلب الأتراك في الإقليمين السادس والسابع، وتربطهم بحياة الرعي والبدواة، تنيخ بثقلها على الكتاب العرب، أمثال القزويني والحميري، وهم أبناء من القرون الثالث عشر ،ولعل مرد ذلك إلى اقتران صورة الأتراك بالمغول، الغزاة، الذين دمروا باجتياحهم أرض الخلافة الحياة المدينية العربية، وهو ما تجلى بتدميرهم بغداد والخلافة نفسها، لذا يقول عنهم القزويني "إنهم سكان شرقي الأقاليم كلها من الجنوب إلى الشمال، ممتازة عن جميع الأمم بكثرة العدد، وزيادة الشجاعة والجلادة وصورة السباع، عراض الوجوه فطس الأنوف عبل السواعد، ضيقو الأخلاق، والغالب عليهم الغضب والظلم والقهر ،و أكل لحوم الحيوانات، لا يريدون لها بدلاً، ولا يراعون فيها نضجاً، ولا يرون إلاّ ما كان اغتصاباً كما هي عادة السباع، وليس عيشهم إلا شن غارة أو طلب ظبي نافر أو طير طائر، حتى إذا ظن بهم الكلأ رأيتهم على نشاطهم الأول في ركض الخيل، وتسنّم الخيل، وتسنّم الجبال، ويريد انتزاع الملك من سيده والقيام مقامه"،(٢٠) ونبهنا ابن خرداذبة إلى الطريق التجاري الجبلي الصعب، الذي يشق بلاد الأتراك، ويخضع لحمايتهم، فعلى أحد فروع نهر جيحون "هناك معبر إلى الترك يسمونه شكينة" يخرج التجار منه إلى "جبل على شط النهر العظيم" لكن لا يستطيع أن يعبره إلاّ الرجال الأقوياء لذا يضطر التجار ليكترونهم (ليحملوا حمولتهم ومتاعهم على قلة ذلك الجبل) والطريق هناك ضيق "مقدار قدم الرجل يمشي بها، لذا فإن التجار "يعقدون عهودهم ومواثيقهم مع التجار، ثم يحملون أثقالهم وأمتعتهم ويعبرون بها ظهور جمالهم.. إلى الصين ومولتان".(٢١)

لكن مع الزمن، تداخلت العلاقات مع العرب، فمن استخدامهم في الجيش، على حساب العرب، زمن المعتصم في القرن التاسع الميلادي، إلى دخولهم التدريجي، في الإسلام في القرن العاشر الميلادي وفي عام ٥٩١هـ -٩٠٤م، صدت الجيوش العربية الإسلامية آخر الغارات التي قام بها الأتراك الوثنيون، على الدولة السامانية، على أطراف بلاد الإسلام".(٢٢) ثم قدم السلاجقة الأتراك المسلمون وفتحوا آسيا الصغرى، في القرن الحادي عشر ميلادي، فغدا الأتراك جزءاً من دار الإسلام، فدخلت على الصورة البدوية، التي تدفع إلى الحذر منهم معطيات جديدة تبجيلية، دون أن تنال من الصورة القديمة، وكانت الأحاديث التي قدمها الجاحظ عن الأتراك منذ القرن التاسع الميلادي، قبل قتلهم للمتوكل،مليئة بإطراء الاتراك،لاسيما لروح الفروسية والشجاعة، والصدق والإخلاص فيهم، (والأتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق" وأضاف "فلم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب المغانم وتدويخ البلدان، وكان هممهم إلى ذلك مصروفه، وكانت هذه المعاني والأسباب مستمرة مقصودة.. أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم، وحديثهم وسمرهم". (٢٣) واستُرجعت تلك الصفات، فيما بعد، عند الحديث عن الأتراك، وأضيفت إلى التداول في ذروة صعود السلاجقة، ثم دُعمت بأحاديث نسبت إلى النبي (ص) تطري الأتراك ودورهم في الإسلام، فزعموا أنه قال "تعلّموا لسان الترك فإن لهم ملكاً طوالاً"(٢٤)

روى قدامة بن جعفر، مثل غيره من المؤرخين والجغرافيين العرب، لقاء اسكندر الأكبر مع (صاحب الصين)، بعد أن قبل الأخير إعطاء الإسكندر (العشر)، وسارا معاً جهة الشمال، إلى "ترك البرية حتى فتحتهم ودوختهم"، وبلغهما هناك "عن قوم لهم عدد جم من هؤلاء الأتراك ناحية المشرق من جهة الشمال، أنهم مفسدون في الأرض، فاستشار (الاسكندر) صاحب الصين فيهم فأخبره، أنه لا غنيمة عندهم (أي لا ثروة عندهم) غير المواشي والحديد، وأنه يحيط بهم من ناحية الشمال البحر الأخضر الذي لا مجاز فيه لأحد، ولا منفذ لهؤلاء الأتراك إلاّ من درب واحد ضيق، كالشرك.. لو سدّ عليهم هذا المنفذ بقوا فيها وكفى الناس شرّهم"، فما كان من الاسكندر بموافقة (صاحب الصين) إلاّ أن "سد ذلك الوادي، وهو السد الذي وصفه الله".[٢٥]

والحال أن هذا السد، ما هو إلاَّ سور الصين العظيم،،وشعوب الترك الغامضين هؤلاء، ما هم سوى قوم "يأجوج ومأجوج" الأكثر بداوة، وبعداً عن العمران من الأتراك، الذين كما تصورهم العرب، كانوا قبل "أن يصل الإسكندر ويبني السد عليهم... يغيرون على من جاورهم حتى أخلوا كثيراً من البلاد وأكثروا الفساد في الأرض".[٢٦] إلاّ أن الاسكندر اكتشف عندما وصوله إلى تلك البلاد، أن هناك الكثير من أخوان يأجوج ومأجوج يختلف عنهم، أقرب إلى الحضارة، "فوجد منهم أمماً عمّ خيرهم، وقلّ ضررهم،. تبرأوا له مما يفعل إخوانهم يأجوج ومأجوج، وشهد كثيراً من القبائل، أنهم لم يزالوا أبد الدهر يطلبون السلامة، فتركهم الإسكندر خارج السد، وأقطعهم تلك الأرض، فسمتهم العرب (تركاً)، لأنهم من ترك الإسكندر من يأجوج ومأجوج وأسكنهم خلف السد".[٢٧]

فارتبط السد، أو (سور الصين)، بوظيفة (الحاجز)، الذي يصد خلفه الشعوب التركية الأكثر بداوة، ويجنّب الشعوب التي أمامه مخاطرهم، وشرورهم، ومن انفلات زمام أمرهم، وكان لهيمنة هذه الصورة، عن الأتراك القابعين في نهاية المعمور من الأرض في الشمال،في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، أثرها في قيام رحلة سلام الترجمان، وذلك ليكتشف حقيقة الشعوب التركية – المغولية الغامضة، المحيطة بالسد (السور)، التي اتسمت بالصلابة والشجاعة، وكانت، من قبل، وراء استخدام المعتصم لهم في الجيش بدلاً من العرب، بعد أن "حل ديوان الجند"، وحتى بعد دخول هؤلاء الأتراك ميدان الخدمة في الجيش، ودخول بعضهم الإسلام، بقيت هذه الصورة العامة مهيمنة.

ولعل (الخليفة الواثق بالله) قد وجه سلام الترجمان، الذي أتقن ثلاثين لغة، حسب ابن خرداذبة، في هذه الرحلة الاستكشافية، لاستشعاره خطراً من تحرك تلك الشعوب الشمالية، وربما هذا هو مغزى المنام الذي شاهد فيه "السد" قد انفتح، وهو ما يترتب عليه تهديداً رمزياً خطيراً، بانفلات تلك الشعوب الغامضة، فأرسل الواثق في صحبة الترجمان خمسين رجلاً من الأشداء، وستة أدلاء، وزوده برسائل إلى صاحب أرمينية، وملكي اللان،و الخزر، ليسهلوا أمر عبوره من شمال بحر الخزر (قزوين) باتجاه الشمال، فترك لنا انطباعاته عن الشعوب التركية التي صادفها في طريقه، حتى وصلوا، إلى السد /السور.

وحدثنا الترجمان عن مشاهداته في الشمال إذ صدف أرض منتنة الرائحة سار فيها سبعة وعشرين يوماً، "قيل هي التي كانت يأجوج ومأجوج يتطرقونها، فخربوها"، وصادف هناك أناس "مسلمون يقرأون القرآن، ولهم مساجد ومكاتب" لكنه استغرب، أنهم لم يسمعوا بالخليفة، ولا ببغداد عاصمته".[٢٨]

وفي النهاية وصل إلى السد / السور، فبالغ الترجمان في وصف متانته، وقوته وعظمته، حيث بنى في "فج بين جبلين، عرضه مئتا ذراع، وأساسه ثلاثين ذراعاً، مبني من الحديد والنحاس حتى وجه الأرض، ثم يرتفع عضادتين.. من جنبي الفج. كل عضاده خمسة وعشرين ذراعاً، في سمك خمسين ذراعاً، وكله بناء بلبن من حديد".[٢٩]

أما وصفه لشعوب يأجوج ومأجوج، وشعوب الجوار الترك، فيختلط منها الواقع بالمتخيل المرفوع إلى السرد الأسطوري، فيأجوج ومأجوج كما سمع من جيرانهم هناك "مقدار الرجل في رأي العين شبراً ونصف"،[٣٠] وأن أعدادهم لا نهائية لها، فتأثرت سرديته بالصورة الذهنية الغامضة الراسخة على حدود العالم المعمور، فوراء السد /السور شعوب وأشكال بشرية غامضة، فإذا كانت الممالك المحاربة الصينية قد بنت هذا السد في شمال الصين لتحمي نفسها من أعدائها من بدو السهوب، فقد مثل الجدار /السور للجانب العربي الإسلامي، الاحتراس، والخوف.

أتراك آخرون

كانت المرة الأولى التي عبر فيها العرب نهر جيحون، في عام ٦٥٤م، لكن فتح ماوراء النهر كان شاقاً على العرب لأن الأمراء الفرس هناك، كانوا يستنجدون بالأتراك، وبالصينيين، وكان أمير في عام ٧٣٠م، خاقان الأتراك الغربيين أو التورغس، ولم يستطع العرب استعارة سيطرتهم إلاّ بعد قتلهم لهذا الأخير، فتمزق التركش، وقام قتيبة بن مسلم بالسيطرة على المنطقة المجاورة لنهر جيحون، وأمام كاشغر ارتسمت (التخوم)، وبعدها كانت تجثم فوضى الشعوب التركية البدوية، ومن ورائها الشعوب الصينية، واعتبر(قدامه) أن من الثغور الكبار ثغر الترك، "ومعظم الترك في الثغر الذي بخراسان ويسمى توشجان.. وهو أوائل مسالخ الخرلخية (الأتراك)، وتبعد مدينة التغزغز التركية عن هذا الثغر مسيرة خمس وأربعين يوماً في البراري، وهي على اليمين من (التيبت).[٣١] وإلى هذه البراري وصل (المطوع) وكانت الحدود التي تواجه السهوب ما وراء النهر مليئة بالرباطات، والثغور والنقاط المحصنة المزودة بالغزاة، المتطوعين من أجل الدين، وقد ازدهرت القوى المسيطرة على ماوراء النهر، وفي السهوب الشرقية، من جراء التجارة، التي شكل الرقيق الاتراك عنصراً هاماً فيها، والذين تم استخدامهم فيما بعد في الجيش الخلافة، ليحلوا محل الفرسان العرب، حيث كانوا ينظرون إلى الأتراك كجنس عسكري يمتاز بالشجاعة والوفاء، ويتحمل الصعاب من خلال حياته القاسية في السهوب.

ولقد انتشرت الشعوب التركية في ماوراء النهر، وكاشغر، حتى الصين، وشمال الصين في السهوب المنغولية، ثم إلى الشمال حول بحر قزوين، وشماله، وقد أقام الأتراك في القرن السادس الميلادي، دولة قوية امتدت من حدود الصين الشمالية إلى البحر الأسود، وذكر الطبري اسم أحد ملوك هذه الدولة باسم (بنجو خان)،وقضى العرب بقيادة نصر بن سيار على مملكة التركش عام (١٢١هـ – ٧٣٩م) وهي الجناح الغربي لتلك الدولة.[٣٢] ولعل قانات هذه الدولة، يرجعون سلالياً إلى الأوغور (الغز)، وكان هناك إلى جانب قانات الترك في الشرق،. قانان، هما قانان التركش، وقانان القرغيز، وقد انتقل الحكم، في بلاد المغول، من الأوغور (الترك) إلى الأويغور حوالي عام ٧٤٥م، ويلقب أمير هؤلاء بلقب خاقان، ويبدو أن بعض الأوغور قد ظلوا ببلاد المغول، تحت حكم الأويغور، بينما هاجر آخرون غرباً وجنوباً، وأقام هؤلاء مملكتين في الغرب في القرن التاسع ميلادي، أحدهما (كن جو) والأخرى بيش بالق وقرا خوجه، ومن أسلاف هؤلاء الأويغور التغزغز ولعل المطوعي، قد زار ديار هؤلاء التغزغز، في عاصمتهم، وكان القرغيز يُعدون – آنذاك – أبعد الشعوب التركية موطناً في ناحية الشمال الشرقي،و كان الأوغوز والقرلق، الذين سماهم العرب (خرلخ) يحفّون بالبلاد الإسلامية في آسيا الوسطى، وكانت بلاد الأورغوز تتاخم جرجان في ديار الإسلام، واسبيجاب، التي تعرف اليوم باسم سيرام، فكان على المسافر والرحالة والتاجر، المتجه إلى الصين، بعد أن يقطع أرض القرلق (الخرلخ) والتغزغز، في رحلة تستديم ثلاثين يوماً من حدود قرغانه عبر الخرلخ حتى يصل إلى التغزغز، أن يمضي أكثر من شهرين في قطع بلاد التغزغز، وبلاد الصين ليصل إلى شاطئ المحيط.[٣٣] وتتعلق رواية (المطوع)، برحلته إلى الأيغوريين، وجيرانهم الغز (أو التوقوز – أوغوز) في القرن التاسع، ووصل إلى عاصمة الأويغور في منغوليا، (قره بلو ساغون) أو (نوشجان)، بينما اختلط ابن فضلان في رحلة إلى بلغار الفولغا، بين الأورال وبحر قزوين الأتراك الأوغوز. والذي انبثق عنهم السلاجقة واجتاحوا بدورهم

المشرق الإسلامي في القرن الحادي عشر ميلادي، حين تحولوا إلى الإسلام، ولعل المعلومات المنتشرة في المصادر العربية الوسيطة، قد تكونت نواتها من ملاحظات من هؤلاء الرحالة الثلاثة: الترجمان، وابن فضلان، والمطوعي، فضلاً عن رواية أبي دلف مصعر بن مهلهل عن رحلته بصحبة بعثة صينية عائدة من بلاط بخارى الساماني عام ٩٤٠، قد صف قبائل الترك التي مر بها بما فيها البشناق والكيموك والأورغوز، والقرغيز، والقارلوق، ولقد انتشر الإسلام، داخل الشعوب التركية، ليس بالفتح، إنما عن طريق الدراويش وغيرهم من المتحمسين للدين، وبواسطة التجار المتنقلين بين الصين وبلاد المغول، واعتنقت الجماعات الشرقية من الأتراك القارلوق (الخرلخ) الإسلام في العقود الوسطى للقرن العاشر الميلادي، واعتنق الأتراك الجنوبيون القريبون من جماعات الأورغوز، بما فيهم السلاجقة الدين الجديد، وظل انتشار الإسلام داخل سهوب القبجاف بطيئاً، حيث استمر معظم هؤلاء على وثنيتهم حتى القرن الثاني عشر.(٣٤)

وأثار إهتمام العرب اتساع أراضي الأتراك، وتنوع شعوبهم وتفرعها، فهم عند الإدريسي "أصناف عدة فمنهم التبتية والتغزغزيه، والخرخيزيه، والكيماكية، والخرلخية، والجغر والبنجاك والترك، وأذكس، وخفشاخ والخلج والغزية وبلغارية، وكلها خلف النهر إلى جانب البحر الشرق المظلم".(٣٥) شمال بلاد الصين، وأشار ياقوت الحموي إلى أن "أوسع بلاد الترك بلاد الغزيه، وحَدَّهم الصين والتيبت والخرلخ،والكيماك،والغز والجفر والبجناك والبذكش، وأذكس وخفشاق وخيرخيز، ومدائنهم المشهورة ستة عشر مدينة".(٣٦) فهذه البلاد تمتد من ما وراء النهر شرقاً حتى البحر المحيط، من شمال الحدود الصينية، ومنهم، كما يقول طاهر المروزي "ساكنوا البلاد والقرى، ومنهم ساكنوا البراري والمفاوز ومن قبائلهم العظيمة الغزّية، وهم أثنا عشر قبيلة يسمى بعضهم التغزغز". "ومنهم خرخيز" أو الخرلخية، والكيماك، والبنجالية، والمجفرية.(٣٧)

تلك هي أبرز الشعوب التركية التي ذكرها العرب في مؤلفاتهم، وصبوا أبحاثهم على معرفتها، التي اعتمد بعضها على مشاهدات الرحالة، والسفراء، أو على السماع من أهل تلك الشعوب، أو بأبحاث أكاديمية استند ت على ما هو مدون من كتب، أو ما هو متداول سماعياً، فكانت رحلة (ابن بحرالمطوع) إلى الأوريغون وبين شعب تركي آخر ورد ذكره كثيراً وهو التوقوز – أوغوز".(٣٨)

وزار المطوعي بلاد التغزغز (الغزيه) التي كان المؤلفون يعتبرونها "أوسع بلاد الترك، وحدهم الصين والتيبت، والخرلخ".(٣٩) فكان عن يسار التغزغز كيماك، وأمامها بلاد الصين".(٤٠) ومرّ في طريقه ببلاد الملك التركي "كماك دون الفين" فوجد القوم، في "بادية يبيعون الكلأ" فأبرز لنا حرص أهل الغيزية على تربية الولد الذكر، وتهيئته للحرب والفروسية، "فإذا ولد للرجل ولد رباه وأعاله، وقام بأجره، حتى يحتلم، ثم يدفع إليه قوساً وسهاماً، ويخرجه من منزله، ويقول له: "احتل لنفسك".(٤٠) ومنذ حينها يعتمد الشاب فيها على نفسه، وتنتهي فيها كفالة أبيه له، ويصبح سيفه وسهامه أدواته لتحصيل مصيره، وكأننا أمام مجتمع محارب بامتياز، ويتفرع عن ذلك، أن العائلة تابعة للرجل، يكفي الرجل إن أراد الزواج من فتاة ما أن يلقي على رأس إحداهن ثوباً، فإذا فعل ذلك صارت زوجته، لا يمنعها منه مانع".(٤١)

وذكر المطوعي أن بلادهم "شديدة البرودة... يسلك فيه ستة أشهر". فهي بلاد شاسعة، يغلب عليها البرد، ولقد سلك على في بلاد خاقان التغزغز، وعلى بريد الخان نفسه، فسار عشرين يوماً "في بواد فيها عيون وكلأ" تخلو من القرى والمدن، ينزل أهلها "في خيام"، ثم سافر عشرين يوماً أخرى "في قرى متصلة وعمارات كثيرة"، فوصل مدينة الملوك، فوجدها "ا مدينة حصينة عظيمة حولها رساتق عامرة، وقرى متصلة.. كثيرة الاهل والزحام والسواق والتجارات(٤٢) ولملك التغزغز "خيمة من ذهب" منصوبة على أعلى قصره، تتسع مائة رجل، يمكن رؤيتها لعظم كبرها من خمسة فراسخ.(٤٣)

فنظر مؤلفونا إلى الترك عموماَ،على أنهم ينزلون في خيام، أو "القباب التركية المضلعة" المصنوعة "من

جلود الداوب والبقر، وأغشيتها (اغطيتها) لبود (مصنوع من الصوف).. " وهم أحذق قوم في صناعة "اللبود" يصنعون به أغطية خيامهم، ولباسهم[٤٤] وقال عنهم القزويني أنهم "يلبسون القطن واللبون".[٤٥] ونبه الإدريسي إلى وجود مدينة للتغزغز "في جهة الشمال" على نهر كبير خصب، اسمها (نشران)، تسرح في سهولها "مواشي أهل المدينة" وبها "تجارات وصناعات، ويوجد في هذا النهر أحجار اللازورد... يحمل إلى خراسان والعراق".[٤٦] وأخبرنا المطوع عن اعتناق التغزغز للمجوسية والمانوية "فأكثر أهلها عبدة نيران على مذهب المجوس، ومنهم زنادقة على مذهب ماني".[٤٧] وقد أطلق العرب على عبدة النيران اسم المجوس، وهم الزرداشتية، وقرنوا أصحاب ماني بالزندقة، وقد أشار بارتولد إلى أن التغزغز في زمن رحلة (المطوعي) كانوا على المانوية... غير ان الزرداشتية كانوا أكثر منهم عدداً وأعاد للسغد "بوجه خاص نشر المانوية بين الصين والترك".[٤٨] بينما ذهب المطهر المقدسي إلى "أنهم لا ينتمون لدين واحد، بل منهم المسيحيون، ومنهم البوذيون".[٤٩] ولهم عيد مرتبط مع "ظهور قوس قزح".[٥٠] ولاحظ المؤلفون العرب دور الشامان" في الحياة الروحية للتغزغز والأتراك عموماً، إذ كان "الكاهن عندهم، كما يزعمون يُحدث سحاب البرد والثلج وغير ذلك، فيقصد بها من يريد هلاكه".[٥١] وقد انتشر هذا الاعتقاد عند الترك الغزية، حتى بعد انتقال بعضهم إلى الإسلام إذ روى ياقوت عن أمير خراسان (اسماعيل بن أحمد الساماني"، ان الأخير حكى أن بعضاً من جنده أخبره، أن عندهم (كاهن) "يستطيع أن ينشيء سحاب البرد والثلج"، ولما اختبر الأمير هذا الكاهن، فوجئ في اليوم التالي عند "ارتفاع النهار نشأت سحابة عظيمة هائلة من رأس جبل... لم تزل تنتشر وتزيد حتى أظلت عسكري كله".[٥٢] فلما شاهد الأمير ذلك نزل عن دابته وصلى ركعتين وعفّر وجهه بالتراب خشية أن تحدث فتنة بين المسلمين إن أمطرت السماء، مما يضعف إيمانهم الإسلامي، الذي يعيد حدوث الظواهر إلى الله وحده، فدعى ربه: "اللهم أغثنا فإن عبادك يضعفون عن محنتك، وأنا أعلم أن القدرة لك وأنه لا يملك الضر والنفع إلا أنت، اللهم إن هذه السحابة إن أمطرت علينا كانت فتنة للمسلمين وسطوة للمشركين".[٥٣] وتحدث أبو دلف عن (الغزية) أن لهم مدينة من الحجارة والقصب ولهم "بيت عباده"، ولهم تجارات إلى الهند والصين، ومأكولهم البرّ ولحم الغنم، وملبوسهم الكتب والفراء).[٥٤] اما الروزي فذهب إلى ان (خرخيز، ولعله بقصد أحد تفرعات التغزغز، "يحرقون موتاهم، ويزعمون أن النار تطهرهم وتنقيهم، وكان ذلك دأبهم في القديم، فلما جاوروا المسلمين صادروا يدفنون موتاهم".[٥٥] واسترجع المروزي حكاية ياقوت الحموي عن دور الشخصية (الشامانية) في حياتهم، عند حديثه عن رجل يلقب عندهم (بعفيتون) يستحضرونه كل سنة، في يوم معلوم، يجتمع حوله المغنون وأصحاب المزامير، ويأخذون في القصف والشرب، إلى أن يغشى على هذا الرجل ويسقط كالمصروع، ثم يسألون عن كل ما يحدث، في تلك السنة من أحداث، فيُخبر بما يكون من خصب وجدب ومطر وقحط، وغير ذلك، ويعتقدون أن ذلك حقاً".[٥٦] فيصدقون نبوأته، وتوقعاته عن المستقبل. أما ابن فضلان، فقد قابل في طريق رحلته الشهيرة، إلى بلغار الفولغا، جماعة الترك الأوغوز (الغز) في الشمال، ما بين الأورال وبحر قزوين، في مناطق باردة للغاية، وقدم لنا مادة غنية للغاية من ذلك التاريخ الغامض لتلك الشعوب، فكادت شهادته أن تكون، حسب بوسوروث. "مادتنا الوحيدة في تاريخ الفترة السابقة على الاتراك السلاجقة، الذين انبثقوا من الأوغوز، الذين اجتاحوا في القرن الحادي عشر القسم الأكبر من الشرق الأوسط".[٥٧].

واحتك ابن فضلان، وهو آت من بغداد في ذروة مجدها المدني، وتراثها الحضاري، بالشعوب التركية في طريقه إلى الفولغا، وقد اتجه شمالاً ماراً بإقليم الجبال ثم همذان فالري، وعبر نهر جيحون، فبخارى، وأوغل بعدها في البراري الباردة في بلاد الأتراك، فواجه البرد القارس، فلم يجد له من معين سوى الاستعانة (بالإيمان بالله تعالى والتضرع له، والتقرب إليه "فتذكر عندها أن شتاء (خوارزم) يمائل أيام الصيف مقارنة ببرد بلاد الترك، فكان لسان حاله "نسيناكل مامربنا،وأشرفنا على الهلاك" إلاّ أنه قدم تقريراً اثنوغرافياً عن حال الشعوب

هناك، لم يهمل فيه التفاصيل الدقيقة، فاتسم تقريره بالدقة، والحرارة، لم يهمل حياة الحاكم والأمراء، ولا الرجال العاديين، ودمج برسالته الجغرافية والتاريخ، والمكان والزمان، فأعطانا مقطعاً من حياة الشعوب التركية، بما فيهم البجناك والباشغرد، والغزية (التغزغز)، وأكثر ما أثار انتباهه، وصف الطقس لماعاناه من برد، وللحياة الدينية، والموقف من المرأة، والسلوك المتعلق بالجسد من نظافة وأزياء، فضلاً عن المطبخ، والعلاقة بالموت والدفن.

ووصل، في الشتاء،على شواطئ جيحون حيث ترقد مدينة الجرجانية، فصارت أول ماصادفه من بلاد الاتراك، وكان يسكن هذه المدينة الاترارك والتركمان، فسجل انطباعه الأول عنهم". هم أوحش الناس كلاماً وطبعاً، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير".[٥٨] فأقام أياماً هناك، تجمد فيها "نهر جيحون من أوله إلى آخره" وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتازه "كما تجتازه على الطريق وهو ثابت"، فأحس وكأن "باباً من الزمهرير قد فُتح علينا، ولا يسقط فيه الثلج إلاّ ومعه ريح عاصف". فإن أراد أحد أن يبرّ ضيفاً، قال له "تعال إلي.. فإن عندي نار طيبة" وكان إن خرج ابن فضلان من الحمام ودخل البيت رأى لحيته وكأنها "قطعة واحدة من الثلج" وينام وهو متدثر بالأكيسة والفراء، ورأى أنهم يغطون الجباب بأغطية من جلود الغنم لئلا تتشقق.[٥٩] وعندما خف الثلج، ومرت مياه جيحون، دخل وأوغل في البراري التركية والشمالية، فصادفوا ثلجاً "مشت الجمال إلى ركبها فيه"، ثم أوغلوا في بلاد الترك.. «لا يلقانا أحد، في بريّة قفر، بغير جبل... فنسينا كل ما مربنا". ثم أفضوا إلى قبيلة "من الأتراك يُعرفون بالغزية" وهم في الشمال الشرقي لبحر قزوين، فوجد هؤلاء "لهم بيوت شعر، يحلّون ويرتحلون، ترى منهم الأبيات في كل مكان، على عمل البادية، وإذ هم في شقاء".[٦٠]

وقدّم ابن فضلان صوره اثنوغرافية مركبة عن حياة هؤلاء الغزية في شتى المجالات، فهؤلاء القبائل البدوية المنتشرين في البراري، كان لهم ملكاً، "وملك الترك الغزية يقال له بيغو، وهو اسم الأمير... ويقال لخليفته كوذكين".[٦١] ولهذا الملك قائداً للجيش يقال له: "اترك بن القفطان"، زاره ابن فضلان فأنزله ذاك في "قباب تركية"، فلاحظ أن لهذا القائد عيال "وحاشية وبيوت"، واهدته بعثة ابن فضلان "ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس (نوع من الحبوب)..".[٦٢] كما لاحظ أن زوجة القائد، هي امرأة أبيه المتوفي، وقد دخل عليه ابن فضلان وقدّم له هدية دنانير، ومثاقيل مسك، وجلود أديم، وثياب من مرو، وقرطيق (قميصين قصيرين)، وخف أديم، وثوب ديباج، وأثواب حرير، ولإمرأته خاتماً ومقنعة، فنزع صاحب الجيش ديباجة، ليلبس ما قدم إليه من ثياب، فلاحظ ابن فضلان، أن قرطق (قميص) صاحب الجيش الذي تحت الديباج "قد تقطع وسخاً لأن رسومهم (عاداتهم) أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتشر قطعاً".[٦٣] فانزعج ابن فضلان، لهذا الإهمال من صاحب الجيش لنظافة ثيابه، ولكياسته في ارتدائها، فمن الصعب عليه، وهو ابن بغداد، أن يقبل بحيادية عادة الغز بأن يلبسوا قميصاً (قرطقاً)، لا يخلعه حتى يهترئ!

وكان من الطبيعي أن تثير انتباهه عقائدهم الدينية، وعباداتهم، وقد دخل بلادهم قبل أن ينتقل الغزية إلى الإسلام، لذا قال عنهم "هم في شقاء... كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون أرباباً". فهم يعبدون قادتهم ويألهونهم، فهم إذا "استشار أحدهم رئيسه في شيء قالوا له: "يا رب أيش أعمل في كذا".[٦٤]

وعلى الرغم من هذا التأليه لقادتهم السياسيين، فإنهم، في إدارتهم لحياتهم العامة، يعتمدون على التشاور، وتبادل الرأي فيما بينهم، ولكل واحد دور ورأى، مهما صغر موقعه الإجتماعي، "وأمرهم شورى بينهم، غير أنهم متى اتفقوا على شيء، وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه".[٦٥] وهم يقولون تقرباً لزوارهم، والعابرين لبلادهم من المسلمين "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، غير أنهم إذا أصابهم ضيق، رفعوارأسهم إلى السماء قائلين بالتركية (الله الواحد).[٦٦]

توقف ابن فضلان ملياً عند موقع المرأة في المجتمع التركي الغزي، فلا يخفي انزعاجه، واستغرابه من تخفف المرأة من قواعد العفة، ومن الاحتشام في ا للباس، فرأى أن نساءهم "لا يستترن من رجالهم، ولا من غيرهم، كذلك لا تستر المرأة من بدنها على أحد من الناس".(٦٧) إذ نزل يوماً على رجل في داره، فشاركتهما المرأة مجلسهما، وفجأة لاحظ أنها "بينما هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته" فستر ابن فضلان وجهه، قائلاً "استغفر الله" فما كان من زوجها إلاّ أن ضحك مستغرباً موقف ابن فضلان، قائلاً "تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه.. هو خير من أن تغطيه".(٦٨) وبالفعل فقد اكتشف ابن فضلان أنه في مقابل تخفّف المرأة عندهم من اللباس، وميلها إلى التعري، فهم "ليس يعرفون الزنا، ومن ظهر منه على شيء من فعله شقوه نصفين".(٦٩) فضلاً عن ذلك، فإنهم يستقبحون اللواط، فأمر اللواط عندهم عظيم جداً"، فاللذان يمارسان اللواط، يُحكم عليهم بالقتل كلاهما.(٧٠) وعاداتهم في الزواج بسيطة، إذ يكفي أن يأتي الخاطب فيخطب الفتاة من أبيها أو أخيها، "لقاء ثوب خوارزمي، أو ما يشبه ذلك، فإذا وافقه من يملك أمرها "حملها إليه" ويمكن أن يتألف مهر المرأة، "من جمال أو دواب أو غير ذلك"،ولا يمكن أن يتم الزواج حتى "يُوفى الصداق الذي وافق وليّها عليه، فإذا وفاّه إياه، جاء (الخاطب) إلى منزل الفتاة، "فيأخذها بحضرة أبيها وأمها وأخواتها، فلا يمنعونه".(٧١) ومن عاداتهم في الزواج أيضاً، هي أنهم إذا مات الرجل وله زوجة وأولاد، تزوج ابنه الأكبر بإمرأته، إن لم تكن أمه.(٧٢) ويستنكر عليهم أنهم لا يغتسلون من جنابة بعد الجماع، ويتطيرون من أن يغتسل الضيف من الجنابة بحضرتهم، فعليه أن يغتسل خفية عنهم في آخر الليل، لأنهم يظنون أن الاغتسال يتضمن طقساً سحرياً، فيقولون "هذا يريد أن يسحرنا، لأنه تغرّس بالماء" "ويغرمونه مالاً".(٧٣)

ومن السلوكيات الشخصية والاجتماعية التي أثارت استغرابه، وهو قد ألف في بلاده أن يطيل الرجال لحاهم، فإذ ابه يرى حرص رجالهم على نتفها ماعدا شواربهم "والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا اسبلتهم، وربما رأيت الشيخ الهرم منهم، وقد نتف لحيته، وترك شيئاً منها تحت ذقنه، فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس".(٧٤) وبالإضافة إلى ذلك، فمن عاداتهم إذا مرض الرجل منهم، فإن كان غنياً وعنده عبيد وجوار، تركه أهله لعبيده يخدمونه "ولم يقربه أحد من أهل بيته، ويضربون له خيمة ناحية من البيوت "فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ". وإن كان عبداً أو فقيراً "رموه في الصحراء وارتحلوا عنه"(٧٥)

أما طريقتهم في دفن موتاهم فإنهم إن مات رجل منهم حفروا له حفرة كبيرة على "هيئة البيت" في منطقته وقومه، وجعلوا في يده قدم خشب فيه نبيذ، ووضعوا كل ماله معه في ذلك البيت، ثم سقفوا البيت عليه، وبنوا فوقه ما يشبه القبّة، ثم عمدوا إلى دوابه، فقتلوا منها، إن كان غنياً، مائة رأس إلى مائتي رأس، ثم أكلوا لحومها ما عدا "الرأس والقوائم والجلد والذيل، فإنهم يصلبون ذلك على خشب، وقالوا: "هذه دوابه يركبها إلى الجنة".(٧٦) وهو ما يوحي بإيمانهم بنوع من الخلود، وبمفهوم الجنة، والبعث بعد الموت.

غير أن تلك الجوانب السلبية في سلوكهم لم تحجب الجوانب المحببة لدى ابن فضلان، الذي سجّل بارتياح، إلى جوار ما رأى فيهم من شجاعة، ومن احتكامهم في أمورهم على (الشورى)، وتحريمهم اللواط، وتبسيطهم لطقوس الزواج، وتحريمهم الزنا، فإن ما أثار إعجابه أيضاً هي تلك الأمانة والإخلاص في علاقاتهم المالية، فالرجل منهم إذا أراد السفر أو الرحيل، أخذ من صديقه حاجته "من جماله ودوابه"،فإذا عاد"قضاه ماله وأعاد إليه جماله ودوابه"(٧٧) وبجاور هذه الأمانة يوجد عند الترك النبل والكرم، فإذا اجتاز التركي إنسان لا يعرفه، ثم قال: انا ضيفك، وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك، دفع إليه ما يريد".(٧٨) كما لاحظ ابن فضلان، أنه على الرغم من مظاهر القسوة التي تحيط سلوك، الأتراك الغزية، فإنه إذا أكرم أحدٌ رجلاً منهم قابله الأخير بالسجود له.(٧٩) احتراماً وعرفاناً بالجميل.

اجتاز ابن فضلان بلاد الغزية شمالاً، فصادف في شمال شرق قزوين شعب تركي آخر (البجناك Betchnaks،)لا يختلف في بداوته عن الغز، وهم فرع من قبائل الغزية من القفجاق، ويقال أن أصلهم من تركستان الصينية ويكتفي بملاحظة أنهم "سمر شديدو السمرة.. محلقوا اللحى، فقراء خلاف الغزية".[٨٠] وصفهم الطبيب المرزوي بأنهم "قوم سيارة يتبعون مواقع القطر والكلاء".[٨١] ومسيرة بلادهم ثلاثين يوماً.

وشاهد أبن فضلان عند مروره بأراضي شعب تركي آخر، وهو الباشجرد، أنهم أشد الأتراك "إقداماً على القتل"، وهم "يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل.. ويقرضون القمل بأسنانهم".[٨٢] ومن الإعتقادات الدينية التي أثارت انتباهه لديهم، أن "كل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ويعلقها عليه، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو، قبّلها وسجد لها" كما أن منهم "من يزعم أن له اثني عشر رباً: للشتاء ربٌ، للصيف ربٌ، وللمطر ربٌ، وللريح رب، وللبحر رب، وللناس رب، وللدواب رب، ولليل رب، وللنهار رب، وللموت رب، وللأرض رب، والرب الذي في السماء هو أكبرهم" ويعلق ابن فضلان مستهجناً، أمام هذه التصورات الدينية، المغايرة لإيمانه الإسلامي: "تعالى اله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً".[٨٣] كما رأى طائفة منهم "تعبد الحيّات، وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكركي".[٨٤] ويكمل المروزي المشهد بالإشارة إلى أن الجفرية قوم من الترك، لهم أراضي كثيرة، تبلغ مائة فرسخ في مائة فرسخ، ويسمى رئيسهم (كنده)، ومساكنهم "قباب" ولهم "منظر حسن، وجثث ضخام، وثروة وأموال، لكثرة تجارتهم".[٨٥]

وهكذا، قدّم الباحثون العرب صورة عن الشعوب التركية الشمالية قبل أن يتبنوا الإسلام، ويصبحوا جزءاً منه، هي صورة نادرة غنية، وفيها الواقعي، والمتخيل، والسرد الموضوعي الممزوج بالأحكام والمعايير، إلاَّ أنها بكل الأحوال قدمت معطيات لا يمكن الاستغناء عنها لمعرفة مقطع هام ومجهول من حياة تلك الشعوب.

الهوامش

١- س. أي. بو سورون. آسيا الوسطى. تراث الإسلام.ج١ مصدر سابق ص ١٨٨.
٢- فاسيلي باوتولد. تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. ١٩٨١. ص ٥٩.
٣- قدامة بن جعفر. نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة. (يلي كتاب. بن خرداذبة. المسالك والممالك) مكتبة المثنى بغداد. بدون تاريخ. ص ٢٦٢.
٤- ابن خرداذبة. ص ١٢٤.
٥- الدمشقي ص ٢٦٥.
٦- النسوي. محمد بن أحمد. سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي. تحقيق أحمد حمدي. دار الفكر العربي. ١٩٥٣. مطبعة الإتحاد بمصر. ص ٤٠.
٧- ابن فضل الله العمري. شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ- – ١٣٥٨م) مسالك الإبصار في ممالك الأبصار. السفر الثالث تحقيق. د. احمد عبد القادر الشاذلي. إصدارات المجمع الثقافي. أبو ظبي. ٢٠٠٠. ص ٢٦.
٨- فاسيلي. بارتولد. W. Barthold الاتراك. المامة التاريخية وجنسية. دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني. كتاب الشعب القاهرة ١٩٦٩. ص ٦٤).
٩- المصدر نفسه. ص ٦٧.
١٠- المسعودي الفقيه والإشراف قسم أول – ص ٦١.
١١- الإدريسي. نزهة المشتاق. المجلد الثاني. ص ٩٦٠ – ٩٦١.
١٢- المصدر نفسه. ص ٩٢٦
١٣- المصدر نفسه. ص ٩٣٤.
١٤- المصدر نفسه. ص ٣٣٩.
١٥- المصدر نفسه. مجلد أول. ص ٥١٧ – ٥١٨
١٦- المصدر نفسه. مجلد أول. ص ٥١٩
١٧- المصدر نفسه. ص ٥١٨.
١٨- الحموي مجلد ٢. ج٥ ص ٢٣. والقزويني. أثار البلاد ص ٥١٥.
١٩- الحموي المصدر نفسه. ص ٤. والقزويني المصدر نفسه. ص ٥١٥.
٢٠- القزويني. المصدر نفسه. ص ٥١٤
٢١- ابن خرداذبة ص١٧٨_١٧٩
٢٢- الطبري ج ٣ ص٢٢٤٩
٢٣- الجاحظ.رسائل الجاحظ.ج١. تحقيق وشرح هارون. مكتبة الخانجي.القاهرة.١٩٦٤،ص٦٢-٦٧
٢٤- بارتولد.الأتراك مصدر سابق.ص٧١
٢٥- قدامة بن جعفر ص ٢٦٤
٢٦- الحميري. ص ٣٠٩
٢٧- المصدر نفسه. ص ٣٠٩.
٢٨- ابن خرداذبة. ص ١٦٣ قارن مع المقدسي. أحسن التقاسيم ص ٣١٣ وابن رسته – ص ١٤٩
٢٩- ابن خرداذبة. ص ١٦٦، قارن مع المقدسي ص ٣١٣ – ٣١٤ وابن رسته – ص ١٤٩.
٣٠- ابن خرداذبة ص ١٦٨
٣١- قدامة – ص ٣١٢
٣٢- الطبري ج٢ ص ١٥٩٣ – وما بعدها
٣٣- بارتولد. الترك. ص ٦١ – ٦٧.
٣٤- س. أي. بوسورث. آسيا الوسطى. (تراث الإسلام. قسم أول. تصنيف شاخت وبوزورث. مصدر سابق. ص ١٩٠. قارن ف. بارتولد وتاريخ الحضارة الإسلامية. نقله عن التركية حمزه طاهر. دار المعارف مصر. ط٢ ١٩٥٢. ص ٨٧.
٣٥- الإدريسي. ج١. ص ٥١٩
٣٦- الحموي. مجلد ٢. ج٥. ص ٢٣. ابن خرداذبة ص ٣١.
٣٧- الطبيب شرف الزمان طاهر المروزي كتبه منه ٥١٤هـ- أبو أب في الصين والترك والهند. طبع في بريطانيا العظمى من قبل W.Heffer واولاده في كمبرج لندن. ١٩٤٢ ص ١٨ – ٢٢

٣٨- بوسورف. آسيا الوسطى. مصدر سابق ص ١٨٨.
٣٩- ابن خرداذبة. ص ٣١. وابن الفقيه. ص ٣٢٩
٤٠- الحموي. مجلد ٢ ج٥. ص ٢٤.
٤١- المصدر نفسه. ص ٢٤.
٤٢- المصدر نفسه. ص ٢٤
٤٣- المصدر نفسه. ص ٢٤. والقزويني. أخبار البلاد. ص ٥٨٢
٤٤- اليعقوبي. كتاب البلدان. ص ٢٩٥
٤٥- القزويني. اخبار البلاد ص ٥٨٢
٤٦- الإدريسي. ص ٥٢١
٤٧- الحموي مجلد ٢ ج٥. ص ٢٥ قارن مع ابن خرداذبة ص ٣١ (فيهم مجوس يعبدون النار وفيهم زنادقة".
٤٨- بارتولد. الترك. مصدر سابق. ص ٦٢ - ٦٣.
٤٩- المقدسي. المطهر بن طاهر. كتاب البدء و التاريخ. ج٤ تحقيق هوارت. بل ريس ١٨٩٩. ص ٢٢
٥٠- القزويني. اخبار البلاد. ص ٥٨٢.
٥١- الحموي مجلد ٢ ج٥. ص ٢٥
٥٢- المصدر نفسه ص ٢٥
٥٣- المصدر نفسه ص ٢٥
٥٤- القزويني - أخبار البلاد ص ٥٨٨
٥٥- المروزي ص ١٨ - ١٩
٥٦- المصدر نفسه ص ١٨ - ١٩
٥٧- بوسورف آسيا الوسطى. مصدر سابق. ص ١٨٩
٥٨- ابن فضلان. احمد بن العباس بن راشد بن حماد. رسالة ابن فضلان. حققها د. سامي الدهان. ط٢.وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٧٨. ص ١١٣.
٥٩- المصدر نفسه. ص ١١٦ - ١١٧
٦٠- المصدر نفسه ص ١٢٢
٦١- المصدر نفسه ١٣١
٦٢- المصدر نفسه ص ١٢٣
٦٣- المصدر نفسه ١٣٢ - ١٣٣
٦٤- المصدر نفسه. ص ١٢٢
٦٥- المصدر نفسه ص ١٢٢
٦٦- المصدر نفسه ص ١٢٣
٦٧- المصدر نفسه. ص ١٢٣
٦٨- المصدر نفسه. ص ١٢٣
٦٩- المصدر نفسه. ص ١٢٣ - ١٢٤
٧٠- المصدر نفسه. ص ١٢٧ - ١٢٨
٧١- المصدر نفسه. ص ١٢٤
٧٢- المصدر نفسه. ص ١٢٥
٧٣- المصدر نفسه. ص١٢٥
٧٤- المصدر نفسه. ص ١٣١
٧٥- المصدر نفسه. ص ١٢٩-١٣٠
٧٦- المصدر نفسه. ص١٣٠
٧٧- المصدر نفسه. ص ١٢٦
٧٨- المصدر نفسه. ص ١٢٦
٧٩- المصدر نفسه. ص ١٢٩
٨٠- المصدر نفسه. ص ١٣٦
٨١- المروزي. ص ٢١
٨٢- ابن فضلان. ص ١٣٨
٨٣- المصدر نفسه. ص ١٣٩
٨٤- المصدر نفسه. ١٣٩

٨٥- المروزي. ص ٢٢

المصادر والمراجع

- ابن طاهر المقدسي. مطهر. كتاب البدء والتاريخ. (أربعة أجزاء). الخواجة أرنست لرو الصحاف. مدينة باريس ١٩٠٧
- ابن النديم محمد بن اسحاق الفهرست. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة. القاهرة. بدون تاريخ.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي: رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، دار الشرق العربي، بيروت، دون تاريخ.
- ابن المقفع. كليلة ودمنة. افيلسوف بيدبا. منشورات دار الحياة. بيروت ١٩٦٥.
- ان حجر العسقلاني، أحمد بن علي (٨٥٢هـ-١٤٥٦م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٨٦.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمدبن يحيى، كتاب مسالك الابصارفي ممالك الامصار، تحقيق: د. أحمد عبد القادر الشاذلي. غصدار المجمع الثقافي أبو ظبي ٢٠٠٣
- ابن رستة، أحمد بن عمر: الجزء السابع من "الأعلاق النفيسة"، تحقيق دي خويه، مطبعة بريل ١٨٩٢م.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠.
- ابن الأثير. أبو الحسن علي أبي كرم الشيباني. الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٦٧
- ابن الزبير. القاضي رشيد. كتاب الذخائر والتحف. حققه: د. محمد حميد الله. سلسلة التراث العربي (١) دائرة المطبوعات والنشر في الكويت ١٩٥٩.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل-ليدن ١٣٠١هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
- ابن الوردي، سراج الدين أبي حفص عمر بن مظفر: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، أعده عمر فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت-حلب، دون تاريخ.
- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس: كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- أبو حنيفة الدينوري. الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. مكتبة المثنى. بغداد. بدون تاريخ
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: كتاب تقويم البلدان، طبع مدينة باريس ١٨٥٠، دار صادر-بيروت، دون تاريخ.
- إخوان الصفا وخلان الوفاء، رسائل إخوان الصفا، (أربعة أجزاء)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٢٨.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، ودون تاريخ.
- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي: المسالك والممالك، تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحسيني، دار الفكر، القاهرة ١٩٦١.
- أحمد. نفيس. جهود المسلمين في الجغرافية. ترجمة فتحي عثمان. سلسلة ألف كتاب (٢٧٢) دار القلم. مصر بدون تاريخ.
- أفاية، محمد نور الدين: الغرب المتخيل-صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠.

- أو مليل. علي. في شرعة الاختلاف. دار الامان. الرباط. ١٩٩١.
- أرنولد. توماس. تراث الإسلام (جي. آ. ج. كرامرز. الجغرافية التجارة) عربه جرجس فتح الله. دار الطليعة ط٣. بيروت ١٩٧٩م.
- أبو تلة. خديجة. الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٣م.
- أمين. أحمد. ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي. ط١. بيروت. تاريخ ١٩٦٥م.
- بدوي، فؤاد: ابن بطوطة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.
- باوند. جفري. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة ١٧٣. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٩٣
- برزك بن شهريار، الناخذاة الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند برها وبحرها وجزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي–أبو ظبي ٢٠٠٠.
- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: القانون المسعودي، منشورات مجلس دار المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد، دون تاريخ.
- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكن، الهند ١٣٧٧– ١٩٥٨.
- البغدادي. الإمام أبو منصور عبد القاهر طاهر بن محمد. كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. ضبطه محمد بدر مطبعة المعارف مصر. بدون تاريخ
- البلاذري. الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. حققه عبد الله أنيس الطباع. وعمر أنيس الطباع. دار النشر للجامعيين. بيروت ١٩٥٧.
- بارتولد. تاريخ الحضارة الإسلامية. ترجمة حمزة طاهر. دار المعارف. مصر ط٢. ١٩٥٢.
- بانيكار. ل. م. آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. وزارة الثقافة. دار المعارف. مصر. ١٩٦٢م.
- الثعالبي. أبو منصور. عبد الله بن محمد بن اسماعيل. لطائف المعارف. تحقيق ابراهيم الإبياري. حسن كامل الصيرفي. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة. بدون تاريخ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: رسائل الجاحظ، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤م.
- الجاحظ.. الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده القاهرة ١٩٤٥
- الجابري. د. محمد عابد. العقل الأخلاقي العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ٢٠٠١
- جوهر. حسن محمد. وعبد الحميد بيومي. الصين. سلسلة مجموعة شعوب العالم (٢) دار المعارف. مصر بدون تاريخ.
- حسن، حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي الاجتماعي، (٤ أجزاء)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، (٥ أجزاء)، دار صادر، بيروت ١٩٥٥–١٩٥٧.
- حميدة، د.عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خير الأقطار، حققه إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، بيروت ١٩٨٠.
- حوراني. جورج فضلو. العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. بدون تاريخ.
- الخربوطلي، علي حسني: المسعودي، سلسلة نوابغ الفكر العربي ٢٨، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٨٠م.
- خصباك، د.شاكر: الجغرافية عند العرب، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.
- الخضري، محمد: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، القاهرة ١٩١٠.

- خورشيد، فاروق: أديب الأسطورة عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت – أغسطس ٢٠٠٢.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل. لطائف المعارف. تحقيق إبراهيم الإيباري. حسن كامل الصيرفي. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة. بدون تاريخ
- الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري (شيخ الربوة): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ١٢٨١هـ–١٨٦٥م.
- الدوري. عبد العزيز. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيوت ١٩٨٣
- ديورانت. ول. قصة الحضارة. عصر الإيمان. ترجمة محمد بدران الإدراة الثقافية في جامعة الدول العربية. القاهرة.
- الذهبي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد ين عثمان. دول الإسلام. تحقيق حسن اسماعيل مروة. دار صادر. بيروت. ١٩٩٩
- الزهري، أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٨.
- زيادة، نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٢.
- زيادة، نقولا: الرحالة العرب. سلسة ألف كتاب (٩٧). والقاهرة ١٩٩٦.
- زيادة. نقولا. مشرقيات. في صلات التجارة والفكر. رياض الريس. لندن. ١٩٩٨م.
- ستودارد، لوثروب (Lothrop Stoddoud): (شكيب أرسلان) حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية عجاج نويهض، بقلم الأمير شكيب أرسلان، (٤ مجلدات)، دار الفكر، بيروت ١٩٧١.
- زيتون. محمد محمود. الصين والعرب عبر التاريخ. سلسلة إقرأ ٢٥٣ – دار المعارف. مصر. بدون تاريخ.
- سهراب، أبو الحسن بن بهلول (القرن التاسع الميلادي): كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، مطبعة فيينا، ١٣٤٧هـ–١٩٢٩م، بإشراف مزيك حدة.
- سوسة، د.أحمد: الشريف الإدريسي، في الجغرافية العربية، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهري، بغداد ١٩٧٤.
- السيرافي، أبو زيد الحسن: رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩.
- الساداتي. د. أحمد محمد. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتها (جزءان) سلسلة ألف كتاب. مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة بدون تاريخ.
- الشهرستاني. الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. الملل والنحل. اعتنى أبو عبد الله السعيد المندوة. مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٩٤.
- شاخت، وبوزورث: تراث الإسلام، جزءان، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٧٨م.
- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥.
- صغير، بشير: الجغرافيون العرب، تعريب وتقديم حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.
- الصيني بدر الدين حي. العلاقات بين العرب والصين. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠.
- ضيف، شوقي: الرحلات، ط٤، دار المعارف، مصر ١٩٨٧م.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت ٣٠٠هـ–٩١٣م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١.
- طه نجم. وديعة. الجاحظ والحاضرة العباسية. مطبعة الإرشاد. بغداد ١٩٦٥
- طرخان، إبراهيم علي: دولة غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

- طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ الغربي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- طوقان. قدري حافظ. العلوم عند العرب. سلسلة ألف كتاب. ٤. مكتبة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- عثمان، د.شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي–عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت (١٥١)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠.
- العظمة، عزيز: العرب والبرابرة–المسلمون والحضارات الأخرى، رياض الريس، لندن ١٩٩١.
- علوي. س.م. ضياء الدين. الجغرافية العربية في القرن التاسع والعاشر الميلاديين تعريب وتحقيق. د. عبد الله يوسف الغنيم. د. طه الجاسر (نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بحلب)
- عويدات. حسين العرب والنصاري. الاهالي. دمشق ١٩٩٢
- العدوي. د.ابراهيم احمد. ابن بطوطة في العالم الإسلامي إقرأ ١٤٤. دار المعارف مصر ١٩٥٤
- الغرناطي، أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل–بيروت، ط٢، والآفاق الجديدة–المغرب، ١٩٩٣.
- فهيم، حسين محمد: أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة–١٣٨)، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٩.
- قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، (يلي كتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة)، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، بيروت–حلب، دون تاريخ.
- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (١٤ جزءاً)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٣.
- القفطي. جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم عبد الوهاب. اخبار العلماء بأخيار الحكماء. ليبسك ١٩٠٣
- كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٢م.
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس بوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٧م.
- كروزيه. تاريخ الحضارات العام (أربعة مجلدات). ترجمة أسعد داغر. وفريد داغر. منشورات عويدات بيروت ١٩٦٦
- لوبون غوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٦.
- لوبون غوستاف. حضارة الهند. ترجمة عادل زعيتر. دار إحياء الكتب العربية. لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة ١٩٤٨.
- لومبار موريس: الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧م.
- لويس. برنارد. العرب والتاريخ. ترجمة نبيه أمين فارس. والدكتور محمود يوسف زايد. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٤م.
- مؤنس حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين الأندلسيين، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٦م.
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جزءان، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة ١٩٤٨.
- مسكويه. ابو علي احمد بن محمد.كتاب تجارب الامم، نشره ف. امروز، القاهرة ١٩١٤–١٩١٥
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، جزءان، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٠م.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ج١، تحقيق عبد الله الصاوي، بيروت ١٩٨٠م.

- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جزءان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط٤، مصر ١٩٦٤.
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمدبن ابي بكر البشاري: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،طبع في مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٩٠٦،
- المروزي. الطبيب شرف الزمان طاهر. أبواب في الصين والترك والهند. طبع في بريطانيه العظمى من wheffer وأولاده في كمبرج. لندن ١٩٤٢.
- المقريزي، تقي الدين: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (خطط المقريزي)، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- المقريزي، تقي الدين: كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك، تحقيق جمال شيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١م.
- المقريزي، تقي الدين: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر الدكتور جمال الشيال، مصر ١٩٥٥..
- مصطفى شاكر. التاريخ العربي والمؤرخون. (ثلاثة أجزاء) بيروت ١٩٧٨
- ميكيل، أندريه: الإسلام وحضارته، ترجمة د.زينب عبد العزيز، بيروت ١٩٨١.
- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، (٤ أجزاء)، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣-١٩٩٥.
- مجموعة من المؤلفين. أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي. معهد الاستشراق. دراسات في تاريخ الثقافة العربية. القرن ٥ - ١٥. ترجمة أيمن أبو شعر. دار التقدم موسكو. ١٩٨٩م.
- العدوي. د. أبراهيم. ابن بطوطة في العالم الإسلامي. أقرأ. دار المعارف. مصر. ١٩٥٤
- نصار حسين: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة ١٩٩١.
- نمر. عبد المنعم. تاريخ الإسلام في الهند دار العهد الجديد. مصر ١٩٥٩.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٨ جزء)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، دون تاريخ.
- هارون، عبد السلام: تهذيب سيرة بني هشام، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.
- هويدي. فهمي. الإسلام في الصين. سلسلة عالم المعرفة ٤٣. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٨١.
- الهندي. د. إحسان. أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام. دار النمر. دمشق ١٩٩٣م.
- وات. مونتغمري. الفكر السياسي الإسلامي. ترجمة صبحي حديدي. دار الحداثة. بيروت. ١٩٨١
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب: تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار العراق، بيروت ١٩٥٥.
- يحيى. د. جلال. تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة. دار المعارف. مصر. بدون تاريخ.
- (ندوة)، "العرب وإفريقيا"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ١٩٨٧.
- مجلة الثقافة الهندية. تصدر عن الملحقية الثقافية. للسفارة الهندية. دمشق.
- مجلة دراسات تاريخية. دمشق
- عالم الفكر. الكويت.
- مجلة التسامح. عُمان

فهرس